دانيال كالدر

المكتبة الجهنمية

في أدبيات الديكتاتورية

ترجمة: مأمون الزائدي

دراسات فكرية



المكتبة الجهنمية

في أدبيات الديكتاتورية

مكتبة | 817
سُر مَن قرأ

عنوان الكتــاب: المكتبة الجهنمية - في أدبيات الديكتاتورية

اسـم المؤلــف: دانيال كالدر

اسـم المترجـم: مأمون الزائدي

المـوضــــوع: دراسات فكرية

عدد الصفحات: 406 ص

القيـــــاس: 17 × 24 سم

الطبعـة الأولى: 1000 / كانون الثاني 2021 م - 1442 هـ

ISBN: 978-9933-38-227-8





٢٠٢٢ ٣ ٨

سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963+

هاتــــف: 2326985 11 963+

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

دانيال كالدر

المكتبة الجهنمية

في أدبيات الديكتاتورية



ترجمة: مأمون الزائدي

نبذة عن المؤلف



ولد دانيال كالدر ونشأ في فايف، إسكتلندا. وفي عام ١٩٩٧، انتقل إلى موسكو في روسيا، وقضى الجزء الأكبر من العقد التالي في العمل والعيش والسفر في أنحاء الاتحاد السوفييتي السابق.

أدت هذه التجربة إلى كتابين **رائد الفضاء الضائع** ٢٠٠٦، **والتلسكوبات الغريبة** (٢٠٠٨) وإثارة شغفه بكتابات الطغاة، الذي بلغ ذروته في هذا الكتاب **المكتبة الجهنمية** (٢٠١٨)، الذي تحمله بين يديك. وبالإضافة إلى ذلك، كتب كالدر ونشر في العديد من الصحف حول العالم، كما كتب وقدم لراديو بي بي سي. ثم انتقل إلى أوستن، بولاية تكساس.

عن المترجم

مأمون الأمين الزائدي.

كاتب ومترجم. من مواليد مدينة طرابلس- ليبيا. صدرت له رواية قصيرة بعنوان **رمل أزرق** عن دار نينوى للدراسات والنشر ٢٠١٩، كما صدر له عدد من الأعمال المترجمة منها:

١ - **حديقة استوائية**: أوليف سنيور- سلسلة إبداعات عالمية. الكويت

٢- **ليل الصليب المعقوف**: رواية للكاتبة البريطانية كاثرين بوردكين. دار إلكا.

٣- **سيرة ذاتية للأحمر**: آن كارسون -دار نينوى للدراسات والنشر.

٤- **بضع جمل قصيرة عن الكتابة**: - فيرلين كلينكنبورغ- دار نينوى للدراسات والنشر.

٥- **ترجمات أدبية**. منشورات موقع بلد الطيوب الثقافي الليبي.

٦- **الفارس**: مختارات من أعمال الكاتب الروسي دانيال خارمس- دار هن للنشر.

٧- **قصة أسناني**: رواية للكاتبة المكسيكية فاليريا لوزيلي. موقع بلد الطيوب الثقافي.

٨- **ركن التأمل**: رواية للكاتبة الأمريكية جيني أوفيل. دار مدارك للنشر.

٩- **مغادراً محطة أتوتشا**: للشاعر الأمريكي بن ليرنر، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع.

١٠ - **إصلاح آنا كارنينا**: للكاتبة البريطانية فيف غروسكوب. دار مدارك للنشر.

١١ - **الخيمة الحمراء**: أنيتا ديامنت. دار الرافدين للنشر.

ويعمل حالياً على عدد من المشاريع الأخرى..

المحتويات

إلى ليون وآني هندرسون

شكر وتقدير

إن المكتبة الجهنمية هي نتاج للعمل والبحث على مدار سنوات عديدة. وعلى طول الطريق ساعدني عدد من الأشخاص الرائعين في نقلها من عالم الأفكار غير المعقولة إلى واقع ملموس. ولكي أصنع مثل هذا الكتاب، فقد احتجت إلى دعم الأشخاص ذوي الرؤية، وهم قليلون في أي عصر. وكنت محظوظاً بما فيه الكفاية للعثور على العديد منهم.

أولاً، يجب أن أشكر سارة كراون، المحررة السابقة الملهمة لصفحات الغارديان على الإنترنت، التي قبلت اقتراحي بكتابة سلسلة من المدونات حول الكتب التي كتبها الديكتاتوريون، ما أدى إلى بدء سلسلة الأحداث، التي أدت إلى ظهور هذا الكتاب. لم أكن أعرف ما كنت أُدخل نفسي فيه. بعد ذلك، يجب أن أشكر آرون شليختر، الذي لم يربطني فقط بالوكيل الرائع جيم روتمان، بل قام أيضاً بزراعة بذرة حيوية في هولت. لقد جعلني جيم أفكر بعمق في الشكل والمضمون النهائي للمكتبة الجهنمية أثناء مرحلة الاقتراح، ومنع الكثير من البكاء وصرير الأسنان بمجرد بدء العمل بجدية. ليس ذلك فحسب، بل قام بتوجيهي بخبرة إلى يد سارة بولين، التي أثبتت أنها محررة متحمسة ومتعاطفة. التقط مايكل سينيوريلي العصا من سارة عندما غادرت إلى الساحل الغربي، وقام بعمل رائع في إعداد هذا الكتاب للعالم. بالإضافة إلى ذلك، فأنا أشكر أيضاً جيم غيل من يونايتد إيجنتس؛ أليكس كريستوفي وجون بنتلي سميث في زن وورد؛ مايك هاربلي وهنري جيفريز، وكلاهما سابقاً في ون وورد؛ ناهيك عن براين إيغان. كنين اجاي كيلي س. العالم والسيد نيك وايت؛ وكاميلا هورنبي، التي كان لها دور كبير في إطلاق مسيرتي المهنية كمؤلف منذ أكثر من عقد من الآن.

ولكن انتظر فهناك المزيد:

ساعد كل هؤلاء الأشخاص في جعل "المكتبة الجهنمية" حقيقة، حتى لو لم يكن عدد منهم على علم بها في ذلك الوقت: مارك بينيتس، وإرين أوسترهاوس، ولينكا دوسكوفا، وكاسبر بوبوكوكي، وبيوتر سيميون، وماشا تيموفيفا، وإد ناووتكا، وفاديم ستاكلو،

فيكتوريا ماك آرثر، أندرو جولد، سكوت شتاين، سيما بالامان، البتكين تانير، جو ديفيس، ماريانو مامرتينو، مارك أدلر، سيميون ستانكفيتش، ماشا ليبمان، ساندي كارسون، كريج بوروفسكي، دانييل هاريس، نانسي همفريز، ناثانيل همفريز، جوي همفريز، روي همفريز، إليزابيث همفريز. هناك الكثير من الأشخاص الذين يجب ذكرهم أثناء الفترة التي قضيتها في موسكو. أشكرهم، وبالمثل، أنا ممتن لشركة ستار كوفي في راوند روك، تكساس، ولموظفي المكتبات في جامعة تكساس، أوستن. أخيراً، أبدت عائلتي صبراً استثنائياً وأنا أدس نفسي في دراسة أسوأ الكتب في العالم. الآن يتم ذلك حقاً.

أوستن-ليندر-جورج تاون-راوند روك، ٢٠٠٩-٢٠١٧.

آمين.

في حين أن ليس هناك ما هو أسهل من إدانة الأشرار، فلا شيء أكثر صعوبة من فهمهم.

فيودور دوستويفسكي

الكاتب هو مهندس الروح البشرية.

جوزيف ستالين

أنا لست كاتباً.

أدولف هتلر

المقدمة: التقليد والطاغية الفرد

هذا كتاب عن أدبيات الديكتاتورية - بمعنى أنه كتاب عن شريعة الأعمال المكتوبة أو المنسوبة إلى الديكتاتوريين. وعلى هذا النحو، فهو كتاب عن بعض أسوأ الكتب التي تمت كتابتها على الإطلاق، وكذلك فإن البحث فيها كان مؤلماً بشكل لا يطاق.

هذا هو السبب وراء قيامي بكتابته.

منذ أيام الإمبراطورية الرومانية، كتب الديكتاتوريون[1] كتباً، ولكن في القرن العشرين حصل بركان من اللغة الاستبدادية يشبه ثوران كراكاتوا، استمر في التدفق حتى يومنا هذا. كتب العديد من الطغاة أعمالاً تنظيرية، وأنتج البعض بيانات روحية، بينما ظل آخرون يكتبون الشعر والمذكرات أو حتى الرواية الرومانسية التصادفية. وفي الواقع، إن الكتاب الأكثر مبيعاً على الإطلاق والذي يُنسب إلى رجل وليس إلى إله،: **اقتباسات من الرئيس ماو تسي تونغ**. ومع ذلك، فإن معظم هذه الكتب غير مقروءة تماماً اليوم، أو يتم التعامل معها على أنها نكات، على الرغم من حقيقة أن مؤلفيها تمتعوا في وقت ما بعدد طبعات قياسي، وجماهير أسيرة (حرفياً) وإشادة المثقفين الذين لا بد أنهم كانوا يعرفون ما هو أفضل. نظراً لأن العديد من المؤلفين كانوا معروفين، فإن الاختفاء شبه الكامل لنصوصهم وما تلاه من عدم اهتمام بها قد أثار دهشتي. بالتأكيد كان الأمر يستحق إلقاء نظرة فاحصة على هذه الأعمال؛ فربما كانت تقدم نظرة بصيرة بالروح الديكتاتورية. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فربما لا تزال تخدم المؤرخ كبوابات لولوج عوالم من المعاناة، وتقدم لمحة عن الملل الفائق والشديد للشمولية، وهي حالة عانى منها مئات الملايين من الناس لأجيال.

يعيش الطغاة، عادة، حياة غنية بالتجربة. فهم يحوزون السلطة على حياة وموت الملايين ويعيشون في كثير من الأحيان كالآلهة الصغار - طالما أمكنهم مواصلة ذلك على أي حال. وبالتأكيد فإن حياتهم أكثر إثارة للاهتمام من حياة معظم المؤلفين. فمع كل هذه القوة والمعرفة

---

١ - ملحوظة: أستخدم مصطلح الديكتاتور هنا وفي كل أجزاء الكتاب بمعناه المفهوم على نطاق واسع بأنه الزعيم الذي ليس مولعاً جداً بالانتخابات الحرة، ولكنه حريص جداً على اتباع طريقته الخاصة. المؤلف

الفريدة، ينبغي أن يكون الديكتاتور، حتى في بلد صغير وغير مهم من الناحية الجغرافية السياسية، في وضع يسمح له بكتابة كتاب مثير للاهتمام، وإن كان بالصدفة على الأقل. ولكن لنتمهل، إنهم دائماً ما ينتجون هراء مخدراً للعقل، أردت أن أعرف السبب وراءه.

أدهشتني حقيقة أن العديد من الطغاة بدؤوا مسيرتهم المهنية ككتّاب، وهو ما قد يقطع شوطاً طويلاً نحو شرح قناعتهم المصابة بجنون العظمة عن الأهمية الهائلة لأفكارهم. لقد لاحظت أيضاً أن الشريعة الديكتاتورية كانت شيئاً حقيقياً: كان طغاة القرن العشرين على دراية بما يقوله ويفعله نظراؤهم، وغالباً ما كانوا على دراية بالنصوص الرئيسية لبعضهم البعض. وهكذا أنشأ الأدب الديكتاتوري تقليداً خاصاً به، تماماً كما وصف ت.س إليوت في مقاله البديع "التقليد والموهبة الفردية"، مجرد أنه أكثر مللاً لا ينتهي. قد تمكنني الدراسة العميقة لأعمال الطغاة من رسم خريطة لأراضي الروح القفر المدمرة مع استكشاف الأشياء الفظيعة التي تحدث عندما تضع المؤلفين في موضع المسؤولية.

ينظر الكثير من الناس إلى الكتب والقراءة على أنها إيجابية بطبيعتها، كما لو أن مجاميع الورق المدمج مع الحبر، في حد ذاتها تمثل "دواءً قوياً للروح فريداً من نوعه". ومع ذلك، فإن التأمل للحظة يكشف أن هذا ليس صحيحاً إلى حد ما: يمكن للكتب والقراءة أن تسبب ضرراً كبيراً أيضاً. لنأخذ مثالاً واحداً فقط: لو أن والدة ستالين لم ترسله أبداً إلى المدرسة، لما تعلم أبداً القراءة، ولما اكتشف أبداً أعمال ماركس أو لينين. وبدلاً من ذلك كان من الممكن له أن يكون رجلاً مخموراً مثل والده، أو ربما رجل عصابات صغير في تبليسي. كان باستطاعته نشر البؤس، ولكن على نطاق أصغر بكثير - وربما كان القرن العشرون أقل فظاعة نتيجة لذلك. وبالمثل، إن الاصطدام بين المستويات المتزايدة لمحو الأمية والكتب المقدسة للبشرية، لم يؤدّ إلى انتشار جماعي لأشخاص يركزون على الأجزاء المسالمة مقابل استبعاد العناصر العدوانية. بل على العكس من ذلك، يجد الكثير من الناس أن العناصر العدوانية ملهمة للغاية، وتلا ذلك الكثير من عمليات القتل والقمع كنتيجة محتومة.

إن معرفة القراءة والكتابة هي نقمة كما هي نعمة، وتستحق الكتب الديكتاتورية الدراسة بشكل خاص في هذا السياق على عكس الكتب المقدسة، التي تلهم الأعمال الصالحة والشريرة، لأن تأثير الكتب الديكتاتورية سلبي بالكامل تقريباً، وهي توضحّ بشكل نقي

وبصورة جلية، كيف يمكن أن تكون الكتب سيئة. إن ميراثها أقل اختلاطاً بكثير من ميراث الأعمال الدينية.

أخيراً، لقد قمت بذلك لأنه لم يقم به أحد. رأيت الجبل. وتسلقت الجبل. وفي الوقت الذي صرت فيه في منتصف الطريق تقريباً، كان الوقت قد تأخر جداً للعودة إلى أسفل.

ما لم أتوقعه، هو مدى تغير العالم أثناء كتابتي لهذا الكتاب. فعندما بدأت في كتابة مقالات قصيرة عن الأدبيات الديكتاتورية لصحيفة الغارديان في عام ٢٠٠٩، كانت العديد من الأنظمة المتحجرة التي تعود إلى الحرب الباردة لا تزال قائمة، وشعرت أنني كنت أصف ظاهرة تاريخية إلى حد كبير. ثم جاء الربيع العربي عام ٢٠١١، وللحظة وجيزة أخذ السياسيون والصحفيون ومنتجو مراكز البحوث يتكلمون ويكتبون بسذاجة خلابة، كما لو أن حقبة جديدة من الحرية والديمقراطية قد أطلت، حيث صارت الديكتاتوريات تنقل إلى مزبلة التاريخ. لم أصدق هذا للحظة -فالأنظمة الاستبدادية أكثر شيوعاً بشكل كبير من الديموقراطيات الليبرالية - لكنني ظننت أن هذا الكتاب، الذي كان في تلك الفترة في مراحله المبكرة، قد يكون ولد ميتاً. وسيستغرق الأمر بعض الوقت قبل بدء رد الفعل المضاد، كي يجعل موضوعي في الوقت المناسب مرة أخرى.

وكم كنت مخطئاً: فرد الفعل المضاد بدأ على الفور تقريباً. وقام الحكم الاستبدادي بعودة مذهلة في الشرق الأوسط، مع تعميق قبضته في تركيا وروسيا، وكان ممسكاً بشكل جيد في الصين وإيران والمملكة العربية السعودية وعدد من البلدان الأخرى غيرها. مساحات شاسعة من الإنسانية أصبحت أقل حرية. بحلول الوقت الذي وصلتُ فيه إلى نهاية الكتاب، كان من الواضح أن شيئاً ما يثير الأعصاب يحدث في الديموقراطيات الليبرالية في الغرب أيضاً، لقد دخلنا عصر التفكك الذي لم نعد نطيق فيه الرضا عن نظام ما بعد الحرب الباردة. لقد دخل جيل بلا ذكرى مرحلة البلوغ بعد نصف قرن من جنون العظمة والخوف؛ كان السياسيون والأيديولوجيون المناهضون للمؤسسات يتحدون الطبقات الحاكمة بثقة متزايدة. حتى الأفكار الهامشية كانت تسير في الاتجاه السائد. كانت القومية تعود. كان الثوريون يتقاذفون كلمة **الاشتراكية** كما لو كانت شيئاً مثيراً لم يتم تجربته من قبل؛ وكان بعض أعضاء النخبة، الذين شعروا بالرعب من ثورة الطبقات الشعبية، يتساءلون علانية عن الديمقراطية.

باختصار، بدأ كل شيء يلوح وكأنه اللحظة التي بدأ فيها كل شيء يسير خطأً بشكل رهيب في القرن العشرين. بعد قولي هذا، لم أستطع التخلص من الشعور بأن الشعوبيين والأيديولوجيين والثوريين في هذه الحقبة، كانوا أقل قراءة بكثير من قرون مضت. لم يظهر أنهم يدركون أن الكثير من حججهم وأفكارهم لم تكن جديدة، كما يبدو أنهم لم يكونوا على دراية كبيرة بتفاصيل جميع التجارب الاشتراكية والسياسية العجيبة التي فشلت بالفعل بشكل سيء للغاية.

بعيداً عن أن يولد ميتاً، بدأت الآن أرى موضوعات كتابي تتكشف من حولي. وبينما أكتب هذه الكلمات، فإن هذا هو المكان الذي نقف فيه إلى حد كبير اليوم.

هذه قصة كيف حدث كل شيء لأول مرة.



المرحلة الأولى:
شريعة الحاكم

١- لينين

فلاديمير لينين، مؤلف وعقل مدبر ثوري كان يحب إطلاق النار على الكهنة

وُلد لينين، ، باسم فلاديمير إيليتش أوليانوف[1] في عام ١٨٧٠ في سيمبيرسك، وهو مركز إقليمي في منطقة جنوب الفولغا ذات الخواء الروسي الشاسع الذي لا يمكن تحمله. تم إنشاء هذه القلعة القديمة قبل قرن من الزمان كحصن ضد القبائل الوثنية على حدود الإمبراطورية، لكنها أصبحت الآن مكاناً ساكناً، ومجهزاً بكنيسة ومدارس ومصانع وطبقة من النبلاء المحليين ينتفعون من عمل المزارعين الأجراء.

كان ألكساندر أوليانوف، المفتش المحلي للمدارس، أحد هؤلاء النبلاء المحظوظين. وكان محظوظاً أيضاً، لأن ابنه الأصغر، فلاديمير كان شاباً متديناً مجتهداً مخلصاً للقيصر. كان جيداً في اليونانية واللاتينية والشطرنج، ومولعاً جداً بالكتب، ويفضّل على وجه الخصوص كوخ العم توم لهاربيت بيتشر ستو.

كان لمنطقة جنوب الفولغا تاريخ من التمرد - فقبل قرن من الزمان أعلن فلاح يدعى يمليان بوغاتشيف نفسه قيصراً، وقاد انتفاضة مسلحة ضد كاثرين العظمى -لكن لا أحد يبحث عن زعيم ثوري محتمل يمكنه أن يحول مجرى التاريخ. كان سيحملق مرتين في ذلك الصبي ابن مفتش المدرسة. لقد بدا مهيأً لمهنة مستقرة ومحترمة في عمل مستقر ومحترم - كمحام مثلاً. في الواقع، أصبح لينين نفسه "نبيلاً" بشكل رسمي في سن الخامسة عشرة، حيث ورث المقام بعد وفاة والده في عام ١٨٨٦. وبعد عام، حاول أخوه الأكبر، المسمى

١ - استخدم لينين عدداً من الأسماء المستعارة خلال حياته. ولغرض الوضوح سأستخدم اسم لينين خلال كامل الكتاب. المؤلف

ألكساندر أيضاً، تفجير ألكساندر آخر، هو القيصر ألكساندر الثالث، وتلاشى ذلك المستقبل المحتمل كعضو بارز في البرجوازية المحلية.

ظن شقيق لينين أنه بقتل القيصر، يستطيع أن يجبر روسيا المتخلفة والإقطاعية الطاغية على الاقتراب من الثورة، مستهلاً حقبة جديدة من الحرية والعدالة. بالطبع، كانت هناك بعض المشاكل في هذه الاستراتيجية، وأهمها عدم وجود أي دليل عملي على أنه يمكن أن ينجح. فبعد كل شيء، لم تستهل الثورة الفرنسية، ولا أي من الثورات الأخرى التي حدثت في أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر، عصوراً من الإصلاح المجيد، ناهيك عن اليوتوبيا. وعلى العكس من ذلك، فقد أسفرت عن فترات من الرعب والقمع المستمر للثورة. أما بالنسبة إلى روسيا، فقد ألغى القيصر السابق، ألكساندر الثاني، القنانة في عام ١٨٦١، ثم تابع مسار الإصلاح الاجتماعي والسياسي المعتدل لمدة عقدين من الزمن. لكن هذا لم يكن كافياً بالنسبة إلى المنظمة الإرهابية الأكثر شهرة في روسيا، "إرادة الشعب"، التي طالبت بالمزيد وبصورة أسرع، مع تكريس قدر كبير من العزم لإيجاد طرق لقتله. وفي النهاية نجحت: تمزق القيصر أشلاء جراء قنبلة ألقاها أحد أعضاء "إرادة الشعب" في ١ آذار / مارس١٨٨١، في نفس اليوم الذي وقّع فيه إعلاناً عن تشكيل لجنتين تشريعيتين تتألفان من ممثلين منتخبين بشكل غير مباشر.

بعد اغتيال ألكساندر الثاني، لم يثر الشعب، وتبع خليفة القيصر، ألكساندر الثالث، مساراً من ردود الفعل والقمع، والاعتقالات وعمليات إعدام متعددة لاحقاً، ولم تعد إرادة الشعب موجودة. وبغض النظر عن ذلك، فقد اعتقد ألكساندر أوليانوف أن أفضل طريقة لإحداث ثورة، هي تكرار المحاولة الفاشلة السابقة، وانضم إلى مجموعة زعمت أنها استمرار لإرادة الشعب. طغت الرغبة الرؤيوية -القيامومية في التغيير الجذري والفوري على التعقّل، وللأسف بالنسبة إلى ألكساندر أوليانوف، فقد طغت أيضاً على أي شعور بالدقة أو الاستراتيجية أو أفضل الممارسات التآمرية العامة. فمما لا شك فيه أنها كانت تبدو فكرة مسلية في ذلك الوقت: تفجير ألكساندر الثالث في الذكرى السادسة لتفجير ألكساندر الثاني، حتى لو كان من المعقول أيضاً توقع أن تكون أوخرانا، الشرطة السرية للقيصر، في حالة تأهب قصوى في ذلك اليوم. وهكذا تم التخطيط لاغتيال ألكساندر الثالث في الثالث عشر من آذار / مارس عام

١٨٨٧[1]، قام ألكساندر أوليانوف بالعمل الواجب على القنابل، ولكن حلمه الكبير بتحويل القيصر إلى كومة مدخنة من العظم واللحم المحروق لم يكن ليصبح حقيقة عندما كشف أوخرانا المؤامرة، وألقي القبض على ألكسندر أوليانوف ومتآمريه قبل أن تُقذف قنبلة واحدة.

أبدى النظام رحمة تجاه معظم الإرهابيين المحتملين، باستثناء أوليانوف، الذي أعلن مسؤوليته ليس فقط عن المتفجرات، بل بالغ أيضاً في دوره كقائد لمحاولة الاغتيال من أجل إنقاذ رفاقه. فأثناء المحاكمة، ذهب إلى حد إعلان أن قوانين العلم والتطور جعلت الإرهاب أمراً لا مفر منه، وأنه لم يكن خائفاً من الموت من أجل القضية. وقد جرّمته المحكمة: وتم شنقه.

وبعد ذلك بفترة قصيرة، بدأ لينين، تلميذ المدرسة المجتهد، بتجميع ذاته الجديدة من الأعمال المحظورة التي كانت تصطف على رفوف مكتبة شقيقه.

* * *

كان لروسيا تقاليدها الراديكالية الخاصة، وقد قرأ لينين أعمال الثوار الأصليين قبل اكتشافه ماركس. فيما يلي بعض الحركات والمفكرين الذين أثروا فيه:

الشعوبية: الاعتقاد السائد بين المثقفين الثوريين في روسيا في الستينيات والسبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، بأن خلاص الأمة يعتمد على انتفاضة الفلاحين. في ١٨٧٣-١٨٧٤، مدفوعين بدافع مسيحاني (وتنازلي)، أصبح الآلاف من أعضاء المثقفين الشبان شعوبيين، و"ذهبوا إلى الناس" في حملة صليبية لرفع وعي المتوحشين النبلاء، وكذلك أيضاً التحريض على الانتفاض. يعتقد بعض الشعوبيين أيضاً أن الخلاص الوطني يمكن تسريعه عن طريق تناول الخبز الأسود، وارتداء ملابس الفلاحين، والعيش بينهم واعتماد تقاليد مجتمع الفلاحين. في الواقع، كانت أنماط الحياة الريفية القديمة تتفكك بالفعل، وغالباً ما كان الفلاحون، الذين انزعجوا من هذا السلوك الغريب لرؤسائهم الاجتماعيين، عدائيين تجاه الشعوبيين. وبدلاً من الانتفاضة، ردوا إما

---

١ - وفقاً للتقويم الغريغوري، - أي أنه وفي روسيا في القرن التاسع عشر، حيث كان التقويم اليولياني لا يزال قيد الاستخدام، وهكذا بالنسبة إلى ألكساندر أوليانوف ومتأمريه، كان التاريخ الذي اختاروه صاحب الصوت الأكثر شاعرية وكان الأول من مارس. المؤلف

باللامبالاة أو أبلغوا الشرطة عن الثوار الشباب. ولشعورهم بخيبة أمل، تحول بعض الشعوبيين إلى العنف كوسيلة لتسريع الثورة.

سيرجي نيتشيف: في عام ١٨٦٩، أسس نيتشيف "القصاص الشعبي" (أو "جمعية الفأس")، وهي منظمة ثورية تستند إلى مفهومين رئيسيين: أولاً، أن القائد محق تماماً في كل شيء طوال الوقت، وثانياً، أن ليس في اليوم والليلة (عند الثوري) سوى فكرة واحدة، وهدف واحد - هو التدمير بلا رحمة. "قام نيتشيف بعد ذلك بخنق وإطلاق النار على عضو غير مخلص بما فيه الكفاية في منظمته المجهرية، معتقداً أن هذا من شأنه أن يربط أولئك الذين ظلوا معه ويجعلهم أكثر قرباً. لكن بدلاً من ذلك، انهار القصاص الشعبي، وتوفي نيتشيف في السجن، بعد أن رفض على نطاق واسع باعتباره مجنوناً وقاتلاً، ومع ذلك، فقد نجا كتابه "**تعاليم ثورية** (١٨٦٩)"، الذي شارك في تأليفه مع المنظِّر الأناركي ميخائيل باكونين، كنص ملهم للراديكاليين الذين غلبت عليهم العدمية الرومانسيّة -"الثوري رجل محكوم عليه بالفشل". ليس لديه مصالحه الخاصة، لا علاقات، ولا ارتباطات، ولا ممتلكات، ولا حتى الاسم. يستوعب كل شيء فيه اهتمام حصري واحد، وعبر مفهوم كلي، "ثورة بكل شغف" -والتفاني التام لفكرة أن أي وسيلة هي مبررة طالما أنها تسّرع نهايات الثورة كما عبر عنها هذا المبدأ:

> الأخلاقي هو كل ما يساهم في انتصار الثورة. أما غير الأخلاقي والإجرامي فهو كل ما يقف في طريقها.

بيوتر تكاشيف: صاحب تأثير فكري على إرادة الشعب ومتعاون في وقت ما مع نيتشيف، تمت الإشارة إلى تكاشيف على أنه "البلشفي الأول" بسبب حماسه للثورة في أقرب وقت ممكن، وإصراره على أن روسيا كانت أكثر ملاءمة للثورة من أوروبا الغربية، وإيمانه بأنه في أعقاب الثورة، يجب أن يحكم البلد طغمة ديكتاتورية يديرها ثوريون يقومون بقمع المعارضة بلا رحمة عن طريق العنف -وكل هذا سيحدث في نهاية المطاف تحت حكم لينين بالطبع.

كما دعا إلى "التسوية الكاملة لجميع الناس في قدراتهم الأخلاقية والفكرية" من أجل إنهاء المنافسة وعدم المساواة في النتائج بين الناس. الساحر دوماً، بعد فترة قضاها في السجن، أخبر

تكاشيف أخته أن على كل شخص فوق سن الخامسة والعشرين أن يقتل، لأنهم غير قادرين على التضحية بأنفسهم.

نيكولاي تشيرنيشيفسكي، صحفي مكرس للدعوة للاشتراكية والديمقراطية وحقوق المرأة والأقليات وغيرها من القضايا الراديكالية (في الوقت الحالي)، كتب تشيرنيشيفسكي روايته السياسية **"ما العمل؟"** في العام ١٨٦٣، وهو سجين في قلعة بيتر وبول بسانت بطرسبرغ. سمحت السلطات الرقابية الإمبراطورية بنشرها في ظل عدم خوفها الواضح من شخصيات القصة الخشبية ونزعتها التعليمية المضجرة. وفقاً للمؤرخ أورلاندو فيجز، كان هذا "واحداً من أكبر الأخطاء التي ارتكبها الرقيب القيصري على الإطلاق: لقد حولت الرواية عدداً أكبر من الناس إلى قضية الثورة أكثر مما فعلت جميع أعمال ماركس وإنجلز مجتمعين". وكان تقبل القراء للرواية شديد الحماسة، بحيث أن ناقداً متحمساً واحداً على الأقل قارن تشيرنيشيفسكي بيسوع، بينما درس ماركس نفسه اللغة الروسية حتى يتمكن من قراءة الكتاب والتوافق مع مؤلفه. لقد أعجب لينين بـ"ما العمل؟"، حتى إنه قرأها خمس مرات في صيف واحد، وظل يحتفظ بصورة لتشيرنيشيفسكي في محفظته. كان قد استلهم بشكل خاص من الانضباط الذاتي الرهباني المتقشف شخصية واحدة هي: رحمتوف الثوري الفائق. ذلك الزاهد الذي تخلى عن جميع وسائل الراحة البدنية والملذات الأنانية وعاش فقط من أجل القضية. يحمل الأثقال ويأكل اللحم النيئ، حتى إنه ينام على فراش من المسامير ليصرف نفسه عن اشتهاء أرملة مغرية. تخلى لينين عن لعبة الشطرنج والموسيقى ودراسة اللغات الكلاسيكية وشرع برفع الأثقال. ربما يكون قد تخطى جزء النوم على سرير المسامير، لكنه بخلاف ذلك كان يوافق مع رحمتوف: الثورة كانت كل شيء.

وهكذا، بطريقة بورخيسية للغاية -لكن من دون أي من السخرية أو المهارة أو المرح - اخترق إبداع تشيرنيشيفسكي العالم المادي وصار **"ما العمل؟"** مثل **"طلين، أوقبار، أوربيوس، ترتيوس"**[1] لاشتراكية القرن التاسع عشر، يعيد صنع الحياة، يتنفس الناس على صورة شخصياته ثنائية الأبعاد. تماماً مثلما أخذ الكوكب الخيالي الذي ابتدعه مجتمع سري في حكاية بورخيس

---

١ - عنوان قصة لخورخي لويس بورخيس من مجموعة **حديقة الطرق المتشعبة.** ١٩٤٤ - المترجم

الفانتازية يحل تدريجياً محل الواقع، فقد أعاد لينين، المصاب بفيروس كلمة تشيرنيشيفسكي، إعادة بناء نفسه على صورة شخصية وهمية خيالية، ليصبح إلهاً حياً مجسداً للثورة.

في الوقت الذي بدأ فيه لينين حضور كلية الحقوق بجامعة قازان في خريف عام ١٨٨٧، كان بالفعل قد صار متطرفاً ذاتياً، بعد أن جمع هوية جديدة من الأفكار التي وجدها في مجموعة متنوعة من الكتب ، رجل كأحجية تم تجميعه من قطع من النصوص المتواضعة والخطيرة. لم يدم طويلاً كطالب في قازان. وطُرد قبل نهاية العام لمشاركته في الاحتجاجات، وكان مضطراً للعودة إلى نعيم أمه في كوكوشكينو، حيث عمّق معرفته بالأدب الراديكالي. في عام ١٨٨٩ قرأ **رأس المال** لأول مرة. وفي تلك السنة نفسها، انتقلت العائلة إلى مكان آخر في الجنوب، حيث حول لينين انتباهه إلى ترجمة النص الثوري الأسمى لمن هم في عمره، ولكل الأعمار - **البيان الشيوعي** لماركس وإنجلز.

* * *

أعلن العديد من المؤلفين في القرن العشرين أنفسهم تلاميذ ماركس الفكريين، وهذا - بصورة مفهومة - كان مصدراً مستمراً لغضب الماركسيين والمتعاطفين مع ماركس اليوم. إنهم يفضلون أن يتذكروا حكيمهم بسبب نقده للرأسمالية، وليس للأربعة والتسعين مليون جثة التي تسبب بها الطغاة مستشهدين بنصوصه باعتبارها مصدر إلهامهم[1].

من الصحيح، بالطبع، أنه لا توجد "الماركسية" المتجانسة، بل هناك "الماركسية" المنافسة، بنفس الطريقة التي توجد بها إصدارات مختلفة من المسيحية أو الإسلام أو الفرويدية. وبالتالي، بدلاً من الانخراط في محاولة غير مجدية لإسقاط "الماركسية" الرسمية، قد يكون من المفيد أكثر ملاحظة أن الفرق الأكثر أهمية بين نبي القرن التاسع عشر ومفسريه في القرن العشرين مثل لينين أو ستالين أو ماو، هو أنه كان على عكسهم، وكان خاسراً عملاقاً.

تأمل على سبيل المثال أنه عندما توفي كارل ماركس في عام ١٨٨٣، حضر جنازته أحد عشر شخصاً فقط. ربما كان هناك عدد قليل آخر قد ظهر لو لم ينفّر معظم الحركة العمالية الدولية بأسلوبه الديكتاتوري وغير الكفء في القيادة. لقد أمضى ثلاثة وثلاثين عاماً قبل وفاته

---

١ - عدد القتلى حسب تقديرات محرري كتاب **الشيوعية الأسود**. المؤلف

وهو يعيش في المنفى مع أسرته في لندن، متسولاً المال من مناصره صاحب ملكية المصنع فريدريك إنجلز، بينما فشل، على مدار أكثر من عقدين من الزمن، في إكمال رائعته **رأس المال**. لم يحاول أبداً الحصول على وظيفة منتظمة، حتى عندما مات ابنه الرضيع على صدر زوجته. وانتشرت الدمامل البشعة في أنحاء جسده، وحملت منه خادمته[1]، وأهدر كميات هائلة من الطاقة في التشاجر مع الاشتراكيين المتنافسين، وتنبأ مراراً وتكراراً بالثورة القادمة بكل شغف وعدم مبالاة بتأكيد أحد المبشرين الإنجيليين على النبوءات الموجودة في سفر الرؤيا.

لم يكن الأمر هكذا دائماً، وفي منتصف عام ١٨٤٨، عندما نشر ماركس وإنجلز **البيان الشيوعي**، بدا التاريخ لفترة وجيزة وكأنه يسير في طريقه. بين ذلك العام وعام ١٨٥١، هزت العديد من الملكيات الأوروبية سلسلة من الانتفاضات والثورات. كتب ماركس: "هناك شبح يطارد أوروبا، إنه شبح الثورة". خلال هذه الفترة، انغمس في تخيلات قوية جامحة، وأخذ يحلم بالقصاص الرهيب الذي سيطبق قريباً على البرجوازية -الفئة التي كان عضواً فيها، دون حاجة للتذكير بذلك. وكتب مخاطباً الحكومة البروسية في عام ١٨٤٩ "نحن بلا رحمة ولن نرأف بكم. عندما يحين دورنا، لن نخفي إرهابنا".

تنبأ إنجلز، في العام نفسه، بأن الحرب العالمية القادمة "لن تؤدي فقط إلى اختفاء الطبقات والسلالات الرجعية من على وجه الأرض، بل إلى اختفاء شعوب رجعية بأكملها أيضاً." وهم الإبادة الجماعية للملاعين وهم ينالون عقوبتهم الأخيرة في رؤيا فائقة العنف كان كما كتب إنجلز، "خطوة إلى الأمام".

في هذه الأثناء، أعرب ماركس عن أمله في أن يتمكن من تحقيق الرؤية المثيرة الموضحة في **البيان الشيوعي**، المتمثلة في زراعة الأراضي البور وتركيز جميع الاتصالات في نظام تلغراف بريدي تديره الحكومة. نعم، لقد كتب في الواقع عن ذلك، لكن من السهل جداً أن ننسى الأجزاء المملة - ومعظم الناس يفعلون ذلك - لأن هنالك أيضاً كل هذه الأشياء المثيرة حول انتزاع كل رأس المال من البرجوازية وإلغاء الملكية الخاصة والأسرة البرجوازية، واختفاء الفوارق بين الأمم والشعوب.

---

١ - وهكذا أنتج ابناً، لكن ماركس رفض الاعتراف به. المؤلف

في الواقع، ومع ترك لحظات الإسفاف جانباً، فإن **البيان الشيوعي** فاتن جداً: في تعامله المحموم في التأكيد على كونها حقيقة، أي شيطنته الساخطة للبرجوازية، والرعب إزاء القوة التحويلية للرأسمالية، والاقتناع الساحق بأن التغيير قادم، على إرادة ماركس وإنجلز المكشوفة للسلطة وتأييدهما العلني للعنف السياسي، على سبيل المثال:

> يستنكف الشيوعيون من إخفاء وجهات نظرهم وأهدافهم. ويعلنون صراحة أن أهدافهم لا يمكن تحقيقها إلا من خلال الإطاحة القسرية بجميع الظروف الاجتماعية القائمة. لندع الطبقات الحاكمة ترتجف من الثورة الشيوعية. ليس للبروليتاريا ما يخسرونه سوى قيودهم. وأمامهم العالم ليفوزوا به. يا عمال العالم اتحدوا!

يردد الثنائي أيضاً أصداء الشاعر الإنجليزي الصوفي ويليام بليك في رعبهما من "الطواحين الشيطانية المظلمة"، معلناً أن "مئات العمال المزدحمين بالمصنع... يتم استعبادهم يومياً وساعة من قبل الآلة." ومع ذلك، فالأكثر سحراً من كل شيء هي رؤيتهما المبسطة للتاريخ كمسيرة إلى الأمام، من خلال سلسلة من الأزمات، إلى حالة من النعيم الدائم على الأرض، حيث ستعيش الأجيال المقبلة معاً في وئام في عالم تجاوز الصراع والاستغلال. من الواضح أنه توهم تنبؤي أصر ماركس على أن مخططه للتاريخ كان "علمياً"، وبالتالي فقد أغرى قراءه للاعتقاد بأنهم أعضاء في نخبة اكتسبت بطريقة ما الوصول إلى حقيقة حديثة ولكنها لا تزال مطلقة، توفر الإجابة على معضلة الوجود الإنساني.

ويا لحسرة ماركس، هدأت الثورات واندلع القمع في جميع أنحاء أوروبا. ومع ذلك، لم يحدد موعد وصول النعيم في المستقبل؛ وبالكاد أوضح ضمناً أنه كان وشيكاً. وهكذا، فإن **البيان الشيوعي**، مثله مثل كل النبوءات المروعة الناجحة، ظل مفتوحاً على إعادة التفسير.

رأس المال كان أقل فتنة. فقد برز من الجلسات الطويلة التي قضاها ماركس في المكتبة البريطانية وهو يحدق بشدة في التقارير الحكومية عن الأوضاع في المصانع البريطانية قبل ثلاثين عاماً. ومن خلال القيام بذلك، أعرب عن أمله في اختراق جوهر رأس المال في جميع الأزمان والدول. وهكذا قام بتجميع نصوص متعددة في نص مترابط مترامي الأطراف كان "علمياً" - حتى إن لم يرغب في فعل أي شيء تجريبي كأن يتحدث مع عامل أو شغيل حقيقي؛ كان يفضل التفاعل مع الورق والحبر. في **رأس المال**، حصل حلم آخر الزمان، **البيان الشيوعي**، على أساس

نظري كثيف: "القوانين العلمية" للتاريخ تحل محل الله، باعتبارها القوة الكونية التي تقود المختارين إلى النعيم الأبدي المحتوم -فقط، إلا أن ذلك سيحدث الآن على الأرض بدلاً من السماء.

إن نجاح أفكار ماركس في روسيا في جميع الأماكن، يشير إلى احتمال وجود مشكلة في إطاره النظري. فهو يجادل في **رأس المال** بأن التناقضات الداخلية للرأسمالية ستؤدي إلى سلسلة من الأزمات الكارثية المتزايدة، وأن الظروف التي يعانيها العمال ستتدهور مع كل أزمة، مما يؤدي حتماً إلى الثورة، وزوال الملكية الخاصة والاستيلاء على الذين يستولون. وقال إن هذا سيحدث، حيث تكون الرأسمالية في أوج تقدمها، في بريطانيا أو ألمانيا، على سبيل المثال، وبالتأكيد ليس في روسيا الزراعية المتخلفة.

ومع ذلك، نشرت النسخة الأجنبية الأولى من **رأس المال** (أو بالأحرى، الجزء الذي أنهاه ماركس في حياته) في روسيا في عام ١٨٧٢، بعد خمس سنوات من إصداره الألماني الأولي، حيث تجاهله النقاد. كان مترجمه، نيكولاي دانيلسون، شعوبياً. ومن المفارقات أن المراقبين القيصريين سمحوا بنشره لأنهم يتفقون مع ماركس: كانت روسيا في حالة بدائية من التطور الصناعي، ولم يكن هناك "استغلال رأسمالي" للحديث عنه، وبالتالي فإن الرسالة الفلسفية للكتاب ليست بذات صلة هناك.

ولكن كما هو الحال مع **ما العمل؟**، أخطأت الرقابة، وحقق **رأس المال** نجاحاً كبيراً، حيث بيعت منه ثلاثة آلاف نسخة في العام الأول، وهي نتيجة محترمة نظراً لأن حوالي ١٥ بالمائة فقط من السكان الروس كانوا يعرفون القراءة والكتابة. على النقيض من ذلك، في ألمانيا المتقدمة والصناعية والجاهزة للثورة، استغرق الأمر خمس سنوات حتى بيع من الكتاب ثلث هذا العدد. لكن هذه كانت البداية فقط: في سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر، ازدهرت الماركسية في روسيا، وأصبح **رأس المال** مصدراً للسحر والإلهام والحقيقة عند العديد من الثوريين في روسيا. لقد تركوا الله والقيصر والكنيسة، لكنهم لم يفقدوا طعم الميتافيزيقيا الخاص بنبوءة الدينونة والخلاص-مادام يمكن جعلها مستساغة من خلال الشروحات العقلانية.[1]

---

١ - كان لروسيا تقليد طويل من الاعتقاد المروع بنهاية العالم. فمنذ انهيار القسطنطينية في عام ١٤٥٣، كان القياصرة والأساقفة والفلاحون يزعمون أن موسكو كانت روما الثالثة، وفي مهمة إسكاتولوجية لخلاص العالم بأسره. أدى

سرعان ما حصل ماركس على مؤولين وطنيين، مثل جورجي بليخانوف، الذي ساعد في عام ١٨٨٣ على تأسيس أول منظمة ثورية ماركسية روسية، هي "انعتاق العمال". جادل الشعوبي المتقادم، وقال إن الخلاص الروسي لا يكمن في الفلاحين ولكن في الطبقة العاملة، على الرغم من أن البلاد لم تكن مستعدة بعد لثورة بروليتارية. لحسن الحظ، كانت روسيا تمر بتحول رأسمالي، مما خلق الظروف الملائمة للانتقال عبر مرحلتين إلى الشيوعية. في المرحلة الأولى، سيتم الإطاحة بنظام الاستبداد القيصري وسيحل محله النظام البرجوازي الديمقراطي. وخلال هذه الفترة، ستتضاعف أعداد البروليتاريا، وتحت قيادة حزب ديمقراطي اشتراكي (أي ماركسي)، ستؤدي الثورة الثانية إلى تحرير الطبقة العاملة.

وقد أحب لينين تلك النغمة. فدخل بليخانوف البانثيون، إلى جانب تشيرنيشيفسكي ونيتشيف وماركس. ومضطرماً من النصوص، كان لينين مستعداً لتغيير مجرى التاريخ.

* * *

كان لينين الشاب منظراً ثورياً أنموذجياً. وفي الواقع، كان يجلس على الكراسي كثيراً –وهو يقرأ كتباً عن الثورة، وهو يناقش الكتب مع منظرين ثوريين آخرين، أو وهو يكتب المقالات التي كان يأمل في أن تثبت شهرته بين أولئك المنظرين الثوريين. ومع ذلك، بدا مختلفاً. وأدرك رفاقه في هذه المحاضرات الحوارية الثورية ذلك، واحترموا ذكاءه وإدراكه وجرأته النظرية ومهاراته القيادية، مشيرين إليه بالرجل العجوز، رغم أنه كان ما يزال في العشرينات من عمره. وبدلاً من ذلك، كان ينبغي عليهم أن يخافوه: لأنه عندما أتيحت له الفرصة لوضع أفكاره موضع التنفيذ،أثبت أنه متطرف لا يرحم.

فعلى سبيل المثال، في عام ١٨٩١، عندما اجتاحت المجاعة منطقة الفولغا، اتحد الليبراليون والثوريون في إلقاء اللوم على القيصر بسبب نقص الغذاء وفي الاعتقاد بأن عليهم مسؤولية أخلاقية لفعل ما في وسعهم لمساعدة الفلاحين الجائعين. إلا لينين، البالغ من العمر ٢١ عاماً، الذي وبّخ أخته لتزويدها الفلاحين بالمساعدة الطبية. وكان قد رفع دعوى بالفعل ضد

الانشقاق الديني في عام ١٦٦٦ إلى انتشار الطوائف، وبحلول القرن التاسع عشر كانت البلاد تعج بالجماعات القياموية التي اعتقدت أنها كانت تعيش في الأيام الأخيرة للعالم. المؤلف

المزارعين المستأجرين لممتلكات الأسرة عندما تخلفوا عن دفع الإيجار. والآن، وبينما كانوا يتضورون جوعاً، رفض تخفيض قيمة الإيجارات.

في النتيجة، وفقاً لماركس، كانت معاناة الطبقات المُستغَلة حتمية في ظل الرأسمالية، لكنها كانت أيضاً سبباً للأمل، حيث أشارت الأزمات الرهيبة إلى القدوم الوشيك للثورة. وتخفيف المعاناة كان يعني تأخير لحظة التغير العالمي. لقد ازدرى ماركس المبادئ الأخلاقية البرجوازية على أنها غير علمية ومجرد أوهام أخرى أبقت الطبقة الحاكمة العمال من خلالها في حالة من التعمية، لكنه شجب أيضاً الرأسمالية مستخدماً اللغة الأخلاقية. ربما كان نيتشيف قد صاغها بشكل أفضل: فالأخلاقي هو كل شيء يساهم في انتصار الثورة. وهكذا بينما تحدث الثوريون الآخرون عن النظرية ولكنهم استسلموا في نهاية المطاف للتعاطف ومطالبات الضمير، كان لينين مستعداً للعيش بالأفكار التي تبناها.

وبالتالي، ومن على كرسيه، سرّع بوصول جنة العمال. مات أربعمائة ألف شخص. على الرغم من أنه بالكاد يمكن أن يدعي الفضل في تعداد موتى المجاعة، إلا أنه قام بدوره. وكما قال مكسيم غوركي (الذي كان يعرف لينين جيداً) في وقت لاحق: "لقد أحب لينين الأشخاص بشكل عام ولكن مع الإنكار، وكان حبه يلوح بعيداً عبر ضباب الكراهية. لقد أحب الجنس البشري ليس كما كان، ولكن كما كان يعتقد أنه سيصبح".

في النهاية، بالطبع، شعر لينين بأنه مضطر لمغادرة كرسيه. كان من المفترض أن تكون الثورة الذروة الحتمية في تاريخ البشرية، لكنه اشتبه في أنها قد تكون في الواقع ممكنة التجنّب بعض الشيء، أو على الأقل، بدأ يشك في أنها قد تكون ناجحة ما لم يتم إعطاء البروليتاريا التدريب الصحيح. ففي نهاية الأمر، كانت البرجوازية ماكرة، وكان لديها جيوش وقوات شرطة تحت قيادتها - ومن غير المناسب التوقع منهم التخلي عن وسائلهم الشيطانية من دون قتال.

في عام ١٨٩٥، انضم لينين، الذي اتخذ وقتها من سانت بطرسبرغ مقراً له، إلى اتحاد الكفاح من أجل انعتاق الطبقة العاملة. كان هدفه إقامة اتصال مباشر مع أعضاء البروليتاريا وتعليمهم الأيديولوجيا. وكما أعاد تشكيل وعيه من خلال لقاءاته بالنصوص الثورية، فكذلك كان سيؤدي نفس الخدمة لعمال سانت بطرسبرغ. في تشرين الثاني/ نوفمبر من ذلك العام، كتب كتيباً يشرح فيه الحدود القانونية لسلطة صاحب المصنع وطبع منه ثلاثة آلاف

نسخة، وزود العمال المضربين بالنقد. غير أن الشرطة السرية كشفت عن أنشطة لينين الهدامة، واعتقل في كانون الأول/ ديسمبر. وأمضى سنة في الاحتجاز، يقرأ ويعمل على أطروحة حول تطور الرأسمالية الروسية. ثم، في كانون الثاني / يناير١٨٩٧، تم نفيه إلى سيبيريا.

لم يكن النفي تحت حكم القياصرة رحلة الاستعباد الوحشية والموت التي صارها تحت حكم ستالين، وبالتأكيد ليس لرجل يتمتع بمكانة لينين الاجتماعية. دفعت والدته مقابل نقله، حتى إنه سُمح له باختيار مكان المنفى. اقترح لينين مكانين: مدينة كراسنويارسك أو منطقة مينوسينسك في مقاطعة ينيسي. وحصل على خياره الثاني، وانتهى به المطاف للعيش في شوشينسكو، وهي قرية تضم ألف شخص في مينوسينسك. لقد زرت المنطقة: منظر التايغا والجبال المغطاة بالثلوج جميل للغاية. المناخ جاف، لذلك حتى عندما تنخفض درجة الحرارة إلى أربعين درجة مئوية تحت الصفر، يكون الجو أكثر متعة من سانت بطرسبرغ في بحر البلطيق، لنقل عند خمسة وعشرين درجة مئوية تحت الصفر. في الواقع، طالما أنك لا تمانع في أن تلتهم جسدك غيوم كثيفة من البعوض النهم في الصيف، أو أن تكون بعيداً جداً عن مركز الأشياء، فإن مينوسينسك مقبولة تماماً. منحت السلطات خطيبة لينين، ناديجدا كروبسكايا، الإذن للانضمام إليه. كما منح القيصر راتباً للمنفيين، وكان لينين حراً في القراءة والكتابة، والتواصل مع أسرته ورفاقه.

صحيح أنه قد تقطعت به السبل في سيبيريا، وقد فاته المؤتمر التأسيسي لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي في مينسك في عام ١٨٩٨. لكن مع ذلك، لم يفته الكثير: فلم يشارك سوى تسعة اشتراكيين من جميع أنحاء الإمبراطورية، وقبض على ثمانية منهم بعد ذلك بوقت قصير. وفي الوقت نفسه، استفاد لينين من منفاه، وقرر ألا يحاول الهرب، بل أن يعتبره كإجازة جامعية تدعمها الدولة. وهكذا، وبين المحاولات (غير الناجحة) لجعل عروسه الثورية حاملاً، عمل على كتابه **تطور الرأسمالية في روسيا**، والتي كان يأمل أن يتم تلقيه كعمل ذي أهمية كبرى في التحليل الماركسي.

أرسل إليه أصدقاؤه وعائلته كتباً، وتصفح أكثر من مائة منها، بما في ذلك أعمال الاقتصاديين الغربيين، التي تعرض لها بتحليل نقدي لا هوادة فيه -كان آدم سميث مذنباً "بخطأ أساسي"، في حين أن "الارتباك التام" كان هو القاعدة بين معظم الاقتصاديين

المعاصرين. على الرغم من أن الجمع بين أسلوب حياة الرجل اللامع واللغو تعني أن لينين قد كتب الكثير بالفعل - لم يظهر **تطور الرأسمالية في روسيا** في الطبعة الخامسة والأكثر توسعة من أعمال لينين التي تم جمعها حتى المجلد الثالث -وكان، بلا شك، عملاً مهماً، لكنه بالتأكيد، كان طويلاً للغاية. أكثر من خمسمائة صفحة، وفي الواقع: أول كتاب رئيسي لمؤسس أدب الديكتاتورية في القرن العشرين.

في كتابه "**تطور الرأسمالية في روسيا**"، كان لينين يعتزم:

أ) تأسيس أوراق اعتماده كخبير لا مثيل له في الاقتصاد الروسي، وبالتالي الصعود إلى ذروة الشهرة ككاتب.

ب) سحق وجهة النظر الشعوبية القائلة بأن تطور الرأسمالية يمكن وينبغي أن يتوقف، وأن ينشأ بدلاً منها جنة زراعية بديلة، يعيش فيها الروس في كومونات أو بلديات على غرار الفلاحين، أحراراً من القيصر وهم يصنعون الكثير من الحرف اليدوية.

كانت مشكلة لينين هي أنه وفقاً للإحصاء الإمبراطوري لعام ١٨٩٧، كان في روسيا أكثر من ١٠٠ مليون فلاح من إجمالي عدد السكان البالغ ١٢٨ مليوناً، وما يقارب ٢ أو ٣ ملايين بروليتاري، ثلثهم فقط يعملون موسمياً على السكك الحديدية. كانت روسيا، الزراعية جداً والمفتقرة إلى الطبقة العاملة، بعيدة كل البعد عن الإيفاء بالشروط التي قال ماركس إنها ضرورية للثورة.

أو هكذا بدا الأمر. وهو غير راغب في قبول أن التغيير الاجتماعي الذي يرغب فيه يجب أن يكون في المستقبل البعيد، وبسبب ازدرائه لأي يوتوبيا فلاحية، جادل لينين بأن الرأسمالية الروسية لم تظهر ببطء وبأسلوب تدريجي، لكنها كانت بالفعل في حالة متطورة للغاية. لم تعد طريقة حياة الفلاحين القديمة والمستقرة التي تصورها الشعوبيون أنموذجاً لروسيا مناسبة، وبدلاً من ذلك، أصبحت غالبية العمال الريفيين من البروليتاريين في المزارع الذين يبيعون عملهم، بينما كانت هناك أيضاً مجموعات أصغر من الكولاك[1]، الذين كانوا نشطاء بلا رحمة لدرجة أنهم أصبحوا السوق الرئيسي للصناعيين الروس وذوي تأثير غير مباشر على بقية

---

١ - الفلاحون الأثرياء (حرفياً، "القبضة")، طبقة شنيعة في شيطنة لينين، ثم ستالين. المؤلف

الاقتصاد. وكتب لينين: "بدأت روسيا المحراث الخشبي والمدراس، والناعورة والنول اليدوي، بدأت تتحول بسرعة إلى روسيا المحراث الحديدي وآلة الدرس، والطاحونة البخارية والنول الآلي. وأخذ يظهر تحول شامل في التقنية في كل فرع من فروع الاقتصاد الوطني حيث يهيمن الإنتاج الرأسمالي".

من وجهة نظر لينين، كان هذا التحول "تقدمياً"، لأن الرأسمالية كانت أقل وحشية من الإقطاع، وكانت لها أيضاً آثار ثورية. إن كانت روسيا رأسمالية بالفعل، فوفقاً للنظرية الماركسية، كانت البلاد ناضجة للمرحلة الأولى، المرحلة البورجوازية من الثورة. وبمجرد تأسيس الديمقراطية السياسية والحقوق المدنية في هذه المرحلة الأولية، فستتبعها قريباً الثورة العمالية والديكتاتورية البروليتارية. ومع ذلك قاوم لينين الدافع لتقديم مطلب كامل بالثورة. بدلاً من ذلك، كانت لهجته واثقة، لكنها جافة ومدرسية. لنأخذ على سبيل المثال هذا المقتطف المقتضب حيث يشرح كيف يسرّع الفلاحون الأثرياء (الكولاك (من تطور الرأسمالية:

> إن هيمنة الاقتصاد الطبيعي، الذي يفسر ندرة المال وعوزه في الريف، يؤدي إلى الظن بأهمية كل هؤلاء "الكولاك" من حيث حجم رأس مالهم. إن اعتماد الفلاحين على مالكي المال يكتسب حتماً شكل العبودية. ومثلما لا يمكن للمرء تصور الرأسمالية المتطورة من دون رأس مال التجار الواسع النطاق في شكل سلع أو أموال، كذلك لا يمكن تصور قرية ما قبل الرأسمالية من دون صغار التجار والمشترين، الذين هم "أسياد" الأسواق المحلية الصغيرة. تقوم الرأسمالية بضم هذه الأسواق معاً، وتجمعها في سوق وطني كبير، ثم في سوق عالمية، وتدمر الأشكال البدائية من العبودية والاعتماد الشخصي، وتتطور بعمق وتوسع التناقضات التي في شكلها البدائي يمكن أن تلاحظ في المجتمع الفلاحي، وبالتالي تمهد الطريق لحلها.

ولكن كانت هناك استراتيجية وراء نثر لينين الشاق. كان للرقابة القيصرية شكلها عندما يتعلق الأمر بالتقليل من تأثير الأعمال الطويلة والمملة عن الاقتصاد؛ لقد سمحوا بنشر **رأس المال**، رغم كل شيء. فقد وجدوا أن النصوص صعبة الاستيعاب مثل معظمنا ولم يستطيعوا أن يتخيلوا أن أي شخص آخر سيمتلك الحافز للقيام بذلك، أو سوف يشحن من نص فرعي مدفون في مئات الصفحات من الإحصاءات - أن تمكن أن يلاحظ وجوده. من خلال تبنيه

لنهج أكاديمي مثقل بالمفردات الاصطلاحية مثل ماركس، سيتمكن لينين من جعل أعماله النظرية "المحترمة" الطويلة تطبع بشكل قانوني. لقد تجنب الهجمات البلاغية على القيصرية، وتمسك بدلاً من ذلك بإيضاحات التحليل النظري التي يمكن استخلاص الاستنتاجات المناسبة منها. كما كتب الكتاب تحت اسم مستعار، "فلاديمير إيلين"، حتى لا يدرك مراقب الدولة أن مؤلفه كان منفياً سياسياً. ونجحت الحيلة. لقد وضع لينين بنجاح رائعته الأدبية في يدي دار النشر في سان بطرسبرغ على أمل أن تصل إلى عدد أكبر من القراء مما كانت ستحصل عليه من خلال المطابع الموجودة تحت الأرض الثورية.

بدأ ببيع **تطور الرأسمالية في روسيا** في آذار / مارس عام ١٨٩٩، عشية القرن الذي سيكون فيه للينين أثر كبير. وبعد عقود من وفاته، ادعى محرروه في معهد الماركسية اللينينية أن الكتاب حقق نجاحاً هائلاً وأن النسخ المطبوعة أولياً وعددها ٢٤٠٠، بيعت بسرعة كبيرة، لكنه في الواقع كان خيبة أمل[1]. رغم أنه في الاتحاد السوفييتي كان يعامل بكل تبجيل، وكانت المراجعات القليلة التي تلقاها في وقت نشره سلبية إلى حد كبير. حتى كتاب روبرت لينكر **أنطولوجيا لينين**، وهو تصنيف قياسي منذ عام ١٩٧٥، لا يحتوي على أي مقتطفات. الحياة، في النهاية، قصيرة، ومن يرغب بأن يستمع إلى الثوري البرجوازي وهو يتحدث عن اعتقاده بأن الزراعة الروسية حوالي عام ١٨٩٩ قد أعلنت عن حقبة جديدة من التصنيع السريع؟ وفي هذه الحالة، كان حكم مراقبو القيصر على النص صحيحاً: إن **تطور الرأسمالية في روسيا** كان مملاً وغير ذي صلة وغير ضار تماماً.

ومع ذلك، فإن الكتاب احتوى على بذور عدة جوانب رئيسية، ليس فقط على أسلوب لينين الخطابي ولكن أيضاً على نوع الأدب الديكتاتوري الذي كان سينبثق على مدى القرن العشرين.

أولاً، هناك نثر نظري جاف تماماً، مصمم هندسياً لإغراء القارئ بالخضوع أمام الفكر العظيم المعروض عليه. إن عرض أو عدم وجود فكر عظيم حقاً له أهمية ثانوية، وسيصبح أقل أهمية مع تطور الأدب الديكتاتوري.

---

١ - رغم أن ملايين النسخ من الكتاب كانت متداولة في الاتحاد السوفييتي طوال مدة وجوده -المؤلف

يوضح **تطور الرأسمالية في روسيا** استعداد لينين لتشويه الواقع ليناسب احتياجاته النظرية والسياسية والنفسية. لا يمكن إنكار قوته العقلية، لكن هذه كانت المشكلة: فالأشخاص الأذكياء للغاية مخطئون طوال الوقت، وهم جيدون بشكل خاص في كونهم مخطئين لأن لديهم القدرة الإدراكية على بناء حجج مفصلة معاكسة للواقع، تبدو وكأنها مدعومة بدليل منتقى بحكمة ومفسر بذكاء. أراد لينين أن تحدث الثورة في حياته، وعبر تنظيم الإحصائيات القاسي والتحليل الماركسي حول الواقع نظرياً إلى استسلام.

ليس من غير المعتاد بالطبع أن يختار الأشخاص الحقائق وأن يعللوا المتناقضات لدعم الأشياء التي يريدون أن تكون حقيقية؛ معظمنا يفعل ذلك طوال الوقت. لكن معظمنا لا يحلم بالاستيلاء على السلطة في أكبر بلد على وجه الأرض. كان هناك شيء استبدادي عميق في افتراض لينين أن لديه القدرة على الكتابة عن العالم، ليؤلف الشروط التي تتطلبها نظريته كي تدخل حيز الوجود.

كان لينين -إذا كنت ستغفر لي استخدام كلمة أستعيرها من الأراضي البور القاحلة للنظرية النقدية - كان لوغوسياً مركزياً بشكل عميق[1]. وبشكل أساسي، وافق مع مؤلف إنجيل يوحنا: "في البدء كانت الكلمة". كان ورثته الطغاة، بمجرد وصولهم إلى السلطة، يتبعون هذا المعتقد حتى نهايته المنطقية، ساعين إلى إعادة بناء العالم ليس عن طريق الجدل أبداً، بل بأفعال الكلام والتأليف المكتوب لتداول وقائع بديلة، تتعارض كلياً مع الشروط المادية، اللازمة للوجود.

* * *

في عام ١٩٠٠، غادر لينين سيبيريا. على الرغم من فشل **تطور الرأسمالية في روسيا**، إلا أنه كان يصنع تدريجياً اسماً لنفسه ككاتب. إن التدفق المستمر لمقالات من قلمه قد أكسبه فرصة لكتابة قصيرة في موسوعة مرموقة شارك فيها العديد من المؤلفين الروس البارزين.

---

١ - أستخدمها هنا بالمعنى الذي استخدمها به جوزيف برودسكي، أي الإشارة إلى امتياز الكلمة في الثقافة الروسية، وليس في تطبيقاتها الأكاديمية الأكثر تطوراً. كان برودسكي يتحدث عن الشعر، لكن لينين وزملاءه بدلوا التقاليد لوضع نصوص نظرية على مذبح. المؤلف

لكنه كان يعاني من مشكلة: فقد مُنع من العيش في موسكو أو سانت بطرسبرغ أو أي مدينة فيها تجمع طلابي أو بروليتاري كبير. ومفضلاً العيش في الخارج على قضاء أيامه التي تتحلل ببطء في المقاطعات تحت العين الساهرة للأوخرانا، طلب وتسلّم إذناً بمغادرة روسيا.

سافر إلى سويسرا، حيث وجد لنفسه بسرعة بعض الكراسي الجديدة ليجلس عليها، بجانب بعض الكراسي الأخرى التي احتلها المنفيون الماركسيون الروس البارزون -بما في ذلك معبوده السابق بليخانوف، الذي سيسعى لينين قريباً إلى الحل محله كمترجم روسي بارز لكارل ماركس. وبالطبع، واصل الكتابة.

في الواقع، الآن وقد صار لينين في الخارج، أضحت وسيلته الوحيدة للتفاعل مع روسيا هي الكتابة حولها. أو الكتابة إليها. وبالنسبة إليه، كان هذا تصرفاً، مثل إلقاء القنابل على الحكام المستبدين أو سرقة البنوك لتمويل القضية - إلا أنه أكثر أهمية. بعد أن أعاد التشكل شخصياً بعد لقائه الشخصية الخيالية في رواية تشيرنيشيفسكي، صار لديه مبرر قوي للاعتقاد بقوة الكلمة المكتوبة. لقد حان الوقت لتوضيح الاستراتيجية والتكتيكات اللازمة لإحداث ثورة.

كانت الخطوة التالية التي اتبعها لينين هي نشر صحيفة ثورية سرية. في روسيا، بدأت الماركسية تفقد بعض بريقها؛ حيث اندمجت الحركات السياسية الأخرى في معارضة القيصر. تأسس الحزب الاشتراكي الثوري، الذي ترسخت فيه الأفكار الشعوبية عن مستقبل قائم على رؤية مثالية لحياة الفلاحين، في عام ١٩٠١. وفي الوقت نفسه، في ألمانيا، نفى "المراجع" الماركسي إدوارد برنشتاين أن تكون الرأسمالية على وشك الانهيار، أو أن الثورة البروليتارية ستجرف قوى القمع. كان الإصلاح التدريجي، وليس الإطاحة الكاملة للنظام الحالي، هو الطريق إلى الأمام.

إن عقيدة لينين تحت الحصار: الماركسية الصحيحة - والتي هي، رؤيته للماركسية -كانت وفية لمناداة ماركس بالثورة العنيفة وسحق البرجوازية. وكان يجب القيام بشيء ما لمنع إضعاف الفكرة، وانتكاس النظرية.

في عام ١٩٠٠، أسس لينين اسكرا (أو "الشرارة") مع بليخانوف وعدد من المنفيين الآخرين، رغم أنه سرعان ما انفصل عن بليخانوف، الذي لم يكن يرغب في التنازل عن

السلطة لنجم الماركسية الروسية الصاعد. كانت الخطة التي حررت في ميونيخ وطبعت (في البداية) في لايبزيغ، تنص على تهريب الصحيفة إلى روسيا، وإثارة الفتنة، ثم نشر النسخة "الصحيحة" من التنوير المادي الجدلي من بعيد. لم يكن لدى هذا الأداة العظيمة للدعاية الثورية سوى نسخة مطبوعة من ثلاثة أرقام، تظهر بصورة متقطعة، وتتوجه إلى الذين تم تحولهم، لكنها كانت بداية -وبدأ لينين الآن في التفكير بجدية في محتوى وعمل ووظيفة إحدى الصحف السرية. ألهمته هذه التأملات أن يكتب واحدة من أكثر النصوص تأثيراً في القرن العشرين، والتي سماها على اسم الكتاب الذي فعل أكثر من أي شيء آخر لتحويله إلى قضية الاشتراكية: (**ما العمل؟**) مع عنوان فرعي إضافي (**المسائل الملحة لحركتنا**).

في البداية، قد يكون من الصعب أن نفهم ما كل هذه الضجة. لكن عند قراءة الكتاب، بعد أكثر من قرن على نشره، فإن الانطباع السائد هو المشاركة في جدال ممل وغامض عند منتصفه. وهذا لأن: لينين كان يخاطب مجموعة صغيرة من الثوريين الذين يعيشون متخفين في روسيا أو في المنفى في الخارج، ويقرؤون جميعهم الكتب والمجلات نفسها، يتشاجرون بشراسة حول أي من رؤاهم للماركسية هي الأكثر شرعية. ومع ذلك، فإن أسلوب الخلاف يجعل من الواضح على الفور تفضيل معتقد لينين: ربما كان يخاطب مجموعة صغيرة من المثقفين على نحو فعال، ولكنه مثل جميع القياماويين المسعورين، كان مقتنعاً بأن مصير العالم على المحك.

في الواقع، على الرغم من أنه كان مثقفاً مستقراً، فإن النص يتداخل مع كراهيته المحققة وفرحه بالاشتباك وشغفه بالثورة. كانت الثورة حية، وشخصيته تواصل العيش بداخلها. ولأن **ما العمل؟** نشر خارج روسيا، ولم يكن من الضروري أن يتجاوز الرقيب، لذا كان لينين حراً في أن يقدح كما يرغب، رغم أن من اللافت للنظر توجيهه لمعظم انتقاداته ليس للقيصر أو للرأسمالية، بل للماركسيين الآخرين. أسلوبه كان عدوانياً بصورة مذهلة، ورؤية للنص على أنه حالة حرب، لكنه احتوى أيضاً على مقاربات جذرية للغة النظرية مع الإساءة المستمرة والمتكررة والعنيفة. إنه غير متسامح للغاية: ونكتشف أن خصومه الأيديولوجيين كانوا مخطئين في كل شيء، بدءاً من مسألة "حرية النقد" (لينين ليس ديمقراطياً ليبرالياً) إلى فكرة أن العمال قد يكونون قادرين على تنظيم الثورة تلقائياً (فكرة غبية تماماً). إنهم مخطئون كلياً، وليس فقط خطأ قليلاً أو خطأ جزئياً، بل "مخطئون حتماً"، مذنبون بـ"الخطأ الأساسي"، وقد

"فشلوا تماماً" في فهم بعض النقاط المهمة. تم طرد البعض من الأسماء بمقاطع بلاغية منمقة ورفيعة؛ وتم شجب الآخرين بأنهم يوجّهون نحو "مستنقع".

وعندما تستنفد إهانات لينين ما لديه من فضاء في المتن الرئيسي للنص، يلجأ إلى الحواشي الطويلة، التي يراكم فيها الخزي. آه، نعم، تلك الحواشي: هنا، يكشف لينين بشكل خاص عن نفسه. إنها لا تترك أي مجال للشك فيما سيكون عليه تعليق على (ثريد) في الإنترنت حين يستلمه أب البروليتاريا العالمية، حيث يستيقظ لينين من سباته الكيميائي ويسترجع دماغه من المختبر الذي حفظ فيه في مقاطع عرضية. كان لينين غير متسامح وساخراً وصادقاً في كل شيء وعازماً على امتلاك الكلمة الأخيرة، وكان master troll، وملك حرب اللهب[١]. فيما يلي مثال على ذلك وهو يلعب في إحدى حواشيه العديدة، من القسم الخامس، الجزء الثالث:

> في استعراضه لأسئلة النظرية، لم يقدم ناديجدين، بالمناسبة، أي إسهام تقريباً في مناقشة أسئلة النظرية، بصرف النظر عن المقطع التالي، الأكثر غرابة من "وجهة نظر زمن الثورة": "أخذت البيرنشتاينية[٢]، عموماً، تفقد حدتها عندنا في الوقت الحاضر، كما هو الحال فيما إذا كان السيد آدموفيتش سيثبت أن السيد ستروف قد تعرض بالفعل للجلد، أو على العكس، ما إذا كان السيد ستروف سيدحض السيد آدموفيتش ويرفض التنازل -هذا لا يحدث فرقاً في الحقيقة، لأن ساعة الثورة قد دقت". بالكاد يمكن للمرء أن يتخيل صورة أكثر وضوحاً لتجاهل ناديجدين اللامتناهي للنظرية. لقد أعلنا "عشية الثورة"، وبالتالي "لن يحدث فرقاً" ما إذا كان الأرثوذكس سينجحون في طرد النقاد أخيراً من مواقعهم! يخفق هذا الدعي في أن

١ - حرب اللهب عبارة عن سلسلة من الرسائل الملتهبة التي يتم إرسالها ذهاباً وإياباً بين أشخاص مختلفين على تطبيق إرسال رسائل تتصاعد أعلى وأعلى وتعكس عداءً متزايداً. المترجم

٢ - إدوارد برنشتاين (٦ كانون الثاني / يناير ١٨٥٠ - ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٢) هو ديمقراطي اجتماعي ألماني.مؤسس الاشتراكية التدريجية، وهو اتجاه سياسي في الحركة العمالية، يرفض الاشتراكية الثورية. رفض برنشتاين الجدل الهيغلي، وأطلق شعار "العودة إلى كانط". كما ميّز بين الماركسية المبكرة والناضجة. وعارض الماركسية المبكرة، التي وضّحها ماركس وإنجلز عام ١٨٤٨ في البيان الشيوعي، بسبب اعتباره أنّ ميولها البلانكية عنيفة، واحتضن الماركسية الناضجة معتبراً أن الاشتراكية يمكن تحقيقها بالوسائل السلمية من خلال الإصلاح التشريعي التدريجي في المجتمعات الديمقراطية. -المترجم

يرى أنه من خلال الثورة على وجه التحديد، سنكون في حاجة إلى نتائج معاركنا النظرية مع النقاد من أجل أن نكون قادرين على محاربة مواقفهم العملية!

الثورة لعبة محصلتها صفر. ويجب أن يخضع الواقع لإصلاح جذري؛ لا يوجد مجال للخلاف الشريف. كيف له أن يكون موجوداً؟ هدف لينين هو تغيير النظام الاجتماعي، وليس تحسينه.

ومع ذلك، فإن لينين لا يعتمد فقط على سوء المعاملة لإبادة منافسيه. إنه مفكر منطقي لا يرحم، يتقدم بشكل منهجي (القسم ١، ثم أ، ب، جـ د، إلخ)، ويحدد المناطق الضعيفة ويهدم الحجج المعارضة، على الرغم من أنه لا يفعل شيئاً سوى استدعاء سلطة الأنبياء ماركس وإنجلز، أو مثل جنكيز خان، يسعى إلى سحق أعدائه بالكامل، بأي وسيلة بلاغية ضرورية، مدمراً القرى الأيديولوجية، ومضرماً النار في حقول النظرية.

ولكن **ما العمل**؟ هو أكثر من مجرد هجوم كامل مباشر على الأفكار السيئة؛ فهو يحتوي على خطة عمل للحركة الثورية. هنا يكشف لينين مدى إيمانه بقوة الكلمة المكتوبة. مصطلح الجريدة يعتبر مضللاً ليصف ما يفكر فيه لينين. وبالأحرى، كان يتصور آلة نقل للدعاية النظرية والعقائدية، تستخدم الكتابة كأداة للنشر والتحكم الأيديولوجيين، وتدار من بعيد بواسطة كادر من نخبة من الثوريين المحترفين. في حالة عدم وجود الأدوات حديثة الاختراع (أو أنها لم توجد بعد)، أدوات الراديو والسينما والتلفزيون، فإنه سيفعل ما بوسعه بالحبر والورق والمطابع.

لنأخذ الطبقة العاملة، على سبيل المثال: إنها غير متعلمة إلى حد كبير، وأعضاؤها في الغالب يجهلون الماركسية، ويتم إغراؤهم بسهولة بوعود توفير مزيد من الراحة المادية في هذا العالم. صريحاً تماماً في نخبويته، ينكر لينين أن البروليتاريا تستطيع أن تتطور إلى قوة ثورية حقيقية بحد ذاتها. في النهاية، لم يكن للعمال أي دور في تطوير "العقيدة النظرية للديمقراطية الاشتراكية"، والتي يقول لينين إنها ظهرت "كنتيجة طبيعية لا مفر منها للتطور الفكري بين المثقفين الاشتراكيين الثوريين". ويجب على الأعضاء البروليتاريين في الحزب والقادة المحتملين على وجه الخصوص، الخضوع لتوجيهات المثقفين الثوريين الخالصين.

ولكن ماذا لو كان القادة بعيدين؟ سوف ينقلون إرادتهم وأوامرهم من خلال "صحيفة". في الواقع، كانت "هيئة التحرير" هي في الحقيقة الجوهر الأيديولوجي للحزب،

الذي يتصوره لينين كخلية مركزية سرية، تصدر التعليمات، وتزيد من الوعي الأيديولوجي لأعضاء الحزب، وتوجه مسار الثورة عموماً عبر بقع الحبر على الورق. ستتخذ هذه المجموعة الأساسية من الثوريين المحترفين، وهي نخبة منتقاة ذاتياً، منظمة ومنضبطة بلا رحمة، جميع قرارات الحزب، وتوصلها من خلال "الصحيفة" لتنفذها العضوية الخارجية للحزب. الانضباط والنظام والطاعة لخط الحزب ضروريون. يقول لينين، قد ينضمّ آخرون من الخارج إلى النخبة، لكن فقط إذا دعاهم الرؤساء السريون.

كان بيوتر تكاشيف قد طالب أيضاً بضرورة وجود طليعة أيديولوجية ثورية سرية لتوجيه الثورة. ووافق لينين، واضعاً في ذهنه مصير شقيقه، ألكساندر، مؤكداً على أهمية العمل بعمق سراً، وإتقان فن التآمر: "كلما كانت هذه المنظمة أكثر سرية، كانت الثقة أقوى وأكثر انتشاراً في الحزب"، يكتب. قرارات العمل في السر، كانت ستقبل من دون شك من طرف المناضلين. في الواقع، يعزو لينين قوى هائلة لطباعة الصحف.

> المنظمة، التي ستتشكل حول هذه الصحيفة، منظمة المتعاونين معها (بالمعنى الواسع للكلمة، أي جميع الذين يعملون من أجلها)، ستكون جاهزة لكل شيء، بدءاً من التمسك بالشرف والهيبة واستمرارية الحزب في فترات "الاكتئاب" الثوري الحاد، إلى التحضير، وتعيين الوقت، وتنفيذ الانتفاضة المسلحة على مستوى الأمة كلها.

كان ماركس غامضاً بشأن الثورة. سيكون للبروليتاريا مصلحة ما في قمع البرجوازية، لكن سيناريوه الرهيب كان سلبياً إلى حد كبير: التاريخ سيغير العالم ويجلب السعادة للشعب المختار. كانت رؤية لينين للنهاية نشطة: ومن كرسيه، أراد أن يكتب البروليتاريا في الموضع الذي سيأخذون منه السلطة ويسنون قصة التحول العالمي.

نشر **ما العمل؟** عام ١٩٠٢ وأحدث ضجة كبيرة بين أعضاء الحركة الماركسية الروسية السرية، مما أثار غضب خصوم لينين وشحن القراء المسحورين بقناعته (إغرائه) أن الثورة يمكن وينبغي أن تُعجّل بها مجموعة أساسية من المؤمنين الحقيقيين، وهو الاعتقاد الذي تم التعبير عنه بشدة، كاليقين. في الواقع، كان نجاح الكتاب عظيماً لدرجة أنه أثبت هوية مؤلفه الثورية: "لينين" كان الاسم على الغلاف، وسيبقى لينين. الآن، أصبح الصبي البالغ من

العمر سبعة عشر عاماً الذي أعادت بناؤه مجموعة من النصوص، رجلاً أعاد تسميته كتاب. ومن خلال **ما العمل؟** نجح أخيراً في كتابة دوره الرائد في الماركسية الروسية.

وقد غير مجرى التاريخ أيضاً. فبعيداً جداً، في منطقة القوقاز الجبلية، قرأه ثوري شاب يدعى جوزيف جوغاشفيلي (الذي أعاد تسمية نفسه لاحقاً باسم ستالين) واستلهمه. في لينين، الذي كتب بحماس شديد عن الحاجة إلى السيطرة المركزية والمؤامرات السرية، رأى ستالين القائد المثالي للماركسية الروسية. وعلى مسافة بعيدة في سيبيريا، كان ليف برونشتاين (الذي سيعيد تسمية نفسه لاحقاً باسم ليون تروتسكي) قد استلهمه أيضاً. إلا أنه على عكس ستالين، سيخفف في وقت لاحق من حماسه. لخّص الكتاب بعد عامين من نشره، وبعد مقابلة مؤلفه، كتب قائلاً: "إذا ثار أحدهم وتمرد ضدي، فهذا أمر سيء للغاية. أما إذا كنتُ المتمرد، فهذا جيد". وهذا هو المعنى الموجز والمبهج لكتاب طويل وممل، محشو بالاقتباسات، وأوجه التشابه "العالمي"، الرسوم البيانية المصطنعة وجميع وسائل التخدير العقلي الأخرى".

لاحظ تروتسكي أيضاً، بدقة تامة، أن رؤية لينين لزمرة حاكمة من الثوار ذاتية الاختيار ستؤدي إلى أن "يستبدل" الحزب نفسه بمنظومة الحزب، وأن تستبدل منظومة الحزب نفسها باللجنة المركزية، وأخيراً يحل الديكتاتور نفسه محل اللجنة المركزية. وهكذا، في عام ١٩٠٤، وضع تروتسكي الطريق من كتيب لينين إلى وقائع النظام الستاليني -على الرغم من أن هذا لم يمنعه من الانضمام إلى لينين في عام ١٩١٧.

في عام ١٩٠٣، حضر لينين المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، الذي انعقد في لندن لتجنب لفت انتباه شرطة القيصر السرية. ومع ذلك، كما أثبت بشكل واف في **ما العمل؟** كان لينين أقل سعادة في مهاجمة الرأسمالية مما كان عليه في خلافه مع زملائه الماركسيين، وسرعان ما صمم انشقاقاً داخل الحزب.

كان جوهر الصراع هو النزاع حول معايير عضوية الديمقراطيين الاشتراكيين. أصر لينين على سياسة دخول على غرار الاستوديو ٥٤[1] من الصرامة القصوى، تمشياً مع النخبوية

---

١ - استوديو٥٤ هو ملهى ليلي سابق ومسرح برودواي حالياً. تم بناء المبنى في الأصل باسم دار غالو للأوبرا، وتم افتتاحه في عام ١٩٢٧، وبعد ذلك تم تغيير الاسم عدة مرات، ليصبح في نهاية المطاف استوديو لإذاعة وتلفزيون CBS. كملهى كان مخصصاً للمشاهير والأثرياء ونمط الحياة الفاخر. -المترجم

التآمرية التي دعا إليها في **ما العمل**؟ وافق خصومه على الحاجة إلى ضوابط مشددة -فقط، وليست ضيقة للغاية. انقسم الحزب إلى فصيلين، حيث انتصر لينين كزعيم للجناح البلشفي ("الأغلبية")، بينما تمت تسمية خصومه، الذين أظهروا نقصاً مذهلاً في مهارات العلاقات العامة، بجناح المنشفيك ("الأقلية")، مما مكّن خصومهم من تسميتهم إلى الأبد كقبيلة من أقزام السياسية. قام لينين بعدها بتمديد مجال الصراع عبر الحرب النصية، في كتابه عام ١٩٠٤ **خطوة واحدة إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء**، والذي فيه، بعد أن أمضى شهوراً يتمعن في اجتماعات لندن، خاض هجوماً دقيقاً على موقف المناشفة. كل ذلك بأسلوبه القاسي وسياسة الأرض المحروقة ("ضعف الشخصية السياسية"، "السخافة"، "عبادة التحايل الشرعي الوثنية"، إلخ). غضب زعماء المناشفة (الذين كانوا، في النهاية، أعضاء في الحزب نفسه، وكانوا يعتقدون بذلك أنهم متحدون ضد عدو مشترك). لم يعرفوا بعد من الذي كانوا يتعاملون معه.

* * *

في عام ١٨٩٤، ورث نيكولاي الثاني العرش الإمبراطوري من والده القيصر ألكسندر الثالث. كان القيصر نيكولاي رجلاً يتمتع بذكاء متواضع وعناد شديد، وكان أكثر اهتماماً بالحياة المنزلية من اهتمامه بشؤون الدولة، على الرغم من أنه أخذ دوره على محمل الجد - باعتباره المعيّن إلهياً "كأب" للشعب الروسي، وكان يعتقد أن من واجبه المقدس مقاومة التغيير والحفاظ على الاستبداد.

وكانت الأحداث، مع ذلك تتآمر ضده.

في عام ١٩٠٤، على سبيل المثال، شنت اليابان هجوماً مفاجئاً على قاعدة بحرية روسية في الصين بعد أن رفض نيكولاي اقتراحاً يابانياً بتقسيم كوريا ومنشوريا إلى مناطق نفوذ متبادلة. وقد صدم نيكولاي لعدم امتلاك اليابانيين حسن السلوك كي يعلنوا الحرب أولاً، لكنه سرعان ما أدرك هو ومستشاروه أن هذا قد أتاح لهم فرصة لنزاع سريع منتصر من شأنه أن يعزز الشعور الوطني ويوحد الأشخاص الذين يقفون وراءه. تلك هي الخطة، وعلى أية حال. وبدلاً من ذلك، حدثت هزيمة مذلة عندما أغرقت البحرية اليابانية في أيار

/ مايو ١٩٠٥ أو استولت على معظم أسطول البلطيق الروسي في معركة تسوشيما، وأجبرت روسيا على التماس السلام.

في هذه الأثناء، واجه نيكولاي الاضطرابات الداخلية المتصاعدة من سكان فقراء جائعين مجهدين. كانت هناك احتجاجات، وكان هناك إرهاب. وكانت هناك إضرابات وأعمال شغب. في ٢٢ كانون الثاني / يناير ١٩٠٥، سار الآلاف من العمال مع زوجاتهم وأطفالهم في مسيرة سلمية في اتجاه قصر الشتاء، مقر إقامة القيصر الكبير في سانت بطرسبرغ، لتقديم دعوى للإصلاح. لكن القيصر كان بعيداً، حيث كان يستمتع ببعض ألعاب الدومينو المريحة في مزرعته الريفية الفخمة جنوب العاصمة.

عند بوابات القصر حاصر الحراس المتظاهرين وهم على ظهور الخيل. ثم أطلقوا النار عليهم، ما أسفر عن مقتل أربعين وجرح المئات، بينما فر الآلاف بحياتهم. بعد ذلك، هاجت مجموعة من الغوغاء الغاضبين البالغ عددهم ٦٠ ألف شخص في جميع أنحاء المدينة، محطمين ومحرقين وناهبين. أطلقت السلطات النار على المزيد من الناس. وبحلول نهاية "الأحد الدامي"، ارتفع عدد الجثث إلى مائتي شخص، مع ثمانمائة جريح آخرين، وصار القيصر، في عيون الكثيرين، جزاراً بدم بارد.

انتشرت الآن الإضرابات والاحتجاجات والانتفاضات وأعمال الشغب والتمرد في جميع أنحاء الإمبراطورية -إلى بولندا وفنلندا ودول البلطيق وجورجيا. انتقمت جماعات "المائة السود" القومية المتطرفة المعادية للسامية والموالية للقيصر بالمذابح والإفراط في العنف، لكن الوضع الثوري استمر في التصاعد. في تشرين الأول/ أكتوبر، اندلع إضراب عام، وتشكلت الحكومات الثورية المعروفة باسم "السوفييت" في سانت بطرسبرغ وموسكو وأماكن أخرى.

بعد عشرة أشهر من ذلك، أدرك حتى نيكولاي الثاني الذي لم يكن ذكياً بما يكفي، أن روسيا تتأرجح على حافة الهاوية. قام المستشارون بالضغط عليه لإصدار "بيان تشرين الأول/ أكتوبر" الذي وعد روسيا بأول برلمان منتخب وبالحريات المدنية مثل حرية التعبير وحرية الصحافة. كانت هذه المقترحات موجهة إلى الليبراليين بدلاً من الثوريين، لكن الوعد بالابتعاد عن الحكم المطلق إلى شكل من أشكال الملكية الدستورية، كان كافياً لتجنب وقوع كارثة. ومن خلال تهدئة المنتقدين الأكثر اعتدالاً، انقسمت المعارضة وتشظّت وفقدت زخمها.

وأين كان لينين من هذا الدفق؟ لم يكن في أي مكان قريب، في الواقع: لقد كان في سويسرا، لأنه لا يريد المجازفة بالتعرض للاعتقال بالعودة إلى روسيا. وما الذي كان يفعله؟ لماذا السؤال، كان جالساً على كرسي ويمارس الكتابة، بالطبع - محاولاً توجيه الثورة من بعيد، عبر النثر.

في شهري حزيران/ يونيو وتموز/ يوليو كتب لينين "**اثنان من تكتيكات الديمقراطية الاشتراكية - في الثورة الديمقراطية**"، وهو هجوم آخر على المناشفة، الذين كانوا على استعداد لقبول حكومة برجوازية من النوع الذي اقترحه الإصلاحيون الليبراليون. عارض لينين ذلك باحتدامه المعتاد، قائلاً بدلاً من ذلك إن على البلاشفة أن يسيطروا على التمرد الشعبي وأن ينشئوا، تحت إشراف النخبة الثورية الماركسية، "ديكتاتورية ديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين". في تشرين الأول/ أكتوبر، عندما أصدر القيصر بيانه، جادل لينين بمزيد من زعزعة الاستقرار في روسيا من خلال العنف الشديد. وفي **مهام فرق الجيش الثوري**، حثّ الثوريين على تسليح أنفسهم "بأفضل ما يمكن"، بالأسلحة الفعلية والمرتجلة، بما في ذلك "البنادق، والمسدسات، والقنابل، والسكاكين، أغطية أصابع الملاكم، والعصي، والخرق المليئة بالكيروسين لبدء الحرائق، والحبال أو سلالم الحبال، والمجارف لبناء الحواجز، خراطيش البيروكسيلين (قطن البارود)، الأسلاك الشائكة، المسامير [ضد سلاح الفرسان]، إلخ".

هل هذا أفضل استخدام لـ"إلخ" في تاريخ البشرية؟ من المحتمل أن يكون كذلك. هناك شيء غير عادي حول هذا الموضوع، انفصال غير مهتم بطبيعة العنف الجسدي، كان ممكناً لأن لينين لم يشارك فيه أبداً. لكنه لم ينته بعد: إنه يتحدث أيضاً عن تحرير السجناء، والاستيلاء على الأموال، وقتل أعضاء النظام، وتحقيق الحد الأقصى من الفوضى المناهضة للحكومة من أجل مفاقمة الأزمة. وعلى الرغم من أن لينين يترك لقواته ملء التفاصيل الدقيقة، فإن الإرهابي الجالس على الكرسي لدينا لا يخلو تماماً من الخيال. وعلى وجه التحديد، كان يفترض أن صبّ الحامض على رجال الشرطة هو فكرة جيدة. ثم يعلن في النهاية:

> يجب على جماعات الجيش الثوري أن تعرف على الفور من الذي ينظم المئات السود وأين وكيف يتم تنظيمهم، وبعد ذلك، من دون أن يقتصروا على الدعاية (وهو

أمر مفيد، لكنه غير كافٍ)، عليهم أن يتصرفوا بالقوة المسلحة، ويضربوا ويقتلوا أعضاء عصابات المئات السود، وينسفوا مقراتها، إلخ، إلخ.

في الواقع، هذه الـ"إلخ."، الأفصح في تحبيذه الاتفاقي للقتل، هي الأفضل في تاريخ البشرية.

عاد لينين إلى روسيا في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٠٥، بمجرد صدور عفو سياسي، ودعا إلى انتفاضة مسلحة. حتى وسط الفوضى، أظهر تركيزاً ملحوظاً واهتماماً بالتفاصيل، خاصةً فيما يتعلق بالنصوص. على سبيل المثال، رأى أنه كان من الضروري أن يحدد على الفور كتابة الرد الماركسي الصحيح على حريات الصحافة الروسية عند استهلالها - ما الذي ينبغي أن يبدو عليه الأدب المكتوب مع وجود ترخيص للحزب بالطباعة والنشر؟ في كتابه "**تنظيم الحزب والأدب الحزبي**"، الذي نُشر في ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٥، جمع بين إداناته المملة المعتادة للمعارضين الأيديولوجيين مع المطالبة باتباع نهج موحد موجه سياسياً: "فليسقط الكُتّاب غير الحزبيين! ليسقط رجال الأدب العظماء!" ويعلن كذلك "يجب أن يصبح الأدب جزءاً من القضية المشتركة للبروليتاريا، ويكون "ترساً ومسماراً" في آلية اجتماعية ديمقراطية واحدة كبيرة تطلقها الطليعة الواعية سياسياً في كامل الطبقة العاملة".

في البداية، يبدو أن لينين يؤيد حرية القلم ("لكل شخص الحرية في كتابة ما يحلو له، من دون أي قيود")، لكنه يضيف تحذيرات هامة بأن أدب الحزب خاضع لسيطرة الحزب، وأن أي شخص يكتب ضد الحزب سيتم طرده. ثم يرفض الحرية باعتبارها شيئاً لا معنى لها أساساً في المجتمع البرجوازي المبني على استغلال الجماهير: "إن حرية الكاتب أو الفنان أو الممثلة البرجوازية هي ببساطة حرية مقنّعة (أو مخفية بصورة منافقة) اعتماداً على حقيبة المال أو الفساد أو الدعارة". الحرية الحقيقية لن تكون موجودة إلا في ظل الاشتراكية، وكُتُبُ هذا العالم الجديد هي وحدها التي ستثري الكلمة الأخيرة في الفكر الثوري للبشرية بتجربة البروليتاريا الاشتراكية وعملها المعيشي. في غضون ذلك، على كل صحيفة ومجلة ودار نشر تطلق على نفسها صفة "الديمقراطية الاشتراكية" أن تدمج نفسها في منظمات الحزب. ليس من الصعب رؤية أين يقود هذا بالطبع، وقد أدى إلى هناك.

في هذه الأثناء، واصل لينين سعادته بالتآمر، حتى إنه وقف إلى جانب المناشفة ضد فصيله البلشفي عندما قال، بعد فشل الانتفاضة، إن على الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي تقديم مرشحين لانتخابات البرلمان الجديد، الدوما. لكن لحظة تحوّل روسيا لم تأتِ بعد. بحلول مارس/ آذار ١٩٠٦، كان نيكولاي الثاني ينكث بالفعل بوعوده، ويجادل بأن مداولات الدوما لا تنطبق عليه. في نيسان/ أبريل أصدر القيصر "القوانين الأساسية للإمبراطورية الروسية"، محتّماً بأنه وحده من يمكنه أن يعيّن الوزراء، وأنه فقط الذي يستطيع فصلهم. أيضاً، يمكنه حلّ مجلس الدوما حسب رغبته، وإجراء انتخابات جديدة إذا شعر بالحاجة إلى ذلك - وهو لم ينعقد بعد. قام رئيس وزرائه بيوتر ستوليبين بقمع الثوريين والإرهابيين في روسيا، الذين كان البلاشفة بينهم (خلال هذه الفترة) لاعبين فقط.

من دون الإخلال بـ"إلخ" التي كتبها لينين، كانت الجماعات الثورية الأكثر تطرفاً مسؤولة عن معظم أعمال العنف. ابتهج أولئك المتعصبون تحت مجموعة مختارة من الأسماء التي تناسب عصابات بلاك ميتال التي شكلها المراهقون الاسكندنافيون كمنظمات سياسية، مثل "الفزع" و"الموت من أجل الموت" و"الغيمة السوداء" و"الغربان السود". واغتالت هذه الجماعات الحكام، ورجال الشرطة والجنود والموظفين المدنيين وفجروا التماثيل وأحرقوا الكنائس، حتى توقفت الصحف عن الإبلاغ عن هذه الأعمال الوحشية بدافع فقدان الحس. لم تكن روسيا غريبة على العنف السياسي، لكن في حين أن إرهاب القرن التاسع عشر الذي حاول شقيق لينين المشاركة فيه قد أدى إلى مقتل حوالي مائة شخص على مدى خمسة وعشرين عاماً، قتل الإرهابيون أو جرحوا ما بين عامي ١٩٠٥ و١٩٠٧ تسعة آلاف شخص، ما يقرب من خمسة آلاف منهم كانوا مدنيين، وفقاً للمؤرخة آنا جيفمان.

ردت الدولة بالعنف بدورها -وما بين عامي ١٩٠٦ و١٩٠٧، أعدم ستوليبين أكثر من ألف متطرف. وكما يحدث في كثير من الأحيان، فإن العنف يحل المشكلة. أو على الأقل، يزيل الحدة من الموقف. مرت لحظة الأزمة، وتمّ منح بعض الإصلاحات المحدودة، واحتفظ نيكولاي بقبضته على السلطة. في نهاية عام ١٩٠٧، فرّ لينين من البلاد، خوفاً من الاعتقال، وعاد إلى كرسيه، وإلى حياته كمؤلف، مجبراً على كتابة السيناريو لشخصيات مسرحيته الثورية

في ستوكهولم، وفي برلين، وفي جنيف. ولكن هل كانت الثورة كلها في داخل رأسه، أم أنها في الواقع شيء قد يحدث في العالم المادي؟

* * *

في الواقع، ولسنوات عديدة، كان الإيمان بانتفاضة كارثية تغير العالم بقيادة البلاشفة، يشبه إلى حد كبير شكلاً من أشكال الذهان، لأن لينين كان يعاني أزمات من داخل الحزب ومن دونه.

أدى إصرار لينين على مساهمة الاشتراكيين الديمقراطيين في انتخابات البرلمان الجديد، إلى انشقاق داخل البلاشفة، حيث قاد ألكسندر بوغدانوف، المنظِّر المنافس، فصيلاً يطالب بالمقاومة المسلحة بدلاً من ذلك. بحلول عام ١٩٠٨، كانت سلطة لينين آخذة في التناقص، ولم يحل سوى كتاب **المادية والمذهب النقدي التجريبي** وحده دون وقوع كارثة -وهو كتاب كتب على عجل عن علم نظرية المعرفة، والأكثر وضوحاً في وحشية هجماته على الناتج النظري لبوغدانوف من احتوائه على أي رؤى فلسفية معينة. فاز العنف الخطابي اللينيني، وطُرد بوغدانوف حسب الأصول من اللجنة البلشفية المركزية.

ومع ذلك، ورغم عودته إلى السيطرة، ظل لينين يواجه مشاكل خطيرة. لقد أعاد النظام القيصري التأكيد على وجوده، وفاق عدد المناشفة عدد البلاشفة، وبدا الوضع ميؤوساً منه حتى إنه في عام ١٩٠٩ ظهر فصيل جديد من وسط الديمقراطيين الاشتراكيين -"المنادون بالتصفية" الذين جادلوا بأنه يجب على الحزب إلغاء نفسه. ردّ لينين بعدها، وتسبب لهم بهزيمة ثقيلة من الورق والحبر في كتيبه الغاضب **"تصفية المنادين بالتصفية"** (١٩٠٩). لكن المنادين بالتصفية، كانوا محقين في شيء واحد: لم يكن الحزب مزدهراً.

لوضع الأمور في نصابها الصحيح، ضع في اعتبارك أنه في عام ١٩٠٧ كان عدد أعضاء الحزب الاشتراكي - الديمقراطي حوالي ١٥٠.٠٠٠ وكانت طائفة الخصيان (أو السكوبتسي)، وهي طائفة من المؤمنين القياموبين الذين يعتقدون أن الخلاص سيأتي بمجرد تمكنهم من إخصاء ١٤٤.٠٠٠ شخص، كانت الطائفة تضم حوالي ١٠٠.٠٠٠ عضو خلال الفترة نفسها. فحتى في ذروتها، لم تكن الماركسية أكثر شعبية من سحق خُصي الرجال بين

صفائح ساخنة، وهي طريقة الإخصاء التي تمارسها الطائفة. وبحلول عام ١٩١٠، صارت أقل شعبية بكثير، حيث انخفضت عضوية الاشتراكيين الديمقراطيين الروس إلى ١٠.٠٠٠: وقد استلزم دمج كلا فصيليها المتصارعين لتعدل عُشر مجموع الخصيان.

ومع ذلك، لم يخفت إيمان لينين. ومثلما واصل السكوبتسيون تدمير الأعضاء التناسلية على أمل التمكن من تحقيق حلمهم القياموي، استمر هو في الكتابة سعياً وراء حلمه، وقد تملكه إيمان مطلق راسخ بالثورة القادمة. تدفقت مئات الآلاف من الكلمات من أطراف أصابعه، وهو يكتب ضد خصومه، أو وهو يكتب ضد القيصر، ضد الإمبرياليين، وضد الليبراليين، مغيراً تكتيكاته فجأة كلما تطلب الوضع التاريخي ذلك، حيث سعى إلى تسجيل حلمه في التاريخ.

هذا يتطلب إيماناً هائلاً بالنفس. في عام ١٩٢٤، قال كارل راديك، أحد المشاركين في ثورة ١٩٠٥ وزعيم الأممية الشيوعية[1] لاحقاً، إن لينين كان "الرجل الأول الذي آمن بما كتبه، ليس كشيء قد يحدث خلال مائة عام، بل وكأنه كيان ملموس". لهذا السبب كان قادراً على "التغلب على كل الارتباكات وحمل الحزب على النضال من أجل السلطة". كصريف متقطع مشحون بطاقة خافقة نابضة غاضبة، يهيّج نثر لينين إرادة القارئ بالتسليم له، كالقدر. اقرأ لينين وسيحاول امتلاكك وأن يستحوذ عليك. وإذا كان هذا ما يمكن أن يفعله وهو شبح من حبر وورق، فتخيل ما كان عليه الحال عندما كان حياً وكنت تشاركه كراهيته بالفعل وتؤمن بالنبوءات، وتستسلم عندما يمتد نص لينين من الصفحة ليقدم لك غليون كوكايين الثورة لتحصل على جرعة أخرى من الهراء الجيد.

***

عالقاً في المنفى، لكنه ما يزال قائداً لطائفته الماركسية المتضائلة. في النصف الأول من عام ١٩١٤، كتب كتابه **"حق الأمم في تقرير المصير"** الذي دعا فيه إلى تفكيك الإمبراطوريات العظيمة. ها هو يعلن:

---

١ - الشيوعية الأممية، هي منظمة تدافع عن الشيوعية العالمية ومقرها في موسكو وتخضع لسلطة الكرملين. المؤلف

المساواة الكاملة في الحقوق لجميع الدول؛ حق الأمم في تقرير المصير؛ وحدة عمال جميع الأمم - هذا هو البرنامج الوطني الذي تُعلّمه الماركسية للعمال، تجربة للعالم كله وتجربة لروسيا.

إنه لشيء مثير - بالنسبة إلى مؤلف في منتصف العمر لم يغير معتقداته السياسية الأساسية منذ أن كان في السابعة عشرة. ومع ذلك، كان التاريخ على وشك اللحاق بلينين. في ٢٨ حزيران/ يونيو ١٩١٤، أطلق غافريلو برينسيب النار على الأرشيدوق النمساوي فرانز فرديناند، وانطلقت سلسلة الأحداث التي أدت إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى. تمّ القبض على لينين فجأة، لكنه كان يعرف ما يجب فعله: الكتابة بالطبع. في كتابه "**الاشتراكية والحرب**" (١٩١٥)، جادل بأن على الجنود من مختلف الدول التوقف عن قتل بعضهم بعضاً، وبدلاً من ذلك الثورة على قادتهم؛ وهذا عندما كانت غالبية الاشتراكيين في أوروبا وروسيا يستسلمون (لنقيصة) الوطنية. أجاب لينين على منتقديه بكتاب **الإمبريالية، أعلى مراحل الرأسمالية** (الذي كتبه عام ١٩١٦، ونشر عام ١٩١٧)، والذي "أثبت" فيه أن دعم جانب في الحرب كان دعماً للرأسمالية وخيانة للمبادئ الماركسية.

ومع ذلك، وعلى الرغم من المذبحة، وحتى مع تأرجح النظام الأوروبي القديم على شفا الانهيار، قام لينين بمراجعة مبدئية لجدوله الزمني التنبؤي. في محاضرة ألقاها في زيوريخ في كانون الثاني/ يناير١٩١٧، أعرب عن يقينه بأن الحرب ستؤدي إلى "انتفاضات شعبية تحت قيادة البروليتاريا ضد سلطة رأس المال التمويلي، وضد البنوك الكبرى، وضد الرأسماليين"، وأن هذه الاضطرابات لا يمكن أن تنتهي إلا بـ"مصادرة أملاك البرجوازية، وانتصار الاشتراكية". ومع ذلك، فقد خلص إلى تعبير غير معهود عن الشك. ولم يعد لينين، البالغ من العمر ستة وأربعين عاماً الآن، على يقين بأن تلك اللحظة الحاسمة من الاضطرابات العنيفة كانت وشيكة تماماً مثلما احتفظ بها لأكثر من عقدين ونصف من النشاط الثوري؛ في حقيقة الأمر، قد تحصل بعد وفاته ورحيله. وقال أمام جمهوره: "نحن من الجيل الأكبر سناً، وقد لا نعيش لنرى المعارك الحاسمة لهذه الثورة القادمة". سيكون الكثير من الشباب الاشتراكي سعيداً بأن يشهد تغير العالم".

ولكن بعد شهر، بدأت المعارك الحاسمة. وبعد شهر من ذلك، تنازل القيصر. وبعد شهر من ذلك، استقل لينين القطار إلى روسيا. وماذا فعل في الرحلة؟ لقد كتب، بالطبع، صائغاً تفاصيل **أطروحات أبريل**، والتي دافع فيها عن التحرك السريع نحو الديكتاتورية الثورية، بالرغم من المرحلة الانتقالية للديمقراطية البرجوازية، التي يُزعم أنها ضرورية وفقاً للنظرية، قد بدأت للتو. فبعد أن عانى لينين من فترة وجيزة من الشك، كان ينوي تسريع مصير روسيا.

لم يعش لينين في روسيا منذ عام ١٩٠٧، لكنه كان مقتنعاً بأنه يفهم الوضع الثوري أفضل من الجميع. كان بالكاد يغادر مقصورته في محطة بتر وغراد[1] في فنلندا عندما انتقد زملاءه البلاشفة كونهم شديدي الحذر. كان ستالين، الذي أطلق سراحه للتو بعد فترة طويلة من المنفى في سيبيريا وهو الآن من كبار البلاشفة، يعتقد أن نقاش لينين كان مجنوناً؛ واتفقت معه معظم النخبة في الحزب. أعلن المناشفة أن **أطروحات أبريل** وصفة للمجزرة وإراقة للدماء.

لم يكن لينين لينتصح. وفي سلسلة من المقالات (وخطاب عارض)، ندد بالحكومة المؤقتة، باعتبارها أداة لا قيمة لها للإمبريالية. وقال إن على الماركسيين والبروليتاريين أن يتحدوا. مُثاراً بقرب نهاية العالم، استسلم لينين للرسومات الغرافيكية الثورية، حيث نشر ما لا يقل عن ثماني وأربعين مقالة في صحيفة **برافدا** في أيار/ مايو ١٩١٧. غير راغب في ترك الثورة لقوى ماركس التاريخية، أصر على أنه يتعين على البلاشفة الكفاح من أجل جلب هذا العالم الجديد إلى حيز الوجود. كانت هذه لحظة التحقق القيامويي، عندما يُعاقب الأشرار ويكافأ الأبرار، ويرث العمالُ الأرضَ.

ومع ذلك، حتى في هذه المرحلة المحمومة من الإثارة، ظل لينين مشغلاً داهية مزيجاً غير عادي من المتعصب والبراغماتي. لقد أدرك أن الأفكار التي بدت مقنعة للغاية في القطار القادم من زيوريخ، قد تجلب في الواقع مقاومة الفلاحين، الذين يحتاج البلاشفة إلى دعمهم. وهكذا كان على استعداد للتخلي عن سياسة التأميم الفوري للأراضي المبينة في **أطروحات أبريل**،

---

١ - الكلمة الألمانية الصوت: سانك بيتربرك (كما تنطق في الروسية) تم تحويلها إلى الروسية خلال الحرب العالمية الأولى كاحتراز وطني. المؤلف

حيث كان يدرك أنها لم تحظَ سوى بالقليل من دعم الأشخاص الذين عاشوا بالفعل على الأرض. واستمع الحالم القياموي لينين إلى نصيحة الخبير الاستراتيجي لينين.

في خضم الفوضى، قاد طريقاً حازماً نحو التحول. بعد كل تلك السنوات التي اهتاج فيها على الورق من أجل الثورة، قام الآن بتطبيق أفكاره على الأحداث الفعلية. دعا إلى الانسحاب الفوري من الحرب التي كانت الحكومة المؤقتة لا تزال تخوضها. كما أمضى بعض الوقت في التحدث إلى العمال والجنود والبحارة. ولكن بعدها خرجت الأمور عن السيطرة، حيث أثبت العالم الواقعي أنه أقل سهولة في الانقياد من التعامل مع القلم والحبر.

كان لينين قلقاً من أنه إذا قام البلاشفة بانقلاب، فقد يصلون إلى ذروتهم في وقت قريب وستفشل الثورة. ومع ذلك، فإن الجنود والبحارة والعمال الموالين للبلاشفة سمعوا شعار لينين "كل القوة للسوفييت"، وافترضوا أنه يعني ذلك. وهكذا في ٤ تموز/ يوليو ١٩١٧، غادر عشرون ألف بحّار قاعدتهم بحثاً عن قائد للثورة، وتجمعوا خارج مقر البلشفية، متوقعين إخبارهم أن الوقت قد حان لاقتحام قصر توررايد، مقر الحكومة المؤقتة. خرج لينين إلى الشرفة وطمأن الحشد بأن الثورة قادمة، وكل ما هنالك هو أن الوقت لم يحن بعد. ثم اختفى، وترك الغوغاء يتساءلون كيف ومتى. لكن لينين كان كاتباً، وليس خطيباً. ولم يكن لديه ما يقوله.

اقتحم الحشد القصر على أي حال، ولكن لينين كان على حق: لقد كان الوقت مبكراً جداً. وفشل الانقلاب. وفي اليوم التالي، ظهرت الصحف في الشوارع وهي تدين لينين باعتباره جاسوساً ألمانياً، بينما أصدرت الحكومة المؤقتة أمراً بالقبض عليه. حَلَقَ ستالين عثنون لينين، ثم وضع أب البروليتاريا العالمية شعراً مستعاراً على رأسه وهرب عبر الحدود إلى فنلندا (التي كانت في تلك الأيام أرضاً روسية، ولكنها غير مخلصة تماماً).

بالنسبة إلى معظم الناس، فإن كارثة مثل هذه، تحدث عندما يقف لينين على أعتاب إنجاز الثورة، كانت كارثة أو، على الأقل، سبباً ممتازاً للتبطّح في غرفة مظلمة لمدة أسبوع أو أسبوعين. لكن لينين، الذي لا يقهر كما كان دائماً، فعل ما يفعله دوماً. وهو أن يكتب.

لقد قرر الآن أن يفعل ما فشل ماركس في القيام به: وسيصف عالم ما بعد الثورة -كيف سيبدو، وكيف سيعمل، وكيف سيعيش الناس فيه. كان يفكر في هذا منذ عام ١٩١٦، وصنع

بعض الرسومات الأولية في ذلك الصيف. كان ماركس مستقبلياً ضعيفاً، حيث لم يقدم أكثر من التصريحات الكبرى **للبيان الشيوعي**، وبعدها عبارة "ديكتاتورية البروليتاريا"، التي استعارها من صديقه وزميله الثوري جوزيف ويديماير. كما أضاف فريدريك إنجلز، من جانبه، أن الدولة "ستختفي في النهاية". تدخّل لينين لملء الفراغ الأسكاتولوجي (الآخروي). وكانت النتيجة كتاب **الدولة والثورة**، وهو العنوان الذي نقله عن تكاشيف، تماماً كما استعار **ما العمل**؟ من تشيرنيشيفسكي.

إذاً، ما الذي رآه قادماً في المستقبل؟ حسناً، سيكون هناك عنف: الكثير منه، في الواقع. يقول لينين: "إن الثورة العنيفة تكمن في أصل نظرية ماركس وإنجلز بأكملها". ربما يكون هذا بمثابة مفاجأة لكلا الرجلين. على الرغم من أن أياً منهما لم يكن محصناً ضد التخيلات التي ينطوي عليها تدمير البرجوازية أو، في حالة إنجلز، شعوب بأكملها، إلا أنهما لم يعلنا أبداً أن العنف هو الجانب الأساسي لفكرهما. كانت ثورة ماركس سلبية إلى حد كبير، حيث ظهرت كنتيجة "طبيعية" لأزمات تاريخية معينة. وكان تقديس القبضة الضاربة فكرة لينين، وبعد اعتناقها، كان صريحاً في اعترافه بأنه خلال المرحلة الانتقالية من الرأسمالية إلى الشيوعية، ستكون هناك حاجة إلى "الانضباط الشديد"، أي القمع العنيف للعدو الطبقي، وأن النظام الكامل للدولة البرجوازية سيكون "محطماً". وعد عالم اللاهوت المسيحي في القرن الثالث، ترتليان، قراءه بأنهم حالما يكونون في الجنة، فسيتمتعون بمشاهدة عذاب الملعونين؛ وهكذا قدم لينين لقرائه الرضا بمعرفة أنهم سيختبرون قريباً البهجة الرائعة لرؤية من يكرهونهم وهم يتلقون عقاباً عادلاً في العالم المقبل.

وما الذي سيحل محل الدولة المحطمة؟ حسناً، ليس دولة، كما يقول لينين. هذا لأنه، وفقاً لإنجلز، ليست **الدولة** مصطلحاً محايداً يصف وسيلة لتنظيم المجتمع، بل وسيلة تصبح من خلالها "الطبقة المسيطرة الأقوى اقتصادياً" البرجوازية "الطبقة المسيطرة سياسياً"، وبالتالي تتمكن من الحصول على "وسائل جديدة للإبقاء على الطبقة المستضعفة واستغلالها". ولأن البروليتاريا ستكون مسؤولة بعد الثورة، والاستغلال (طبعاً) قد اختفى من على وجه الأرض، إذاً فإن الدولة، التي هي مجرد محرك للقمع، ستختفي من الوجود. وأياً كانت الهياكل التنظيمية المتبقية، فلن تكون "دولة". واضح؟

كانت المشكلة، بالطبع، أنه من الصعب تخيل كيف سيبدو عالم ما بعد الثورة، حيث لم يعشه أحد فيما مضى، أو على الأقل ليس لفترة طويلة. لذا اعتمد لينين بشدة على تفسير ماركس وإنجلز لكومونة باريس لعام ١٨٧١، حيث أقام "الشعب" لبضعة أشهر إدارة المدينة من الزعماء، ولم تمنع سوى قوى الرجعية عالماً أكثر عدالة خالياً من الاستغلال من البزوغ. في النهاية، من الواضح أن التجربة الفاشلة التي استمرت لشهرين من العيش في مجتمع المساواة الثوري، هي أفضل مؤشر على كيفية عيش كل من الرجال والنساء معاً في المستقبل، متجاوزين كل الأدلة التجريبية على كيفية عيشهم قبل تلك اللحظة. هذا، في الواقع، هو الجزء الأكثر إثارة للاهتمام في **الدولة والثورة**، حيث كان لينين، جيداً جداً في التكتيكات العملية وفن الهجوم، ساخراً جداً في مناوراته، يتحول فجأة إلى وضع المتفائل ويحاول تحديد الصفات الإيجابية في البروليتاريين السعداء المستقبليين. يقول لينين: "لا توجد طوباوية عند ماركس، بمعنى أنه أسس أو اخترع مجتمعاً جديداً"، وهذا صحيح طالما أنه يستبعد التفاصيل. في هذه السياق، وبالإشارة إلى باريس، يستطيع لينين الادعاء بأن استغراقه في أحلام اليقظة يستند في الواقع إلى أدلة، وبذلك ينتهي إلى العبثية التامة.

ماذا يعني أن تقول إن الدولة سوف "تذوي"؟ الأمر بسيط للغاية:

> يمكن بل ويجب البدء تواً، وعلى الفور، باستبدال "القيادة" المحددة لمسؤولي الدولة بالوظائف البسيطة المتمثلة في "الملاحظين والمحاسبين"، وهي وظائف أصبحت بالفعل وبالكامل ضمن قدرة ساكن المدينة العادي ويمكن إنجازها جيداً مقابل "أجور العمال".

نعم: في المستقبل، سيتمكن أي شخص، إلى حد كبير، من أداء المهام الضرورية لتنظيم المجتمع. سوف تختفي إرادة السلطة والرغبة في السيطرة على الآخرين وتكديس الثروة. يستمر لينين:

> المحاسبة والرقابة - هما ما نحتاجه أساساً من أجل "العمل السلس"، ولحسن سير العمل، خلال المرحلة الأولى من المجتمع الشيوعي. حيث يتحول جميع المواطنين

إلى موظفين معينين في الدولة، التي تتكون من العمال المسلحين. ويصبح جميع المواطنين موظفين وعاملين في دولة واحدة هي "النقابة".

طالما أن الجميع يعرف بعضاً من أساسيات الحساب ويستطيع أن يقرأ، فإن البلاشفة سيحصلون على هذا الشيء الذي سيدير العالم في أقرب وقت:

> كل ما هو مطلوب هو أن عليهم العمل على قدم المساواة، والقيام بنصيبهم الصحيح من العمل، والحصول على أجر متساو؛ بسّطت الرأسمالية المحاسبة والرقابة اللازمة لذلك إلى أقصى حد، واقتصر الأمر على العمليات البسيطة للغاية - والتي يمكن لأي شخص متعلم القيام بها - للإشراف والتسجيل، بمعرفة قواعد الحساب الأربع، وإصدار الإيصالات المناسبة.

نرى هنا عيباً كبيراً في تعيين ثوري محترف وكاتب مسؤولاً عن بلد ما. لم يكن لينين قد حصل على وظيفة مناسبة على الإطلاق: تم تمويله في البداية من والديه، ثم من خلال كتاباته والحزب، لم يكن لديه أي فكرة عما كانت عليه في الواقع الحياة خارج العالم المنعزل للسياسة الراديكالية. في وقت لاحق، سيتوصل إلى معرفة الحاجة إلى الإداريين، لكنه في هذه اللحظة مخمور تماماً بالحلم، لدرجة أنه يتنبأ بأن الجميع سيفعلون الشيء الصحيح، بسبب... حسناً، بسبب أنهم سيعتادون على ذلك:

> في سعينا لتحقيق الاشتراكية، نحن مقتنعون بأنها ستتطور إلى الشيوعية، وبالتالي فإن الحاجة إلى العنف ضد الناس بشكل عام، من أجل إخضاع رجل إلى آخر، وقسم من السكان إلى آخر، سوف تتلاشى كلياً، لأن الناس سوف يعتادون على احترام الشروط الأساسية للحياة الاجتماعية من دون عنف ومن دون تبعية.

ويعلن "في ظل الاشتراكية، سيحكم الجميع بدوره، وسيصبحون معتادين على الحكم الذي لا يعود لأحد". كل تهكمه وعنفه والنقد المنطقي الشرس يتلاشى ليكشف عن الطوباوية الأسمى. ولكن من سينظف المراحيض؟ هذا السؤال يمضي من دون أن يطرحه أحد.

الدولة والثورة كتاب مهم. إنه يكشف، في إبراز صارخ، عن قدرة الخيال القياموي على مزج القدرات النقدية لعقل تحليلي باهر. كان لينين، عبقري الثورة، الذي قرأ فوضى عصره

أفضل من أي شخص آخر ونجح في تغيير مجرى التاريخ، مستلهماً ذلك من الهراء. واستخدم فكره العظيم لإقناع نفسه والآخرين بهذا الهراء. بعد عقود من انهيار الاتحاد السوفيتي، ما يزال **الدولة والثورة** بمثابة حكاية تحذيرية عن قدرة الأشخاص الأذكياء للغاية على خداع أنفسهم بشأن الأشياء الأساسية.

لقد فعل لينين ذلك بطريقة معقدة في بداية حياته المهنية، بالهجوم الإحصائي على الواقع في **تطور الرأسمالية في روسيا**. الآن، قام بصرف النظر عن الحقائق والأرقام لصالح الاستقراءات الجامحة، استناداً إلى تجربة العيش التي استمرت لمدة ثلاثة أشهر في مدينة فرنسية في عام ١٨٧١ . الإيمان لا يتجاهل الكثير من المنطق بقدر ما يستعبده ويستغله بعد ذلك لإنشاء أهرامات خيالية شُيدت بناء على الرغبة الصرفة.

بعد قراءة "**الدولة والثورة**"، من المستحيل أن نُفاجأ بأن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية قد ظهر بشكل سيئ للغاية. كانت قوانين ماركس للتاريخ وهمية، وكانت رؤية لينين بعد الثورة عبثية، لكن لينين استثمر عقوداً من حياته وهو يطارد هذه المدينة الفاضلة. وقد آمن بها بكل إرادته الكبيرة. ماذا كان سيفعل، يهجرها؟ من غير المحتمل. في **الدولة والثورة**، أشار إلى أن ماركس منحه حق الوصول إلى المرحلة الانتقالية التي ستقمع خلالها "ديكتاتورية البروليتاريا" المقاومة من خلال القوة العادلة والضرورية. وقبل أن تبدأ الثورة، أحدث لينين وسائل بديعة لتأجيل الاعتراف بفشل حلمه إلى أجل غير مسمى، وإذا كان على الناس أن يموتوا للحفاظ على تلك الحالة من الإنكار الأبدي، فهذا أمر جيد أيضاً. لقد تنبأ ماركس بحدوث ذلك -من أجل السعادة المستقبلية للبشرية جمعاء، بالطبع.

وهكذا يمكنك قراءة الوثائق السرية التي كتبها لينين بعد الثورة، لكنها انتظرت سبعين عاماً حتى رُفعت السرية عنها، وتجد أنه ما يزال يكتب عن قرب حدوث الثورة الاشتراكية في أوروبا الغربية في عشرينيات القرن العشرين؛ أو يدافع عن تشكيل جيش لغزو بولندا للمسارعة بالثورة هناك؛ أو يتحدث عن الحاجة إلى إبادة القوقاز، وحرق باكو وتسويتها بالأرض، وإطلاق النار على القساوسة وإطلاق الإرهاب الأحمر -نعم، يمكنك قراءة جميع المواد التي قمعها النظام السوفييتي لعقود من الزمن،.

استمر لينين في الكتابة. وواصل بعد الثورة كتابة المجادلات الانفعالية ضد الأعداء، بما في ذلك نصوص مثل **الثورة البروليتارية والمتمرد كوتسكي** (١٩١٨)، والتي دافع فيها عن الديكتاتورية في نقد لاذع عنيف استهدف الماركسي الألماني الذي أعجب به ذات مرة؛ أو كتابه: **الشيوعية "اليسارية": اضطراب طفولي** (١٩٢٠)، حيث يندد بعنف ضد الأناركيين وغيرهم من المتطرفين اليساريين. كما أضاف أنماطاً جديدة من الكتابة إلى أعماله الكاملة: تدفقات من القرارات الرسمية، والتصريحات، وأوامر الموت.

وهو في السلطة، وحتى بعد السلطة، ظل إيمانه الغالب قوياً للغاية بأن الكتابة تستطيع أن تغير الواقع. حتى إنه انتقل بعد الثورة مباشرة تقريباً، إلى فرض سيطرة الحزب على الكلمة المكتوبة[1]. وهذا تطلب أيضاً حظر الكلمات المحرمة، وقد وضعت زوجته قوائم أولية بأسماء الكتب الممنوعة. كانت كروبسكايا مجتهدة للغاية لدرجة أنها لم تدرج الكتاب المقدس فحسب، بل وضعت كتب الأطفال أيضاً ضمن صفوف النصوص الخطرة[2].

لقد كان لينين قوياً لدرجة أنه حتى بعد تعرضه لسكتتين دماغيتين، واضطراره إلى مغادرة مكتب الكرملين والتراجع إلى كرسي (بعجلات) في منزل في الريف خارج موسكو، ظلّ مقتنعاً أنه من خلال مذكرة بسيطة يستطيع إعادة هيكلة الهيئات الحاكمة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وتحييد المناصر الذي توصل إلى اعتباره تهديداً لكل ما بناه، والذي يشغل الآن مقعداً في قلب الحزب. في وثيقة أصبحت تُعرف باسم **عهد لينين**، يكتب:

---

١ - أصدر لينين مرسومه الخاص بالصحافة بعد يومين من ثورة تشرين الأول/ أكتوبر، حيث فرض الرقابة "كتدبير مؤقت". ومع ذلك، انتشرت القيود المفروضة على "الصحافة البرجوازية" بسرعة، وفي نهاية عام ١٩١٨ تم إلغاء جميع الصحف غير البلشفية، بينما أشرفت عدة وكالات على ما هو مسموح به في مجالات الأدب والمكتبات والتعليم. بحلول عام ١٩٢٢، قامت "لجنة الصحافة الرئيسية" بتوحيد جميع الرقابة على الصحافة، بينما يقرر بيروقراطيو الإدارة الرئيسية لشؤون الأدب والنشر في المفوضية الشعبية للتعليم بجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية المسماة اختصاراً (جلافلت) ما هو مسموح به في الأدب والفن. المؤلف

٢ - اعتبرت كروبسكايا لاحقاً كمنظرة فائقة، ونشر لها في ستينيات القرن الماضي أحد عشر مجلداً من كتاباتها عن التعليم. المؤلف

ستالين فظّ جداً، وهذا العيب لا يُطاق في منصب الأمين العام. لهذا السبب أقترح أن يفكر الرفاق في طريقة لإبعاد ستالين عن هذا المنصب.

كانت الوقاحة، بالطبع، أهون خطايا ستالين، ولكن بعد فوات الأوان. لقد فقد قلم لينين قوته، بينما كان ستالين، الناشط الغامض السابق من القوقاز، يعمل بالفعل على تعزيز قوته. وبصفته المؤلف الأعلى القادم للاتحاد السوفييتي، كان سيدرج فصلاً جديداً في تاريخ الثورة، وفي تاريخ الأدب الديكتاتوري.

٢- ستالين



ستالين، شاعر الزهور الجميلة وضوء القمر

يقبع جسد لينين، الذي هجره التوق الرؤيوي والكره المتحمس النشط، في مجلس النقابات العمالية في وسط موسكو، ويتحلل بهدوء. ينتظر الحشد في الخارج لساعات في الجليد والثلج كي يدخل قاعة الأعمدة، التي كانت في السابق مكاناً لحفلات رقص أنيقة، وتم تغييرها الآن كمعرض لأبرز الموتى السوفييت. يجرّ المشيعون أقدامهم وهم يمرون بقرب الجثمان في إجلال مهيب. ماذا سيحدث بعد ذلك، الآن وبعد أن انضم المؤلف المشهور لكتاب "**ما العمل؟**" إلى ماركس وإنجلز في مجمع القديسين الاشتراكيين؟

أما بالنسبة إلى المستقبل، الذي لم يكن مكتوباً، فكان لدى ستالين بالفعل خطط للجثمان. فبعد وقت قصير من زيارة لينين العليل الأخيرة للكرملين في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٣، اقترح ستالين على أعضاء المكتب السياسي أن التخلي عن جثة لينين ببساطة سيكون مضيعة لرمز قوي. كان ستالين قد درس في مدرسة دينية في مسقط رأسه بجورجيا، وكان يعلم أن الجماهير تتعطش لما هو مقدس، وتحب المعجزات، وتجلّ الآثار المقدسة. لماذا لا نغلبُ الكنيسة في لعبتها ونحتفظ بلينين، ونضع جثته في العرض؟

أصاب الهلع ليف تروتسكي وليف كامينيف ونيكولاي بوخارين، وهم ثلاثة زعماء بلشفيين أقوياء، بسبب اقتراح ستالين المريع، وكذلك كانت أرملة لينين، كروبسكايا، عندما تسرب الحديث عن الأمر. جادل كامينيف بأن مجموع أعمال لينين كانت أكثر أهمية من جسده

واقترح طباعة "ملايين النسخ من أعماله" كتقدير له بدلاً من ذلك. كان الاحتفاظ بالجسد يشابه التأجيج الذي يمارسه الكهنة، وهو ما كان لينين يحتقره.

لكن ستالين رأى القيمة في كلا الجسدين المادي والمعنوي، وعندما لفظ لينين آخر أنفاسه في ٢١ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٤، انتصرت فكرة ستالين. قد لا يتمكن البلاشفة من هزيمة الموت، لكنهم على الأقل يستطيعون إيقاف التحلل. وضعت جثة لينين في كوة مجمدة في أرض الميدان الأحمر لإبقائها سليمة، في حين تجمعت الحشود حولها. في هذه الأثناء، دار نقاش بين أعضاء لجنة تخليد ذكرى لينين حول أفضل السبل للحفاظ على رفات الزعيم الميت قبل أن يصبح التحلل شديداً. هل عن طريق التجميد، مثل الماموث في سيبيريا؟ أو الغمر في حساء كيميائي؟ أو باستخدام نوع من التحنيط؟

في النهاية، قرروا تحنيطه، مثل الفرعون توت عنخ آمون، الذي افتتح قبره مؤخراً في مصر. لكن هذه كانت الخطوة الأولى، وهي خطوة تافهة نسبياً. استغرق الأمر شهرين فقط للعثور على عالم قادر على الحفاظ على جسد لينين، وكان الاتحاد السوفييتي قد نجا من دون موميائه الحديثة. كان الأكثر أهمية، والأكثر صعوبة بكثير، تأكيد نفس السلطة على مجموعة لينين الواسعة من الأعمال؛ لكن ستالين كان يعتزم القيام بذلك أيضاً.

خرج يوسف جوغاشفيلي، المعروف أيضاً بجوزيف ستالين[1]، صارخاً من رحم والدته في عام ١٨٧٨ في بلدة غوري الجبلية بجورجيا. كانت هذه على طرف الإمبراطورية الروسية، والمعنى الحقيقي للغموض الريفي. فلعدة قرون، كان الأباطرة العثمانيون والفرس قد تناوشوا المملكة المسيحية التي كانت قوية ذات يوم فيما بينهم، حتى طلب ملك جورجي الحماية من كاترين العظمى. وتم منحه الحماية. وبعد ذلك بعدة عقود، قام الروس بتنصيب حاكم عسكري. ثم وصلت عملية الضم والاستحواذ إلى ذروتها قبل أقل من عقدين من ولادة ستالين، عندما التهمت الإمبراطورية المملكة الجورجية بشكل نهائي.

---

١ - كان لدى ستالين، مثل لينين، العديد من الأسماء المستعارة طوال حياته. أطلقت عليه والدته اسم "سوسو"، وقد أطلق عليه زملاؤه الثوريون اسم "كوبا"، وكان لديه العديد من الأسماء الأخرى. ولغرض التبسيط، في هذا الكتاب سنستخدم اسم "ستالين" في جميع الكتاب. المؤلف

غوري، كانت واحدة من أقدم المستوطنات في جورجيا، ويعود تاريخها إلى القرن السابع، ولكنها بخلاف ذلك، كانت غير استثنائية. كان هناك حصن قديم، وصراع دموي بين العشائر اندلع لأجيال. لكنه كان عنفاً عادياً: جزء من الثقافة، يشغل السكان المحليين مثل ألحان الأغاني الشعبية المحلية. ستالين أيضاً لم يكن استثنائياً. لم يشر أي شيء إلى أن الطفل كان متجهاً إلى العمل كطاغية يمارس القتل الجماعي، ناهيك عن أن يكون المحرر المستقبلي لأفضل الكتب مبيعاً في العالم **تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي (البلاشفة): دراسة قصيرة**. كان والده، فيساريون، إسكافي المهنة مخمور السلوك، بينما كانت والدته كيتيفان أو كيكي تعمل كغاسلة ملابس ومنظفة منازل. ضرب كلا الوالدين ستالين، حتى هجر فيساريون ذات يوم أسرته؛ وصارت مسؤولية ضرب ستالين تقع على عاتق كيكي وحدها.

لولا أم ستالين، لربما لم يصبح أكثر من مخمور مثل والده. لقد مات جميع أشقاء ستالين، وكان طموح كيكي العظيم في الحياة هو أن يصبح ما منحها الله كاهناً. وعبر معارفها، ضغطت لتحتال كي يتمكن ستالين البالغ من العمر ١٠ سنوات من دخول مدرسة الكنيسة المحلية في غوري. وفي العادة، لا يمكن إلا لأبناء الكهنة التسجيل فيها، ولو تمسكت الكنيسة بقواعدها، لما تعلم ستالين القراءة أو التحدث بالروسية، الوسيلة التي قرأ ماركس ولينين من خلالها لاحقاً وأصبح ثورياً.

في الواقع، ليست الأمية بالضرورة شيئاً سيئاً، كما يوضح مثال ستالين. من الواضح أن تعليمه القراءة كان خطأً ذا أبعاد تاريخية عالمية: في هذه الحالة، يمكننا بسهولة تعديل المعضلة الأخلاقية الافتراضية الشهيرة "إذا امتلكت آلة الزمن، فهل كنت ستقتل الطفل هتلر؟" في سيناريو خالٍ من المآزق الأخلاقية. وفي حين أن كثيرين منا قد يترددون في قتل رضيع يصيح في المهد حتى لو كان هتلر نفسه، فإن الوضع مع ستالين كان مختلفاً. كان ينبغي أن تمنعه أصوله الاجتماعية المتواضعة من تلقي التعليم. لذلك، فإن المسافر عبر الزمن الذي يعتزم منع موت الملايين، سيحتاج فقط إلى إقناع الإخوة في مدرسة الكنيسة بالالتزام بقواعدهم. ومن شأن التبرع السخي للرعية المحلية أن يؤدي الغرض: لا كتب ولا مشاكل.

مع الأسف، تخرّج ستالين في سن الخامسة عشر بعلامات ممتازة. لعبت كيكي دوراً آخر، وأدخلته المدرسة الروحية في العاصمة الجورجية تبليسي، التي كانت تعرف آنذاك باسم

تفليس. ما لم تكن تعلمه كيكي هو أنه على الرغم من أن هدف المدرسة كان تحويل الطلبة المراهقين إلى منفذين مخلصين للأرثوذكسية الدينية في جميع أنحاء البلاد، إلا أنها كان ناجحة في التمخض عن ثوريين ملحدين. تم حظر جميع مواد القراءة غير الدينية، لذا سعى الطلاب بشكل طبيعي إلى الحصول عليها، و"فسدوا" بغض النظر عن كل شيء.

لا يبدو أن قراءات ستالين المبكرة تثير الانتباه بشكل خاص في عيون القرن الواحد والعشرين. كان يمتلك ذوقاً جيداً، وما زالت الكتب التي كان يستمتع بها تعدّ من الكتب الكلاسيكية اليوم. كان يقّدر الشعر الجورجي الكلاسيكي والأدب الروسي. قرأ تولستوي، وبوشكين، وتشيخوف، وهجاء نيكولاي غوغول العجيب والسخرية الحادة لميخائيل سالتكوف-شتشرين. وقد التهم "شياطين" دوستويفسكي، وهو خيار مثير للاهتمام بالنسبة إلى ثوري المستقبل، حيث صوّر الثوريين الروس في صفحات الرواية على أنهم سفاحين منحرفين، ومهووسين مجانين. ربما كان ستالين، الرسام المستقبلي البارع، قد تمتع بتصوير الكتاب الحي للحركات التآمرية. أو ربما، كصبي مراهق، كان يتمتع ببساطة بالمذابح والموت.

أيضاً على قائمة قراءة ستالين كان الكتاب الفرنسيون العظام والنقاد الاجتماعيون بلزاك، وزولا، وموباسان، وهوغو، كل الكلاسيكية المتحجرة بشكل بارز اليوم. كان ستالين مولعاً بشكل خاص بـ"**ثلاثة وتسعين**" رواية هوغو عن الإرهاب الثوري -مرة أخرى، كانت اختياراً مثيراً للاهتمام. تتحدث الرواية عن شخصية تدعى سيموردين، وهو كاهن تحول إلى ثوري، يجلس في محكمة تصدر أوامر بتوجيه خصومه الى المقصلة، وهي حالة متطرفة إلى حد من التنبؤ الأدبي، يتنبأ فيها النص مسبقاً بالتحول الشخصي لقارئ ما. لكن **ثلاثة وتسعين** قد تحوي دروساً أخرى للطالب الشاب. يشير عنوان الكتاب إلى عام ١٧٩٣، وهو العام الذي أطلق فيه اليعاقبة الرعب، في حفلة جماعية تواصلت طيلة أحد عشر شهراً من قطع الرؤوس والذبح، قضى خلالها عشرات الآلاف من أجل الحفاظ على يوتوبيا محددة بشكل غامض.

يشارك أبطال هوغو الثوريون في القمع العنيف للانتفاضة "الرجعية" في المنطقة الريفية الفرنسية في فيندي. في نظر هوغو، كان هؤلاء "المتوحشون" من بريتون مضادين للثوريين، يحاولون عرقلة مسيرة البشرية المجيدة نحو السعادة المستقبلية غير المحدودة. وهكذا أخذ حقيقة غارقة في الدم وحوّلها عبر الأدب إلى أسطورة مغرية. قضى ثلث السكان في فيندي،

وهو ما يعادل تقريباً عدد قتلى بول بوت في كمبوديا. في وقت لاحق، كان ستالين يجند الكتّاب بصورة مشابهة ليعيدوا صياغة حقبة جديدة مليئة بأعمال العنف المروعة على أنها عصر ملحمي من التحول التاريخي؛ وعلى الرغم من أنه قد يبدو شيئاً من قبيل المبالغة، تخيل أن ستالين، في سن الخامسة عشرة، كان يقرأ فيكتور هوغو ويفكر في كيفية استخدام الأدب في التلاعب بالتاريخ وإخفائه، إلا أنه من اللافت للانتباه أنه انجذب إلى كتاب يوضح كيف يمكن للروايات الجيدة أن تخدم الكذبة الجميلة.

لكن كتاب ستالين المفضل كان **قتل الأب**، من تأليف ألكساندر كازبيجي، الراعي الجورجي النبيل الذي كان يستمتع بتخويف رفاقه الرعاة بدب يمسك بسلسلته. كتب كازبيجي ميلودراما مليئة بالتفاصيل الثقافية الأصيلة، كانت تباع بشكل كاف لجعله أول مؤلف محترف في جورجيا؛ أو على الأقل هكذا كانت، إلى أن حظرتها الرقابة الإمبراطورية، كونها تنتقد القيصرية. توفي كازبيجي، فقيراً ويائساً، عن عمر يناهز الخامسة والأربعين عام ١٨٩٣ بسبب مرض الزهري الذي أصيب به عندما كان يدرس في موسكو في شبابه.

كوبا هو بطل رواية **قتل الأب**، وهو قاطع طريق على غرار روبن هود، ينضم إلى مجموعة من الخارجين عن القانون لمحاربة الروس والمتعاونين الأرستقراطيين المحليين في الدفاع عن سكان الجبال الفقراء والشرفاء. كان هذا الكتاب عند ستالين بمثابة **ما العمل؟** ليست رواية تعليمية طنانة -على الرغم من أنه كان يتمتع بعمل تشيرنيشيفسكي أيضاً -بل غزلاً رومانسياً عنيفاً من النزاعات الدموية، والعدالة اليقظة، والاستيلاء القوي على ممتلكات الآخرين. ارتبط ستالين بقوة مع كوبا لدرجة أنه أطلق الاسم على نفسه واستخدمه أكثر من أي اسم مستعار ثوري آخر قبل عام ١٩١٧. تذكر أحد الأصدقاء، في وقت لاحق، "أصبح كوبا إله سوسو وقدم له معنى الحياة. أطلق على نفسه اسم (كوبا) وأصر على أن نسميه كذلك. وكان وجهه يتألق بكل فخر وسرور عندما نناديه باسم (كوبا)". وهكذا، في حين جسّد بطل لينين الأدبي راخميتيف رؤية للراديكالية والحداثة، كان ستالين رجل الجبال، والكفاح القديم، والعدالة الأبدية السامية. كان جزار المستقبل رومانسياً في أعماقه.

في الواقع، كانت في روح ستالين الكثير من الرومانسية، لدرجة أنه كتب قصائد شعرية. هنا واحدة منها، بعنوان "الصباح":

برعم الورد قد أزهر

ساعياً ليلمس البنفسج

الزنبق كان يستيقظ

حانياً رأسه للنسيم

عالياً في الغيوم كانت القُبّرة

تغني ترنيمة السقسقة

بينما كان العندليب البهيج

بصوت لطيف يقول -

"كوني مليئة بالأزهار، أيتها الأرض الجميلة

افرحي يا بلد الايفريين

وأنتم أيها الجورجيين

بالعلم اجلبوا الفرح إلى وطنكم".

بالطبع، بعد الترجمة، تصعب معرفة ما إذا كان هذا جيداً. يبدو كل ما يثرثر عنه هو الزهور والطيور والوطن الأم، مثل هذر القرن التاسع عشر التقليدي للغاية، من ذلك النوع الذي ينتجه عدد لا يحصى من الشعراء المغمورين في الدول الصغيرة والذي يسعد معظمنا الذهاب إلى القبر من دون معرفة أنهم كانوا موجودين على الإطلاق، أو يهمنا قراءة ما كتبوه. لكن ستالين يُعذر لصغر سنه: فلقد كان في الخامسة عشرة من عمره فقط، وبالتالي يمكن أن نغفر له ميله الشديد الى استعمال المجازات الرنانة.

ومع ذلك، أثار طالب اللاهوت اليافع إعجاب أقرانه. وعندما زار ستالين مكاتب **إيفريا** المجلة الأدبية الأكثر تقديراً في جورجيا، ليعرض أعماله، قبل رئيس تحرير المجلة، الأمير إيليا شافتشادزه (وهو شاعر محترم للغاية)، على الفور خمس قصائد للنشر. قبلت **كفالي**، وهي مجلة اشتراكية، نصوصاً أخرى. في الواقع، كان قصيد "الصباح" يحظى بتقدير كبير، لدرجة أنه قبل الثورة، وبينما كان ستالين ثورياً غامضاً، تم اختياره لإدراجه في كتاب مدرسي شعبي،

اللغة الأم، وظل هناك حتى ستينيات القرن العشرين، وكان يُنسب أحياناً إلى ستالين، وأحياناً لا.

وفقاً لمترجم ستالين للإنجليزية دونالد رايفيلد، فإن الشعر جيد في الواقع، في اندماجه مع التقاليد الشعرية الفارسية والجورجية والبيزنطية، وامتزاجه بسهولة معينة مع صور وجودة اللغة.[1] عندما آلف ستالين بين روحه وتناغم الزهور الجميلة وروعة بيئته الأم، أخذت كلماته تحلّق. من الجميل أن نتخيل أنه لو لم يغره التبسيط المروع لماركس وتلاميذه، لربما كان هذا الصبي من غوري يستعاد للذاكرة كشاعر عظيم بدلاً من قاتل عظيم. وبالنظر إلى انخفاض حضور الشعراء الجورجيين على مستوى العالم، فمن المرجح أنه لم يتم تذكره على الإطلاق. وكان هذا، أيضاً، سيكون جيداً تماماً.

في المدرسة الدينية، تبخّر الإيمان الديني لستالين، وبينما كان يقرأ نصوصاً ثورية، توجهت دوافعه الأسكاتولوجية نحو رؤية أكثر دنيوية للجنة. ترك المدرسة في أيار/ مايو عام ١٨٩٩ وتولى وظيفة كاتب في مرصد تفليس، حيث ترك له العبء الخفيف للعمل الكثير من الوقت لدراسة نصوص ماركس ولينين وبليخانوف وآخرين، مع الحفاظ على حصته المعتادة في النثر والشعر الأوروبي عالي الجودة. كما قاد "دوائر العمال"، حيث قدم مواعظ ماركس إلى البروليتاريا. ثم، في آذار/ مارس ١٩٠١، حاصرت الشرطة القيصرية رفاقه، وهرب ستالين من المدينة.

لاحقا حوّل انتباهه من الشعر إلى النثر، وساهم بمقالات في جريدة ماركسية سرية بعنوان *Brdzola* (الكفاح). المقال الأول المنسوب إلى ستالين (نُشر في أيلول/ سبتمبر ١٩٠١ وتم تضمينه لاحقاً باعتباره المقال الأول في المجلد الأول من أعماله الكاملة) هو مقال كئيب إلى حد ما: هناك بعض الحديث عن رفع وعي العمال، وهاجم ستالين حماقة الماركسيين الأوروبيين، ولكن لا يوجد ما يشير إلى أن عملاقاً تنظيرياً قد كان يكتب، حتى في شكل بدائي.

---

١ - على الأقل، كان ستالين شاعراً أكثر موهبة من لينين، حيث يبدو أن إسهامه الوحيد في عالم الشعر كان قصيدة مهداة إلى القرية التي أمضى فيها منفاه السيبيري. وتبدأ هكذا:

في شوشينسكو، في سفوح جبل صيان...

... ثم يتوقف. ثم ثماني كلمات، ثم يتخلى عنه الإلهام. المؤلف

كان جهده المقبل أكثر جوهرية. فقد نشر في العددين الثاني والثالث من Brdzola بين أواخر عام ١٩٠١ وأوائل عام ١٩٠٢، مقاله **الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي ومهامه المباشرة**، الذي جعله يبدو كأنه يكتب كمعلم، يوجه القارئ عبر تاريخ الاشتراكية. فعلى عكس لينين، يزيل ستالين نفسه من النص. إنه كاتب أكثر انضباطاً، وأقل عرضة للاكتئاب، ويوجه انتقاداته اللاذعة نحو القيصر بدلاً من زملائه الماركسيين. يعمل ستالين كمرشد -خجول، ومتواضع، ومهمته المركزية هي تسهيل فهم القارئ لكيفية تحولنا من أمثال الاشتراكي الطوباوي روبرت أوين في إنجلترا إلى الحالة الرهيبة الراهنة في روسيا وأوروبا.

في "دليل المبتدئين" هذا، يقتات ستالين الرومانسي في مقاطع أرجوانية مثل هذه:

> اجتاحت العديد من العواصف، والعديد من سيول الدماء أوروبا الغربية في كفاحها من أجل إنهاء اضطهاد الأغلبية على يد الأقلية، ولكن الحزن ظل مخيماً، وظلت الجروح من دون علاج، وأصبح الألم لا يطاق أكثر فأكثر مع مرور كل يوم.

ينتقل ستالين من فشل الاشتراكية الطوباوية عبر "اكتشافات" ماركس، إلى نشوء الديمقراطية الاشتراكية في عدد قليل من الصفحات. على عكس لينين، الذي كتب كما لو كان المركز الذي انحرف عنه جميع الماركسيين الآخرين، كان ستالين محلياً بشكل عميق، حيث وصف الثورات والمعارك الفكرية التي تجري بعيداً، في أماكن أكثر إثارة للاهتمام. وكان أيضاً مروجاً، وهو يتمسك بالماركسية قليلاً، ويتجنب المصطلحات، ويلخص عمل المراجع العليا لجمهور (افتراضي) من المستمعين.

أكثر ما يلفت النظر، هو أن ستالين كان شفوقاً. يسعى جاهداً ليثير في قراءه التعاطف والتضامن من خلال دعوته إلى التماهي مع جميع الأشخاص المضطهدين في الإمبراطورية الروسية، وليس البروليتاريا فقط. يسرد الطالب اللاهوتي السابق عدداً لا حصر له من الأحزان، ناشراً بنية مكررة تعكس إيقاعات وتواترات الخطاب الواعظ:

> يئن الفلاحون الروس تحت وطأة نير العبودية، مهزولين من الجوع المستمر، مرهقين من عبء الضرائب الذي لا يحتمل، وقد ألقي بهم تحت رحمة التجار البرجوازيين المهرة وملاك الأراضي "النبلاء".

يئن تحت النير الناس البسطاء في البلدات، والموظفون الصغار في المكاتب الحكومية والخاصة، والمسؤولون الصغار...

يقول ستالين، في الواقع، إن الجميع "يئن تحت النير". وتتسع قائمة من يئنون لتشمل:

* البرجوازية الصغيرة

* البرجوازية الوسطى

* القسم المتعلم من البرجوازية

* المعلمون

* الأطباء

* المحامون

* طلاب الجامعة

* طلاب المدرسة الثانوية

* البولنديون

* الأرمن

* الجورجيون

* الفنلنديون

ناهيك عن:

* اليهود "المضطهدون والمهانون أبداً".

حتى أن ستالين يتعاطف مع الانفصاليين الدينيين عن الإمبراطورية الروسية، وطوائف العربدة وجلد الذات من بينهم. في سن الثانية والعشرين، يبدو أن ستالين كان يحب كل الشعوب المضطهدة. في الواقع، يصبح تعاطفه غامراً جداً وعليه أن يتوقف:

> الأنين هو... ولكن من المستحيل تعداد جميع المضطهدين، وكل الذين يتعرضون لجور الاستبداد الروسي. إنهم كثيرون لدرجة أنهم إذا وعوا كل هذا وأدركوا من هو عدوهم المشترك، فلن يتمكن النظام الاستبدادي في روسيا من التواجد ليوم آخر.

يعد الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي ومهامه الفورية، الذي لا يقرأ تقريباً اليوم، وثيقة مفيدة للغاية لطالب الطغيان. أولاً، من اللافت للنظر أنه حتى في الوقت الذي وقع فيه ستالين في خضم تألق الخطابات القوية، فإنه مع ذلك يُظهر رغبة لتصنيف وتقليص أعداد كبيرة ومتنوعة من السكان إلى قوائم قابلة للتعامل معها. وفي الوقت نفسه، فإن تلاوته التفصيلية لديموغرافيا الأنين تصل إلى ملخص مسبق مناسب للمجموعات التي سيضطهدها أو يبيدها لاحقاً في العقود التالية. كما أنه يشجب العديد من الممارسات (كالروسنة القسرية) التي سيتبعها بانتقام حالما يصل الى السلطة.

تشير هذه الكتابات المبكرة إلى أن ستالين لم يكتشف بعد قدرته على الشر. في تلك الأيام، كان يتجنب الدعوات المباشرة للثورة، وكان مؤسس مجلة **برجزولا**، فانو كيتسكوفيلي، "يعيب عليه كونه معتدلاً للغاية". قارن ذلك مع لينين وهو في العشرين، الذي لم يفعل شيئاً ليمنع وفاة الآلاف من الفلاحين وهم يتضورون جوعاً، لأنه كان يظن ذلك سيعجل بحدوث الثورة. وعلى عكس لينين، كان ستالين يتدرب قبل أن يصبح وحشاً.

* * *

وبدأت مهمة ستالين ككاتب ثوري، ولكونه سليلاً حقيقياً للطبقة العاملة، فقد واجه عقبة لم يواجهها كثير من المنظرين الثوريين البارزين: النقص الدائم في المال. على عكس إنجلز أو لينين أو الأمير الأناركي بيوتر كروبوتكين، لم يكن لدى ستالين أي ميراث لتمويل حياة التأمل على مهل المطلوبة إذا أراد المرء أن ينشيء سمعة كمفكر راديكالي وبطل للبروليتاريا. ولا كما فعل ماركس، لم يكن لديه راع يمكنه أن يسحب الأموال منه.

كان إلقاء القبض عليه ونفيه يعرقل مساره المهني الأدبي الناشئ، خاصة وأن أصوله المتواضعة لم تؤهله للنفي المريح الذي تلقاه لينين كعضو في طبقة النبلاء. في عام ١٩٠٢، جُمع ستالين مع معظم موظفي **برجزولا**، احتجزوا في السجن لمدة عام، ثم أرسلوا إلى سيبيريا في أواخر عام ١٩٠٣. وكانت هذه هي أول واحدة من العديد من فترات الحبس والنفي، فعلى مدار السنوات الأربع عشرة القادمة قدم ستالين والسلطات القيصرية مهزلة ثورية ينجح فيها الجورجي المجذور في الفرار بانتظام من خاطفيه الذين كانوا يعتقلونه ثم يسجنونه مرة أخرى.

كان ستالين قارئاً مخلصاً لإيسكرا، الجريدة التي شارك لينين في تأسيسها، وكتابات لينين الأخرى، وقد أقنعته هذه بأن هناك "نسراً جبلياً" لا يعرف الخوف وهو يقود الحزب على طول "المسارات غير المستكشفة للحركة الثورية الروسية". وسيدعي ستالين أنه وذلك الزعيم البلشفي قد تبادلا المراسلات الشخصية خلال فترة النفي هذه؛ فقد وصف بعد سنوات "الانطباع الذي لا يمحى" الذي اعتراه بعد استلامه مذكرة تلقاها من لينين، وكانت مليئة بانتقادات شديدة للحزب. في الواقع، لم يكن لينين وستالين زميلي كتابة، ولم يرسل الزعيم أي ملاحظة من هذا القبيل: لقد كان مشغولاً جداً بشن حرب نصية ضد المناشفة كي يكتب إلى ناشط غامض من منطقة القوقاز تقطعت به السبل في سيبيريا. لكن ستالين كان يشير إلى كتيب، هو واحد من عدة كتبها لينين في محاولة لإسقاط خصومه داخل الحزب. ومما لا شك فيه، أن ستالين، الذي كانت له ذاكرة ممتازة وقدرة لا حصر لها على الكذب، كان مدركاً لادعائه، ومع ذلك فقد احتوى على قدر من الحقيقة. فقد كان ارتباطه بنصوص لينين مكثفاً للغاية في ذلك الوقت، لدرجة أنه ربما شعر وكأن الزعيم كان يتحدث إليه مباشرة.

أما لينين كجسد، حسناً، فقد تلاشى الجسد أمام الكلمة. عندما اندلعت ثورة ١٩٠٥، كان ستالين قد عاد إلى تفليس، وفي كانون الأول/ ديسمبر من ذلك العام، أرسله رفاقه إلى مؤتمر البلاشفة في فنلندا. حيث التقى حقاً بـ"نسر الجبل" (كان هذا أحد استعارات ستالين المفضلة لوصف لينين)، ومع ذلك، فإن التناقض بين المنظّر الفائق الذي ينفث النار في النصوص والواقع المادي، كان صاخباً. وتذكر بعد ذلك أنه كان يتوقع أن يرى "رجلاً عظيماً، ليس عظيماً سياسياً فحسب، بل إن أردت، وجسدياً أيضاً، لأن لينين قد تبلور في مخيلتي كعملاق، فخم ومهيب. ما أثار خيبة أملي حينئذٍ عندما رأيت رجلاً عادياً، دون متوسط الطول، ولا يختلف بأي شكل من الأشكال عن البشر العاديين". لكن، عندما تكلم لينين، صار الأمر مختلفاً. لقد أعجب ستالين بـ"قوة منطق لينين التي لا تقاوم"، رغم أن ذلك لم يكن كثيراً لدرجة أن يشعر بأنه ملزم بدعم السياسات التي لم يوافق عليها. في الواقع، وقف ستالين ضد لينين بشأن مسألة مشاركة البلاشفة في انتخابات مجلس الدوما الجديد.

لينين، بدوره، أعجب بستالين، مدركاً لمواهبه في إدارة المشاريع والإجرام العام. قام شاعر الزهور والوطن الأم السابق بتوجيه كوبا الذي بداخله، حيث كان ينظم عمليات الاحتيال

والابتزاز والتخويف والبلطجة والسطو على البنوك وحتى عمليات الاختطاف من حين إلى آخر لجمع الأموال للبلاشفة بناءً على طلب لينين. كانت براعة التآمر ضرورية أيضاً، حيث كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي يحظر رسمياً عمليات السطو على البنوك. وهكذا، بينما كان ستالين في لندن عام ١٩٠٧ لحضور مؤتمر الحزب الخامس، يناقش ويجادل استراتيجيات النهوض بالثورة، استغل أيضاً بعض الوقت ليناقش مع لينين خطة لجعل رجاله يسرقون أحد البنوك في تفليس. تم إلقاء عشر قنابل، وتمزقت الخيول والرجال إلى أشلاء، وفرّ عملاء ستالين بمبلغ ٢٥٠ ألف روبل ذهبي. كانت هذه أخباراً حماسية نُقلت على الفور إلى لينين في فنلندا.

أصبح ستالين معروفاً الآن باسم البلشفي الأعلى في جورجيا، وحاز على لقب "لينين القوقاز". ولكن كان هناك اختلاف جوهري: بينما كان لينين جالساً على كرسي يفكر ويكتب، ركز ستالين على الجزء العملي، الأمر الذي ترك له نسبياً القليل من الوقت لينتج نصوصاً. في الواقع، ملأت أعماله المجمّعة خلال الفترة من ١٩٠١ إلى ١٩١٣ مجلدين متواضعين، بينما ملأ لينين في الفترة نفسها خمسة عشر مجلداً. ومع ذلك، فإن مجرد وجود هذين المجلدين يدل على أنه حتى خلال هذه الفترة من العمل المكثف تحت الأرض، كان ستالين يواصل عمله الأدبي عندما يستطيع. لم يكن عام ١٩٠٧ مجرد عام من التخطيط الثوري الدولي وإلقاء القنابل والسرقة. فقدأطلق ستالين صحيفة أخرى، هي الشعلة "*Mnatobi*"، وكدليل على مدى جديته في إنشاء اسم لنفسه في الأوساط الثورية الإمبراطورية، تحول إلى الكتابة باللغة الروسية. الآن يمكن لكل ماركسي ثوري بارز في الإمبراطورية قراءة نصوصه. لم يكن هناك الكثير منهم قد تبقى: فمحاولة ستالين لتعزيز مسيرته تزامنت مع حملة إمبراطورية مستمرة على الإرهاب والجماعات السرية، وحصول تراجع حاد في عضوية الحزب الاشتراكي الديمقراطي. في ربيع عام ١٩٠٧، كان جمهوره المحتمل ١٥٠.٠٠٠، لكنه سرعان ما تقلص إلى جزء صغير من ذلك العدد.

تزامنت الحملة مع مأساة شخصية: ففي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٧، ماتت زوجة ستالين الأولى، كاتو، واعتقل بعد ذلك بفترة وجيزة في آذار/ مارس ١٩٠٨. ورغم ذلك، فقد ثابر في أنشطته الثورية، ودخلت لعبة القط والفأر التي كان يلعبها مع السلطات الآن مرحلة جديدة مدوخّة من الاعتقالات المتكررة والإفلات التي استمرت لسنوات، ولم تفعل شيئاً

لعرقلة مسيرته الثورية. في عام ١٩١٢، تمت ترقيته إلى عضوية اللجنة المركزية للحزب، مما جعل ستالين أحد البلاشفة البارزين في الإمبراطورية الروسية، وتولى مهمة إطلاق صحيفة **برافدا**، اليومية الجديدة، في العاصمة. لقد كان ذلك إنجازاً مثيراً للإعجاب: فقد تم التصريح للفلاح القادم من الجبال الذي تعلم اللغة الروسية في سن العاشرة (ولم يفقد أبداً لهجته الجورجية الخشنة) باستخدام فأس التحرير على مجموعة من الناطقين الأصليين المتعلمين تعليماً جيداً، وكان كثير منهم من أصول بورجوازية. نشر العدد الأول في ٢٢ نيسان/ أبريل - وهنا اعتقلت الشرطة ستالين مرة أخرى. هذه المرة تم نفيه إلى شمال سيبيريا، لكنه هرب بعد ثمانية وثلاثين يوماً فقط. بحلول شهر أيلول/ سبتمبر عاد إلى سان بطرسبرغ، وكان على رأس **برافدا** مرة أخرى.

كشف ستالين الآن عن نفسه، أنه محرر من الصُّلب. في بداية العام، انفصل البلاشفة رسمياً عن المناشفة، لكن في تشرين الأول/ أكتوبر تم انتخاب كلا الحزبين لمجلس الدوما الإمبراطوري. كان ستالين أقل عداءً للتعاون مع المناشفة من لينين، وهي وجهة نظر انعكست في سطور مقال برافدا الافتتاحي. كان لينين غاضباً، وكتب مقالات تدعو إلى موقف مناهض للمناشفة لا هوادة فيه. لكن لم يكن ستالين ليجبر على الإذعان: ففي المجمل كان سيرفض سبع وأربعين رسالة من نسر الجبل إلى الصحيفة. في هذه الأثناء، كانت برافدا تصبح الصحيفة الاشتراكية الأكثر شعبية في الإمبراطورية، حيث كانت تبيع أربعين ألف نسخة يومياً.

لقد تخطى لينين المشكلة من خلال الترويج لمحرره المتمرد بدل أذيته، حيث أرسل ستالين إلى فيينا، وكُلف بمسألة نظرية مهمة. كان على النجم الصاعد من القوقاز كتابة دراسة حول "المسألة الوطنية"، يحدد فيها النهج الماركسي الصحيح بحق لتطلعات الأقليات القومية المضطهدة في الدول متعددة القوميات. بالنسبة إلى ستالين، كانت هذه استراحة كبيرة، بالنظر إلى الهيبة البلشفية للكلمة. وبعد مرور عقد على ظهوره الأول كمؤلف كتيبات دعائية قروي، كانت هذه فرصته لتأسيس أوراق اعتماده الفكرية الحيوية.

وهكذا في كانون الثاني/ يناير١٩١٣ وجد ستالين نفسه يقيم مع بعض الماركسيين الأثرياء في العاصمة النمساوية. التقى وصادق نيكولاي بوخارين، المنظّر المحترم في الحزب (والذي سيقتله بعد عدة عقود). وأخذ يقرأ ويكتب، وبعد عودته إلى روسيا قدم المقال الناتج، **القضية**

القومية والديمقراطية الاشتراكية، إلى المجلة النظرية **التنوير** تماماً كما حصل لينين على إعادة تعميده الثوري مجاملة لإنجازه الأدبي **ما العمل**؟ صنع هذا المقال اسم جوغاشفيلي السابق: كانت هذه هي المرة الثانية فقط التي استخدم فيها "ستالين" اسماً مستعاراً.

كشف مقال **القضية الوطني والديمقراطية الاشتراكية** أو (**الماركسية والقضية الوطنية**، كما أعيدت تسميته في العديد من إصداراته) عن أن ستالين كان كاتباً مختلفاً تماماً عن كل من الشاعر المراهق والكاتب الشاب في باكو. إذا كان هذا الستالين ما يزال يشعر بأي شيء نحو الجبال والزهور، فهو لن يترك مثل هذا الهراء التافه يصرف انتباهه هنا. أزيلت جميع آثار هذا الصوت العاطفي الرومانسي بنجاح، واستبدلت بأسلوب كالح متثاقل ومنطقي بشكل مرهق مصمم لتوصيل جدّية النظرية إلى جمهورها.

في هذا العمل، يوضح ستالين اعتباراً أساسياً لقواعد السرد التي غابت كثيراً عن لينين غير الصبور. وبدلاً من الانطلاق في مناقشة نظرية مكثفة من المنتصف، أخذ يقدم السياق للمقال القادم: أزمة ما بعد ١٩٠٥ في السياسة الماركسية. واعترف بأن الاشتراكية فقدت بريقها، وأن القومية برزت كقوة راديكالية جديدة. وأخذ يتحسر من "انتشار الصهيونية بين اليهود، وتزايد الشوفينية في بولندا، والوحدة الإسلامية بين التتار"، و"انتشار القومية بين الأرمن والجورجيين والأوكرانيين"، ناهيك عن "توجه العامة نحو معاداة السامية". إن هذه "الموجة من القومية" يقول ستالين "تهدد بابتلاع جماهير العمال".

الأسوأ من ذلك، كما يقول ستالين، أن القومية تفسد الاشتراكيين الديمقراطيين، الذين كان عليهم أن يعرفوا ما هو أفضل. مشيراً الى البوند (وهي منظمة يهودية علمانية ضمن الحركة الديمقراطية الاشتراكية)، بسبب انتقادات قاسية للغاية، متهماً أعضاءها بمتابعة أجندة قومية. واستهدف أيضاً أعضاء الحزب القوقازي لمطالبتهم "بالحكم الذاتي الثقافي القومي". يقول ستالين، إن هذه القوميات تقوض "الأخوة والوحدة بين البروليتاريين من جميع قوميات روسيا".

رداً على هذا التراكم للهرطقة والشوائب الأيديولوجية الشائعة، لم ينتقم ستالين من خلال المطالبة برؤوس خصومه، بل من خلال هجوم دلالي قاس كامل دون قيود. يسأل ستالين ما معنى كلمة **الأمة**؟ الجواب، كما اتضح، معقد إلى حد ما. يكرس ستالين أكثر من ألفي كلمة

لاستكشاف كل الاحتمالات، وهو يسعى بجد إلى التعريف الصحيح، بينما ينتقد التعريفات غير الصحيحة. على الرغم من أنه منهجي للغاية وشامل بشكل مفرط، إلا أن حجته لم تكن سوى حذلقة منمقة. لدى ستالين إيمان كبير بالكلمات. مثل كونفوشيوس، يعتقد أن "بداية الحكمة هي تسمية الأشياء بأسمائها الصحيحة."

بالنظر إلى المستويات الملحمية من الكذب التي حققها فيما بعد كرئيس للاتحاد السوفييتي، من المثير للاهتمام أن ستالين هنا لا يسعى إلى التعتيم أو الخداع أو أن يغفل عمداً الصعوبات أو خلافاً لذلك أن يُلبس السخافات المنطقية لغة كثيفة وغير شفافة لا يمكن اختراقها. إنه دقيق في وضوحه. إنه واثق من نقده. يؤمن بحججه. ويخصص كمية هائلة من النص لتعريف جميع مفاهيمه، وليس فقط **الأمة**. باختصار، كان يبحث عن الحقيقة.

وبالنسبة إلى **الأمة**، هذا ما وجده:

> الأمة هي مجتمع مستقر من الناس مؤسس تاريخياً، وتشكّل على أساس لغة مشتركة، ومنطقة مشتركة، وحياة اقتصادية، ومزاج نفسي يتجلى في ثقافة مشتركة.

ثم يضيف:

> يجب التأكيد على أن أخذ أي من الخصائص المذكورة أعلاه على حدة ليس كافياً لتحديد ما هي الأمة. والأكثر من ذلك، يكفي أن تغيب واحدة فقط من هذه الخصائص أو تكون مفقودة كي تفقد الأمة اعتبارها كأمة.

من هذه النقطة، يستخدم ستالين تعريفه ليفكك بشكل منهجي وجهة نظر كل شخص يختلف معه. فبمجرد تحديد المعنى الحقيقي للكلمة، تختفي إمكانية الغموض؛ هناك فقط الصحيح وغير الصحيح. إن إصراره على الاكتمال القطري يمكّنه من الإجهاز بسرعة على الأهداف القومية للبوند، بحجة أن اليهود لا يتشاركون إقليماً واحداً أو لغة واحدة، ولا يمكن أن يكونوا "أمة". وفي استفاضة وإسهاب ينتقد أيضاً المفهوم المميز عند الماركسيين النمساويين: الاستقلال الثقافي، بغض النظر عما إذا كانت الأمة تشغل أرضاً واحدة. وقد انتقد هذا المفهوم كظاهرة برجوازية تقوض الصراع الطبقي. إن "**صيانة** وتنمية الخصوصيات الوطنية للشعوب"، كما يقول، هو هراء منتكس، من شأنه أن يستلزم المحافظة

على عادات من الواضح الحاجة إلى استئصالها، مثل جلد الذات بين تتار القوقاز والثأر بين زملائه الجورجيين. وهو بدلاً من ذلك يؤيد نبوءة ماركس في الأربعينيات من القرن الماضي، وهي أن "الاختلافات القومية والتناقضات بين الشعوب تزداد تلاشياً يوماً بعد يوم" وأن "سيادة البروليتاريا ستجعلها تتلاشى بشكل أسرع".

بعد تكريس أربعة فصول لتصفية حجج خصومه، يكشف ستالين عن تصوره للحل في روسيا: الحكم الذاتي الإقليمي "للوحدات المبلورة" مثل "بولندا وليتوانيا وأوكرانيا والقوقاز، إلخ". سيتم ضمان حق الأقليات داخل هذه المناطق في استخدام لغتهم الخاصة، ومدارسهم الخاصة، ويتم منحهم حتى "الحرية الدينية". ومع ذلك، فإن الحكم الذاتي الإقليمي لا يعني الاستقلال الوطني، ولا يدعو ستالين إلى الفيدرالية، التي يقول إنها تعزز الانفصالية وتصرف انتباه العمال عن الحقائق الطبقية التي تتجاوز الاختلافات الثقافية. يمكن للحكم الذاتي الإقليمي أن يوجد، ولكن فقط "على أساس الأممية"، ووفقاً لذلك، يوحّد حزب واحد جميع العمال من جميع القوميات على أساس طبقتهم، مع السماح بالاختلافات الثقافية. يقول ستالين: "النوع الدولي من التنظيم، يعمل كمدرسة للمشاعر الأخوية، وهو عامل تحفيزي هائل لصالح الأممية".

بما أن ستالين كان يعارض الاستقلال الوطني أو الثقافي، فهل يعني هذا أنه لا يجوز لأية أمة تحتل موقعاً أن تنشق؟ ليس على الإطلاق، فهو يكتب: "يجوز للأمة أن ترتب حياتها بالطريقة التي تريدها. إن لها الحق في ترتيب حياتها على أساس الحكم الذاتي. كما لها الحق في الدخول في علاقات فيدرالية مع أمم أخرى. ولها الحق في الانفصال الكامل. للأمم سيادة، ولجميع الأمم حقوق متساوية".

إذا كان كل هذا يبدو ليبرالياً بشكل مدهش، فهناك فقرة دُمجت لتسهيل الخروج تجعل الانفصال مستبعداً للغاية. كرست الديمقراطية الاشتراكية نفسها للدفاع عن حقوق البروليتاريا، وإذا رأى الحزب أن الحكم الذاتي سيضر بمصالح الطبقات العاملة، فلن يدعمه. وهكذا، رسم ستالين مقاربة لإدارة الدولة الماركسية متعددة القوميات والأعراق، حيث تخضع المصالح الوطنية للمصالح الطبقية على النحو الذي يحدده مركز الحزب. كان العديد

من المنظرين الماركسيين يعالجون الأسئلة نفسها. الشيء المذهل في عمل ستالين، هو أنه خلال عشر سنوات، كان هذا الإكليريكي السابق الغامض يضع أفكاره موضع التنفيذ، ويشكل مصائر الملايين[1].

كل ذلك يكمن في المستقبل. بالنسبة إلى ستالين، على الرغم من أن كتاب **الماركسية والمسألة الوطنية** قُبل كمساهمة جادة في النظرية، إلا أنه سرعان ما تحول إلى أعجوبة أدبية لمرة واحدة، ولم يستطع ستالين البناء على نجاحه المبكر. أعيد اعتقاله بعد وقت قصير من نشر المقال، وحكم عليه بأربع سنوات في المنفى في أصقاع سيبيريا القصية. وقد تقطعت به السبل هناك عند حافة الدائرة القطبية الشمالية، أثبت ستالين أنه أقل مهارة في مجال الهروب من أي وقت مضى. حتى الآن كان ستالين من مركز الأشياء، حتى أن لينين نسي اسمه الحقيقي، وفي عام ١٩١٥ كتب مرتين لرفاقه يطلبون تذكيرهم باسم الرفيق كوبا الفعلي. بينت الخطابات التي بقيت من هذه الفترة التي ناقش فيها ستالين خططاً لإجراء دراسة نهائية حول "المسألة الوطنية"، ولكن لم يتحقق شيء على الإطلاق، وانتهت لحظة الاستفادة منه في لحظة المجد. فيما يتعلق بموضوع الحرب العظمى، وهو يغتاظ بعيداً، كان صامتاً أيضاً. توقفت أعماله التي تم جمعها في عام ١٩١٣، وأحاط الظلام بستالين الكاتب حتى عام ١٩١٧.

***

بعد الثورة، عهد لينين إلى ستالين بمناصب مهمة عديدة في النظام البلشفي الجديد. إن البراعة التي أظهرها في **القضية الوطنية والديمقراطية الاشتراكية** قد منحته منصب رئيس مفوضية القوميات في الحكومة السوفييتية الجديدة. ثم في أيار/ مايو ١٩١٨، تم إرساله إلى تساريتسين، في الجنوب الروسي، لتحسين إمدادات الحبوب مع اندلاع الحرب الأهلية الروسية. انتهز الفرصة لإثارة العنف والإرهاب والقمع بين السكان المحليين.

---

١ - عندما تم تشكيل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية في أوائل العشرينات من القرن الماضي، لم يكن ستالين يتمتع بالقوة العليا، وكان مضطراً للتنازل عن مسألة البنية الفيدرالية. لكنه لم يتنازل مطلقاً عن تفوق الطبقة على الأمة أو الثقافة، ومع ذلك، فإن الحق في الانفصال الممنوح لجمهوريات الاتحاد ظل خيالاً لمعظم تاريخ الاتحاد السوفييتي. المؤلف

جلس ستالين أيضاً في اللجنة المركزية للحزب، وترأس لجنة صياغة دستور الجمهورية السوفييتية الروسية، وكان عضواً في كل من المكتب السياسي والمكتب التنظيمي (Orgburo)، أول وثاني أهم الهيئات في التسلسل الهرمي للحزب، مسؤولاً عن السياسة والمسائل التنظيمية. في نيسان/ أبريل ١٩٢٢، تم تعيينه سكرتيراً عاماً، الأمر الذي منحه مسؤولية إدارة وقيادة منظومة الحزب الواسعة. وبحلول الوقت الذي توفي فيه لينين في كانون الثاني/ يناير١٩٢٤، كان ستالين قد اكتسب الكثير من السلطة المؤسسية، لدرجة أنه صار في موقع قوي يؤهله ليصبح الزعيم الجديد.

ومع ذلك، على الرغم من تأثيره وراء الكواليس، إلا أنه كان يتمتع بقدر أقل من صورة الشخصية العامة وأقل بكثير من خصمه، ليون تروتسكي ذي الشخصية الكاريزمية، الذي قاد الجيش الأحمر خلال الحرب الأهلية، حيث قاتل (وفاز في النهاية) على ست عشرة جبهة مختلفة. كان تروتسكي متعدد المهام ممتازاً: بينما كان يجوب الاتحاد السوفيتي في قطار أمراً بقتل أعداد كبيرة من الناس، كان ما يزال قادراً على إلقاء الخطب وإخراج الكلام النظري الراديكالي، وبالتالي الحفاظ على سمعته كنظير ماركسي بارز. طغت نجاحات تروتسكي على حقيقة أنه كان من المنشفيك، وقضى عشر سنوات قبل الثورة في المنفى خارج البلاد، وكثيراً ما كان على خلاف مع لينين، ولم ينضم إلى الحزب البلشفي إلا في عام ١٩١٧. أما ستالين، فعلى العكس من ذلك، لم يكن خطيباً مفوهاً. والنصوص التي ابتكرها **لبرافدا** خلال السنوات الأولى للسلطة السوفييتية، لم تفعل شيئاً لتعزز صورته كمفكر ملحوظ.

في الواقع، بحلول وفاة لينين، كانت الإنجازات النظرية لستالين هزيلة بشكل محرج، ليس فقط مقارنة بإنجازات تروتسكي، بل أيضاً مقارنة بالبلاشفة الكبار الآخرين مثل نيكولاي بوخارين وغريغوري زينوفييف. بقي كتاب **الماركسية والمسألة الوطنية** عمله المهم الوحيد، وكان قد مضى على كتابته أكثر من عقد من الزمان. نعم، كان ستالين من بين الذين حملوا نعش لينين إلى مكانه في جليد الساحة الحمراء، ولكن في عالم البلشفية المبجّل، عالم "انشر أو اهلك"، فإن غياب الأفعال العلنية الدالة على التفكير الماركسي العميق، يمكن أن يكون مشكلة بالنسبة إلى طموحاته المهنية.

لكن في حين أن ستالين ربما كان يفتقر إلى وميض تروتسكي، فقد احتفظ بقدرته على التواصل بوضوح، وهي مهارة استخدمها جيداً؛ حيث تم تحنيط القائد المتوفى بكلمات تبجيلية بالإضافة إلى الفورمالديهايد. كان ستالين في طليعة عملية التحنيط اللفظي، حيث قدم قصيدة تأبين شبه دينية ستظهر بعدها في برافدا، ثم يعاد طبعها عدة مرات فيما بعد:

> لن يمر وقت طويل قبل أن نرى حج ممثلي ملايين العمال إلى قبر الرفيق لينين. لا داعي للشك في أن ممثلي الملايين سيتبعهم ممثلو عشرات ومئات الملايين من جميع أنحاء العالم، والذين سيأتون للشهادة بأن لينين لم يكن قائد البروليتاريا الروسية فحسب، وليس العمال الأوروبيين فقط، ليس فقط من الشرق الاستعماري، ولكن لجميع العمال في العالم.

وهلم جرا. تتخلل جميع كلمات الخطاب تصريحات تبشيرية تعاويذية، تعهد فيها ستالين بالولاء لرسالة لينين الملحمية نحو التحول العالمي نيابة عن "نحن" الجماعية:

> برحيله عنا، يحتم علينا الرفيق لينين البقاء مخلصين لمبادئ الشيوعية الأممية. نتعهد لك، أيها الرفيق لينين، ألا نبخل بحياتنا لتقوية وتوسيع اتحاد العمال في العالم بأسره - الأممية الشيوعية!

لكن ستالين كان فقط في طليعة موجة الهوس بلينين الميت التي اجتاحت الأرض. تمت إعادة تسمية بتروغراد بلينينغراد، وكتبت أرملة لينين، كروبسكايا، سيرة حياته كسير القديسين، وأجبر الشاعر المستقبلي فلاديمير ماياكوفسكي موهبته الفائقة على الخضوع لمتطلبات الحذلقة الدعائية. متوتراً وغاضباً في قصيدة من ثلاثة آلاف سطر بعنوان **فلاديمير إيليتش لينين**، بدأ ماياكوفسكي (الذي احتقر لينين عمله) بالتشديد على إنسانية لينين، لكنه سرعان ما انقلب إلى سخف مسيحاني لم يشفِ فيه المنقذ المكفوفين أو المقعدين. بل كتب نصوصاً سحرية:

> نحن لم نعد جبناء
>
> مثل حملان وليدة
>
> غضب العمال
>
> يتكثف

في غيوم

يصفعها البرق

الآتي من كتيبات لينين،

منشوراته

تمطر

الحشود المتزايدة.

رأى ستالين أن عبادة لينين، سريعة التطور بعد وفاته، تمثل فرصة لإعادة تأسيس نفسه كمؤلف. لقد أنتج لينين كميات من الكلمات المبهمة في حياته: بدأت الطبعة الأولى التي تم جمعها من أعماله في عام ١٩٢٠ ونشرت في النهاية في ٢٠ مجلداً في ٢٦ كتاباً تحتوي على ١٥٠٠ وثيقة. (بحلول الوقت الذي اكتملت فيه الطبعة الخامسة والأخيرة في عام ١٩٦٥، كانت أعمال لينين "الكاملة" تمتد إلى ٥٥ مجلداً وتحتوي على أكثر من ٣٠٠٠ وثيقة -وحتى ذلك الحين، بقيت في الأرشيف ٣٧٠٠ وثيقة أخرى لم يتم جمعها من أعمال لينين). وبالطبع، نظراً لأن لينين كان يكتب عن الوقت الراهن، مستجيباً للأحداث سريعة التغير، ويغير التكتيكات كلما دعت الضرورة، كانت النصوص صعبة ومعقدة ومتناقضة. ويمكن أن تكون خطيرة في الأيدي الخطأ، دون السياق المناسب؛ أو قد تثبت فائدتها في الأيدي الصحيحة، حيث كانت هناك كل تلك النزاعات مع المنشفي السابق تروتسكي التي تحتاج لتسليط الضوء عليها.

إذا كانت هذه النصوص ستعمل كنصوص مقدسة لدولة عبادة لينين، فسيكون من الضروري فرض النظام على الفوضى، وإنشاء تسلسل هرمي للأهمية، وتوجيه أولئك الذين يقرؤونها في الاتجاه التأويلي الصحيح. وهكذا، بعد شهرين من وفاة لينين، هذا ما فعله ستالين، حيث ألقى سلسلة من المحاضرات حول أسس اللينينية لمتدربين نشطاء في الحزب في معهد سفيردلوف في موسكو. تم نشرها لاحقاً كتمهيد عن فكر لينين، **أسس اللينينية**. على الرغم من مسؤولياته اليومية العديدة، اعتبر ستالين أن وظيفة المترجم الأيديولوجي مهمة جداً، لدرجة أنه كتب المحاضرات بنفسه؛ بقيت مسوداته الأصلية في الأرشيف الروسي، مكتوبة على ورق أصفر، مغطاة بتعديلات مكتوبة بخط اليد.

كان وجود ستالين كصوت للمؤلف فائق الاحتشام: كالقديس بولس السائر على خطى يسوع، يقدم نفسه كخادم متواضع للنص، يتمثل هدفه في مجرد "أن يكون مفيداً" من خلال وضع "بعض نقاط الانطلاق الأساسية اللازمة لدراسة ناجحة لـ"اللينينية". إن المنهج التأويلي المنظم والمنسق والمزيل للغموض الذي طوره من أجل **القضية الوطنية**، يثبت أنه مناسب للغاية لنسق المحاضرة: مراراً وتكراراً، يعرّف ستالين، ويتوسع، ثم يصل الى استنتاجات براغماتية وسهلة الفهم.

يبدأ الكتاب باستكشاف طويل لمفهوم "اللينينية" الذي بلغ ذروته بهذه الصيغة:

> اللينينية هي الماركسية في عصر الإمبريالية والثورة البروليتارية. لكي نكون أكثر دقة، فإن اللينينية هي نظرية وتكتيكات الثورة البروليتارية بشكل عام، نظرية وتكتيكات ديكتاتورية البروليتاريا بشكل خاص.

... ما يُعدّ شيئاً مجّرداً إلى حد ما، وزخراً بالمصطلحات المحمّلة. لذا قام ستالين بتقسيمها على الفصول التسعة التالية، ووضع المواضيع الرئيسية لفكر لينين في الفئات التالية:

* الجذور التاريخية لللينينية
* الطريقة
* النظرية
* ديكتاتورية البروليتاريا
* قضية الفلاحين
* القضية الوطنية
* الاستراتيجية والتكتيكات
* الحزب
* أسلوب العمل

بمجرد النظر إلى تلك القائمة، أشعر بالراحة: كما لو أن كتلة الكلام الجدلي الذي تصارعت معها من أجل كتابة القسم السابق تتحول إلى شيء بسيط ومتماسك أمام عيني.

خلال كامل "**أسس اللينينية**"، كانت جهود ستالين المتواضعة والحقيقية ككاتب معروضة. إنه واضح ومختصر، وجيد في تلخيص الأفكار المعقدة للجمهور متوسط الثقافة: مثل بيل برايسون المادية الجدلية، ناقصاً النكات.

بعد لقائي الأول مع "**أسس اللينينية**"، تمنيتُ لو كنت قرأته قبل المواد المصدر. فمن ناحية، كان سيدفعني إلى رؤية لينين بالكامل من خلال منظور ستالين. ومن ناحية أخرى، كان ذلك أقرب إلى تجربة جيل من الشيوعيين في جميع أنحاء العالم. في عالم ستالين المنهجي والمنظم والمنسّق، يظهر من الواضح دائماً من هو المخطئ ومن هو المصيب وماذا تعني الأشياء حقاً، وهو يدعم استنتاجاته باستشهادات مقتبسة من لينين وماركس. في عالم يتطلب فيه التقدم في مراتب الحزب إتقان النصوص، وحيث تخاض المعارك الأيديولوجية برشق اقتباسات من ماركس أو لينين على بعضهما البعض، قدّم ستالين خدمة قيّمة لقرائه من خلال تجميع معظم المواد الأيديولوجية التي قد يحتاجون إليها في مكان واحد، مع توفير التلميع المناسب.

يوضح الاختيار الحكيم للاستشهادات مهارة ستالين أيضاً كمحرر. وهو يبدو وكأنه قرأ كل ما كتبه لينين على الإطلاق، إنه بارع في استخراج الفقرة الصحيحة لإيضاح الفكرة. لكن ستالين لم يحرر نصوص لينين فحسب. بل أخذ يعدّل لينين نفسه، وهو يزيل كل الشتائم الطويلة التي كانت على هوى الزعيم ضد منافسيه الأيديولوجيين. ويبرز صورة غير مباشرة للزعيم المتوفى حديثاً: البليغ والقوي والحاسم والحاضر دائماً بالإجابات الصحيحة لأسئلة هذا العصر الحالي وتلك القادمة. ويختفي لينين المتشدق المتخوم في الأجزاء العديدة المغطاة بالأتربة التي تم جمعها من أعماله، كان ستالين يعلم أن معظم الناس لن يفتشوا في ذلك كله.

في الواقع، مع ملخصه، لا يشجع ستالين الطلاب إطلاقاً على الخروج واستكشاف لينين بأنفسهم؛ بل يلخص النقاط الرئيسية ويخبرهم بما يفكرون فيه. ثم مرة أخرى، كما يتضح من هيكل الكتاب، كانت هذه هي الخطة. يبدأ كتاب **أسس اللينينية** في فترة الأفكار، وينتهي في عصر العمل. يختتم ستالين الكتاب بوصف "الأسلوب اللينيني في العمل"، والذي يتميز بعاملين: "الاجتياح الثوري الروسي" و"الكفاءة الأمريكية".

إذا بدت هذه النقطة الأخيرة مثيرة للدهشة، فمن الواضح أن ستالين في عام ١٩٢٤ كان معجباً جداً بالولايات المتحدة، لأنه يعرّف روح الأمة بأنها "تلك القوة التي لا تقهر التي لا تعرف ولا تعترف بالعقبات؛ والتي ومن خلال المثابرة التي تشبه الأعمال تكنس جانباً جميع العقبات، والتي تستمر في إنجاز مهمة ما بمجرد البدء بها حتى تنتهي منها، حتى لو كانت مهمة بسيطة؛ ومن دون ذلك، لا يمكن تصور العمل الجاد البناء". بالطبع، الكفاءة الأمريكية ليست رائعة تماماً، كما يضيف ستالين، لأنها يمكن أن تتفكك إلى "التجريبية الضيقة والتطبيقية عديمة المبدأ". ومع ذلك، فقد احتفظ بوضوح بإعجابه بروح العمل الأمريكية؛ حيث بقي هذا القسم في الطبعات المستقبلية من الكتاب، حتى أثناء الحرب الباردة.

كان **أسس اللينينية** كتاباً ناجحاً، على الأقل بين جمهوره المستهدف من أعضاء الحزب الشبان الطموحين. لكن أقران ستالين المنظرين في التسلسل الهرمي للحزب كانوا أقل إعجاباً. في كتاب سيرته الذاتية، **حياتي**، كان تروتسكي يصف بذكاء التأليف المنافس له على أنه مجرد "عمل تجميعي"، "مليء بأخطاء اليافعين"، قام فيه ستالين "بمحاولة الإشادة بالتقاليد النظرية للحزب". كما زعم أيضاً أنه لم يكن من الممكن لستالين أن يكتب **الماركسية والقضية الوطنية**، حيث كانت كتابته ضئيلة الجودة وغير كافية[1].

لكن في حين أن **أسس اللينينية** ليس تحفة فنية، فهو أكثر من مجرد عمل تجميعي، حيث يظهر أيضاً أن ستالين بدأ يشتبك مع مشاكل الحزب الأسكاتولوجية. لقد تنبأ ماركس بأن الثورة ستغير العالم بأسره، وتوقع البلاشفة بعد عام ١٩١٧ أن تثور جحافل البروليتاريا في سائر أنحاء أوروبا للإطاحة بأسيادهم البرجوازيين، مثل المسيحيين الأوائل في الصحراء الذين ينتظرون نزول المسيح الجديد من السماء. ولم يحدث أي من ذلك، لكن التوقع بأنه سيحدث بقي موجوداً.

في "**أسس اللينينية**"، شرع ستالين في التقليل من هذا التوقع، بتحول سريع إلى فترة "ثورية فائقة". وعلى سبيل المثال، على الرغم من أنه يستشهد **بالدولة والثورة**، فإنه يغفل

---

١ - بعد كل هذا، فإن لينين الخاص بتروتسكي، والذي نشر بعد عام من تأسيس أسس اللينينية، هو في حد ذاته مثال صارخ إلى حد ما على سير القديسين. المؤلف

طوباوية لينين المحرجة. كما أنه أخذ يجوب أعمال لينين وماركس محاولاً العثور على نصوص تشير إلى أن الانتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية، قد لا يكون بالسرعة التي كانت متوقعة حتى الآن، مستشهداً بماركس في "١٥و٢٠و٢٥ عاماً من الحروب الأهلية والصراعات الدولية"، ولينين في "النضال الجماهيري الطويل والصعب ضد التأثيرات العامة للبرجوازية الصغيرة".

لم تختفِ المشاكل المرتبطة بفشل النبوة. كانت الذكرى العاشرة للثورة تقترب، وما زال التحول العالمي يبدو بعيد المنال. وفقاً للتطبيق الصارم للنظرية، لن يتمكن الاتحاد السوفييتي من البقاء. وهكذا كشف ستالين ومنظر الحزب البارز، نيكولاي بوخارين، أنه في الواقع، من الممكن للاتحاد السوفييتي البقاء على قيد الحياة من دون أي ثورات في البلدان المحيطة. ويمكن بناء الاشتراكية في بلد واحد.

اكتشف ستالين هذه الرؤية في تكملته عام ١٩٢٦ لكتاب "**أسس اللينينية**"، في كتاب بعنوان **فيما يتعلق بمسائل اللينينية**". كان قد سارع في كتابه الأول الذي يدوّن اللينينية، لكنه في هذا الكتاب اللاحق دخل سوقاً أيديولوجية متغيرة. فبعد عامين من وفاة القائد، تعمقت الانقسامات والصراعات على السلطة بين أعضاء النخبة. كما كان خصوم ستالين ينشرون أفكارهم العميقة حول اللينينية، وهم يتنافسون على السلطة. **فيما يتعلق بمسائل اللينينية**، ليس مجرد شرح للموضوعات التي تم استكشافها في الكتاب الأول، بل هو أيضاً عرض لمدى جدية ستالين في خوض الحرب للسيطرة على النصوص النظرية. لم تكن التفسيرات المتنافسة مسألة خلاف، ولكنها كانت خاطئة تماماً، وكان لا بد من تشريحها وتفتيتها من خلال تفكيك لا يرحم. لكن في حين كان لينين يستطيع القضاء على خصومه في كتيب قصير من خلال مزيج من الحجة، والنقد اللاذع، والسخرية، والحواشي الطويلة جداً، فإن ستالين اختار تكثيفاً بائساً في الأسلوب ومسهباً، وتراكماً عنيفاً من الاستشهادات، وتكديساً بيانياً عظيماً متواصلاً. هذه المرة، أيضاً، يأخذ أسماءً، وهو يكدس الازدراء على "اللينينية" الزائفة لمنافسين مثل تروتسكي وكامينيف وزينوفييف، وكان آخرهم قد نشر كتابه الخاص عن **اللينينية** في عام ١٩٢٥، حيث دافع عن الأممية، وانتقد فكرة "الاشتراكية في بلد واحد".

وبينما كان ستالين يطغى ببطء على خصومه، كان يسعى أيضاً إلى الدفاع عن بدعته، عازماً على إثبات أن كل الأدلة على عكس ذلك، وكان هو ولينين قد آمنا بذلك طوال الوقت.

بالطبع، كان من السهل بما فيه الكفاية إعادة النظر في أسس اللينينية بحيث اختفت الفقرة التي بدت متشككة إلى حد ما، مفسحة المجال لتأييد الفكرة. كان ستالين يعرف كتابات لينين جيداً، وكان دارساً إكليريكياً مدرَّباً على الركل. مثل اللاهوتي الذي يستنبط عقيدة كاملة على أساس حفنة من الآيات المنعزلة، تعمق ووجد بعض الاقتباسات التي يمكن جعلها تدعم النظرية الجديدة -طالما تجاهلت ما عداها من كل ما قاله لينين أو قام به. يأخذ ستالين هذا الجزء من لينين، ويعزله عن سياقه:

> التنمية الاقتصادية والسياسية غير المتساوية، هي القانون المطلق للرأسمالية. وبالتالي، فإن انتصار الاشتراكية ممكن أولاً في عدة بلدان أو حتى في دولة رأسمالية تؤخذ منفصلة. إن البروليتاريا المنتصرة في ذلك البلد، بعد أن صادرت الرأسماليين ونظّمت الإنتاج الاشتراكي، ستقف في وجه بقية العالم، العالم الرأسمالي، فتجذب الى قضيتها الطبقات المضطهدة في البلدان الأخرى، وتثير الثورات في تلك البلدان ضد الرأسماليين، وفي حالة الضرورة الخروج حتى بالقوة المسلحة ضد الطبقات المستغلة ودولهم.

ثم يسلط الضوء على الجزء الفرعي "بعد تنظيم إنتاج اشتراكي"، ويقدم نفسه بهذا التفسير المثير للإعجاب:

> هذا يعني أن بروليتاريا البلد المنتصر، بعد أن استولت على السلطة، يمكنها ويجب عليها تنظيم الإنتاج الاشتراكي. وماذا يعني "تنظيم الإنتاج الاشتراكي"؟ إنه يعني بناء مجتمع اشتراكي بالكامل. بالكاد هناك حاجة إلى دليل على أن هذا التصريح الواضح والحاسم للينين غير محتاج إلى مزيد من التعليق. وإلا فإن دعوة لينين إلى الاستيلاء على السلطة من قبل البروليتاريا في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٧ ستكون غير مفهومة.

على أساس ثلاث كلمات، يعلن ستالين أن الثورة تقف أو تسقط حسب فكرة جديدة إلى حد ما اعتمدها هو نفسه مؤخراً فقط. يمكن بناء الاشتراكية في بلد واحد، وإذا كان على بقية العالم أن تنتظر لحظة، فليكن الأمر كذلك. كان لتعديليته معارضوها، لكنهم انقسموا ضد بعضهم البعض، ولم يتحدوا ضد العدو المشترك حتى فات الأوان. في الواقع، بحلول الوقت

الذي تم فيه نشر **فيما يتعلق بمسائل اللينينية** في عام ١٩٢٦، كان ستالين قد تفوق بالفعل على خصومه، مستغلاً قواعد لينين المتعلقة بوحدة الحزب لمنع النقاش حول الفكرة في مؤتمر الحزب الرابع عشر في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٥.

في وقت لاحق، سيتحول العنف اللفظي إلى حالة بدنية، وسيقتل ستالين تروتسكي وزينوفييف وكامينيف، وكلهم هاجمهم في كتابه **فيما يتعلق بمسائل اللينينية**. ثم مرة أخرى، أمر أيضاً بقتل حليفه بوخارين، الذي فعل الكثير لأخذ شعار "الاشتراكية في بلد واحد" ووضع نظرية ما حوله. ولكن كما نعلم جميعاً الآن (لم يكونوا يعرفون، على الأقل ليس بعد) كان ستالين هكذا. في الوقت الحالي، كانت جرائم القتل لا تزال بعيدة، وقد عززت شيعة ستالين قبضتها على السلطة. لقد حان الوقت لـ"الاشتراكية في بلد واحد" كي تنتقل من الصفحة إلى الواقع المادي.

***

بعد أن أسس تحكمه في نصوص لينين، قام ستالين ببناء سلطته الشخصية بثبات أثناء القيادة عبر التحول الثقافي والصناعي والزراعي في الاتحاد السوفييتي. حتى يتسنى البقاء للدولة السوفيتية الناشئة، كان لينين قد قام بتسوية مع الرأسمالية: وسمحت سياسته الاقتصادية الجديدة بالتجارة الخاصة المحدودة. لكن ستالين تبنى مقاربة مختلفة: وكان يدفع بالاشتراكية إلى الوجود.

بالطبع، هذا يتطلب عنفاً واسع النطاق. لحسن الحظ، لم يكن من الصعب العثور على مقاطع في النصوص المقدسة السوفييتية تؤيد استخدام القبضة. لم تكن هناك حاجة إلى جهاز تأويلي لفهم ما كان يعنيه لينين عندما عرّف ديكتاتورية البروليتاريا بأنها "سيادة البروليتاريا على البرجوازية غير المقيدة بموجب القانون". وبالرغم من ذلك، تقدمت الاشتراكية، عبر الخطط الخمسية، وإنشاء المزارع الجماعية القسرية، معسكرات السخرة، وتصفية الكولاك كطبقة، والتعقب المجنون للـ"الهدامين" والمخربين، وعبر عمليات الإعدام والتطهير والاختفاء، والمجاعة المحدثة بشكل مصطنع، والتي أودت بحياة الملايين في جنوب روسيا وأوكرانيا وكازاخستان عامي ١٩٣٢و ١٩٣٣.

كما فتك ستالين بالحرس البلشفي القديم. في حين أن مجرد وجود **"فيما يتعلق بمسائل اللينينية"**، يعني وجود بيئة فكرية كان من الممكن فيها لأعضاء النخبة أن يختلفوا مع بعضهم البعض، إلا أن سلطة ستالين كانت بحلول عام ١٩٣٢ قد صارت مطلقة. مع تبدل الأرضية السياسية، تم حذف الكتب غير المناسبة. أمّا المكتبيون، سواء بسبب الحماس الزائد أو الرعب المطلق، فقد أزالوا ليس فقط الأعمال المشبوهة أيديولوجياً بل النصوص الماركسية أيضاً. يتجلى المعنى التام للغموض المخيف في حقيقة أن أمناء المكتبات المرعوبين في منطقة موسكو في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، ذهبوا إلى أبعد من ذلك، من خلال إزالة نص بتوقيع ستالين، **المسألة القومية والديمقراطية الاشتراكية**، ومحاولة لينين الأولى لكتابة عمل كبير خلال أيامه في المنفى السيبيري، **تطور الرأسمالية في روسيا**، من أرفف المكتبات.

وكما ظهرت "الاشتراكية" من خلال الضباب مثل سراب حقيقي، كذلك فعلت عبادة ستالين. أصبح فوشد Vozhd))، "القائد والمعلم"، "تلميذ لينين الحقيقي الأفضل"، "المواصل الصحيح"، "لينين اليوم"، ثم في ١٩٣٢-١٩٣٣ بدأ يتخطى لينين باعتباره "القائد الأكبر لقاطرة التاريخ"، و"عبقري الشيوعية"، و"أفضل مهندسي الثورة البروليتارية العالمية"، و"بستاني سعادة البشرية". انتشر ستالين المعزز والمضاعف الضخم في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي، والذي يظهر نفسه في شكل شبيه برونزي على قواعد حجرية، وفي الملصقات الدعائية الضخمة، والفسيفساء والجداريات العملاقة. ومع نمو ظاهرته، تضاءل لينين. في يوم ثورة تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٣٣، قام مراسل أخبار أمريكي بالتجول في جميع أنحاء موسكو وأحصى ١٠٣ صورة وتمثال نصفي لستالين مقابل ٥٨ للينين. في حين أن ملصق ستالين قد يطبع بعدد يصل إلى ١٥٠.٠٠٠، كان ملصق لينين لا يصل إلى ٣٠.٠٠٠، أو يظهر فقط كرأس على قاعدة في خلفية لصورة للزعيم، أو يختزل إلى اسم على غلاف كتاب في دراسة لستالين.

وبالطبع، كما صعد ستالين إلى مستوى الإنسان- الإله، كانت نصوصه موضع التبجيل. في كتابه بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، ذكر الجنرال والمؤرخ الروسي ديمتري فولكوغونوف:

أتذكر كطالب في مدرسة الدبابات أني قرأت من الغلاف إلى الغلاف الصفحات الستمائة لخطب ستالين ومقالاته، التي تم جمعها تحت عنوان عمله المركزي، **أسئلة اللينينية**، مع كل المواد التكميلية التي تضمنها. لقد اضطررنا إلى كتابة ملخصات لهذه الأعمال، أولاها مدرسونا اهتماماً خاصاً. وكلما كان الملخص أكثر شمولاً، وكانت الفقرات الرئيسية معلمة بقلم الرصاص الملون، كلما كان ذلك أفضل لدرجاتنا.

في السياقات غير الرسمية، كانت هناك قصة مختلفة. كانت إحدى نكات الثلاثينيات تدور حول حفل توزيع الجوائز على الستيخانوفايت، وهم مجموعة من العمال المتفوقين الذين أثنت عليهم الدولة، ولكن غالباً ما كان يرفضهم رفاقهم بسبب التوقعات غير الواقعية التي وضعوها على الجميع. في الحفل، الذي أقيم في مزرعة جماعية، حصلت مجموعة من الحلابات الستيخانوفايت على جوائز: جهاز استقبال لاسلكي، وغرامافون، ودراجة. الجائزة الرابعة عن "مناقصة الخنازير" الرائدة هي "الأعمال الكاملة لرفيقنا المحبوب ستالين". أخيراً، شخص ما في الخلف يكسر الصمت: "هذا بالضبط. ما تستحقه العاهرة".

لكن التقييمات الصريحة لأعمال ستالين لم تكن لتفضي إلى حياة طويلة، ولأنه كان يستطيع نشر أي شيء يريده، كانت هناك العديد من أسباب البقاء صامتاً. في حين كان مرة يحارب ضد الاشتراكيين الآخرين على صفحات المجلات والكتب، فقد أصبح الآن الأكثر تفاهة من كلماته العامة جدير بالحفظ إلى الأبد. على سبيل المثال، في الصفحة ١٢٧ من المجلد ١٣ من الطبعة الإنجليزية لكتاباته التي تم جمعها، نجد هذا العمل الدال على عبقرية مذهلة، تم استخلاصه من صفحات برافدا:

> إلى مدير مشروع ورشة آلات الحصاد والجمع ومدير ورشة آلات الحصاد والجمع، ساراتوف،
>
> تحياتي للعاملين والعاملات ولكامل الموظفين التنفيذيين في الورشة!
>
> تهانينا القلبية على نشاط الورشة، وأولاً وقبل كل شيء، إلى أفراد كتائب الصدمة[1] من الرجال والنساء، على الانتهاء بنجاح من بناء وافتتاح الورشة!

---

١ - "كتائب الصدمة"، هي مجموعة مؤلفة من عمال إنتاجيين فائقين معروفين بتولي أصعب المهام. المؤلف

أيها الرفاق، إن البلد يحتاج إلى آلات الحصاد والجمع مثلما يحتاج إليه من جرارات وسيارات. ليس لديّ أدنى شك في أنكم ستنجحون في تنفيذ برنامج الإنتاج في الورشة بالكامل.

إلى الأمام نحو انتصارات جديدة!

ج. ستالين
٤ كانون الثاني / يناير ١٩٣٢

من المفضل لدي في مجموعتي الشخصية من النصوص الديكتاتورية كتيب من أربع وعشرين صفحة يجمع اثنتين من خطب ستالين من عام ١٩٣٥، والذي وجدته في مكتبة في مدينة سانت أندروز الاسكتلندية في أوائل عام ٢٠٠٠. أول كلمة "خطاب في مؤتمر لمشغلي آلات الحصاد والجمع"، ألقاها ستالين في الأول من كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٣٥، بينما ألقيت الثانية، "خطاب في مؤتمر للمزارعين الجماعيين الأوائل في طاجيكستان وتركمانستان"، في ٤ كانون الأول/ ديسمبر من العام نفسه. في الخطاب الأول، يستكشف ستالين بشكل منهجي أسباب زيادة الطلب على الحبوب في الاتحاد السوفييتي ويؤكد أن جمهوره كان في مستوى مهمة إنتاجه، واستحسان ذلك تمت كتابته مرتين في النص على النحو التالي:

صيحات، هتافات طويلة وتصفيق. صرخات "عاش ستالين الحبيب!"

يحدث هذا الهتاف بعد الفقرات قبل الأخيرة والأخيرة من خطاب ستالين. في الخطاب الثاني، يثور الهتاف بعد الفقرة الثانية، وهو أكثر حماسة:

التصفيق والهتاف بصوت عال وطويل. صرخات "عاش الرفيق ستالين!" صيحات التحية لقادة الحزب والحكومة.

ينفجر "التصفيق" مرة أخرى، في منتصف الفقرة الثالثة، عندما يكشف ستالين أن جميع الحاضرين في المؤتمر سيغادرون مع الحاكي وبعض الأسطوانات، في حين أن الكشف عن أنهم سيحصلون على ساعات، أدى أيضاً إلى "تصفيق طويل". يملأ باقي الخطاب بصفحتين، ويتخلله ملاحظات التصفيق، وينتهي بتسجيل موافقة صاخبة:

تصفيق صاخب. الكل يقف ويحيي الرفيق ستالين.

الشيء الأكثر غرابة في المنشور، ليس في أنه تافه تماماً، أو أنه يستحق النشر بشكل منفصل، بل في أن تتم ترجمته أيضاً إلى الإنجليزية، ويتم نشره بعد أيام فقط من حدوثه. ثم، يقوم أعضاء هائجون من الطائفة بنشره عبر الأمواج، وقراءته، والعثور على قيمة فيه، في مجتمع لم يكن فيه أحد يتضور جوعاً حتى الموت، أو يطلق عليه الرصاص في رأسه أو يتم احتجازه في معسكر للسخرة. وبعد ستين سنة، وجد طريقه إلى يدي.

ومع ذلك، لم تكن كل هذه المنشورات الصغيرة لستالين بمثل هذه البلاهة الشديدة. في الثاني من آذار/ مارس عام ١٩٣٠، نشرت **برافدا** "مصاب بالدوار بسبب النجاح"، الذي عرض فيه الفوشد أن زعماء الحزب قد ذهبوا بعيداً جداً في سعيهم نحو الجماعية، وأنه حان الوقت الآن لخفض الزيادات. وفجأة، كان على الأباراتشيك[1] المرعوبين في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي أن يعكسوا مسارهم، وأن يفسروا لأنفسهم ما كان يعنيه ستالين بالتركيز على تعزيز "مكاسبهم" على الكولاك المتعسفين. في الطرف الآخر من العقد، في ٢٩ آذار/ مارس و١ نيسان/ أبريل ١٩٣٧، أذهلت برافدا قراءها مرة أخرى عندما قاطعت تدفق الدعاية لتنشر خطبتين ألقاهما ستالين أمام اللجنة المركزية قبل أسابيع، مطالباً بكشف الأعداء. تم جمع الخطبتين لاحقاً في كتيب. وطالب الرجل -الإله بالتطهير. ولكن ممن؟ وما الكم؟ ومتى نتوقف؟ النص لم يحدد؛ بقي على الصفحة، مرعباً في آثاره، وغموضه.

حالما انتشر ستالين المصنوع من الورق والبرونز، جلست نسخته المصنوعة من اللحم والدم في مكتبه لتتفاعل مع إمبراطوريته من خلال النصوص. في المقام الأول. لم يكن من أولئك الديكتاتوريين الذين يحبون القيام بزيارات احتفالية إلى الأماكن الجاذبة للزوار في مملكته. لم يرتد حتى الخصر ويتظاهر بحفر الأرض بجانب العمال، أو أن يدلل النمور في صور مجهزة للمسرح سلفاً، أو أن يقف على شرفة متشمساً لإثارة الإعجاب. وبدلاً من كل ذلك، كان يعرف عالمه من الكميات الهائلة من التقارير والرسائل والبرقيات والدراسات التي استوعبها. تخرج ستالين من مؤلف **الماركسية والقضية الوطنية** ورئيس تحرير **برافدا** إلى

---

١ - مصطلح روسي عام يشير إلى موظف محترف في الحزب الشيوعي أو الحكومة؛ على سبيل المثال عميل جهاز حكومي وحزبي في منصب ذي مسؤولية بيروقراطية أو سياسية، ويستثنى من ذلك المسؤولون رفيعو المستوى الذين يسمون بنومينكلاتورا. -المترجم

المؤلف الأعظم ومحرر وكاتب أكبر دولة في العالم. عندما يخلط ستالين أوراقه، تهتز الأرض؛ عندما يمرر قلمه الأحمر على وثيقة، يموت عشرات الآلاف. لقد كان يقوم بصياغة ومراجعة عالمه، كما كان يفعل مع نصوص لينين.

نظراً لأن الوسيلة الأساسية لتفاعله مع العالم المادي كانت عن طريق الورق، فليس من المفاجئ أنه واصل إظهار رهبة خرافية من قوة الكلمة المكتوبة. وظل مفتوناً بالكتب والروايات والمسرحيات والفنون عموماً. وكان شديد الولع بفن الباليه، وشغوفاً بالسينما. على الرغم من أنه كان مسؤولاً عن كل كبيرة وصغيرة، إلا أن المحفوظات تظهر أنه كان على استعداد في بعض الأحيان لتفويض عملية اتخاذ القرار النهائي إلى خدم المكتب السياسي بشأن مسائل الزراعة والصناعة والنقل والدفاع والأمن. أما عندما يتعلق الأمر بالأيديولوجيا والثقافة، فكانت هذه قصة مختلفة: بين عام ١٩٣٠ ووفاته في عام ١٩٥٣، كان ستالين إما قد أجاب أو علق على كل سؤال أيديولوجي تقريباً قدمه المكتب السياسي.

في بعض الأحيان، كان يحب لعب ألعاب العقل الشريرة مع الكُتّاب. تلقى ميخائيل بولغاكوف وبوريس باسترناك مكالمات هاتفية شهيرة في منتصف الليل للحديث عن الأدب أو عمل زملائهم. قد يتلقى كتاب آخرون انتقادات هامة عندما يبتعدون عن مسار الاستقامة الأيديولوجية. في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٠، على سبيل المثال، روّع ستالين "شاعر الفلاحين" دميان بيدني من خلال اتهامه بالافتراء على الاشتراكية والطبقة العاملة في خطاب استطاع أن يجد طريقه أيضاً إلى **أعمال ستالين الكاملة**. كان بيدني يعرف ستالين منذ عام ١٩١٢ وكرّس نفسه بنجاح مع السكرتير العام المستقبلي، حتى إنه عاش بين عامي ١٩١٨ و١٩٣٣ في الكرملين كنوع من "شاعر البلاط" في الدولة العمالية. كان بيدني، المتزلف بالفطرة، قد استمد في الماضي موضوعاته من مقالات كتبها ستالين في برافدا، حيث هاجم أعداء سيده بالشعر. وهو الآن يستمد الإلهام من ستالين مرة أخرى؛ فقط، هذه المرة تخلص من بعض السطور المضطربة، وشجب نفسه بشدة:

> تحرك، يا كتف! تأرجحي، يا ذراع! ولو سطراً مشرقاً واحداً فقط! التفت يساراً، التفت يميناً. ليس هذا جيداً حقاً. سطور سوداء في كل مكان: رذائل! رذائل! رذائل!

قصد بعض الكتاب ستالين للحصول على المشورة الأدبية. اعتبر الكاتب المسرحي البارز ألكسندر أفينوجينوف أن ستالين هو معلمه الأدبي، وبدأ في عام ١٩٣٠ تقديم مسرحياته إليه مباشرة كي ينقدها. وعلى الرغم من جدول أعماله المزدحم الذي يدير دولة شمولية متعددة الأعراق، وجد ستالين وقتاً لقراءتها والرد عليها.

بطبيعة الحال، لم يكن الهدف الأساسي لتلاعب ستالين الأدبي جمالياً، بل لزيادة سلطته التحريرية والتفسيرية. لقد قام بترويض نصوص لينين، وأخبر الشعب السوفييتي بما يفكر فيه. والآن يريد أن يعلمه كيف يشعر. هكذا كان إيمانه بقوة الكلمة المكتوبة يجعله يستطيع القيام بذلك، من خلال ممارسة السيطرة على القصص الخيالية والأشخاص الذين يكتبونها.

كان مكسيم غوركي مؤلفاً روسياً ارتقى من الفقر ليصبح كاتباً عالمياً بسبب رواياته التي تصف حياة الفقراء القاسية والكئيبة. وكانت لغوركي صلات عميقة بالحزب. كان قد التقى لينين لأول مرة في عام ١٩٠٧، في المؤتمر الخامس للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي في لندن، حيث جمعته والزعيم البلشفي رواية غوركي **الأم**. تبرع غوركي بالأموال لمصلحة القضية، لكن علاقته بالبلشفية لم تكن أبداً سلسة. وكان يلاحظ أن لينين: "لم يعرف الناس، ولم يعش بينهم؛ وتعلّم من الكتب وحدها كيف يحركهم". وفي الوقت نفسه، وتقريباً بعد ثورة تشرين الأول/ أكتوبر مباشرة، نشر جوركي مقالاً في جريدته بعنوان "الحضارة في خطر". أعقبه بمجموعة من المقالات التي تنتقد القيادة البلشفية الجديدة بشدة. ورغم أنه وقف إلى جانب البلاشفة أثناء الحرب الأهلية، إلا أنه واصل انتقاد الحزب حتى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢١، عندما اقترح لينين على زوجة غوركي أن من الأفضل لو غادر زوجها البلاد - من أجل صحته طبعاً. استقر غوركي في سورينتو، إيطاليا، وانتقد البلاشفة من بعيد.

كان غوركي، إذاً، عدواً مبدئياً للطغيان. لكنه كان أيضاً كاتباً ثورياً روسياً عظيماً، محترماً في جميع أنحاء العالم، وشخصاً يمكنه أن يضفي الشرعية على النظام. أراد ستالين إعادته. ولكن كيف؟ وهو يبرهن على فهمه الدقيق حد إثارة الاكتئاب للطبيعة البشرية بشكل عام، والغرور التعسفي على وجه الخصوص، لقد اشتراه، بالتملق والهدايا. قصف رجال الشرطة السريون غوركي عبر البريد برسائل معجبين مزيفين، بينما دفعت له غوزدات، دار النشر الحكومية، مبلغاً فلكياً قدره ٣٦٢.٠٠٠ دولار مقدماً عن "بعض حقوق النشر". وعندما

عاد غوركي أخيراً إلى روسيا لحضور احتفالات عيد ميلاده الستين في عام ١٩٢٨، تأكد ستالين من أن يستقبله في محطة القطار حشد كبير من المهللين لقدومه. وكان ذلك مجرد مرحلة أولى. المرحلة الثانية كانت المزيد من الشيء نفسه، ولكن بزخم أكثر. كتب ستالين إلى غوركي شخصياً، في حين تمت إعادة تسمية الكثير من الأشياء على شرف الكاتب، بما في ذلك (على سبيل المثال لا الحصر) مسقط رأسه في نيجني نوفغورود؛ الشارع المركزي في موسكو المؤدي إلى الكرملين؛ المعهد الأدبي الأرفع مقاماً في الاتحاد السوفييتي-ولما لا؟ - جبل في قيرغيزستان. وهكذا، عاد غوركي الذي تم إغراؤه إلى الاتحاد السوفييتي ليغمره التقدير لثلاث مرات أخرى قبل أن يدعوه ستالين إلى الإقامة بشكل دائم في عام ١٩٣٢. وقبل هو ذلك، وتسلم قصراً جميلاً من الطراز الحديث في وسط موسكو. الآن وهو يستقر في قلب العاصمة السوفييتية، يمكنه بسهولة الإشراف على إنشاء سلسلة واسعة من التواريخ التي اقترحها، والتي كان من المقرر أن تكتبها فرق من الكتاب. هذه الأعمال الموثقة عن كل شيء تقريباً، كانت لها عناوين بدرجات متفاوتة من الوعد:

* تاريخ الحرب الأهلية
* تاريخ المصانع والمنشآت
* تاريخ الخطتين الخمسيتين
* تاريخ المدن والقرى
* تاريخ الشباب
* تاريخ المدينة
* تاريخ الثقافة الحضرية

دعم ستالين عملاقه الأدبي المدلل في مشاريعه. ولا عجب، لأنه كان يعرف ما كان يحصل عليه: في زيارته الثانية للاتحاد السوفييتي، زار غوركي الغولاغ الموجود في دير سولوفكي السابق، وأثنى عليه كتابة. بعد عودته إلى موسكو بشكل دائم، ترأس "وِحدة من الكتّاب" لإنتاج **تاريخ قناة البحر الأبيض**، حيث أطرى بإفراط على القوى التصحيحية الرائعة للعمل القسري.

لكن ستالين كانت لديه خطط تتعدى إفساد مؤلف واحد، ولم ينتظر لوضعها موضع التنفيذ. بالعودة إلى عام ١٩٠٥، في كتابه **تنظيم الحزب وأدب الحزب** (١٩٠٥)، صرخ لينين، "ليسقط رجال الأدب العظماء"، وأعلن أن على الأدب أن يصبح "ترساً مسنناً ومسماراً لآلة ديمقراطية اشتراكية عظيمة واحدة". حتى نيسان/ أبريل ١٩٣٢، كانت هناك مجموعة متنوعة من النقابات الإبداعية، التي تعمل تحت مجموعة مذهلة من الأسماء والمختصرات، مثل رابطة كتاب موسكو البروليتاريين MAPP والاتحاد الروسي للكتاب البروليتاريين RAPP واتحاد روابط الكتاب البروليتاريين VAPP وبريليكولت أو رابطة الثقافة البروليتارية Proletkult وصحيفة الجبهة اليسارية الفنية LEF، وجمعية سميثي الأدبية (the smithy) التي كانت تقدم رؤى مختلفة حول ما ينبغي أن يكون عليه الأدب السوفييتي. الآن تم إلغاؤها جميعها، واستعيض عنها باتحاد الكتاب الموحد. ثم، في ٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٢، التقى ستالين بأربعين نجماً أدبياً سوفييتياً في قصر غوركي الفخم. وكان من بينهم فيودور غلادكوف، الذي كانت روايته الأكثر شهرة المثيرة للإعجاب بعنوان **إسمنت**، وفالنتين كاتاييف، الذي كانت أشهر رواياته، **حان الوقت، إلى الأمام!**، تدور حول صب الإسمنت. وكان ميخائيل شولوخوف، الذي سيحوز مستقبلاً جائزة نوبل، حاضراً أيضاً، وكذلك الكاتب المسرحي ومراسل ستالين ألكسندر أفينوجينوف. تحدث ستالين، وكشف عن أن لديه مهمة جسيمة للشعراء، والمسرحين والروائيين المجتمعين: وهي إعادة بناء العوالم الداخلية للشعب السوفييتي.

> دباباتنا لا قيمة لها، إذا كانت النفوس التي عليها توجيهها مصنوعة من الطين. لهذا السبب أقول: إنتاج النفوس أكثر أهمية من إنتاج الدبابات. لاحظ شخص ما هنا أن على الكتاب ألا يجلسوا صامتين، وأنه عليهم أن يكونوا على دراية بأساليب الحياة في بلادهم. الإنسان تعيد تشكيله الحياة نفسها، ويجب عليكم أنتم الموجودون هنا المساعدة في إعادة تشكيل روحه. هذا هو المهم، إنتاج الأرواح البشرية. وهذا هو السبب في أنني أرفع كأسي لكم، أيها الكتاب، إلى مهندسي الروح الإنسانية.

صُممت نصوص ستالين الخاصة لتشكيل محتوى الرؤوس الشيوعية، وليس قلوبهم. لذلك، أراد "الفوشد" أدباً من النوع الذي قرأه عندما كان مراهقاً -روايات وقصصاً

ومسرحيات وقصائد - وإن كان أكثر واقعية، وجرارات، وسدوداً كهرومائية و"فرحاً في العمل". وعلى الرغم من إدراكه للسياسة الواقعية، واستيعابه المزدري للضعف البشري والإجرام الشائع، كان ستالين رومانسياً ساذجاً، على الأقل بقدر ما كان يؤمن بالقدرة التحويلية للأدب. فرغم كل شيء، يقرأ الأشخاص السيئون الشعر الجيد ويظلون شريرين، بينما يقرأ الأشخاص الطيبون الروايات السيئة ويظلون طيبين، وننسى جميعاً ما نقرأه على أي حال. لكن ستالين، شاعر الجمال الطبيعي السابق، الذي استثير ليعيد تسمية نفسه كوبا بعد قراءته لكتاب رديء، ما يزال مؤمناً بذلك.

بعد عامين من الاجتماعات والمناقشات، ألقى غوركي الخطاب الرئيسي الذي افتتح فيه هذا النوع الجديد من الأدب المشكل للروح في المؤتمر الأول لاتحاد الكتاب عام ١٩٣٤ (وإن لم يكن قبل إرساله إلى ستالين أولاً، بالطبع). لقد أطلق ستالين على الأسلوب الجديد في الواقعية الاشتراكية للفن، وكان يطلب من الكتاب عموماً تجنب الواقع والتركيز بدلاً من ذلك على قصص عن البناء السوفييتي عفيفة ونظيفة ترفع الهمم، وأعمال عمالية بطولية ونماذج مثالية للمواطنين السوفييت. أرسلت الدولة فرقاً ممتازة من الكتاب إلى المناطق النائية من الاتحاد السوفييتي لتوجيه كتاب الأقليات في كيفية تأليف الروايات السوفييتية. بحث المؤلفون عن مشاريع البناء العملاقة ليقدموا لها الثناء. وازدهر المأجورون. وأمكن للكتاب الذين أثبتوا مهارتهم في التعامل مع المواد الصحيحة سياسياً، سواء أكانت صناعية أو تاريخية أو تحت عنوان الحرب، أن يجنوا مكافآت كبيرة، بما في ذلك أعلى وسام للدولة، جائزة ستالين (الدرجة الأولى). كما كان حظ **قوس قزح**، من إعداد فاندا فاشيلفسكا، وهي قصة عن حرب الأنصار والجيش الأحمر البطولي، على الرغم من نسيانها الآن، إلا أنها باعت طبعتها الأولية التي بلغت أربعمائة ألف نسخة في غضون يومين، وقد اختارتها للنشر في أمريكا شركة النشر سيمون وشوستر.

جرت الطباعة بأرقام مهولة، وكأن الواقعية الاشتراكية كانت بالفعل قوة إبداعية تم استخدامها بشكل خلاق حالما أطلقت رسمياً. في الواقع، نشرت العديد من الروايات السوفييتية الأكثر شهرة التي وافقت عليها الدولة قبل أن يلقي غوركي خطابه الرئيسي، ومنها:

شابابيف، لفورمانوف (١٩٢٣)

إسمنت، لغلادكوف (١٩٢٥)

الدون الهادي، لشولوخوف (١٩٢٨)

بطرس الأكبر، لتولستوي (١٩٢٩-١٩٣٤)

حان الوقت، إلى الأمام!، لكاتاييف (١٩٣٣)

كيف سقينا الفولاذ، لأوستروفسكي (١٩٣٤)

ولم يكن الالتزام بخط الحزب ضماناً للبقاء. كان ممكناً أن يسقط الكتّاب بسهولة من النعماء الى القبر. ومن بين الأربعين كاتباً الذين كانوا في الغرفة مع ستالين عندما كلفهم بمهمة إعادة البناء الميتافيزيقي، مات أحد عشر في عمليات التطهير. توفي غوركي، المخدوع والمعزول واليائس، في عام ١٩٣٦، وهو العام الذي وصلت فيه الفجوة بين الكلمة والعالم إلى أبعاد ملحمية، حيث لم يعلن ستالين فقط أن الاشتراكية "قد تحققت أساساً في بلدنا"، بل كشف أيضاً عن نسخة جديدة من الدستور السوفييتي، وثيقة مستنيرة للغاية وعدت المواطنين بكل أنواع الحقوق التي لم يتمتعوا بها في الواقع - ولكنها في نفس الوقت أطلقت عنان الإرهاب العظيم.

كانت الواقعية الاشتراكية نفسها ستستغرق وقتاً أطول قليلاً كي تموت. لقد استعمرت أشكالاً فنية أخرى، وخضعت لإعادة التفسير، واسترجعت لعدة عقود بعد وفاة ستالين، ومع ذلك تركت النفوس السوفييتية من دون تشكيل حازم. لا عجب في ذلك: من الذي سيقرأ طواعية اليوم ملحمة سيميون بابيفسكي **فارس النجمة الذهبية** (١٩٤٨)، والتي يقوم خلالها البطل، على مدار نحو ستمائة صفحة، بإحياء الاقتصاد المحلي عبر تنظيم متطوعين لجمع الأخشاب؟

* * *

بعد صراعه لإخضاع لينين وخطة ستالين لإعادة إعمار الروح البشرية عبر روايات عن السدود الكهرومائية الجارية، وضع الفوشد الآن أنظاره على غزو التاريخ.

كان قد نقح وأعد كتابة الواقع عدة مرات منذ توطيده لسلطته. العديد من البلاشفة القدامى الذين كانوا في السابق قادة وأبطالاً، أو حتى من المقربين للينين، قد تم كشفهم كعملاء مزدوجين أبالسة. كان على الدولة أن تقوم بحذف أولئك النكرات من الصور

الرسمية، أو أن يأخذ أفراد الأسرة صورهم العائلية القديمة ويمسحوا بالحبر وجوه الأقارب الذين تم تطهيرهم، لكنه محو أولئك الأشخاص من الذاكرة كان أمراً آخر تماماً. فعلى انفراد، في المسرح خلف الجفون، من يكون هو ليحدد أي نسخة من الماضي تواصل الاستمرار؟

وفي الوقت نفسه، كان ستالين يشعر بالقلق إزاء كوادره، جيل الشيوعيين الذين صعدوا ليحلوا محل القدامى الذين قضى عليه. أين تقف هذه الطبقة الفكرية الجديدة أيديولوجياً؟ ما هي "الحقائق" التي في رؤوسها؟ كيف يمكن السيطرة على ما تعتقده وتؤمن به؟ من الواضح أن هناك حاجة الى نص: رواية رسمية لما حدث، وما لم يحدث. فمن شأن هذا النص أن يحدد بدقة ما هو مطلوب من رعاياه الإيمان به، أو على الأقل ما يجب أن يدّعوا أنهم يعتقدونه: نسخة نهائية للحقيقة مزورة من ستالين نفسه.

في الواقع، كان ستالين يشعر بالقلق إزاء حالة الماضي السوفيتي لبعض الوقت. وفي عام ١٩٣١، كتب رسالة إلى محرري مجلة "**الثورة البروليتارية**" هاجم فيها مجموعة من المؤرخين بسبب التقليل من أهمية أدوار لينين والحزب الشيوعي في الثورة، ولتخصيصهم طاقة غير كافية لمهمة "تمزيق الأقنعة". عن التروتسكيين. "مزيفو التاريخ"، كان دعاهم. كتب ستالين أن المطلوب هو مقاربة "علمية" وبلشفية للتاريخ.

ولكن ماذا يعني الفوشد بكلمة "علمية"؟ ظهرت سلسلة من التواريخ واختفت في تتابع سريع، ودوامة غير مستقرة من النصوص تم إنشاؤها بواسطة مؤلفين بذلوا قصارى جهدهم لتوضيح ما يعني هذا. كان من الصعب، على كل حال، مواكبة من كان فاضلاً ومن كان شريراً، حيث شق ستالين طريقه فاتكاً بالعديد من الأصدقاء والحلفاء السابقين. في هذه البيئة، كانت الكتابة عن الماضي خطيرة. وفي محاولة لوقف موجة من التاريخ غير الكامل، سريع الزوال، أمر ستالين بأن يكتب تاريخ الحزب الرسمي والنهائي، مجموعة من الأساتذة المخلصين. وتم نشره في عام ١٩٣٥. لكن بعد عامين، مع ذلك، عُرِض محرره، فيلهلم كنورين، الثوري منذ عام ١٩٠٥، باعتباره خائناً. من الواضح أنه لم يكن مكتفياً بقضاء فترة ما قبل الثورة كعميل للقيصر، بل خدم أيضاً في الغستابو، بينما كان يشق طريقه إلى سلم التاريخ السوفيتي الرسمي. فتم اعتقاله وإطلاق النار عليه.

غير هياب، أصرّ ستالين على أن ينتج تاريخاً مطلقاً ونهائياً آخر للحزب الشيوعي. وفي هذه المرة، سيتولى دوراً مباشراً أكثر: ليس بكتابته، بل بالتصرف فيه كمحرر، والإشراف على إنشاء عمل خيالي رائع، يكبح فيه اضطراب الذاكرة بشكل نهائي. كان من المفترض أن يسمى **تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي (البلاشفة): دراسة قصيرة.**

كلف ستالين فريقاً من المؤرخين بالعمل على النص، على الرغم من أنه كان "المخرج"، حيث قدم للعلماء إطاراً زمنياً يتكون من اثني عشر فصلاً، وتولى تحرير المخطوطة المكتملة خمس مرات قبل النشر. لم يكن يثق في مرؤوسيه لكتابة الفصل المخصص للأيديولوجيا -بل فعل ذلك بنفسه، وقدم ملخصاً آخر للمادية الجدلية والماركسية اللينينية إلى الجماهير. في الأيام الأولى للثورة، كان نظراء ستالين وخصومه يرفضون براعته النظرية؛ أما الآن بعد أن صار جميعهم موتى أو في المنفى، فستكون له الكلمة الأخيرة في هذا الشأن.

وهكذا كدح مؤرخو ستالين واجتهدوا لصياغة النص حسب ما يطلبه، ومراجعته كلما تمّ ذكر شخص نكرة آخر (ما تسبب في تأخر النشر) بينما قام ستالين بفحص أعمالهم. احتفظ بالمسودات في أرشيفه الشخصي: صفحات وصفحات مطبوعة، بعضها مملوء بالهوامش المكتوبة بخط يد ستالين، بينما شُطب بعضها الآخر بالكامل. ولم يرغم أتباعه الكتّاب على أن يطوعوا التاريخ مع مطالبه فحسب، بل حتى على استخدام حروف العطف التي كان هو، المتحدث الروسي غير الأصلي يفضلها. وبالإضافة إلى كونه قاتلاً جماعياً، فقد كان أيضاً محرراً خطياً من الجحيم.

بدأت **الدراسة القصيرة** في أيلول/ سبتمبر ١٩٣٨ على شكل حلقات في **برافدا**، ثم ظهرت ككتاب بعد شهر. كان نشره حدثاً كبيراً؛ أصدرت اللجنة المركزية للحزب مرسوماً تعلن فيه عن الكتاب "لتقديم حكم موحّد" على تاريخ الحزب، وأن نشره "ينهي كل الاعتباطية والارتباك" الذي "رأيناه في العديد من الكتب السابقة عن تاريخ الحزب". اتحد النقاد في إجلالهم. وفي المجلة **البلشفية**، تمت مقارنة **الدراسة القصيرة** مع **البيان الشيوعي** بسبب عبقريتها، بينما أشادت مجلة **أسئلة التاريخ** بأنها "عمل علمي أنموذجي" ليس ملحوظاً فقط "لتحليله الماركسي العميق" بل أيضاً لـ"بساطته وسهولة الوصول إلى ما يعرضه. "

لقد كانوا يكذبون بالطبع -باستثناء ذلك الشيء عن البساطة. لكنها كانت "اكْذِبْ" أو تموت في تلك الأيام، وربما بسبب رعبهم، كان بعض هؤلاء المراجعين المتحمسين قادرين على إقناع أنفسهم بأنهم يعنون ذلك. فإذا استُخلصت من السياق يُرجح أن تؤدي المراجعة السلبية إلى الموت، إلا أن **الدراسة القصيرة** ليست بوضوح عملاً علمياً بل تسلسلاً من الحقائق، وأنصاف الحقائق واللاحقائق، وتراكم الكلمات واحدة بعد الأخرى، لتخمد الذاكرة. إنها حكاية أخلاقية فجّة عن لينين/ ستالين الطيبين مقابل السيئين تروتسكي/ بوخارين/ المناشفة/ والكثير من الأشرار الآخرين، وهي قصة مبسطة ومختزلة مليئة بالتشوهات، والتي (سيراً على تقليد لينين) يتم فيها إيلاء المزيد من الاهتمام للصراعات الداخلية مع الاشتراكيين الآخرين أكثر من معركة الحياة أو الموت الفعلية المزعومة مع الرأسمالية أو الإمبريالية أو القيصر. تم تقديمها في نثر آلي جامد، كتأليه لأسلوب ستالين، حتى لو لم يكتب معظمه: مكروراً، وتخطيطياً، مع الكثير من أ، ب، ج، د. كما أنه غير عميق فضولياً، كما لو أن ستالين كان يخصصه للحفظ والتلاوة، وليس للاستيعاب. يأتي كل فصل مع ملخص مفيد في النهاية، يحدد بدقة كيف ينبغي للقارئ تفسير ما قرأه للتو.

كالتعليم المسيحي، نعم: لكنه أيضاً أكثر من ذلك. فبالصدفة، صنع ستالين تاريخ الحزب الشيوعي في تمارين كتابية حديثة، تقريباً كالقيود الأدبية الأوليبية[1]. لقد سمح، على سبيل المثال، بأن يكون الأفراد قادرين على إحداث تأثير في الظروف التاريخية الصحيحة، لكنه لم يسمح لأتباعه بإعطاء أي أهمية للسير الشخصية لأولئك الأفراد. من أجل الحفاظ على النص "ماركسياً" و"علمياً" بما فيه الكفاية، أزال الوجوه والأجساد والتجربة الذاتية من صفحاته. وكنتيجةً لذلك، أصبح الكتاب نصياً تماماً تقريباً، وسجلاً للصدام بين الأسماء الطيبة والأسماء الشريرة. ترغب الأسماء الطيبة في جعل اسم آخر يدعى "الثورة" يظهر، وحالما يظهر يتعين عليهم الكفاح للدفاع عنه ضد الأسماء الشريرة، والتي غالباً ما تكون على نفس الجانب من الأسماء الطيبة -حتى يتم الكشف لاحقاً عن أنها أسماء شريرة رغم كل

---

١ - حركة أدبية فرنسية تشتهر بتجاربها الذكية ولكن غير المقروءة إلى حد ما، والتي تضمنت فرض قيود على كتابة النصوص، مثل القيام بذلك من دون استخدام أي كلمات تحتوي على الحرف e أو، على العكس من ذلك، باستخدام فقط الكلمات التي تحتوي على الحرف e. المؤلف

شيء. زعيم الأسماء الطيبة هو لينين: الذي يظهر ٦٨٢ مرة في النص (٧٠١ إذا قمت بتضمين جدول المحتويات). لا يوجد اسم آخر يقترب منه: يبدو تروتسكي، سيد الأسماء الشريرة ويظهر ١٠٤ مرات؛ يظهر التروتسكيون، الأسماء التي تتبعه، ٨٨ مرة. ويذكر اسم "ماركس" ٧٦ مرة فقط.

بالنسبة إلى ستالين، ورغم أن النقد التقليدي **للدراسة القصيرة** ينص على أنه أقحم نفسه في التاريخ على حساب زملائه، جاعلاً نفسه يبدو شخصية أعظم بكثير مما كان عليه في الواقع، فإنه يظهر ١٦٩ مرة فقط، وهو غائب إلى حد كبير عن الجزء الأول من الكتاب، ولم يذكر على الإطلاق خلال الاستيلاء البلشفي على السلطة في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٧، حيث لا توجد أي إشارات على الإطلاق إلى "الستالينية". في الواقع، كان ستالين عادة يشطب الإشارات إلى نفسه في المخطوطات إذا اعتبرها فظاظة مفرطة. على الرغم من أن تقديسه الشخصي تغلب على لينين، إلا أنه ما زال يصر، على الأقل في تقديم نفسه، على أنه التلميذ المؤمن بدلاً من المسيح البديل. في عام ١٩٤٧، عندما اعاد تحرير "**الدراسة القصيرة**"، قام حتى بالحد من العدد الرسمي لمرات اعتقاله (ثماني) ونفيه (سبع) وهربه (ست) إلى سبع وست وخمس على التوالي. وسواء أكانت هذه محاولة صادقة لكبح جماح عبادة الشخصية أو مجرد تواضع زائف، أو كليهما، أو لا هذا ولا ذاك، فإن ستالين دائماً ما يظهر على الجانب الصحيح من التاريخ.

لكن **الدراسة القصيرة** ليست فقط عن الأسماء الصحيحة؛ بل عن الكتب الأخرى أيضاً، التي يكتسب بعضها أهمية قصوى. في الفصول الأولى يقاس التقدم بظهور أعمال لينين الرئيسية، والتي يتم الاستشهاد بها تسع وأربعين مرة. إن ذكر جريدته"**إيسكرا**) "تسع وخمسين مرة) هو ذروة الفصل الأول؛ حيث وصفت بأنها الشرارة التي "أشعلت النيران الثورية العظيمة التي سقطت فيها ملكية النبلاء الإقطاعيين القيصرية، وسلطة البرجوازية لتتحول إلى رماد".

أما بالنسبة إلى كتابات لينين، فقد أوضح ستالين دورها في تكوين أصل الاسم الصحيح، الحزب:

كان البلاشفة يعملون على بناء مثل هذا الحزب منذ عهد **الإيسكرا** القديم. وقد عملوا عليه بعناد، وبإصرار، على الرغم من كل شيء. لعبت كتابات لينين دوراً أساسياً وحاسماً في ذلك، **ما العمل؟ واثنان من التكتيكات** إلخ. كان كتاب لينين **ما العمل؟** بمثابة التحضير **الأيديولوجي** لمثل هذا الحزب. أما كتابه **خطوة إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء**، فكان الإعداد التنظيمي. وكان كتاب لينين **اثنان من تكتيكات الديمقراطية الاشتراكية في الثورة الديمقراطية** هو الإعداد السياسي لمثل هذا الحزب. وأخيراً، كان **المادية والمذهب النقدي التجريبي** هو الإعداد النظري لمثل هذا الحزب.

وفيما يتكشف التاريخ، كان لينين مستعداً دائماً بكتاب أو مقال ليوفر الرد الصحيح، وكان محررو ستالين موجودين لتقديم التلميع الصحيح لكل نص يكتبه لينين، إلى جانب توفير الاستشهادات المناسبة.

أصبح عدم وضوح ستالين فيما يخص الخط الفاصل بين الكلمة والعالم الواقعي، أكثر وضوحاً في الثقل الذي تضعه **الدراسة القصيرة** على الشعارات، والتي يشار إليها أربع وسبعين مرة. استجابة للأحداث، غالباً ما يرد لينين (وستالين لاحقاً) بشعارات، والتي، كما نعرف، هي أقوال خطيرة من السحر اللفظي الذي يغير العالم. فعلى سبيل المثال، نعرف أنه في فترة الثورة الروسية عام ١٩٠٥، ومن أجل "توجيه الجماهير إلى الانتفاض وتحويله إلى انتفاضة للشعب بأسره"، اعتبر لينين أنه من الضروري إصدار هذه السطور الجذابة:

أ) "الإضرابات السياسية الجماهيرية، والتي قد تكون ذات أهمية كبيرة في بداية وأثناء سائر عملية الانتفاضة ذاتها"؛

ب) "التحقيق الفوري، بطريقة ثورية، ليوم عمل من ٨ ساعات والمطالب الفورية الأخرى للطبقة العاملة"؛ و

ج) "التنظيم الفوري للجان الفلاحين الثورية من أجل القيام" بطريقة ثورية "بجميع التغييرات الديمقراطية"، بما في ذلك مصادرة الأراضي المزروعة.

وقد ازدادت حدة هذا الخطاب بالميل إلى استخدام نفس اللغة المستخدمة في الصراعات الخطابية مثل القتل الجماعي. في **الدراسة القصيرة**، النضال دائم. كلمة **النضال** ترد ٣٢٧

مرة مُحرِسة. ولكن عندما يكون كل شيء نضالاً، إذاً لا يوجد نضال، ويحدث تأثير تسطيحي غريب. لا يوجد تمييز بين الصراع الذي يتم عن طريق القلم، مثل حملة لينين ضد المنادين بالتصفية، حيث توصف كتابة المقالات بأنها "تحطيم المقاومة"، وبين الصراع الذي يُنتج أكواماً من الجثث. ومع ذلك، فإن كلمة **التحطيم** تُطبَّق أيضاً على الكفاح ضد البدعة الأيديولوجية الشعبوية، واضطهاد القيصر للبلاشفة، ومتابعة بريطانيا للحرب ضد ألمانيا، وحملة الحزب ضد الكولاك. العنف اللفظي يعادل العنف الفعلي، ولكن لا يتم تقديم تفاصيل هذا الأخير. ويصبح كل شيء منعدم الوزن بصورة تثير الاستغراب، وتحجب الفظائع الوحشية بالورق والحبر.

وكذلك، تطول وتطول لأكثر من ثلاثمائة صفحة. وفي النهاية، تغزو الأشكال الجديدة من النص السرد، حيث تزود **الدراسة القصيرة** القارئ بسلاسل طويلة من الإحصائيات المستمدة من التقارير التي عبرت مكتب ستالين:

> خلال فترة الخطة الخمسية الثانية [،] زادت الأجور الحقيقية للعمال وموظفي المكاتب بأكثر من الضعف. زاد إجمالي الرواتب من ٣٤.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ روبل في عام ١٩٣٣ إلى ٨١.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ روبل في عام ١٩٣٧. زاد صندوق التأمين الاجتماعي الحكومي من ٤.٦٠٠.٠٠٠.٠٠٠ روبل إلى ٥.٦٠٠.٠٠٠.٠٠٠ روبل في نفس الفترة. في عام ١٩٣٧ وحده، تم إنفاق حوالي ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ روبل على التأمين الحكومي للعمال والموظفين، وعلى تحسين الظروف المعيشية وتلبية المتطلبات الثقافية، وعلى المصحات، والمنتجعات الصحية، ودور الراحة والخدمات الطبية.

إن كانت هناك كلمة في بداية الحزب، وكانت كلمة لينين على وجه الخصوص، ففي نهاية المطاف كان هناك ستالين، والتقارير الملتوية. لقد تجاوزنا النظرية إلى تحويل الكلمة الى واقع، يظهر نفسه في تلاوة الإحصاءات المفبركة. هذه الأرقام، التي وعدنا بها، تحكي عن أشياء في العالم، لكنها في الحقيقة وأساساً، تحكي عن أشياء على الجهة الأخرى من الورق. وفي الخارج، خارج الصفحة، هناك: الدم، والإرهاب، والحرب.

***

بمجرد نشره، أخذ "**الدراسة القصيرة**" مكانه كنصّ مركزي في الاتحاد السوفييتي، كتاب مقدس إلى جانب سيرة حياة ستالين، وهي سيرة رسمية جافة بشكل مخيف، تعرضت أيضاً لتحرير مكثف. لقد درست الجماهير الكتب في المؤسسات التعليمية. وكانت النخبة تتودد بمدحها. في عام ١٩٣٩، في مؤتمر الحزب الثامن عشر، وصف نيكيتا خروتشوف أفكار ستالين بأنها "مساهمة كبيرة في الرصيد الثمين للماركسية اللينينية"، والتي تصل إلى "مرحلة أعلى في تطور اللينينية". لقد فاق التلميذ معلمه؛ وكُسفت شمس لينين.

في الواقع، كان الكتاب رائعاً لدرجة أنه لا يمكن أن يكون عمل رجل واحد. في عام ١٩٤٦، تمت مراجعة الكتابة الرسمية **للدراسة القصيرة**: أعلنت **برافدا** أن **تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي (البلاشفة): الدراسة القصيرة** سيتم تضمينه من الآن فصاعداً في المجلد ١٥ من الأعمال الكاملة لستالين. قطعت واستنفدت الأشجار حتى ينتشر الكتاب ويجد طريقه عبر الاتحاد السوفييتي ثم الى الأبعد، عبر الأمواج. بين إصداره الأولي في عامي ١٩٣٨ و١٩٥٥، طُبع ما مجموعه ٤٢٨١٦٠٠٠ نسخة، في حين تم استخراج ونشر الجزء الخاص بـ"المادية الجدلية والتاريخية"، في الفصل ٤، الذي كتبه ستالين بالفعل، ونشره بملايين النسخ في شكل كتيب منفصل. كانت بعض الأقليات السوفييتية قد اكتسبت لتوها الحروف الهجائية المكتوبة، وكان هذا ما هو متوفر ليقرؤوه. لم ينكر أي من الأجانب مسرات **الدراسة القصيرة**، كما ظهرت في سبع وستين لغة وتم توزيعها على مستوى العالم. من شوارع بكين إلى طرق باريس إلى المكتبات الراديكالية في سان فرانسيسكو، وفرضت رؤية ستالين للتاريخ نفسها على العالم. صدرت نسختي الخاصة في عام ١٩٣٩، بتنسيق ورق مقوى متين وعلى ورق عالي الجودة من الناشرين الدوليين في نيويورك. وبعد مرور ثمانية عقود تقريباً، لا تظهر على الصفحات سوى علامات قليلة من أثر الزمن، وما لم أحرقها أنا أو أحد ورثتي، فإن هذا الشيء قد يدوم لقرون بعدي.

فيما كان الاستحسان يمطر **الدراسة القصيرة**، كانت أوروبا تقترب من الحرب الفنية والحاسمة. وكان ستالين، كما هو الحال دائماً، سيخرج جيداً من المذبحة التي تلي ذلك، ويقف منتصراً على جثث الملايين، ويمدد حدود إمبراطورتيه ونطاق نصوصه التي تنكر الواقع حتى أعماق أوروبا. لم تكن الحرب قد انتهت بعد، عندما قامت المطابع في عام ١٩٤٦، بإخراج

نصف مليون نسخة من أعماله الكاملة، وكانت مليون نسخة من الطبعة الثانية لسيرته الذاتية الرسمية قيد التداول بحلول نهاية العام التالي. وقريباً، ستعلو النُصب الضخمة لستالين وتقف في مدن تشيكوسلوفاكيا وبولندا والمجر، بينما تصبح كتبه قراءة إلزامية للشيوعيين الشباب خارج الحدود السوفييتية. لم يكن لكتاب شيوعي هذا الانتشار الواسع، إلى أن نشر الرئيس ماو كتاب اقتباساته **الكتاب الأحمر الصغير**.

ولكن حتى عندما كان ستالين يفرض إرادته على أمم جديدة، ويمارس قوة أكبر من أي وقت مضى، فقد ظل يكتب أقل وأقل. على الرغم من أنه بقي يقرأ بشراهة ويحافظ على قبضته القوية على الثقافة السوفييتية، إلا أنه لم ينشر أي أعمال كبرى بعد الحرب -حتى عام ١٩٥٠، عندما أطلق **الماركسية والألسُنيّة** إلى الوجود -أولاً كسلسلة من الرسائل المنشورة في **برافدا** ومن ثم في كتيب لوحده. وفيه أخذ يتأمل نظريات البروفيسور نيكولاي ي. مار وتلاميذه، الذين سيطروا لسنوات على موضوعة الألْسُنِيّة في الاتحاد السوفييتي. كانت نظريات مار لا معنى لها: فقد ادعى أنه يتكهن بأن المقاطع الأربعة الأولى من حديث الإنسان التي تمكن من تكوينها كانت **سال**، **بر**، **ويون وروش**، وكانت تلك اللغة من اختراع مجموعة من الكهنة السحرة الذين أبقوها في البداية سراً بعيداً عن الطبقات الدنيا التي قد تستخدمها كسلاح في الصراع الطبقي، إلخ. عن هذا كتب ستالين "كلا، هذا غير صحيح" -قبل الشروع، بطريقة معقولة للغاية، في تفكيك نظريات مار، وبالتالي تحرير دراسة الألْسُنِيّة من تلك العقيدة المهلكة[1].

بعد عامين من ذلك، نشر ستالين كتابه الأخير، **المشاكل الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفييتي**. لم يكن كتاباً بقدر ما هو مجموعة من الملاحظات التي أثارتها قراءة ستالين لمجموعة أخرى من الملاحظات على كتاب في علم الاقتصاد لم يوجد بعد، رغم أنه أمر به في عام ١٩٣٧. تم تقديم نسخة المسودة إلى لجنة المراجعة التي ضمت ٢٥٠ خبيراً من الخبراء الاقتصاديين والقادة السياسيين في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥١، ولكنه كان دون المستوى: وكان واضحاً أن الفوشد يرغب بالمشاركة. نُشرت ملاحظات ستالين النصية

١ – والذي كان، بالطبع، عكس الاتجاه الطبيعي لتدخلات ستالين. المؤلف

الناقدة حول الكتاب وموضوعاته بشكل غير متوقع قبل ثلاثة أيام من بدء مؤتمر الحزب التاسع عشر، في ٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٢. نُشرت في **برافدا** على شكل سلسلة، ونُشرت في شكل كتيب خاص بها طبع منه مبدئياً ما يبلغ ١.٥ مليون نسخة، وقد قوبل **المشاكل الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفييتي** بإشادة وابتهاج، وكان موضع الكثير من النقاش في المكاتب والمصانع في جميع أنحاء البلاد.

حتى وإن ظهر **المشاكل الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفييتي** بطريقة مخصصة إلى حد ما، فقد كان نصاً رسمياً، قصده مؤلفه كسلسلة من البيانات التي ستتجاوز وفاته، وتحدد السياسات التي ستشكل العالم الذي خلقه مع انتقاله إلى مستقبل لن يراه أبداً. وعن طريق الورق والحبر، كان يسجل إرادته على مصائر الملايين حتى وهو ينام إلى الأبد. رغم كل هذه الأحلام العظيمة، أنهى آخر أعماله بنبرة حزينة إلى حد ما: ليس من خلال المزيد من التصريحات النظرية حول الحقائق الأبدية للماركسية، ولكن مع طلب إنشاء مجلد ضخم آخر: الكتاب الطويل عن الاقتصاد. ويعلن أن إنهاء هذا العمل هو مسألة "ذات أهمية دولية" لصالح كل من الشباب السوفييتي و"الرفاق الأجانب". هناك الكثير من الدروس التي يجب تعلمها:

> ... كيف خرجنا من العبودية الرأسمالية؛ كيف أعدنا بناء اقتصاد بلدنا على أسس اشتراكية؛ كيف أمّنّا صداقة الفلاحين؟ كيف تمكنّا من تحويل بلد كان في الآونة الأخيرة يعاني من الفقر والضعف إلى بلد غني وقوي؛ ما هي المزارع الجماعية؟ ولماذا، على الرغم من أن وسائل الإنتاج صارت اشتراكية، لا نلغي إنتاج السلع، والمال، والتجارة، إلخ.

ومع ذلك، يريد ستالين (كما هو الحال دائماً) الحفاظ على الأمور واضحة:

> يجب ألا يكون ضخماً جداً، لأن الكتاب الضخم لا يمكن أن يكون كتاباً مرجعياً ومن الصعب استيعابه، وإتقانه. لكنه يجب أن يحتوي على كل شيء أساسي يتعلق بكل من اقتصاد بلدنا واقتصاد الرأسمالية والنظام الاستعماري.

يقترح ستالين أن كتاباً يحتوي على حوالي خمسمائة صفحة (أو ستمائة "على الأكثر") يمكن أن يؤدي الغرض. حتى إنه يضع خطة مفصلة لإنتاجه: يجب أن تكون هناك لجنة تضم مؤلفي

الكتاب ونقادهم الأكثر عدوانية، وخبير إحصائي للتحقق من الأرقام وتزويد مواد إحصائية إضافية للمشروع، و"فقيه قانوني مختص للتحقق من دقة الصياغات". وهذا ليس كل شيء:

> يجب أن يكون أعضاء اللجنة معفيين مؤقتاً من جميع الأعمال الأخرى، ويجب دعمهم بشكل جيد، حتى يكرسوا أنفسهم تماماً للكتاب.
>
> علاوة على ذلك، سيكون من الجيد تعيين لجنة تحريرية، مؤلفة من ثلاثة أشخاص، لرعاية التحرير النهائي للكتاب. هذا ضروري أيضاً من أجل تحقيق وحدة الأسلوب، والتي، للأسف، تفتقر إليها مسودة الكتاب.

وأخيراً:

> المهلة الزمنية لتقديم الكتاب النهائي إلى اللجنة المركزية -سنة واحدة.

كتب ستالين هذه الكلمات في ١ شباط/ فبراير ١٩٥٢. لكن زمن الطاغية الذي ينفذ عمليات التطهير والمجازر بينما يدير عن كثب إنتاج المطبوعات، كان يقترب من نهايته. أصيب بسكتة دماغية بعد شهر واحد من الموعد النهائي، وتوفي بعد خمسة أيام. قريباً، سوف تختفي الكتب التي كان يرغب في وجودها عن الأرفف، كما لو أنها لم تكن موجودة هناك، تفرض الكذبة، وتتواطأ في الكذب على الملايين. لكن هذا الاختفاء كان أيضاً كذبة: فالكتب كانت حقيقية جداً بصورة لا تحتمل.

3- موسوليني



موسوليني - ذات مرة، أخذه الناس على محمل الجد

نبدأ مع جثة بنيتو موسوليني، معلّقة رأساً على عقب على عمود الإنارة خارج محطة وقود إيسو في مدينة ميلانو. وقد أطلقت أيدي الثوار الشيوعيين عليه النار وتعرض لسوء المعاملة من الغوغاء الغاضبين، حيث تأرجح اللحم الذي كان حياً مؤخراً، كما لو كان معلقاً على خطاف جزار في مجزرة مفتوحة على الهواء الطلق. وبجانبه تدلّت بالمثل أشلاء كلاريتا بيتاتشي، عشيقة الدوتشي طويلة الأمد.

لقد فرض هذه الجسد الممزق نفسه على الأمة. وكان مستبداً، فخوراً، ونشيطاً، زيّن الملصقات، والصحف، والبطاقات البريدية، وتلامع كالشبح في الأفلام الإخبارية. تواثب مع الأسود وظهر نصف عارٍ، مجرّداً حتى الخصر بين العمال. وازدان في ثيابه الغريبة كقائد عسكري كبير، وفي زي أكثر تقيداً كأب للعائلة محاطاً بالأطفال. وكان يُرى بانتظام على شرفة قصر فينيسيا في روما، حيث يتهادى جيئة وذهاباً، بعينين جاحظتين، وهو يومئ بذراعه، وتمطر كلماته المخادعة عن الإمبراطورية وإيطاليا الحشد المتجمّع تحته.

كان جسد موسوليني مختلفاً عن جسد لينين أو ستالين. كان جسداً في حركة مستمرة، جسد مقاتل، وكان مرغوباً مثله مثل أي نجم وسيم، وكان لموسوليني مئات المعجبين. عندما يقف، كان يضع يديه على خصره، كما لو كان صاروخاً يستعد للانطلاق ليضرب عين الشمس الحارقة مباشرة.

ولكنه، على الرغم من كل وضعياته كرجل حركي، كان موسوليني أيضاً رجلاً ساكناً. وهذا للقول، إنه كان كاتباً. لقد كان كفؤاً في العديد من الأنماط الأدبية -الصحافة، والخطابة،

والشعر، والتاريخ، والقص، والدراما، وكتابة المذكرات والسير الذاتية - وكانت كتاباته نادراً، إن حصل، ما تكون فظيعة تماماً. على عكس لينين أو ستالين أو هتلر أو معظم المؤلفين الطغاة الآخرين في هذا الكتاب، فقد كتب نثراً كان جيداً جداً في وقت ما. وكان غزير الإنتاج أيضاً: وقبل وصوله إلى عمود الإنارة، قام بكتابة نصوص كافية لملء طبعة من أربعين مجلداً من أعماله الكاملة.

وكان أحياناً، في هذه المقالات والكتب والمسرحيات، يتنبأ بكوارث حياته ذاتها.

* * *

يتطور الطفل الموهوب القادم من الريف إلى معادٍ للسلطة. كان شغوفاً بالقوة، لكنه يسعى وراءها باسم الحرية والعدالة والتحول الاجتماعي، وهو يمر بحرائق المنفى والسجن والحرب، وينتظر عقوداً حتى اللحظة المثالية ليضرب ضربته.

هكذا كان لينين القاصر النبيل من روسيا القروية؛ وهكذا كان الحال بالنسبة إلى ستالين، ابن الإسكافي الفقير من جورجيا الهامشية؛ وبالنسبة إلى بينيتو موسوليني، المولود لأب حداد وأم معلمة في منطقة رومانيا الجبلية في شمال إيطاليا عام ١٨٨٣. وعلى عكس نظرائه البلاشفة، كان هذا الصبي قد ترعرع في روح الثورة؛ كانت رومانيا معروفة بتمردها. وكانت والدة موسوليني، روزا، مواظبة على الذهاب إلى الكنيسة، لكن والده أليساندرو كان يكره الكهنة، واختار اسم ابنه على اسم الرئيس المكسيكي المعادي للكنيسة بينيتو خواريز. لم يكن موسوليني بحاجة إلى اكتشاف الاشتراكية في كتب يكتبها منظرون ألمان بعيدون؛ فإمكانه أن يجدها في عائلته وهي تجري في عروقه. فبالإضافة إلى ضربه الحديد الساخن بالمطرقة، كان أليساندرو موسوليني يؤدي عملاً إضافياً كصحفي ثوري.

وصل التمرد بشكل طبيعي إلى الصبي. وكذلك فعل العنف: في سن العاشرة، طعن زميلاً له في المدرسة بسكين. وتمّ طرده. لكنه، ومن دون أن يندم، طعن زميلاً آخر في مدرسته التالية، وكان يقود عصابات محلية في مداهمات استكشافية للمزارع في منطقته.

كان مجرماً سفاحاً وقتها. لكن موسوليني أحبَّ الكتب أيضاً، وعلى الرغم من قيامه بالطعن أحياناً، فقد كان جيداً في اللغات والأدب والتاريخ في المدرسة. في شباط/ فبراير

١٩٠٢، أصبح مدرساً، لكنه بحلول شهر حزيران/ يونيو كان قد توقف عن العمل، حيث رفضت المدرسة تجديد عقده. إن ولعه بالحانات المحلية، والميل للتشاجر مع أولياء أمور طلابه، وعلى الأخص علاقته الفاضحة مع زوجة رجل آخر، كل هذا مجتمعاً أنهى تلك المهنة باكراً. فهاجر موسوليني، مثل العديد من الإيطاليين الآخرين الذين شقوا طريقهم إلى الخارج سعياً وراء حياة أفضل. وفي شهر تموز/ يوليو ذاك، ومن دون وجود أي شيء (كما سيدعي لاحقاً) سوى ميدالية كارل ماركس في جيبه، رحل موسوليني إلى سويسرا.

لم تبدأ الأمور بشكل جيد. وبعد أن شق طريقه إلى لوزان، سرعان ما قُبض عليه بتهمة التشرد، وهي أول مرة من إحدى عشرة مرة يقضيها خلف القضبان قبل وصوله إلى السلطة. وعندما خرج من السجن، عمل في مجموعة متنوعة من المهن الوضيعة، ولكنه ظل ينام على مقاعد المنتزه عندما ينفد المال. كما بدأ في نشر مقالات في صحيفة اشتراكية إيطالية محلية تدعى "L'vvenire dei Lavoratori" (مستقبل العمال). كانت قصته الأولى عن مذابح الأرمن في الإمبراطورية العثمانية. صّرح مثير القلاقل الاشتراكي البالغ من العمر ١٩ عاماً أن الصراع الطبقي يكمن في جذور المذبحة العرقية، وأعلن أن على "الطغيان" الذي تمارسه الطبقة الاشتراكية ذات الامتيازات الاقتصادية أن يختفي كي نضع حداً "للكراهية العرقية والتعصب". أحب المحررون أسلوبه، وكانت مسيرة موسوليني الصحفية في بداية طريقها: في غضون أشهر، نشر تسعة مقالات أخرى في L'Avvenire dei Lavoratori.

بدأ موسوليني مساراً صارماً لتحسين ذاته فكرياً، مسترشداً في استكشافاته الفلسفية بأنجليكا بالابانوف، المنفية الروسية اليهودية المتعلمة جيداً (وزميلة لينين وتروتسكي) وبمساعدتها، قام الولد الذي كان يحمل ميلاً للمواخير والطعن بالسكين بشقّ طريقه عبر الكثير من النصوص المعقدة التي وجدها في مكتبة جامعة لوزان. وشملت قائمة قراءة موسوليني:

* **بنديكت دي سبينوزا** (١٦٣٢-١٦٧٧)، صانع العدسات والفيلسوف الهولندي الذي أكد، على الرغم من معارضته للأرثوذكسية الدينية، أن "معرفة الله هي خير العقل الأعظم."

* **عمانوئيل كانط** (١٧٢٤-١٨٠٤)، الفيلسوف الألماني الذي جادل بأن الحدس بدل الخبرة يمكن أن يكون أساساً لبعض الحقائق حول العالم، وأن القرارات الأخلاقية يجب أن تستند إلى الضرورات المقنعة، وليس إلى النتائج الافتراضية.

* ج. و. ف **هيغل** (١٧٧٠-١٨٣١)، الفيلسوف الألماني الذي ادعى أن فكره يمثل ذروة تاريخية لجميع أنظمة الفكر السابقة، وتلك النظرة الغائية للتاريخ المتأثرة بفكر ماركس.

* **بيوتر كروبوتكين** (١٨٤٢-١٩٢١)، مؤرخ روسي، جغرافي، وعالم حيوان، وعالم اجتماع، أمير وكبير منظري الشيوعية الأناركية. ترجم موسوليني كتابه **كلمات متمردة** عن اللغة الفرنسية.

* **فريدريش نيتشه** (١٨٤٤-١٩٠٠)، الفيلسوف الألماني الذي أعلن موت الإله، وهاجم الأخلاق التقليدية، وأعلن أهمية "تأكيد الحياة".

* **جورج سوريل** (١٨٤٧-١٩٢٢)، الفيلسوف الفرنسي الذي نفى الخير عن الطبيعة البشرية، وندد بالديمقراطية، ومجّد فضائل الأسطورة والعنف والصراع الطبقي والثورة.

* **كارل كاوتسكي** (١٨٥٤-١٩٣٨)، الماركسي الألماني الذي أثار في نهاية المطاف حفيظة لينين، إلى حد أن الزعيم البلشفي شهّر به في كتابه **الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي** (١٩١٨) وقام موسوليني بترجمة كتاب كاوتسكي **عن غد الثورة الاشتراكية** (١٩٠٢) إلى الإيطالية.

من الواضح أن موسوليني، الذي كان يستطيع القراءة باللغة الفرنسية والألمانية والإنجليزية بالإضافة إلى لغته الإيطالية الأصلية، كان فضولياً من الناحية الفكرية. ومع ذلك، فإن قدرته على استهلاك كميات كبيرة من النصوص المعقدة، لم تقابلها قدرة مساوية على تجميع أي من هذه المعلومات بطرق أصيلة أو التعبير عن أي أفكار معقدة خاصة به، وهي حقيقة أوضحها بغزارة في أول أعماله "الرئيسية"، **الإنسان والألوهية: الله غير موجود.**

نشرت هذا الكتيب المؤلف من سبع وأربعين صفحة في عام ١٩٠٤ المكتبة الدولية الكبرى للدعاية العقلانية[1]. وكان موسوليني قد كتبه بعد حضوره اجتماعاً في لوزان يرأسه مبشر بروتستانتي إيطالي يدعى ألفريدو تاغليلاتيلا. بلغ الاجتماع ذروته بصعود موسوليني على الطاولة وإعطاء الله مهلة خمس دقائق كي ينزل عليه صاعقته إن كان موجوداً. وغير راض على

١ - في واقع الأمر تكونت هذه المؤسسة التي تبدو عظيمة من موسوليني نفسه وأحد أصدقائه. المؤلف

ما يبدو عن هذه الحجة، شعر موسوليني بأنه مجبر على توليد نص لزيادة محاربة حجج تاغليلاتيلا من خلال كتابة مقال.

"أطروحة" موسوليني هي تدنيس مبتهج لكل ما هو مقدس. كان يقدّم وجهة نظره عبر السخرية والإثبات ومناشدة السلطة وصور بلاغية إلحادية مبالغ فيها لكنها مألوفة تماماً:

> كيف يمكن التوفيق بين فكرة الخالق ووجود أعضاء متقزّمة وضامرة، ومع الحالات الشاذة والوحوش، مع وجود الألم، الدائم والشامل، مع النضال وعدم المساواة بين البشر؟

وإن لم تكن الحجج جديدة، فإن متعة موسوليني باللغة كانت معدية. هناك وفرة في اللعب على الإهانات، وفرح بالسخرية، وسرور بالتجديف. إنه أقل خصوصية بكثير من شتائم لينين المقذعة، وبالتالي أقل إثارة للملل. لا يشارك موسوليني في معركة حياة أو موت بسبب العقيدة: بل يستمتع بإزعاج الناس، مثل سلفٍ لريتشارد دوكينز وهو يلقي الألعاب النارية المفرقعة على سلسلة من رجال القش، ويعلن أن الدين "هو السبب الأكيد لأمراض العقل الوبائية التي تتطلب رعاية من أطباء الأمراض العقلية".

كان موسوليني يستمتع أكثر عندما يناقش يسوع. ويقارنه ببوذا، الذي قضى "خمسة وأربعين عاماً من حياته في الهند، يبشر بالأخوة والإحسان وحب الجار"، يعتبر المسيح النصراني "صغيراً وغير مهم". وكان تلامذته أسوأ "حفنة من المتشردين الجهلة - حثالة من العامة من فلسطين! "

يعلن موسوليني أنه "من العبثية غير المعقولة" جعل المسيح "المنشئ والداعية لأي أخلاق على الإطلاق". العظة على الجبل هي انتحال، في حين أن "التعاليم القليلة عن الفضائل التي ستشكل الأخلاق المسيحية" ليست سوى "إرشادات للخضوع، والانقياد، والجبن". أخيراً، يقلب المسيحية بوعظه الثوري التجديفي. انسوا ملكوت السماوات، كما يقول، لأن "البائسين هم أولئك الفقراء الذين لا يعرفون كيف يكسبون مملكتهم على الأرض!". أما بالنسبة إلى تحويل الخد الآخر، فإن موسوليني يعلن بدلاً من ذلك، "ردوا بالمثل؛ وعارضوا القوة بالقوة والعنف بالعنف".

يبرهن موسوليني على حيازته تحديداً المهارة المطلوبة لمهنة الصحفي السياسي والمحرض، فهو مبسط وجاهل، ولكنه كذلك واثق تماماً في آرائه. وهكذا، على الرغم من أنه نشر الشعر أيضاً في هذه المرحلة المبكرة من مسيرته الأدبية ("في يوم الموتى" عام ١٩٠٢ وقصيدة أخرى مكرسة للصحفي الثوري الفرنسي بابوف عام ١٩٠٣)، إلا أنه كان بمثابة آلة صارخة لتوليد الرأي، قد تجعل اسمه مشهوراً. بحلول نهاية فترة إقامته في سويسرا، كان موسوليني - بعد فترات سجنه، وطرده من الكانتونات، والمهن المتغيرة - معروفاً بالفعل بأنه اشتراكي ينفث النار، وصحافي، ودعائي، ونقابي، ومتحدث عام. كان الله واحداً فقط من أشكال السلطة التي تعرضت لمعاملته السيئة: فقد هاجم أيضاً الملوك، والقيصر الروسي، والكهنة والرأسماليين. وطالب بالإضرابات، وأشاد بالعنف. مثل لينين، استمتع بمعارك كلامية مع زملائه الاشتراكيين، وحلم بيوم الحساب. ستكون هناك مصادرة؛ سيكون هناك دم. وأعلن أن ظهور الاشتراكية يتطلب "عاصفة من العصيان والتمرد".

موهبة موسوليني في الخطابة الملهبة، جلبت له اهتماماً من خارج دوائر المغتربين في سويسرا. كتب للصحف الاشتراكية بعيداً حتى نيويورك، وأيضاً أقرب إلى البيت في ميلانو. ونمت سمعته. في عام ١٩٠٤، نشرت إحدى الصحف الصادرة في روما قصة عن إحدى خصوماته مع السلطات السويسرية، مشيرة إليه على أنه "الدوتشي العظيم" للمنظومة الاشتراكية في سويسرا. وكان عمره ٢٠ عاماً فقط.

* * *

في أواخر عام ١٩٠٤، عاد موسوليني إلى إيطاليا. كانت والدته مريضة. ثم توفيت. ولعدة سنوات، حاول أن يعيش حياة أقل هامشية. خدم في الجيش. واستأنف لفترة وجيزة وكارثية حياته المهنية كمدرس. لكنه حتى خلال هذه الفترة ظل يكتب ويلقي الخطابات، وفي النهاية تخلى عن أي جهد ليكون شخصاً "عادياً" يمارس وظيفة "طبيعية". وفي الوقت نفسه، جرب أشكالاً أدبية أكثر طموحاً.

فعلى سبيل المثال، انخرط في شكل المقال الطويل، ونشر مقالاً بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لوفاة كارل ماركس. ولم يكن ماركس المفكر الوحيد من القرن التاسع عشر الذي

امتدحه موسوليني ذلك العام. ففي مقال بعنوان "فلسفة القوة"، امتدح فضائل فكر نيتشه، على الرغم من أن الفيلسوف الألماني قد وصف الاشتراكية بأنها "طغيان الأرذلون والأكثر تفاهة". دون أن يمانع في ذلك: وفقاً لموسوليني، كان نيتشه "العقل الأكثر استثنائية في الربع الأخير من القرن الماضي". لقد راق مباشرة لجانب موسوليني المتمرد، الطاعن بالكنيسة، والمناهض للمسيحية، ولكن موسوليني أحب أيضاً فكرة "الرجال الجدد" الذين سيعيشون فيما وراء الخير والشر، وكان مفرطاً في عاطفته تجاه مفهوم الرجل الخارق:

> "الرجل الخارق" هو أعظم إبداعات نيتشه... نيتشه يدق جرس العودة الوشيكة إلى المثالية. لكنها مثالية تختلف بشكل أساسي عن تلك التي كانت تؤمن بها الأجيال الماضية. لفهم ذلك، ستأتي "أرواح حرة" من نوع جديد محصن بالحراب، والعزلة، والخطر الشديد، أرواح اختبرت الرياح، والجليد، وثلوج الجبال، وستعرف كيف تقيس بعين مطمئنة عمق الهاوية -أرواح مزودة بنوع من الشر الرفيع - أرواح ستحررنا من حب جارنا، ومن رغبة الباطل (nulla)، وستعيد إلى الأرض الهدف من وجودها وإلى الرجال أملهم - أرواح جديدة حرة ستنتصر على الله وعلى الباطل!

إنها قطعة ملهمة من الكتابة، تُقرأ كما لو كانت قد كتبت في حالة انتشاء بالكلمة. إن مديح موسوليني لنيتشه شاعري، ورومانسي، ونشيط، يتغذى من حيويته المعدية: نثر مثل هذا يمكن أن يحصل من دون منطق. إنه بعيد كل البعد عن الدوغماتية المهووسة عقائدياً الخاصة بلينين أو ستالين، اللذين أصرا على تأطير كل شيء بعبارات علمية زائفة. لكن الدوتشي لا يفعل ذلك. بل كان محمولاً على عاتق "الأرواح"، ظل يهتف بالنصر على العدم الكوني.

واصل موسوليني محاولة إثبات نفسه كمثقف. كتب قصصاً قصيرة وكتب مقالاً عن فريدريش كلوبستوك، الشاعر الألماني الذي عرف بقصيدة دينية ملحمية بعنوان المسيح. وفقاً لأول كاتبة للسيرة الذاتية الرسمية لموسوليني، مارغريتا سارفاتي، كتب العبقري البالغ من العمر ستة وعشرين عاماً أيضاً تاريخاً كاملاً من الفلسفة تم فيه "التعامل مع جميع الأنظمة الفلسفية... بشكل نقدي وتحليلي، وتعرضت جميع الأساليب الجديدة للفحص مثلما فعل نيتشه"، لكن هذه التحفة أحرقتها امرأة شابة، كما تخبرنا سارفاتي، وهي تخطئ في أسماء الفلاسفة مع أسماء محبيها المتنافسين.

العمل الأكثر ديمومة من هذه الفترة (بمعنى أنه يمكن شراؤه مستعملاً بسهولة عبر الإنترنت) هي رواية موسوليني الأولى والوحيدة، **عشيقة الكاردينال**، والتي تم نشرها مسلسلة في صحيفة الشعب Il Popolo الاشتراكية في عام ١٩١٠. كان موسوليني يعمل حتى وقت قريب لهذه الصحيفة، التي توزع في ترينت، وهي مدينة ذات عدد كبير من السكان الناطقين باللغة الإيطالية، والتي كانت تحت الحكم الهنغاري النمساوي. ومع ذلك، أدت مجموعة من المقالات المسيئة من قلمه حول مواضيع متنوعة مثل الكنيسة والديمقراطية والماسونيين الأحرار إلى ترحيله إلى إيطاليا، واضطر إلى إرسال أجزاء الرواية الستة والخمسين عبر الحدود عن طريق البريد.

نظراً لأصوله - ككتاب رديء قام موسوليني بكتابته في وقت متأخر من الليل بسبب حاجته الماسة للمال - فإن على **عشيقة الكاردينال** أن يكون مروعاً. ومع ذلك، وعلى الرغم من أنه ليس جيداً على الإطلاق، فإنه في بعض الأحيان يكون على الأقل قابلاً للقراءة. الحبكة مستمدة من قصة حقيقية معقدة للغاية. وسألخصها فيما يلي.

في القرن السابع عشر، كان كارل إيمانويل مادروزو، الكاردينال ورئيس الأساقفة (والأمير العلماني) لترينت، يعشق بشغف عشيقته الأصغر سناً، كلوديا بارشيلا، التي تمتلك جسداً ذا "ملامح مستفزة" تحت ملابسها والتي تفهم عيناها "سحر العواطف السامة". لقد أهدر ثروته، راغباً في الزواج من كلوديا. كان الجميع يكرهها، بما في ذلك بقية التسلسل الهرمي الكنسي والجماهير، التي تتعرض للاضطهاد، وفرض الضرائب المفرط، الجائعة والفقيرة.

كانت ابنة أخ مادروزو فيليبرتا هي الوريثة الوحيدة لثروة العائلة. ويريد مادروزو منها أن تتزوج من شقيق كلوديا، لكنها تريد أن تتزوج من الكونت أنطونيو دي كاستلنوفو. لذا يقوم مادروزو بسجن فيليبرتا في دير. يلوم الغوغاء كلوديا على "عينيها السوداوين والشيطانيتين". ثم تموت فيليبرتا، ويقوم الكونت، شاعراً بالضيق، بنبش جثتها المتفحمة.

يصطف الأسقف دون بينزيو الآن مع الكونت أنطونيو لإسقاط عدوه مادروزو. ومع ذلك، كان أقل استلهاماً لحب الكنيسة من الغيرة الجنسية: فهو أيضاً يتوق إلى الجسد الفاتن لعشيقة الكاردينال، كلوديا.

في هذه المرحلة، تتعقد الأمور للغاية. تتوالد الحبكة، ويتصرف رجال الدين بشكل سيء، ويرفض البابا السماح لمادروزو بالزواج من كلوديا. يستسلم مادروزو للحزن، ويخبر كلوديا أن الأمر قد انتهى. وتحدث بعض الأشياء. وأخيراً، يطعن شخص ما كلوديا. وتموت.

غالباً ما تُوصف **عشيقة الكاردينال** بأنها "رواية جنسية صريحة" من طرف أشخاص لم يقرؤوها، لكنها تحتوي في الواقع على القليل جداً من تمزيق الصدريات النسائية والكثير مما هو لتقريع الكنيسة، وتحتوي فهرساً للباباوات الأشرار بدءاً من كليمنت السابع، الذي "احتفظ بفرقة من النسوة الفاجرات، من بينهن أفريقية مشهورة، لتسلية نفسه في الفاتيكان"؛ وصولاً إلى يوليوس الثالث، الذي كان "يمارس الحب اليوناني". إنه، بالإضافة إلى ذلك، منحرف بشكل مثير للإعجاب. تحتوي الرواية على جسمانية سادية غير منضبطة. وعلى النقيض من عالم النثر البلشفي الطاهر والخالي من الأجساد، فإن **عشيقة الكاردينال** تضج بالبدانة واللحم الممتلئ بالحيوية.

هناك رعب جسدي يذكرنا بإدغار آلان بو:

> ... أجبرتنا الرائحة الكريهة للحم البشري المتحلل على التراجع بضع خطوات إلى الخلف... كان أنطونيو يتمنى أن يرى المرأة التي أحبها بشدة، وأرادها بشدة. وسهل التعرف على الجسد من الشعر الذهبي الذي سقط على الجبهة النقية، والعينان لم تفسدا بعد. ولكن من الشفتين، اللتين تحللتا إلى ابتسامة وحشية، كان ينز السائل الأبيض الكثيف.

... أوهام بشعة عن الاغتصاب والانتقام:

> سأدع المتوحشين العامة في السوق يشبعون شهواتهم الكامنة في جسدك الخاطئ. ستكونين سخرية للهمج الغوغاء. ولن تنال جثتك طقوس الدفن المسيحي.

... ضرب حصان بسبب الإحباط الجنسي:

> واصل السوط الهسهسة وهو يقرع الجلد. لقد عرف الحصان سيده ولم يركل، بل تشبث بمكانه كما لو أنه يتسول الرحمة.

... جلد الذات:

... في البداية، سعى إلى النسيان، تاركاً نفسه أمام كل صور حرمان الترهب الشديد. كان قد جلد جسده بسوط معقود به قطع من الرصاص. وكان قد صام إلى درجة الخطر إن لم يكن الموت من الجوع. كان ينام على الأرض العارية، تطارد نومه رؤى منحرفة. لقد اتبع أدق وصفات التمارين الروحية للتكفير عن الذنب.

... والخيالات الاستمنائية:

منهكاً تماماً! بعد الجَلد، وبينما كان جسده المرضوض يتورم، وتحت رموشه المدماة، كانت صورة كلوديا تقفز أمام عينيه. كلوديا العارية، ترتجف، مغرية، تعرض إغراءات كليوباترا المهلكة!

لكن **عشيقة الكاردينال** ليست فقط عن اللحم المترجرج، بل إنها تُظهر أيضاً أن موسوليني، رغم كونه ماركسياً، كان يقر بأهمية العالم الداخلي الذاتي في الفعل الإنساني. الآن، من المسلم به أن هذه العوالم الداخلية مرتبطة بشخصيات خيالية ثنائية الأبعاد، ولكن لها على الأقل رغبات وكراهات -على النقيض تماماً من الأسماء الصحيحة التي تعمل كأبطال في كتاب ستالين **دراسة قصيرة**. كانت شخصيات موسوليني الخيالية، المدفوعة كلياً تقريباً بالخرافات والجشع والشهوة والكراهية، تملك مضموناً أكبر من أناس ستالين "الحقيقيين".

ومع ذلك، فإن رؤية موسوليني للبشرية كانت قاتمة، ومثل كل من لينين وستالين، لم يكن يثق بالفقراء الذين يزعم أنه يدعمهم. إنه يصور "الجماهير" كوحوش جامحة، يسهل تحريكها عن طريق الشائعات، وهي على استعداد للانفجار في هياج عنيف معربد. إنها ليست البروليتاريا النبيلة التي نراها، بل الغوغاء المتقلبون غير المتعلمين. عبّر لينين عن ازدرائه في شكل مشفر باعتباره كرهاً لـ"الطواعية"؛ لكن موسوليني كان أكثر صدقاً. إنه يفهم مشاعر ومخاوف الفقراء، لكنه يحتقرها أيضاً؛ ربما يكون هذا التهكم هو السبب في أنه كان جيداً في التلاعب بالملايين.

ومع ذلك، وفي رواية **عشيقة الكاردينال**، يستكشف موسوليني الروائي أيضاً حدود المدى الذي يمكن أن يصله هذا التلاعب. في كتابته بصيغة الغائب، وهو يركل القمامة الرطبة

في وقت متأخر من الليل، كان يعرف بالفعل الحقائق التي ستعيد ذاته المستقبلية تعلّمها على حساب حياته: أن صبر الغوغاء محدود، وهي لا تغفر الفشل. افقدْ السيطرة، وستفقد كل شيء. وهكذا تُنذر كراهية الغوغاء لمدروزو وبغضها الشديد لعشيقته كلوديا، باللوم والكراهية الموجهين نحو موسوليني وعشيقته الأصغر بكثير، كلاريتا بيتاتشي، في المراحل اللاحقة من نظامه. تنتهي كلا القصتين بالفشل والقتل.

* * *

ازدهرت مهنة موسوليني كصاحب قلم (هجومي) ناجح. في عام ١٩١٢، بعد قضائه فترة في مدينة فورلي في تحرير أسبوعية اشتراكية جديدة بعنوان **La Lotta di Classe** (تلتها عقوبة بالسجن لمدة خمسة أشهر بسبب الاستفزازات السياسية)، وصل إلى ذروة مسيرته الصحفية، وعيّن عضو العصابات القادم من بريدابيو والنائب السابق على مقاعد المنتزهات السويسرية رئيساً لتحرير **إلى الأمام!** (**Avanti!**) الصحيفة اليومية للحزب الاشتراكي الإيطالي، التي كانت تُنشر في مدينة ميلانو.

كان موسوليني يعرف ما يحبه جمهوره: المحتوى المناهض للقومية، وللإمبريالية، وللشيوعية، وللدين، مُعبرَاً عنه بأسلوب ثوري وديناميكي وعنيف تخالطه روح الدعابة والإساءة، أسلوب ينتهك تماماً التقاليد الإيطالية في إنشاء الجملة الأنيقة والرفيعة. احتقر موسوليني الأسلوب المسهب السائد وتعهّد بتجريد "كل ما هو زخرفي، ومبهرج، وسطحي، وإلغاء كل حطام القرن الخامس عشر، وكل اللغو الأجوف". ونجحت استراتيجيته التحريرية: وازداد حجم التداول اليومي لصحيفة (**Avanti!**) لأكثر من ثلاثة أضعاف، من ثمانية وعشرين ألف نسخة إلى أربعة وتسعين ألف نسخة، بينما كان موسوليني جالساً في اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكي الإيطالي. وفي غضون عقد من الزمان، أدت مهاراته كخطيب ومؤلف هاو ضليع في توليد تيارات زاخرة من الخطاب الثوري والإساءة النابضة بالحياة، إلى تحوّله الى شخصية بارزة في السياسات الراديكالية.

ومع ذلك، فقد كان موسوليني يعتمل تحت قيود فكرية. لقد كان أقل اهتماماً بـ"النظرية" من لينين والبلاشفة، ورغم أنه كان اشتراكياً، إلا أنه لم يقدّس ماركس كنبي. وعلى العكس

من ذلك، فقد كان متوافقاً في عدائه للأيقونات. في عام ١٩١١، كتب أن كارل ماركس "ليس ضرورياً" للاشتراكية. "نحن لسنا لاهوتيين ولا كهنة ولا متعصبين للماركسية الحرفية... ليس من الضروري تفسير النظريات الماركسية كلمة كلمة".

تولّد لدى موسوليني اهتمام بجان هوس، وهو متمرد ديني من القرن الخامس عشر من بوهيميا (في جمهورية التشيك الحالية) أحرقته الكنيسة الكاثوليكية بتهمة الهرطقة. ومفتوناً بـ"هوس"، كتب موسوليني في عام ١٩١٢ سيرة حياة الهرطوقي/ الشهيد على الرغم من حقيقة أنه (كما اعترف في المقدمة):

> لا يمكن الوصول إلى الأعمال اللاتينية للهرطقة البوهيمية في مكتباتنا، ولم تتم ترجمة الأعمال التشيكية أو تلك المترجمة من التشيكية إلى الإيطالية؛ كما أن من يكتب هذه السطور لم يملك الحظ السعيد للانتماء إلى تلك المجموعة الصغيرة من الإيطاليين القادرين على قراءة اللغة التشيكية بسهولة.

وبغض النظر عن هذه العقبات البسيطة، كانت قصة هوس موضوعاً مثالياً لموسوليني. فقد كان رجلاً انتقد فساد رجال الدين ودافع عن الإصلاح، ورائداً فكرياً للإصلاح أُحرق بالرغم من وعد سلطات الكنيسة بعدم تعرضه للأذى. وهكذا أتاحت سيرة هوس فرصاً كبيرة لإثارة الرعب الجسدي والهجوم على الكنيسة، التي استغلها موسوليني إلى أقصى حد:

> بعد الإشعال الأول، تم حرق الجزء السفلي من الجسم فقط، ظل الجسد نصف المتفحم مثبتاً على الدعامة. ثم سقطت الدعامة في الرماد، واشتعلت النيران مرة أخرى، فيها تُلقى عربة جديدة من الخشب. قام مساعدو الجلاد بجمع العظام وكسرها حتى تحترق جيداً. وهكذا تم كسر الرأس الى قطعتين ألقي بهما مرة أخرى في النيران، جنباً إلى جنب مع القلب، الذي لم يكن قد وصلته النار بعد.

كان موسوليني قادراً على الانغماس في حبه للعنف أكثر من ذلك، لأنه بعد قربان زعيمهم، شكّل أتباع هوس جيوشاً مروعة اجتاحت بوهيميا مسببة الدمار لعدة عقود. وهناك طائفة أخرى، هي طائفة الآدميين، نبذت ارتداء الثياب، وانتشرت في أنحاء الريف تمارس اللصوصية وتشارك في العربدة قبل أن يذبح أفرادها جنرال ذو عين واحدة يدعى زيزكا

Žižka.. بالنسبة إلى كاتب تجاري مثل موسوليني، فهِمَ قوة الصدمة والإحساس، كانت هذه مادة رائعة، ومناسبة بشكل مثالي لجمهوره المستهدف.

ومع ذلك، فقد اختط خطاباً مختلفاً عن تهجمه السابق على الله والمسيح. فهو لم يكن معادياً للدين بقدر عدائه للكاثوليكية. وقبل عشر سنوات، كان قد ندد بالمسيح وحوارييه بوصفهم حمقى متخلفين، وصنّف الأمراض العقلية الدينية. لكنه وجد في هرطقات هوس، "مضموناً اجتماعياً إلى حد ما، بل واشتراكياً أحياناً". هناك قيمة في كتابات الداعية، وليس ذلك فحسب، بل في الكتاب المقدس أيضاً: ويوافق موسوليني على إصرار هوس على "العودة إلى الإنجيل" و"زهد وتضامن المجتمعات المسيحية الأولى".

يشير موسوليني إلى أن أتباع هوس كانوا عنيفين للغاية، وأن رغبتهم في العودة إلى البساطة كانت "مصحوبة في كثير من الأحيان بدعوة للثورة وللحرب". ومع ذلك، فهذه مسألة أقل أهمية إن كانت الهرطقة مسؤولة عن القتل، كما ستبدو. وعندما يصف موسوليني الفظائع التي ارتكبها التابوريون، وهو جيش مروع من الهوسيين، فإنه لا يستخدم نبرة الإدانة الأخلاقية التي يستخدمها مع الكنيسة الكاثوليكية كلما عذبت أو قتلت خصومها. كما أشار إلى أن التابوريين "كانوا مصممين على العيش، سياسياً، من دون عاهل؛ ربما كانوا يرغبون في تأسيس جمهورية أو توسيع مجتمعهم ليشمل كل بوهيميا. وكانوا قوميين".

في الحقيقة، يقول موسوليني، إن أوروبا مدينة بشدة لهؤلاء المتطرفين الدينيين. بدأ هوس "عاصفة هرطقة أعادت إحياء الحضارة الأوروبية". جميع حركات الهرطقة في أوروبا الوسطى كانت تعمل على الإصلاح. يكتب: "وهكذا، فإن تاريخ التحرر التدريجي للجنس البشري من أغلال المعتقدات العقائدية لا يعرف أي انقطاع، لأنه يمتد من قرن إلى قرن". هذا تأييد واسع النطاق للهرطقة من حيث المبدأ. يقول موسوليني إن التابوريين كانوا اشتراكيين بعض الشيء، لكنهم كانوا أيضاً قوميين بعض الشيء، وفي الواقع فهم متدينون للغاية: لقد مزجوا كل تلك الأفكار معاً. كان موسوليني قد أعلن بالفعل أن ماركس لم يكن داخل منطقة محظورة، وذكر في المقدمة أن كتابه الصغير سيُقرأ على نطاق واسع: "أعلل نفسي بالأمل بأنه يثير في أذهان قرائه الكراهية لكل أشكال الطغيان الروحي وغير الروحي، سواء أكان ثيوقراطياً أو يعقوبياً".

نُشر **جان هوس** في عام ١٩١٣، عندما كان موسوليني زعيماً للاشتراكيين الإيطاليين. وبعد مرور عام، أخذ بنفسه قفزة نحو الهرطقة. فبعد أن أمضى فترة التفاقم نحو الحرب العالمية الأولى في الحفاظ على موقف متشدد، ومناهض للإمبريالية، وكمناهض للحرب على غرار لينين، غيّر رأيه فجأة. في ٢٥ أيلول/ سبتمبر ١٩١٤، توقف الصراع فجأة عن أن يكون "أزمة المجتمع الرأسمالي"، ونشر مقالاً يدعو فيه إيطاليا للتدخل إلى جانب فرنسا وبلجيكا "لإغراق الحرب في دمائها".

أسس بسرعة صحيفته Il Popolo d'Italia المؤيدة للتدخل المسعور، التي ظهرت لأول مرة في ميلانو في ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٤، وهي تحمل اقتباساً من نابليون على الصفحة الأولى: "الثورة هي فكرة تحصّلت على حراب". رفاق موسوليني كانوا غاضبين من فعل الخيانة هذا. وإذا لم يتمكنوا من حرقه كهرطوقي، فيمكنهم على الأقل طرده من الحزب وتجريمه علناً. وعلى الرغم من أنه كان لا يزال اشتراكياً بشكل رسمي عندما أسس Il Popolo، إلا أنه بعد تسعة أيام طُرد من الحزب وحرم من العقيدة التي ولد فيها. في غضون بضعة أشهر، كان قد خاض مبارزتين بالسيف مع اثنين من رفاقه السابقين، ومن كليهما نجا (نوعاً ما) سليماً[1].

رفاق موسوليني السابقين اتهموه بالخيانة والانتهازية. ومع ذلك، بالنظر إلى مزاجه المتقلب وترابطه الصريح مع نظرائه من رجال نيتشه الخارقين والمنحطين أخلاقياً والزنادقة مثل جان هوس، فليس من المفاجئ أنه بالإدراك المتأخر، شعر أنه لا يميل إلى الخضوع إلى شيء تافه كالاتساق الأيديولوجي.

في كتابه **جان هوس**، كما هو الحال مع **عشيقة الكاردينال**، تنبأ مرة أخرى بجانبٍ من مستقبله. هذه المرة كان الموضوع عن المفكر الراديكالي الذي يحاول تغيير العالم، ولكن يتم أسره من قبل أعدائه وقتله. ربما كان موسوليني يدين بتقاليد الشهيد الكاثوليكية أكثر مما كان يدرك. بعد كل شيء، كان يمكن أن يختار زنديقاً مختلفاً، مارتن لوثر مثلاً، الذي ظهر منتصراً في معاركه مع السلطات المقدسة والعلمانية. أو ربما كان إحساسه بالتاريخ

---

١ - جرح موسوليني في المبارزة الثانية، ولكن وضع غريمه كان أسوأ. المؤلف

والمصير مأساوياً بشكل أساسي. كان كتاب موسوليني، الذي كُتب في لحظة انتصار شخصي، يدور حول رجل يتمرد لكنه يفقد حياته. لقد كان منجذباً إلى الشخصيات العظيمة المحكوم عليها بالهلاك. إنها رؤية مشؤومة معظّمة للذات، وهي رؤية سيعود إليها مرة أخرى قبل وصوله إلى عمود الإنارة.

* * *

قبل الحرب، كانت إيطاليا جزءاً من "التحالف الثلاثي" مع ألمانيا والنمسا والمجر، وكانت ملزمة نظرياً بالقتال مع تلك الدول ضد "الائتلاف الثلاثي" لبريطانيا وفرنسا وروسيا. ومع ذلك، فضلت الحكومة الإيطالية الانتظار عدة أشهر لترى كيف يمضي النزاع، وفي ٢٣ أيار/ مايو ١٩١٥، أعلنت الحرب على حلفائها السابقين بدلاً من ذلك، بعد أن وُعِدت (سراً) بقطع كبيرة من النمسا والمجر إذا انتصرت. في شهر أيلول/ سبتمبر من ذلك العام، تم تجنيد موسوليني، وهو الآن أب يبلغ من العمر ٣٢ عاماً، وأرسل إلى الجبهة التي لم تكن حقول الجثث الموحلة في بلجيكا أو فرنسا، بل المنطقة الجبلية بين إيطاليا وإمبراطورية هابسبورغ.

بدأ الكتابة على الفور، وتدوين الملاحظات في يوميات منذ لحظة مغادرته إلى الخطوط الأمامية، ثم نشرها لاحقاً باسم **يومياتي** ١٩١٥-١٩١٧، وهو كتاب لم يعد يطبع منذ فترة طويلة وقليلاً ما يذكر اليوم. وهذا خطأ، لأن **يومياتي** ليس مجرد عمل من أعمال الدعاية العاصفة. إنه واحد من النصوص القليلة التي كتبها طاغية من القرن العشرين والذي يتعرض للتجربة بأمانة، خالياً من كل لوازم النظرية السياسية، والذي يصل أحياناً إلى موقع أدبي حقيقي. في صفحاته، ينظر شاعر العنف موسوليني، وناظم الجثث المشوهة، إلى مجزرة الحرب، ويكتشف أنها في الواقع يمكن أن تصبح بشعة للغاية.

ليس على الفور، ولكن في البداية، تتطلب **يومياتي** بعض الصبر من القارئ، لأنه نص غير مدروس ومكتوب تلقائياً في لحظات موسوليني الحرة بينما كان يتوجه إلى الجبهة. الجزء الأول، الذي يغطي ثلاثة أشهر من أيلول/ سبتمبر إلى تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٥، مجزأ ومملوء بالتفاصيل المملّة، حيث يجلس سائح الحرب موسوليني في قطار ويتأمل المشهد المتغير،

أو ينبطح أرضاً للمرة الأولى التي يرى فيها مدفعاً مضاداً للطائرات وهو يسدد نحو طائرة، أو يجري محادثة قصيرة مع طفل، أو يلاحظ أن حصص الإعاشة "النزر القليل، لكنها ممتازة". في نقطة ما، يخبرنا حتى وهو يجلس لكتابة ملاحظة، أنه جالس لكتابة كلمات. إنه حيوي بما فيه الكفاية، لكنه غير منطقي، إلا أن موسوليني يكتب مثل رجل وجد حظه، معلناً: "أنا أحب هذه الحياة النشطة المليئة بأشياء عظيمة وتافهة."

خلال هذه الفترة المشمسة من حب الحرب، لم يكن تهديد الإبادة يعني له شيئاً. حتى إنه لا ينغّص عليه نومه:

> المساء. نحن ممددون في الخارج، نتكئ على الأشجار، أو على الأرض العارية. صواريخ وطوفان من القنابل.

... بينما لا يضيف القليل من إطلاق النار سوى المزيد من مسرات اليوم التالي:

> هدوء. القليل من المدافع، وبعض الطلقات من المواقع الأمامية. صباح مشمس رائع.

نحن هنا نواجه موسوليني الذي يشبه إلى حد كبير المهرج المستعرض في الصحف السينمائية القديمة: الذقن بارزة، الذراعان حول الخصر، الطربوش على رأسه، محاكاة ساخرة على طريقة همنغواي من "مثال الرجولة[1]". في الواقع، بوجود **"يومياتي"** أم لا، يظل موسوليني كاتباً محترفاً، يقظاً بشكل حاد لاحتمال أنه في يوم ما سوف ينشر نوعاً من الكتب الفورية استناداً إلى خبراته الحربية. ففي أجزائها الأولى على وجه الخصوص، تعتبر المذكرات عملاً مؤكداً كأداء علني نحو التمركز السياسي.

بعد أن دمر مسيرته كشخص اشتراكي، كان موسوليني القومي المسكوك حديثاً حريصاً على عرض مؤهلاته الوطنية، ويفخر مراراً بترابطه الوثيق مع "الشعب". عملياً، كان كل جندي يلتقيه: أ) قد سمع به. ب) كان مسروراً بمعرفته. كان الرجال المسنون يعانقونه، أو

---

١ - في الواقع، فاز موسوليني على همنغواي بالقاضية. لم يتم نشر "وداعاً للسلاح"، الذي كُتب أيضاً أثناء الحملة الإيطالية، حتى عام ١٩٢٩، أي بعد أربع سنوات من نشر النسخة الإنجليزية من مذكرات الديكتاتور الموجزة عن الحرب. وقد التقى همنغواي بموسوليني عام ١٩٢٣. المؤلف

يطلبون منه كتابة الرسائل لهم، أو يطلبون منه أن يكون قائدهم. وكان موسوليني يرد بالثناء على الجندي الإيطالي النبيل والشجاع. وكذلك كان رؤساؤه أيضاً، معجبون به دائماً، كما يخبرنا - ومن الغريب أن السلطات العسكرية الإيطالية نقلته للتدريب كضابط.

ومع ذلك، في وقت مبكر من الفصل ٢، تدخل لهجة مختلفة إلى السرد. في كلمات ٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٩١٥ - تبدأ اليوميات في ٩ أيلول/ سبتمبر - يكتشف موسوليني رفات العدو المتعفنة. فيتوقف مؤقتاً لتدوين هذه القصة التصويرية القصيرة جداً:

> في البعيد قليلاً جثة نمساوي- متروكة. كان الرجل الميت لا يزال ممسكاً بجزء من زيه العسكري الذي كان، على نحو غريب، لا يزال سليماً. لكن تحته كان جسده يتحلل، ورأيت عظامه. كان من دون حذائه. وكان ذلك سهل الفهم. فالأحذية النمساوية أفضل بكثير من أحذيتنا.

منبثقاً وسط التعزيز الجياش المليء بالحماسة، يعد تحولاً مذهلاً. في الواقع، عندما جلست لأقرأ **يومياتي** وأنا أتناول سمك السلور في مطعم في ريف تكساس في إحدى أمسيات الشتاء، توقفت وأعدت قراءة المقطع عدة مرات: انتظر لحظة، هل كان هذا جيداً؟ سألت نفسي. ماذا حدث للمدعي، المحرض، مروج البروباغاندا؟ حتى هذه اللحظة، كنت أستمتع بنصوص موسوليني الى حد ما، فبعد قراءة لينين وستالين، كانت تمنح شيئاً مشابهاً للارتياح الخفيف. كانت واهية أيديولوجياً ومكتوبة بنثر مرح ومسلٍ، وكانت ممتعة إلى حد ما، على الرغم من أنها ذات أهمية تاريخية فقط. لا يوجد أي سبب لقراءة **عشيقة الكاردينال** أو **جان هوس** إلا إذا كنت مهووساً لسبب ما بالنثر الديكتاتوري أو أنك تكتب سيرة الدوتشي. ولكن هذا... بدا وكأنه كتابة **حقيقية**، بدا أمراً يعكس تجربة أعمق قد تكون لها قيمة في حد ذاتها.

بالطبع، يعود موسوليني المؤدي العلني قريباً. بعد أكثر من شهر بقليل، يصف كيف يموت الإيطاليون هكذا:

> ... الوجوم المهيب لأبناء إيطاليا المساكين، عندما تتمزق أجسادهم وينكّل بها الفولاذ الذي لا يرحم، هو دليل على الصلابة الباهرة لعرقنا.

لكن موسوليني يتحدث أيضاً عن الرجال الموجودين في الخنادق بجانبه باستخدام نبرة مختلفة. يستمع إلى قصصهم ويسجل بعضها. وعندما يعبّرون عن إيمانهم الديني، يحدّ من إلحاده حتى لا يتسبب في الإساءة إليهم. ثم، مع استمرار النزاع، تجبره مآسي الحرب على الكتابة بصدق متزايد. في الجزء الثاني، الذي يغطي شباط/ فبراير وأيار/ مايو ١٩١٦، كان في كثير من الأحيان يحس بالملل والبرد والجوع. في الجزء الثالث، الذي يغطي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٦ -شباط/ فبراير ١٩١٧، يشعر بالفزع واليأس: ينهار الجنود السكارى أمامه أثناء المسير، والموت، عندما يأتي يكون تعسفياً ولا معنى له. مرة، كان جندي يسير أمامه. ثم، آخر ملقى في الوحل، وقد جندلته رصاصة العدو. يتابع موسوليني رصد كمية الجثث الإيطالية المتزايدة باطراد في المقبرة المحلية، وفي ٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٦، يتأمل في جثة إيطالية لم تدفن بعد، وبنفس الأسلوب الصارخ والخيالي الذي استخدمه في وصف النمساوي الميت قبل عام:

> أحد رجالنا المفقودين، وهو من القناصة Bersagliere من فيلق دراجات النارية. كان يرقد ورأسه ما يزال ممتداً إلى الأمام كما لو كان سيهاجم. وبالقرب منه بندقية قديمة فيها حربة مشهرة. كان يرقد هناك وحده. لماذا لم يدفنه أحد؟ كي يجعل عائلته تتمسّك بوهم أنه "مفقود"؟ ربما.

بينما كان موسوليني ينام بسعادة في العراء والقنابل تمطر من حوله، اخذ الآن يشكو من القمل الذي يزحف على جلده ويعكس أهمية (ونقص) الملابس الداخلية المعقمة. لاحظ أن للنمساويين أقنعة غاز أجمل. كما أنه فقد شغفه بالعنف: "أطلقت المدافع النمساوية اليوم طلقاتها المعتادة التي لا تصيب أحداً بسوء هنا وهناك. نحن نتثاءب - إما لأننا جائعون أو لأننا نشعر بالملل. هذه حرب الجمود". وأخيراً، حتى رغبته في الكتابة تنكفئ على نفسها: كلمات (تقريباً) قليلة تخرج منه. إن ما كتبه في الفترة من ٢٧ إلى ٢٨ كانون الثاني/ يناير١٩١٧، عبارة عن قصيدة قصيرة غير مقصودة عن التخلص التام من الوهم، وهي جنازة لحرب قذرة تماماً:

> ثلج، برد، ملل لانهائي.
> أوامر، أوامر مضادة. اضطراب.

تماماً كما بدأ الشاعر الإنجليزي ويلفريد أوين كتابة خطابات الحرب المتفائلة إلى الوطن لكنه انتهى معرباً عن اليأس الشديد، كذلك تتبع موسوليني مساراً مشابهاً في **يومياتي**. المشكلة في نصه هي أن كل هذا الهراء يأتي في البداية، ويتعين على القراء شق طريقه للوصول إلى المرارة الجيدة المعبر عنها في النهاية، بينما مع أوين يمكنك ببساطة تجاهل مراسلاته مع والدته والتركيز على أعماله اللاحقة.

في واقع الأمر ليست هذه هي المشكلة الوحيدة في كتاب موسوليني. المشكلة الأخرى هي أن مؤلفه أصبح فيما بعد ديكتاتوراً فاشياً، قاتل إلى جانب هتلر في الحرب العالمية الثانية. خارج اليمين المتطرف الإيطالي والمعجبين بالقطارات منضبطة المواعيد، يميل عدد قليل من الناس اليوم إلى البحث عن "أشياء جيدة" في أي شيء فعله موسوليني. وبغض النظر عن ذلك، فإن **يومياتي** ١٩١٥-١٩١٧ هو عمل مكتوب بشكل جيد، حيث يكشف موسوليني، على الرغم من الأسطورة الذاتية، عن نفسه كمراقب ثاقب بل وشاعري لفظاعة الحرب البائسة.

مرة أخرى، كان موسوليني الكاتب أكثر حكمة من رئيس الدولة الذي سيكونه يوماً. هل قفز موسوليني العام ١٩١٧ بشغف إلى الحرب مثل موسوليني الثلاثينيات؟ لا يبدو الأمر مرجحاً.

وبعدها، أثناء تدربه على مدافع الهاون، انفجرت إحدى تلك القنابل التي كان ضجراً منها ذات يوم على مقربة منه، ورشت جسده بشظايا ساخنة. كانت حرب موسوليني قد انتهت، لكن قدره كانت على وشك استئنافها.

* * *

أنهت إيطاليا الحرب العالمية الأولى منتصرة تقنياً، لكن موقف الفرنسيين والإنجليز والأمريكيين من حليفهم الجنوبي كان رافضاً. لم يتغير شيء يذكر منذ القرن التاسع عشر، عندما لاحظ بسمارك، "بالنسبة إلى إيطاليا، فهي لا تحسب".

في الواقع، اعتقد قادة "الثلاثة الكبار" أن الإيطاليين لم يلقوا بثقلهم خلال الحرب. الجيش الإيطالي لم ينجح أبداً في التقدم أبعد من عشرة أميال داخل أراضي العدو؛ ثم، في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٧، عانى من هزيمة كارثية في معركة كابوريتو، التي بلغت ذروتها

بالتراجع المخزي إلى البندقية. على طول الطريق، قُتل أحد عشر ألف جندي، بينما أصيب تسعة وعشرون ألفاً آخرون. وأسرت القوات الألمانية ثلاثمائة ألف سجين من القوات الإيطالية، في حين ركض ثلاثمائة ألف إضافيون نحو التلال. بعد أن دخلوا الحرب على أمل الحصول على بعض الأراضي النمساوية المجرية، تمت "مكافأة" الإيطاليين في النهاية ببضع قطع هزيلة من الأرض، بينما ذهب نصيب الأسد من دالماتيا (أكثر الجوائز طلباً) إلى يوغوسلافيا. كل هذه المعاناة والموت والدمار الاقتصادي كانت من أجل لا شيء.

إن دوامة الفقر التي أعقبت الحرب، والاضطراب السياسي، والسياسة الثورية، والإضرابات، والجوع، والغضب، والقومية، والفوضى، وفرت ظروفاً مثالية لشاعر محارب ممتعض يعرف باسم الدوتشي كي يغتنم لحظته، وهو ما فعله في أيلول/ سبتمبر ١٩١٩. بدعم من ميليشيا قومية ترتدي القمصان السوداء، احتل فيومي وما يكفي من الأراضي المحيطة بها لربطها بإيطاليا. وقد تركت إعادة رسم الحدود بعد الحرب هذه المدينة القديمة منذ الإمبراطورية الرومانية داخل كرواتيا؛ أعلن الدوتشي الآن أنها دولة حرة. بعد أن استمتع بلحظة المجد، خاطب حشوداً من شرفة قاعة المدينة، وحياهم على الطريقة الرومانية، وأقام تجمعات حاشدة، وأدى النشيد الفاشي ""Giovinezza"، وصاح بصرخة الحرب " Eia, eia, eia, alalà!" كما أشرف على إعداد دستور تعاوني يضمن الحقوق المدنية والمساواة بين الجنسين - وكان كل ذلك غير متوقع تماماً من فاشي، على الأقل من وجهة نظر قارئ من القرن الواحد والعشرين.

الأمر المربك هو أن هذا لم يكن موسوليني، بل كان كاتباً وزعيماً **مختلفاً** كان يُعرف أيضاً باسم الدوتشي: الشاعر الفاضح غابرييل دانونزيو، الداعر الأرستقراطي والمناصر لسفاح المحارم (ولكن فقط عند ممارسته باسم "الجمال").

دانونزيو هو حالة مثيرة للاهتمام، لأنه يوضح الفرق الحاسم بين الكاتب الذي يحاول ارتكاب فعل سياسي، والسياسي الذي يحاول ارتكاب عمل كتابي. اعترف دانونزيو بحرية أنه لا يهتم بالاقتصاد، وعلى الرغم من أنه حافظ على قبضته على المدينة لمدة عام، إلا أن دولة فيومي الحرة تدهورت سريعاً إلى عربدة من الجنس والعنف الذي يغذيه الكوكايين. بأسلوب

مروع، أطلق دانونزيو على فيومي اسم "مدينة الهولوكوست"، وحتى إن لم يكن جيداً في إدارة الأمور، فقد كان حريصاً على الجماليات.

في وقت لاحق، سيسرق موسوليني الكثير من أسلوب دانونزيو، لكن في عام ١٩١٩، قام الزعيم الاشتراكي السابق الذي تحول إلى زعيم قومي بتقمص شخصية متقلبة بدلاً من ذلك. في شهر آذار/ مارس، قام بتكوين المنظمة الفاشية الجنينية Fascio Italiani di Combattimento من عدة منظمات أصغر. حضر هذا الاجتماع التاريخي حوالي ١٢٠ شخصاً، وهم طاقم من الجنود السابقين والقوميين والجمهوريين والمستقبليين. كان الشاعر فيليبو توماسو مارينيتي، مؤلف البيان المستقبلي، فاشياً مؤسساً، في حين انضم المايسترو المشهور أرتورو توسكانيني بعد ذلك بفترة قصيرة.[1] لذلك كان بإمكان الدوتشي على الأقل الاعتماد على الدعم من بعض الشخصيات الفنية الأكثر شهرة في إيطاليا. لكن موسوليني لم يكن لديه دولة ومدينة يحكمها، وكان لا يزال متمتعاً بمرونة أيديولوجية. في صفحات Il Popolo، انتقد "الانتصار المخزي" وهاجم البلشفية، ولكن في الواقع كان البرنامج السياسي الأول للمنظمة الجديدة، الذي نشر في الصحيفة في حزيران/ يونيو ١٩١٩، مشتركاً بشكل كبير مع مبادئ اليسار الراديكالي. كانت الفاشية في هذه المرحلة جمهورية، معادية للكنيسة وضد الأثرياء: دعا موسوليني إلى تخصيص الأراضي الجماعية من كل من الكنيسة وملاك الأراضي وفرض ضرائب عالية على الأثرياء. كما دعا إلى العمل لمدة ثماني ساعات، والتمثيل النسبي في الانتخابات والحق العام في الاقتراع. كان رجل الشعب الذي ينفث النار قبل الحرب يواصل العيش.

لم تكن هذه منصة الفوز. في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٩، قدم الفاشيون تسعة عشر مرشحاً للانتخابات. دخل واحد منهم فقط البرلمان. خسر موسوليني، واستعرضت مجموعة من الاشتراكيين ببهجة أمام نافذته في ميلانو وهم يحملون نعشاً لتمثيل موته السياسي. لكن

---

١ - يتضح تأثير المستقبلية على الفاشية من المادة ٩ من بيان مارينيتي، الذي كتب في عام ١٩٠٩. "سنعمل على تمجيد الحرب - النظافة الوحيدة في العالم - العسكرة والوطنية والإيماءات المدمرة لجالبي الحرية، والأفكار الجميلة التي تستحق الموت من أجلها، أما بالنسبة إلى توسكانيني، فقد شعر بخيبة أمل وترك الفاشيين قبل وصول موسوليني إلى السلطة. المؤلف

أعداءه احتفلوا باكراً جداً. فلقد غاصت إيطاليا أكثر فأكثر في دوامة ما بعد الحرب. وبحلول منتصف عام ١٩٢٠، أثبتت الحكومة أنها غير قادرة على مواجهة موجات الإضرابات والتمرد ومصادرة المصانع، في حين أثارت الانتصارات الاشتراكية في الانتخابات المحلية في وقت لاحق من ذلك العام المخاوف من ثورة روسية النمط. كان الصناعيون وملاك الأراضي وأعضاء الطبقتين العليا والوسطى، ناهيك عن كثيرين من أعضاء الطبقة العاملة الذين يرغبون في الاستقرار والعمل، كانوا قلقين للغاية.

لقد وجد موسوليني الآن الدور الذي كان يبحث عنه - ليس كعدو لأصحاب الأراضي ورؤساء المصانع، بل كمدافع عنهم، وأكثر من ذلك، وكيدٍ للقصاص، وجالبٍ للنظام في أرض عانت من الاضطرابات لفترة طويلة جداً. ومغتنماً هذه اللحظة، أطلق العنان لوحداته شبه العسكرية الفاشية على الاشتراكيين في جميع أنحاء شمال ووسط إيطاليا. وقد أطلق عليها الفاشيون "الحملات التأديبية"، رغم أن عنف موسوليني كان مختلفاً تماماً عن عنف البلاشفة في ارتكاب المجازر بدم بارد معادٍ للمجتمع. ومثل البلطجية والمعتوهين، فضلت الفرق الفاشية الضرب والإذلال على القتل. وكان إجبار ضحاياهم على شرب زيت الخروع أحد الأساليب الشعبية خصوصاً. ربما يكون الدوتشي قد درس ماركس ونيتشه وتعلم كيفية التحدث بثلاث لغات أجنبية، لكنه ظل فتىً ريفياً في داخله، بحيث يظن أن من المضحك جداً قيام رجل كبير في السن بتلويث ثيابه.

الآن، وبعد أن أصبح الفاشيون حصن إيطاليا المنيع ضد الشيوعية، انهالت طلبات العضوية. بحلول أيار/ مايو ١٩٢١، كان في الحزب ما يقرب من مائتي ألف عضو، ما جعله أكبر منظمة سياسية في البلاد - وفي الشهر نفسه، تم انتخاب موسوليني أخيراً في البرلمان الإيطالي، وهذه (قيامة) مثيرة للإعجاب. ومع ذلك، كان الدوتشي متحرقاً ولم يخف رغبته في مزيد من النظام، والمزيد من القوة. في أغسطس/ آب ١٩٢٢، أعلن أن "الديمقراطية قامت بعملها. لقد انتهى زمن الديمقراطية. لقد تمت تصفية الأيديولوجيات الديمقراطية". بعد ذلك بشهرين، قام بتعبئة "قمصانه السود" من أجل المسيرة الشهيرة في روما، بعد أن قدّر أن الحكومة والملك الإيطالي، فيتوريو إيمانويل، سوف يسلمان الحكم عاجلاً بدلاً من المجازفة بحرب أهلية. دخل الفاشيون المدججون بالأسلحة إلى المدينة في ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر،

ومنح الملك موسوليني منصب رئيس الوزراء حسب الأصول، وهو ما قبله موسوليني، على الرغم من أنه لم يكن ديكتاتوراً بعد. كان هذا سيتغير قريباً، حيث أثبت براعته في استغلال الفوضى المستمرة وتحويلها إلى مصلحته. بحلول كانون الثاني/ يناير ١٩٢٥، كان قد فرض ديكتاتورية فاشية، وأصبحت صحيفة البوبولو، صحيفة المعارضة التي أسسها في عام ١٩١٤، لسان حال النظام.

تحرك موسوليني بسرعة لتثبيت أدوات الدولة الاستبدادية، وابتكر العديد من أشكالها المعروفة الآن: مجموعات الشباب؛ البروباغاندا الضخمة؛ سحق المعارضة؛ الشرطة السرية؛ مشاريع البناء الجبارة؛ برامج تعليم الكبار بعد العمل؛ إنشاء المسارح والمتاحف والمكتبات؛ السيطرة على الفنون؛ المجموعات الرياضية؛ و Balilla، وهي منظمة فاشية تشبه الكشافة تتمتع "بانضباط شديد ولكن مثلي الجنس". أعلن النظام الفاشي أن صعوده إلى السلطة يمثل فجر حقبة تاريخية جديدة تماماً، وأعاد بدء التقويم في عام ١٩٢٦، مع تحديد تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٢ كساعة الصفر للعصر الجديد.

في واقع الأمر، إن أول من صاغ مصطلح **الشمولية** هم نقاد نظام موسوليني في عام ١٩٢٣، حتى قبل أن يتولى الديكتاتورية. ما هو غير عادي في هذا، هو أن الفاشيين تبنوا الكلمة، وأشاروا صراحة إلى أنفسهم ونظامهم بالشمولي. في هذا، كان موسوليني مختلفاً تماماً عن البلاشفة، الذين تحدثوا عن الديمقراطية والعدالة حتى أثناء شنهم حملات دموية من الإرهاب والقمع. فقد استهزأ موسوليني علناً بالتقوى الغربية بنفس الشغف الذي سخر به ذات مرة من الله أو وصف به الجثث المشوهة، وبدأ كل شيء حتى قبل أن يصبح الديكتاتور. في عام ١٩٢٣، على سبيل المثال، نشر مقالاً بعنوان "الفاشية: "الرجعية،المناهضة لليبرالية"، والتي رفض فيها الليبرالية باعتبارها إيديولوجيا تعود إلى القرن التاسع عشر، مضيفاً أن الفاشية، التي لم لا تعرف "المعبود ولا الإيمان به"، سوف "إذا لزم الأمر... تدوس مرة أخرى على جسد آلهة الحرية المتحللة بشكل أو بآخر". في ٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر من ذلك العام، أنتج موسوليني أحد تعريفاته الكثيرة للفاشية: "كل شيء من أجل الدولة، لا شيء هو خارج الدولة، لا شيء ولا أحد ضد الدولة". ولم يتكرم بإخفاء نواياه. ربما يعد هذا فريداً من

نوعه في الأيديولوجيات السياسية في القرن العشرين، الفاشية- الشمولية المعادية للديمقراطية والمؤيدة للعنف - فعلت بالضبط الشعارات التي رفعتها.

كانت الفاشية مختلفة عن الشيوعية السوفييتية بطرق أخرى. ففي حين أن البلاشفة تواجدوا في ظروف من التنافر المعرفي الحاد لأنهم أنكروا أهدافهم القياموية الجلية، أعلنت الفاشية صراحة عن جانبها الخفي: في عام ١٩٢٦، على سبيل المثال، أعلن موسوليني: "ليست الفاشية مجرد حزب، بل هي نظام، إنها ليست نظاماً فقط، بل عقيدة، وهي ليست عقيدة فقط، بل هي دين يقهر الجماهير العمالية للشعب الإيطالي". لقد كانت قومية أكثر منها أممية؛ كانت رؤيتها للدولة بمثابة حَكَم ومصلح يوفق بين الطبقات، بدلاً من كونها أداة عنف يستخدمها أحدهم ضد الآخر؛ وبالطبع لم تكن معادية للدين. فقد وجد موسوليني قدراً كافياً من الإيمان بالله ليتزوج من زوجته في احتفال ديني في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٥، وتفاوض بنجاح على اتفاقات لاتران لعام ١٩٢٩، التي أنهت عقوداً من العداء بين الكنيسة والدولة بعد الاستيلاء على روما الذي أكمل توحيد إيطاليا في عام ١٨٧٠. كان موسوليني أيضاً أقل عنفاً بكثير من لينين أو ستالين. فخلال عام من الاستيلاء على السلطة، شن لينين حملة القتل الجماعي والتعذيب والقمع المعروفة باسم الإرهاب الأحمر. وعلى النقيض من ذلك، شعر الرأي العام الإيطالي بالفضيحة في عام ١٩٢٤ عندما قام بعض الفاشيين بقتل **شخص واحد**، هو السياسي الاشتراكي جياكومو ماتيوتي، الذي كان ناقداً صريحاً لموسوليني.

كانت الفاشية أيضاً عملاً قيد الإنجاز، غير مرتبطة بأي نصوص تأسيسية شبه مقدسة، على الرغم من أن موسوليني صار الآن كاتباً ذا خبرة عالية أمضى عقدين من العمل الاحترافي. وعلى عكس الزعماء البلاشفة، كان يكره أن يربط نفسه بأي تصريحات حاسمة عن الحقيقة "العلمية". في أيامه كشخص اشتراكي، كان قد انتقد التمسك الصاغر بماركس. أما الآن، وعلى الرغم من وجود الكثير من السلائف للفاشية والدولة الشاملة، إلا أنه لم يكن متحمساً لاستدعاء سلطة نبي؛ سلطته الخاصة كانت كافية. ألقى موسوليني الخطب والمقالات المنشورة وأنتج الأمثال، ولكن لم يكن هناك "كتاب مقدس" للفاشية. كان يقدّر حالة التدفق. وكان يحب الارتجال، ليتمكن من تغيير رأيه.

في الواقع، لم يكن لديه خيار. كانت الحقيقة المزعجة أنه عندما أصبح ديكتاتوراً، صار يقف ضد العديد من الأفكار التي روجها ودعمتها سيرة حياته. كان لينين وستالين قد غيّرا التكتيكات غالباً في مسيرتهما، لكن كان من السهل نسبياً بالنسبة إليهما تعديل أو طمس بعض الأعمال التي كشفت عن مواقف محرجة أيديولوجياً حيث بقيا متسقين إلى حد كبير في معتقداتهما الأساسية. أما مع الدوتشي، فكانت القصة مختلفة: كان موسوليني الشاب الملحد المناهض للسلطوية، هو أسوأ منتقد لموسوليني القومي الذي يدافع عن الكنيسة.

قد تبدو السيرة الذاتية لموسوليني، **حياتي** (التي لا تزال تطبع اليوم) مرشحاً مثالياً للنص الأساسي، لكنها كانت في حقيقتها عملاً من أعمال العلاقات العامة موجهاً للسوق الأمريكية، تم طرحه بناءً على اقتراح ريتشارد واشبرن تشايلد، السفير الأمريكي في إيطاليا والمعجب الذليل بالدوتشي. في مقدمة متملقة مؤلفة من خمسة عشر صفحة، يوضح تشايلد أنه كان معجباً جداً بإصرار موسوليني على "العمل والانضباط"، لدرجة أنه شعر أن على الديكتاتور أن يكتب كتاباً يشرح فيه للأجانب "النشوة الروحية" التي غرسها في الإيطاليين. "في عصرنا، قد يكون من التنبؤ الذكي أنه لن يُظهر أي إنسان ملامح عظمة راسخة تساوي تلك الموجودة في موسوليني"، هذا ما أعلنه تشايلد، ومن الأفضل في تفسير هذا الأمر أكثر من الدوتشي نفسه؟

من هو الأفضل حقاً؟ في الواقع، يبدو أن مشاركة موسوليني كانت ضئيلة. عمل تشايلد على "السيرة الذاتية" مع شقيق موسوليني، أرنالدو، وصحفي يدعى لويجي بارزيني[1]، حيث قدم ملخصاً عن صعود الديكتاتور إلى السلطة وشرحاً لرؤيته للعالم، مزيلاً التناقضات ومقللاً من شأن الفضائح أمام جمهور خارجي. ومع ذلك، فإن النص يلفت النظر حول حيوية "أنا" موسوليني غير المجسّمة، والتي تكتسب حياة خاصة بها حتى عندما يكون الآخرون مسؤولين إلى حد كبير عن ذلك. انظر مقطع الافتتاحية، على سبيل المثال:

> لا تزال طفولتي، التي ضاعت الآن في ضباب المسافة، تنتج تلك الومضات من الذاكرة التي تعود بي إلى مشهد مألوف، ورائحة تربط الأنف بالأرض الرطبة بعد

---

١ - في ١٩١١-١٩١٢، رسم موسوليني بنفسه سيرته الذاتية لسنواته الأولى أثناء وجوده في السجن، لكنها لن ترى النور إلا بعد وفاته. المؤلف

> هطول أمطار فصل الربيع، أو صوت الخطى على الممر. قد يعيد دوي الرعد ذكريات الدرجات الحجرية، حيث كان الطفل الصغير الذي يبدو أنه لم يعد أي جزء من نفسه يعتاد اللعب في فترة ما بعد الظهر.

مقتضب ومقتصد ومؤثر -إنه يستحضر بنجاح بقايا الذاكرة الحسية التي تربطنا جميعاً بسنواتنا الأولى. هكذا يستدعي "موسوليني" صور وأصوات "وعيه" النامي، ويرجعنا إلى الزمن الماضي "معه". وهكذا يستمر الطفل / أرنالدو / بارزيني / الدوتشي، بينما ترسم عبارة "موسوليني" في نثر قوي، تاريخ مسقط رأسه بريدابيو (المليئة بالمتمردين، مثله)، وعشيرة موسوليني منذ العصور الوسطى (المعاندين القياديين مثله)، والصفات الشخصية لوالدته المخلصة المحبة وأبيه الحداد الدهمائي القوي: "أليساندرو. كما يناديه الجيران. كان قلبه وعقله ممتلئين ونابضين دائماً بالنظريات الاشتراكية". وقد نُشرت السيرة الذاتية في الولايات المتحدة في عام ١٩٢٨، بعد نشرها مسلسلة في صحيفة Saturday Evening Post ومع ذلك، سيتعين على القراء الإيطاليين الانتظار حتى السبعينيات حتى تظهر نسخة على شواطئهم.

عندما سمح موسوليني بتدوين الفاشية، كان يعاملها كشيء قابل للتغيير - مثل صحفي رأي ينقّح برفق تقييمه ومواقفه من عمود إلى عمود، مفترضاً ألا أحد يولي هذا القدر من الاهتمام كما يفعل هو، وبابتهاج يواصل عمله قبل أن ينتبه شخص ما. كانت هذه بالطبع مدرسة الكتابة التي تفوّق فيها موسوليني، ولم يتخلّ أبداً عن اعتقاده بأن التماسك الداخلي والاتساق والمنطق هي أقل أهمية من التوقيت والسرعة وانعطاف العبارة الجذاب.

حتى "الوصايا العشر الفاشية"، الوصايا العشر المقصود أن تتضمن الجوانب الأساسية للنظام، كانت عرضة للمراجعة، حيث تم نشرها وإعادة نشرها على مر السنين. إن الوصية الملزمة: "موسوليني دائماً على حق"، قد تبقى على القائمة، ولكن على الرغم من مركزيتها الواضحة بالنسبة إلى مشروع الفاشية، لم يكن وضعها مؤكداً إلى درجة أن تبقى في نفس مكانها من الوصايا العشر. وبدل ذلك، تحركت، وانتقلت من المرتبة الثامنة في طبعة ١٩٣٤ إلى المرتبة العاشرة في مراجعة ١٩٣٨. لم تكن هناك ألواح من الحجر. وكان كل شيء تدفقاً.

* * *

خلال عشرينيات القرن العشرين، عندما أطنب موسوليني في "فلسفته"، شدّد على أن الفاشية كانت ظاهرة إيطالية. كان هذا في تناقض صارخ مع الادعاءات العالمية للماركسية، أو حتى "اشتراكية ستالين في البلد الواحد"، التي كانت مع ذلك تستند إلى الاعتقاد بأن الاشتراكية ستنتصر في نهاية المطاف في كل مكان.

ثم غيّر موسوليني رأيه. جزئياً كان الدافع وراء ذلك هو انتشار الأحزاب الفاشية في جميع أنحاء العالم والتي كانت مستوحاة من بلده، وجزئياً بسبب النصوص الماركسية التي درسها ذات يوم. لقد كان انهيار وول ستريت عام ١٩٢٩ لحظة حاسمة في التاريخ، نعم، الأزمة الختامية للديمقراطية والرأسمالية، حتى لو لم تؤدّ - فقط، إلى ديكتاتورية البروليتاريا بل إلى عهد الفاشية. في ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٠، خاطب موسوليني حشداً من شرفة قصر فينيسيا، وعكس موقفه السابق بأن الفاشية كانت لصالح إيطاليا وحدها:

> العبارة التي تقول بأن الفاشية ليست موضعاً للتصدير ليست لي. إنها عادية جداً. لقد تم اعتمادها لقراء الصحف الذين يحتاجون كي يفهموا أي شيء من خلال ترجمته بمصطلحات برطانة سوقية. وعلى أي حال يجب الآن تعديلها.
>
> أؤكد اليوم أن فكرة وعقيدة وروح الفاشية هي عالمية. إنها إيطالية في مؤسساتها الخاصة، لكنها عالمية في روحها؛ ولا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك، لأن الروح عالمية بطبيعتها ذاتها. لذا فإن من الممكن التنبؤ بأوروبا الفاشية التي ستشكل مؤسساتها وفقاً للعقيدة والممارسة الفاشية...

في العام نفسه، افتتحت في ميلانو "مدرسة أسرار الفاشية"، وهو تحول سريع وواسع لعصابة فظة من البلطجية كانوا يجوبون شمال إيطاليا قبل ثمانية أعوام فقط مجبرين خصومهم على شرب المسهلات. أصبح موسوليني أكثر عظمة، لكنه ظل غامضاً. بشكل حازم في هذا السماد الخصب من الهراء شبه الديني، أصبح مفهومه للفاشية أكثر طموحاً، وفي عام ١٩٣٢، في خطاب ألقاه في ميلانو للاحتفال بالذكرى العاشرة للفاشية، أعلن أنه "خلال عشر سنوات، ستكون أوروبا **fascista** أو **fascistizzata**!" (أي: فاشية أو تم جعلها فاشية).

في العام نفسه، قدّم موسوليني أخيراً تعريفاً منهجياً رسمياً مكتوباً للفاشية. وحتى ذلك الحين، احتاط لخساراته. وكان تعريفاً قصيراً جداً، ناسب جيداً موضعاً في موسوعة وطنية جديدة كمقدمة عن "الفاشية: نظريتها وفلسفتها". وعند استخراجه ككتيب، فإنه أقل من خمسين صفحة، وبالتالي فهو أقصر من أيٍ من كتابات ستالين عن الماركسية -اللينينية. وعلاوة على ذلك، لم يكتب موسوليني تلك المقدمة بنفسه ولكنه جند كمؤلف مشارك جيوفاني جنتيلي، الفيلسوف المثالي الذي لم يكن مقتنعاً بأن العقول الفردية موجودة بالفعل، ويؤكد أيضاً أن التقسيمات بين الماضي والحاضر أو الفاعل والمفعول كانت بنيات مصطنعة من دون أي تأثير على طبيعة الواقع.

كانت الدلائل مشؤومة بالنسبة إلى محبي الوضوح، وبالتأكيد، فإن القيمة الأكثر إثارة للإعجاب في "**الفاشية: نظريتها وفلسفتها**". هي أنه يمكن قراءتها بسرعة كبيرة. لقد قرأ موسوليني الفكر الحديث جيداً، ولكن على عكس لنقُل **الثورة والدولة**، على سبيل المثال، لا يتمتع النص بفضيلة أن يبدو مثل عملٍ لرجل لامع يقنع نفسه بالإيمان بالهراء. وبدل ذلك، بدا وكأنه عمل من نوع ذكي علم نفسه بنفسه، يخرج من عمقه، ويغرق في ذرائعه ومزاعمه الخاصة.

إذاً ما هي هذه الفاشية، هذه الفكرة المذهلة التي انبثقت عن الرأس الذي على شكل رصاصة لرجل أثار إعجاب غاندي كثيراً لدرجة أن يُعلنه "منقذ إيطاليا الجديدة"؟

> ومثل كل المفاهيم السياسية السليمة، فإن الفاشية هي ممارسة وفكر، عمل تكون فيه العقيدة متأصلة، العقيدة التي تظل ناشئة عن نظام معين للقوى التاريخية، ومرتبطة به، وتعمل من داخل هذا النظام. لا يوجد مفهوم للدولة لا يمثل في الأساس مفهوماً للحياة: فلسفة أو بداهة، فنظام الأفكار التي تتحرك داخل بنية منطقية، أو يتم تجميعها في رؤية أو في معتقد، أياً كان، هي دائماً، أو تقديرياً على الأقل، مفهوم عضوي للعالم.

هممم! الفاشية فكر وسلوك على حد سواء، في الداخل والخارج، وكذلك هي فلسفة وحدس وأشياء أخرى كثيرة؟ من الواضح أنها تتضمن التعدد - وهذه ليست سوى الفقرة

الأولى. من هذه النقطة، يصبح الأمر أكثر شمولاً فقط حين يشرح موسوليني ومؤلفه المشارك مطولاً بطريقة كونية، ويجولان حول القانون الأخلاقي، وعالم يتجاوز العالم المادي، وأهمية نكران الذات والتضحية والموت كي يتمكن الإنسان من أن يتجاوز حدود الزمان والمكان وبالتالي يعيش "وجوداً روحياً خالصاً".

أو كما يقول موسوليني:

> إنها شكل داخلي وطريقة ونظام الفرد الكامل؛ إنها تتخلل الإرادة مثل الذكاء. مبدؤها، مصدر إلهام رئيسي للشخصية الإنسانية التي تعيش في المجتمع المدني، تنحدر بعمق وتستقر في قلب العامل وكذلك المفكر، والفنان والعالم: إنها روح الروح.

وهكذا دواليك، إلى الأبد (أو هكذا تبدو). ومع ذلك، قبل ثلاث سنوات، بدأ موسوليني أيضاً العمل على نص درامي، كتبه مع الكاتب المسرحي جيوفاتشينو فورزانو، والذي كان يمثل تأملاً أقل بكثير عن الميتافيزيقيا في السلطة، وبدلاً من ذلك سلط الضوء على سرعة زوالها القصوى، حتى في أيدي أعظم الحكام.

تماماً مثلما حتّم ستالين على كتّاب اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية إنشاء روايات ومسرحيات وأفلام سليمة أيديولوجياً، حاول موسوليني بالمثل تسخير الطاقات الإبداعية في إيطاليا لإنتاج الفن الفاشي. لكن، نظراً لأنه كان يفتقر إلى الإرادة أو الرغبة في استخدام الإرهاب لفرض مطالبه الأيديولوجية، فقد قبل العديد من الكتاب المنح بينما فشلوا في إنتاج أي شيء يفي بمعاييره فيما يخص ترويج أيديولوجيته. فعلى سبيل المثال، انضم لويجي بيرانديلو إلى الحزب الفاشي وقَبِل بسرور دعم الدولة لمسرحه في روما، ولكن الإشارات إلى مجد الفاشية في الأعمال التي نظمها، أو في مسرحياته ورواياته، كانت ضئيلة للغاية إلى حد عدم وجودها. فنان آخر أعجب به موسوليني، هو المستقبلي أنطون براغاليا، وأيضاً تلقى العملة الفاشية -فقط ليتصنع إنتاجاً من المسرحيات الاشتراكية مثل برتولت بريشت وجورج برنارد شو، بالإضافة إلى الداديين والسورياليين والتعبيريين. ومع تباطؤ ظهور الفن الفاشي الجديد، قرر موسوليني التدخل مباشرةً وخلق بعض الأعمال الدرامية من صنع يديه.

كان جيوفاتشينو فورزانو معروفاً في إيطاليا بصفته مؤلف المسرحيات التاريخية الشهيرة. في عام ١٩٢٩، اقترح الدوتشي تعاوناً كان موضوعه أيام نابليون الأخيرة في السلطة. بعد ذلك بعامين، تم نشر المسرحية، المؤلفة من فصل واحد مقسم إلى أحد عشر مشهداً، نشرت باسم Campo di maggio.. عرفت في ترجمتها الإنجليزية باسم **نابليون: الأيام المائة**. كان هناك اختلاف آخر: في إيطاليا، كانت الدوتشي متواضعاً، وخرجت المسرحية تحت اسم فورزانو. أما في إنجلترا وفرنسا وألمانيا، فقد تم تحديد اسم موسوليني بشكل واضح على أنه مؤلف مشارك.

في **نابليون: الأيام المائة**، يكتب الديكتاتور عن ديكتاتور. كان نابليون موضوعاً جذاباً بشكل واضح: مثل موسوليني، كان قروياً جلفاً، برز من العتم لقيادة أمة عريقة. وكان أيضاً كل ما أراد الدوتشي أن يكونه: قائداً عظيماً، وسيداً للعنف، وتكتيكياً عسكرياً لامعاً، وعشيقاً عاطفياً، وكاتباً موهوباً. ولكنها كعمل درامي، تعد **نابليون: الأيام المائة** إخفاقاً. إنها تفتقر إلى الحركة، وتتألف إلى حد كبير من الخطب الطويلة والحوارات التي ألقاها نابليون وحلفاؤه وأعداؤه. كما أنها تحتوي على بعض الهجمات الواضحة إلى حد ما على ضعف الديمقراطية البرلمانية، والتي استغني عنها موسوليني منذ فترة طويلة في إيطاليا. ما هو مثير للاهتمام، هو أن نابليون موسوليني ليس الفاتح الذي تقدّم عبر أوروبا، محققاً الانتصارات ومغيراً وجه القارة مبدلاً خليطاً من القوانين الإقطاعية بقانون مدني عالمي واحد، بل العملاق المهزوم الذي يقف معزولاً ومخدوعاً من جميع الذين تعهدوا بالولاء له من قبل.

مرة أخرى، يتنبأ موسوليني بسقوطه في عمل أدبي. ومرة أخرى، يقوم بذلك في لحظة انتصار شخصي: لقد أبرم الدوتشي اتفاقات لاتران مع الفاتيكان وكان ينعم بإشادة عالمية وسحر دولي من خلال "تصوره الجديد" للدولة. وازدهر في دائرة الضوء، لكنه بينما تحدث رسمياً عن حقبة جديدة في تاريخ البشرية، وعن نوع جديد من الحكم الذي سيطول أمده بعد وفاته، فإنه بمجرد أن يُفكّ عن شخصية الدوتشي، يكتب عن إمكانية وجود البديل، ونهاية أكثر مأساوية كما كان في **جان هوس** و**عشيقة الكاردينال**. في الحقيقة، يبدو أن **نابليون: الأيام المائة** كانت نتاجاً للقلق والازدراء، كان موسوليني يكتب عن رجل عظيم مكرس للناس، ولكنه يغالي وبالتالي يتعرض للخيانة من حلفائه السابقين الساخرين.

تعاون موسوليني مع فورزانو في مسرحيتين أو أكثر: يوليوس قيصر **Giulio Cesare** وVillafranca، واستفاد الكاتب المسرحي كثيراً من علاقته مع الديكتاتور. ولكنها كانت مسرحية **نابليون: الأيام المائة** التي جذبت أكبر قدر من الاهتمام على نطاق دولي. وكتبت عن عرضها عام ١٩٣٢ في المسرح الجديد في لندن كل من الصحف الأمريكية والأسترالية، في حين استُقبل الإنتاج المجري بشكل جيد للغاية، وفقاً لكاتب سيرة حياة موسوليني RJB Bosworth.. في عام ١٩٣٦، تم إصدار فيلم مقتبس عنها، قام ببطولته فيرنر كراوس بدور البطولة (قام كراوس بدور د. كاليغاري في الفيلم التعبيري الألماني الأسطوري مقصورة الدكتور كاليغاري). وكتب أحد النقاد في صحيفة نيويورك تايمز هذه المراجعة الإطرائية المقتضبة:

> نتج عن التعاون بين شركات الأفلام الألمانية والإيطالية، المدعومة من السلطات الموجودة في برلين وروما، إنتاج فيلم تاريخي يمكن أن يقارن مع أفضل الأشياء في هذا الشأن التي ظهرت في هوليوود أو في أي مكان آخر.

في ضوء ذلك، كانت النسخة السينمائية من **نابليون: الأيام المائة** نذير سوء بتعاون أسوأ بكثير بين النظامين الفاشي والنازي[1].

***

في وقت متأخر من العام ١٩٣٤، كان المستقبل ما يزال يسير على طريقة موسوليني - أو على الأقل من الممكن أن يُغفر لك تفكيرك بذلك، بالنظر إلى الداخل من الخارج. في تلك

---

١ - على الرغم من النجاح الذي حققته في أيامها، يبدو أن المسرحية استسلمت للنسيان بسهولة أكثر من أي نص آخر من تأليف الدوتشي، على الأقل في طبعاتها المترجمة. لأنه من السهل نسبياً العثور على كتب موسوليني الأخرى في مكتبات البحوث، وبعضها لا يزال مطبوعاً، كان عليّ أن أحمل نسختي الخاصة من نابليون: الأيام المائة ويتم شحنها إلى الولايات المتحدة من أيرلندا. يكشف الملصق الموجود على الجزء السفلي من الغلاف الداخلي أنه تم شراؤها في الأصل من مكتبة Foyle، في شارع Charing Cross Road بلندن. كان هناك شخص باسم "كريستوفر ويلارد"، أو ربما "وليامز"، أحس بالفخر لحيازته الكتاب لدرجة أنه وقع اسمه على الواجهة في عام ١٩٣٩، وهو العام الذي اتخذ فيه موسوليني خطوته الحاسمة نحو عمود الإنارة ذاك. ومع ذلك، فقد وصلت هذه النسخة الباقية ملطخة بالعفن، مجعدة، ممزقة، ومتفككة، كما لو كانت في عجلة من أمرها لتخرج من هذا العالم. المؤلف

السنة، ادعت منظمة حكومية مكرسة لنشر مذهب موسوليني أن لتسعة وثلاثين دولة الآن أحزاب فاشية. اعتاد الدوتشي على تلقي الثناء من شخصيات عالمية بارزة، بدءاً من الزعيم القومي الصيني تشيانغ كاي شيك وفرانكلين ديلانو روزفلت وصولاً إلى تشرشل. أعجب بارون الصحفي الأسطوري الشهير ويليام راندولف هيرست بموسوليني، لدرجة أنه حاول توقيعه على عقد أحد المساهمين في عام ١٩٢٧، ولكنه بدلاً من ذلك اضطر إلى تسوية بشراء مقالاته من نقابة يونايتد برس. لكن هذا تغير في عام ١٩٣٢، عندما بدأ هيرست الدفع لموسوليني بمبلغ ١٥٠٠ دولار لكل مقالة (تكتب له باسمه) كي تنشر في صحفه. ورغم أنه لم يكن محبوباً كثيراً في الولايات المتحدة (وكان يعارضه اليسار)، إلا أن موسوليني كان يُعتبر على نطاق واسع زعيماً عظيماً حوّل دولة متخلفة ومهدمة بقوة الإرادة المطلقة. حتى إنه كان الرئيس الفخري لجمعية مارك توين الدولية.

في الواقع، لم يكن وضع الدوتشي بهذه الوردية. وظل يتمتع بشعبية شخصية في إيطاليا، لكن أعضاء آخرين من النخبة الفاشية لم يكونوا كذلك. فقد قام موسوليني بالقضاء على كل المعارضة ووضع الدولة تحت سيطرته، لكن الكنيسة الكاثوليكية بقيت متمتعة بالحكم الذاتي ومصدراً للسلطة الروحية مع مؤسساتها ومنظماتها المنافسة. بعد أن أصدر دستور الدولة التعاونية في نيسان/ أبريل ١٩٢٦، استغرق الأمر ثماني سنوات أخرى كي يتمكن موسوليني من الالتفاف بإصدار المرسوم الذي وضع التفاصيل، وإنشاء ٢٢ تعاونية رسمياً، لكل منها مجال من النشاط الاقتصادي. فاستشرى الفساد، وظلت بيروقراطية الدولة متورمة وغير فعالة، والأسوأ من ذلك، منذ انهيار سوق الأوراق المالية عام ١٩٢٩، لم يكن هناك الكثير من الأموال كي تُهدر على السدود أو دور الأوبرا أو المستحقات الاجتماعية. لم يكن الإنسان الفاشي الجديد يبزغ، واستمر وجود الإنسان الإيطالي القديم. ازدادت الفجوة بين الواقع والوهم. أبدى الدوتشي تذمره من أنه أصبح أسيراً لدعايته الخاصة، ولا وجود سوى لمجال صغير كي يقوم بالمناورة.

لو كان إحساس موسوليني بالتوقيت أفضل - بمعنى أنه لو تمكن من أن يسقط ميتاً في النصف الأول من ثلاثينيات القرن العشرين - لكان التاريخ أكثر لطفاً معه. كانت مسؤولية انهيار نظامه تقع على عاتق أتباعه الأقل جاذبية. على الرغم من خطابه، كان موسوليني

مكبوحاً للغاية مقارنة بأقرانه الطغاة. فرغم وجود قوة شرطة سرية فاشية، هي منظمة اليقظة والقمع لمضادي الفاشية (OVRA)، لم تكن هناك معسكرات اعتقال ولا معسكرات غولاغ في إيطاليا، ومن بين خمسة آلاف سجين سياسي تم اعتقالهم بين عامي ١٩٢٧ و١٩٤٠، تسعة فقط تم إعدامهم. للأسف، لم يمت موسوليني. وبدلاً من ذلك، حاول أن يصبح عظيماً، كالفاتح الروماني، باني الإمبراطورية. بدأ كل شيء يسير على نحو خطير عندما أرسل القوات الإيطالية لغزو إثيوبيا في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٥. بعد الانتصار على الجيش الإثيوبي الفقير للسلاح بالرصاص والقنابل والغازات السامة، دخلت القوات الفاشية المنتصرة أديس أبابا بعد سبعة أشهر. ووفقاً لموسوليني، كانت حرب غزو عظيمة ونبيلة؛ ومع ذلك، فقد ثبت أن تهدئة السكان أمر صعب، ارتكبت عمليات انتقام وحشية ضد المدنيين (مارس الجنود مهارة التصويب والرمي بإطلاق النار على رجال إثيوبيين في الخصيتين). وبينما كانت الحرب ذات شعبية داخل إيطاليا، جعل العدوان الفاشستي الذي لا مبرر له الرأي العام الغربي عدائياً. وقد اعتاد على التزلف في المعاملة مع الصحافة الأجنبية وكبار الشخصيات، وجد موسوليني الآن نفسه مذموماً بالتالي كطاغية وكمتوحش. لقد اعتقد أن هذا التغيير المفاجئ في المواقف أمراً منافقاً: فبعد كل شيء، لم تستحوذ بريطانيا وفرنسا على إمبراطوريتيهما عن طريق دغدغة الشعوب الأصلية كي تخضع، بينما تمكن ملك بلجيكا ليوبولد (الذي تعتبر بلاده رسمياً في نادي البلدان المتحضرة) من قتل عشرة ملايين كونغولي خلال فترة حكمه وهيمنته الإمبريالية على تلك الأرض التعيسة. استمتعت الولايات المتحدة بحربها الاستعمارية في الفلبين في أوائل القرن العشرين، وكانت لا تزال تفتك بالأمريكيين الأصليين خلال طفولة موسوليني في تسعينيات القرن التاسع عشر. من هم هؤلاء الإمبرياليين كي ينتقدونني؟

بعد فوزه في أفريقيا، تدخّل موسوليني ليساند الجانب القومي في الحرب الأهلية الإسبانية، على أمل توسيع نفوذه بشكل أكبر. لكن الجيوش الفاشية أثبتت أنها أقل فعالية في قتال المعارضين المسلحين بالأسلحة الحديثة، وعانت من هزيمة ساحقة ومهينة في معركة غوادالاخارا في عام ١٩٣٧. ومع ذلك، عند هذه النقطة كان الأوان قد فات. كان النجاح

المتزايد الذي يحققه ذلك القزم ذو الشارب من النمسا سيحرك بالدوتشي المسن رغبة حسودة من شأنها أن تلهمه اتخاذ القرار الأكثر كارثية في حياته.

في عام ١٩٣٩، أُعيد إصدار سيرة حياة موسوليني المكتوبة عنه بمواد حديثة تبرر غزوه لإثيوبيا. كما تضمنت بوضوح مقاطع عنصرية ومعادية للسامية لم تظهر في النسخة الأصلية. الجديد أيضاً كان شعور القرابة مع ألمانيا:

> هناك قدر كبير من التشابه... بين الفاشية والاشتراكية الوطنية، والاختلافات بين الحركتين هي بسبب الاختلافات الفطرية بين الشعبين وتاريخهما وتقاليدهما. إن تشابه الغايات والوسائل لتحقيقها، وسياسة مراجعة الاتفاقيات التي تعهد بها رئيسا الحكومتين، كل هذا كان كافياً على أي حال لكلا البلدين ليمضيا معاً منذ عام ١٩٣٤. لقد جمعت الأسباب السياسية والأيديولوجية البلدين معاً، وبدأتا التعاون في المجال الدولي الذي كان محتماً كالتحالف الثلاثي منذ أربعين عاماً.

في الواقع، لقد تعامل موسوليني مع هتلر باحتقار كان بالكاد خفياً لسنوات عديدة. في عام ١٩٢٧، كتب الفوهرر، الذي أبقى على تمثال نصفي لـلدوتشي على مكتبه، طلباً لصورة موقعة؛ ورفض موسوليني. وكان على الفوهرر الانتظار أربع سنوات أخرى حتى يتم منحه رغبته. في الوقت الذي عمل فيه هتلر بجد لمحاكاة أسلوب موسوليني، وحيا رجاله كالفاشيين وجعلهم يستعرضون بقمصان أقل سواداً بقليل من سواد قمصان الفاشيين، رأى موسوليني اختلافات كبيرة. على وجه الخصوص، سخر من العنصرية النازية والقوانين المتعلقة بالتعقيم، وأعلن على الملأ أنه ينظر الى "بعض العقائد على الجانب الآخر من جبال الألب" "بازدراء مطلق". فهو لم يكن معادياً للسامية؛ لم يكن اليهود فقط من بين الأعضاء المؤسسين للحزب الفاشي، بل إن ٢٥ في المائة من الثمانية والأربعين ألف يهودي في إيطاليا انضموا لاحقاً إلى الحزب. كانت عشيقته طويلة الأمد (وكاتبته الخفية) مارغريتا سارفاتي يهودية الأصل.

في الواقع، في آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر ١٩٣٤، كتب سلسلة من المقالات المستعارة لصحيفة أيل بوبولو، والتي ازدرى فيها النازية وادعاءات هتلر بالتفوق العرقي

الجرماني. أما بالنسبة إلى **كفاحي**، فقد وصفه بسخرية بأنه "العهد الجديد" لهتلر، واشتكى من أنه عندما قابل هتلر الزعيم النازي لأول مرة، "أصر على أن يتحدث معي عن المشاكل الراهنة، وأخذ يتلو عليّ من الذاكرة كتابه **كفاحي**، رزمة الأوراق الهائلة هذه التي لم أتمكن من قراءتها أبداً".

ولكن مع توقف هتلر عن الظهور وكأنه جامع قمامة، وبدئه في الظهور كزعيم عدواني قادر على هزيمة القوى الإمبريالية، عادت للظهور العادة القديمة لموسوليني في محاكاة أسلوب القادة الأكثر نجاحاً. في حين أنه بمجرد أن رُفع عن دانوزيو، فقد أمر جنوده الآن بالخطو مثل النازيين -ناسياً أنه في مذكراته الحربية عام ١٩١٥، لاحظ أن "ليس لشكل العسكرة الألمانية موطئ قدم في إيطاليا". في الطبعة المنقحة من سيرته الذاتية، عيّن بأثر رجعي عام ١٩٣٤ كبداية للتعاون النازي -الفاشي. كما قدم صراحة "قوانين عنصرية" معادية للسامية في عام ١٩٣٨، وإن كان ذلك مع استثناءات كبيرة. احتفظ موسوليني بحقه وبطريقة سحرية في جعل أي شخص يرضيه "آرياً"، مشيراً إلى أن الانتقال المفاجئ نحو معاداة السامية، كان في جله خطوة تمّ اتخاذها لمواكبة هتلر، أكثر من كونه علامة على التحول المفاجئ نحو علم الطريقة النازية الزائف.

وصلت الرومانسية الجيوسياسية بين ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية إلى ذروتها، عندما وقّع موسوليني وهتلر "ميثاق الصلب" في عام ١٩٣٩. أصبح الديكتاتوران الآن محوراً رسمياً، ولكن ظلت هناك درجة من العاطفة غير المتبادلة من جانب الدوتشي. فقد عامل هتلر بطله السابق كشريك صغير منذ البداية، ولم يكلف نفسه عناء التشاور معه قبل غزو بولندا. وفي نوبة من الاستفزاز، غزا موسوليني ألبانيا، ثم اليونان. ومع ذلك، كان أداء الجيوش الإيطالية متوافقاً مع عدم نجاحها المعتاد، واضطر هتلر إلى إرسال القوات الألمانية للقيام بمعارك من أجل موسوليني. تضاعفت الجثث وتفكك النظام. ثم، في عام ١٩٤٣، صوّت غالبية مستشاريه المقربين في المجلس الفاشي الكبير بإقالة الديكتاتور البالغ من العمر ٥٩ عاماً من السلطة.

كان تسلسل الأحداث قد وضعه موسوليني أساساً قبل ثلاثة عشر عاماً، في مسرحيته عن نابليون. في المقطع التالي، يؤدي استبدال "بونابرت" بـ"موسوليني" والإشارة إلى "فرنسا" بكلمة "إيطاليا" إلى ملخص دقيق إلى حد ما لموقف الدوتشي بعد أربع سنوات من الحرب.

> لقد انتهت أيام الاستبداد يا بونابرت. لقد حققت نجاحاً طالما تمكنت فرنسا من منحك جيوشاً لا تعد والشجاعة والانضباط تلك التي دمرتها. طالما أن أعداء فرنسا تشاجروا فيما بينهم، واستخدموا أسلحة عتيقة، واستراتيجيات عفا عليها الزمن، فبإمكانك، من دون قطرة دم فرنسية، أن تخلص للأفكار، التي هي من عمل رجل فرنسي حقيقي -لازار كارنو. عندما جفت كل ينابيع الحماس الفرنسي، غمرت أرض أوروبا بأكملها بالدم الفرنسي، وجدت العالم متحداً ضدك، يكرهك، كما لم يكره أحداً من قبل، ويصرخ بشدة من أجل السلام.

كما قالها الملك فيكتور إيمانويل عندما أبلغ موسوليني أنه لم يعد بحاجة إلى خدماته، أصبح الدوتشي "أكثر رجل مكروه في إيطاليا". وتم اعتقاله، وخلال ليلة وضحاها تقريباً، اختفت الفاشية مثل دخان من ثقب المفتاح. احتفل الشعب، على الرغم من أن النظام الواهن الذي تلاه كان سيتعثر لخمسة وأربعين يوماً أخرى.

لكنها لم تكن النهاية. لم يكن لموسوليني الكرامة المأساوية لنابليونه الخيالي، الذي عرف وقت هزيمته. لقد أعلن أنه صار جثة سياسية من قبل وقام بإحياء نفسه. كان ما يزال يحلم بعودة، وهي فرصة أتيحت له عندما أنقذته القوات النازية من السجن، وقام هتلر بتثبيته كزعيم دمية لـ"الجمهورية الاشتراكية الإيطالية".

بالمقارنة مع معيار مثاله الأدبي الخاص به، فشل موسوليني فشلاً ذريعاً في هذا العمل الأخير. في **نابليون: الأيام المائة**، كتب: "السقوط ليس شيئاً، إن سقط المرء بعظمة. وهو كل شيء، إن سقط المرء بشكل مخز". لكن في حين، قبل نابليون الخيالي نفيه، معلناً:

> لن أكون ملكاً لمذبحة أيلول/ سبتمبر الجديدة. عدت من إلبا صراحة لتجنب ذلك. السادة الكرام، إن حلم حكم أوروبا المزدهرة في سلام، قد يبرر حتى مثل هذا الثمن من الدم كما أرى. من أجل ذلك الحلم سمحت لجيل بأن يهلك. لكنني لست

ملكاً تافهاً، يرسل رجالاً للموت لإنقاذ عرشه التافه، أو ليسوّغ شجاره مع مجموعة من الديماغوجيين الصغار.

ميّز موسوليني نفسه بترحيل سبعة آلاف يهودي إلى معسكرات الموت وإعدام صهره.

كانت الرحلة إلى عمود الإنارة تكاد تكتمل، ولكن ليس قبل عودة موسوليني إلى جذوره الأدبية، حيث نشر سلسلة من الأعمدة الصحفية في صحيفة كوريرا ديلا سيرا **Corriere della Sera** في ربيع عام ١٩٤٤. وكتب بقلم "الرحالة"، وهو يتأمل في سقوطه من النعمة والقيامة الواضحة، وتمّ جمع النصوص سريعاً في كتابه الأفضل مبيعاً، **قصة عام**.

يمثل **قصة عام** فرصة ضائعة. كان موسوليني كاتباً ماهراً، وكان قادراً على التقييم الذاتي الصادق، كان هذا كتاباً رائعاً، فرصة لاستكشاف السقوط الملحمي من النعمة بسبب الغطرسة، والغرور والقرارات السيئة. بالطبع، كان يتطلب القيام بذلك تفكيكاً كلياً لكل الأوهام العزيزة وذاته نفسها، ودخول تلك الهاوية كان مهمة تتجاوز موسوليني، وهي تتجاوز معظمنا. لكنه بدلاً من ذلك، قام بتأليف عمل عملاق في تبرير الذات، صرخة من الغضب على المقربين السابقين منه وعلى الإيطاليين العاديين الذين خذلوه. وأعلن أن إيطاليا "ليست حتى أمة"، وشنّ حرباً كلامية لاذعة على "الخونة" الذين أطاحوا به ثم سجنوه. إنه نص حزين وغريب، مليء بتبرير وخداع الذات والصرخات المتكررة لكبرياء جريح مهووس بالعظمة.

لكن موسوليني كان يقترب من تلك الهاوية. الجانب الأكثر إثارة للاهتمام من **قصة عام** هو عادته في الإشارة إلى نفسه بضمير الغائب طوال الوقت، كما لو كان في اعتراف ضمني بأن "أنا" موسوليني العظيم لم تعد موجودة. لقد كانت تلك "الأنا" ذات يوم قويّة جداً، لدرجة أنها تواجدت بشكل مستقل، في المقالات التي كتبت باسم مستعار وفي سيرته الذاتية، والتي يمكن التعرف فيها فوراً على صوت الديكتاتور حتى عندما يكون شخص آخر غيره هو المتحدث. لقد كان صوتاً قوياً مطمئناً وواثقاً من ذاته، يعود إلى نصوصه الأولى، حيث ندد بالله والرأسماليين. لقد ملأ الآلاف والآلاف من الصفحات، واعداً بالنار والعنف والانبعاث. ثم،

يختفي فجأة. كان صوت ضمير الغائب الذي حلّ محله صوتاً خشبياً مسطحاً من دون شكل. كانت قصة عام عملاً يصرخ من الإرهاق، وربما كان الشيء الأقل حيوية فيما كتبه موسوليني على الإطلاق. لم يقنع أحداً. إن فعل شيئاً، فقد كان دوره هو إقناع مؤلفه نفسه.

وهكذا، يسرد موسوليني جميع محاولات اغتيال موسوليني، مؤكداً أن موسوليني رجل يصعب قتله، له "جمجمة مضادة للرصاص". كما يذكر لنا موسوليني وهو يتحدث إلى الألمان عن ولاء هتلر:

> أجاب الدوتشي: "كنت أعلم طوال الوقت أن الفوهرر سيعطيني هذا الدليل على صداقته".

عندما تم التصويت على موسوليني في المجلس الكبير، صار انهيار الذات متطرفاً إلى درجة أن موسوليني لم يعد يعرف ما يفكر فيه موسوليني، وهو يحدق في نفسه من الخارج، كما لو كان يتأمل كياناً أجنبياً:

> لم يبدُ أن موسوليني كان يستمتع بهذه المناسبة، لأنه نفر دائماً من الاجتماعات التي كانت من دون أي برنامج مُخطط مسبقاً.

ومع ذلك، هناك لحظات يواجه فيها موسوليني مصيره بشيء يقترب من الصدق. ويدين الشعب الإيطالي بسبب تقلباته:

> في غضون نصف ساعة، غيَّر الناس بأسرهم أفكارهم ومشاعرهم ومسار التاريخ... ماذا علينا أن نصنع لشعب يجعل نفسه فرجة أمام بقية العالم، بمثل هذا التغيير المفاجئ والهستيري لضميره؟

... ويعترف فيما بعد بأن عبادة شخصيته كانت مصطنعة وغير مستدامة:

> ليس من المستغرب أن يدمر الناس أصناماً صنعوها بأنفسهم. ربما تكون هذه هي الطريقة الوحيدة لإعادتها إلى حجمها البشري.

هناك أيضاً لحظات يتأمل فيها ما قد يكون محنة جميع الطغاة الذين يستمتعون بحب الناس، ومع هذا فهم دائماً وحدهم. في الواقع، وبالنسبة إلى موسوليني، هذه حقيقة وجودية أساسية، وهو يدون ضمير الغائب موسوليني الذي كان يفكر في ذلك أثناء وجوده في السجن:

> لم يكن لديه أي أصدقاء طوال حياته. هل كان هذا شيئاً جيداً أم سيئاً؟ لقد فكر ملياً في هذه المشكلة عندما كان في لا مادالينا، حيث كتب: جيد أو سيء، لا يهم، فقد فات الأوان. قال أحدهم في الكتاب المقدس، "ويل للوحيد!" ولكن كان هناك قول من عصر النهضة "كن وحدك، وستكون سيد نفسك".

إنها أحجية في الحقيقة، وموسوليني لا يحلها:

> إن كان لديّ أي أصدقاء الآن، فسيكون الوقت مناسباً لهم كي يظهروا تعاطفهم معي، و"يعانون معي" حرفياً. لكن بما أنني بدونهم، يبقى سوء حظي داخل الدائرة المغلقة لحياتي.

لكن ألم يكتب بنفسه أنه قال إن الفوهرر كان صديقه؟ نعم، فعل ذلك قبل سبع عشرة صفحة في الواقع. يبدو أن ذلك البيان قد استبدل ببيانه الأخير عن الوحدة المطلقة. ولكن في نهاية الكتاب، يبدأ موسوليني في الكتابة وكأنه ليس دمية ألمانية بل سيد حرب يلمع نجمه مرة أخرى. وتنطلق عضلاته الخيالية، ويتوهم الدونشي أن إحياء حظه السياسي في متناول اليد - "فلنبدأ من جديد طريقنا، وعيوننا على الطريق أمامنا" -فقط ليسقط في النهاية، في فلسفة غامضة متعاظمة، كما لو أنه يشير إلى أن هذه هي النهاية، ولكنها ليست حقاً النهاية. هل يلمح إلى أن إعادة التقييم الكبرى ستأتي؟

> التاريخ هو سلسلة من الاستعادات الأبدية. تقاس المراحل في حياة الدول بالعقود. وفي بعض الأحيان بالقرون.

سيطر الشيوعيون الإيطاليون وأعدموا موسوليني في ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٤٥، بينما كان يحاول الفرار إلى سويسرا في طريقه إلى إسبانيا. قام الغوغاء المهتاجون بتسليط غضبهم على بقايا جثته، ثم علقوها رأساً على عقب خارج محطة وقود ايسوو في ميلانو. لو أنه لم يخلط بين

موهبته في الكتابة بالقدرة الخارقة على تغيير مجرى التاريخ، وبالتالي أخطأ في تعريف مهنته الحقيقية كديكتاتور بدلاً من كاتب، لكان العالم على الأرجح مكاناً أقل فظاعة في القرن العشرين. للأسف، ككاتب، كان موسوليني يخضع لنفس الغرور وأوهام العظمة التي ابتلي بها الكثيرون غيره - وبشكل خاص شكلها الحاد: فبدلاً من مجرد إيذاء أسرته وأحبائه والتغلب على منتقديه، تمكن من نشر الفوضى على مساحة قارتين.



4- هتلر



"من المؤسف حقاً أن نرى كيف يتعرض شبابنا الآن لجنون الموضة الذي يعكس معنى القول القديم: "الملابس تُدخل الإنسان في شيء كارثي حقاً" - أ. هتلر

في عام ١٨٨٩، ولد طفل لألويس وكلارا هتلر في مدينة براوناو آم إنن، وهي بلدة تقع في الإمبراطورية النمساوية المجرية، بالقرب من الحدود البافارية. كان أدولف الشاب ذكياً، ولكن عنيداً، وقد تعرض للضرب المبرح على يد والده، وهو انضباطي شرس له شارب أكبر بكثير من شارب ابنه. تطلع ألويس إلى أن يصبح أدولف الشاب موظفاً مدنياً محبطاً وغاضباً، تماماً كما كان. شجعت كلارا ولدها المحبوب.

على الرغم من الضرب، واجه هتلر صعوبة في الانصياع لأي شخص آخر. ظن أساتذته أنه كسول، وعلى عكس زملائه الطغاة المستقبليين في روسيا وجورجيا وإيطاليا، لم يكن جيداً في المدرسة، على الرغم من أنه كان قارئاً قوياً، وظل كذلك طوال حياته - عندما توفي في السادسة والخمسين من عمره كان يمتلك حوالي ستة عشر ألف كتاب. ومع ذلك، لم تكن لهتلر أية مواجهة تحويلية مع كتيب جذري أو رواية لناشط قوي. بدلاً من ذلك، كان يستمتع بالأعمال القومية المتعلقة بالتاريخ الألماني، كما كان يلتهم القصص الخيالية لكارل ماي، وهو مؤلف ألماني لروايات عن الغرب الأمريكي يعرض هندياً شجاعاً يدعى أولد شاتراند. لم يكن قد ذهب إلى الولايات المتحدة بعد عندما كتب

حكاياته، لذلك كانت رؤيته للغرب وثقافة الأميركيين الأصليين مستوحاة تماماً من الأشياء التي وجدها في كتب أخرى. لكنه كان مبتكراً لأنه قلب المجاز المتعارف عليه عن راعي البقر الجيد والحضاري مقابل الهندي البري المتوحش. تحفزت مقروئية ماي التوتونية (الجرمانية القديمة) الباهتة قطعاً على خلفية التماهي مع الرجل الأحمر "المتوحش النبيل" في كفاحه ضد المستوطنين البيض، الذين كان كثير منهم بالطبع من الألمان. قام أدولف الشاب بوضعه في الأعلى، واعتبر أولد شاترانذ أنموذجاً للشجاعة.

ربما يكون هتلر قد اعتنق هذه الحكايات عن المستضعف البطولي، لكنه لم يستجب لها من خلال توليد أي نصوص جوهرية خاصة به، بخلاف التلاعب القصير المعتاد في شعر المراهقين. بعد وفاة والده في عام ١٩٠٣، خرج هتلر من المدرسة الثانوية لتكريس نفسه للفن والأوبرا والمسرح ودراسة الأساطير الاسكندنافية ورعاية عبقريته. أخيراً، لم يكن هناك من يمنعه من متابعة أحلامه - باستثناء مشرفي القبول في معاهد الفنون التي حاول الدخول إليها. في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠٧، رفضته أكاديمية فيينا للفنون الجميلة - واقترح عليه رئيس الجامعة دراسة الهندسة المعمارية بدلاً من ذلك، لكن هتلر كان يفتقر إلى المؤهلات اللازمة. بعد بضعة أشهر، توفيت والدته، ثم في عام ١٩٠٨، رفضته الأكاديمية مرة أخرى. ربما كان عليه أن يصبح موظفاً مدنياً في النهاية.

بقي هتلر في فيينا، وكان لا يزال عازماً على أن يصبح فناناً كبيراً. وبدلاً من ذلك، وجد الفقر والليالي البائسة على مقاعد المنتزه، والوجبات الشنيعة في مطابخ الحساء. في عام ١٩٠٩، في العشرين من عمره، كتب "الكاتب" كاسم لمهنته عند تسجيل عنوان جديد لدى السلطات في فيينا، ولكن هذا كان خيالاً. لقد اكتسب وجوداً محفوفاً بالمخاطر، حيث كان يعيش من خلال الوظائف الوضيعة ومن بيع لوحات المناظر الطبيعية والبطاقات البريدية للمعالم الشهيرة التي رسمها. لم يكن من دون موهبة كاملة: فعلى سبيل المثال، اللوحة التي بعنوان Standesamt und Altes Rathaus Muenchen (مكتب السجل المدني وباحة مدينة ميونيخ القديمة)، والتي بيعت في مزاد علني في نورمبرغ عام ٢٠١٤ مقابل ١٦١.٠٠٠ دولار، هي مثال مقبول تماماً على المدرسة السياحية المتوسطة بالألوان المائية. السماء زرقاء، والمبنى يبدو قديماً، والخطوط مستقيمة، ولا توجد عناصر خاطئة بشكل واضح: إنها ليست سيئة.

في هذه الأثناء، عندما كان هتلر قد اتسخ وتضور جوعاً، قرأ عن اليهود في الصحف والمنشورات المعادية للسامية. بعد رفع القوانين التي تقيد الهجرة إلى العاصمة في منتصف القرن التاسع عشر، قفز عدد السكان اليهود في فيينا من حوالي ٢.٠ في المائة في عام ١٨٥٧ إلى ٨.٦ في المائة في عام ١٩١٠. في عام ١٩٠٩ كان ربع الطلاب المسجلين في الجامعة من اليهود. لقد نجح اليهود في الأعمال التجارية والمالية والفنون، واتُهموا "بالسيطرة على وسائل الإعلام". كانت هذه حقبة سيغموند فرويد، وغوستاف ماهلر، وفرانز كافكا، وأرنولد شونبيرغ، لكنها كانت أيضاً عصر نقاشات المجلس الإمبراطوري في النمسا والمجر، حول ما إذا كان ينبغي معاقبة ممارسة الجنس بين المسيحيين واليهود بموجب نفس قوانين مواقعة البهائم.

على الرغم من أن هتلر ادعى لاحقاً أنه أصبح معادياً للسامية خلال سنواته في فيينا، إلا أنه بالتأكيد لم يكن ناشطاً؛ ولا كان مسيساً بشكل خاص. على العكس من ذلك، يشهد شهود العيان أن زعيم النازية في المستقبل كان لديه العديد من الأصدقاء اليهود، اختلط بحرية مع اليهود في البيوت التي سكنها، وأشاد بالملحنين اليهود مثل مندلسون، وباع العديد من لوحاته لتجار الفن اليهود. لقد اندهش الأصدقاء (والأعداء) من أيام فيينا في وقت لاحق عندما ظهر كأبرز معاد للسامية على هذا الكوكب.

باختصار، كان هتلر لا يزال ينساق، دون هدف. لقد انساق لسنوات. قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان الأكثر ضياعاً، والأكثر جوعاً، والأكثر فشلاً من جميع طغاة المستقبل في القرن العشرين، الشخص الذي كان من الممكن أن يختفي بسهولة، ولا يترك وراءه أي شهادة على وجوده. فلننظر في هذا. في كانون الثاني/ يناير١٩١٣، كان تروتسكي وستالين أيضاً في فيينا بالقرب من هتلر. كانت البلشفية في حالة انحسار، لكن ستالين كان يبحث في عمله المذهل، **الماركسية والقضية الوطني**، بينما كان تروتسكي يكتب المنشورات، ويشرب القهوة ويحرر نسخة فيينا من **برافدا** التي سبقت (وكانت معادية) لنسخة لينين في سان بطرسبرغ. في هذه الأثناء، كان جوزيف بروز، المارشال تيتو في المستقبل، رئيس يوغوسلافيا، يعيش على بعد أميال قليلة جنوباً في بلدة تُدعى فينر نويشتاد. كان يعمل في مصنع ديملر للسيارات، ولكنه كان منشغلاً سياسياً بالفعل: لقد كان ديمقراطياً اجتماعياً لمدة ست سنوات.

أما بالنسبة إلى هتلر؟ فلا شيء سوى العدم.

***

بالنسبة إلى العديدين، قد يكون زوال ٨٠٪ من كتيبتك في الأسابيع الأولى من الحرب كارثة أو، على الأقل، علامة على أن الأمور لم تكن لها بداية جيدة جداً. لكن ليس هذا هو الحال بالنسبة إلى هتلر، الذي وجد في تل الجثث التي اخترمها الرصاص ومزقتها القنابل دليلاً على الروح القتالية الألمانية النبيلة والتضحية بالنفس. كما كتب إلى مالك العقار في ميونيخ:

> ... بكل فخر أستطيع أن أقول إن كتيبتنا قد تعاملت بشكل بطولي منذ اليوم الأول - لقد فقدنا جميع ضباطنا تقريباً ولكتيبتنا الآن رقيبان فقط. في اليوم الرابع، بقي ٦١١ فقط من أصل ٣٦٠٠ رجل في كتيبتنا.

كان هتلر قد انتقل إلى ميونيخ عام ١٩١٣ لتجنب الخدمة العسكرية في الجيش النمساوي المجري. ومع ذلك، عندما اندلعت الحرب بعد عام، كان على استعداد للقتال من أجل ألمانيا، وانضم إلى فوج المشاة الاحتياطي السادس عشر التابع للجيش البافاري (فوج القائمة، للاختصار). وفقاً للرواية التقليدية، كان عداءً مسؤولاً عن نقل الرسائل من المقر الرئيسي إلى الوحدات القتالية على الخطوط الأمامية وتجنب الرصاص والألغام والقذائف. وبينما كانت الجثث تتراكم حوله، نجا من الموت مراراً وتكراراً، سواء من خلال الاستماع إلى صوت غامض يخبره بالابتعاد عن منطقة ما قبل لحظات من سقوط قذيفة، أو عندما ظهر كناجٍ وحيد على الجانب الألماني من مبارزة حتى الموت مع القوات البريطانية. وقد أبقته القليل من الشظايا في الساق بعيداً عن الحركة مؤقتاً فقط. لا عجب أنه فاز بصليبين حديديين، أحدهما كان من "الدرجة الأولى" النادرة، التي تمنح فقط للجنود الذين أظهروا شجاعة استثنائية. لقد جلب الفناء في الحرب الكرامة والمعنى والغرض من حياة هتلر: فقد أصبح الزاحف النمساوي المهزوم محارباً توتونياً فائقاً.

حتى وسط المذبحة، احتفظ هتلر بحماسه الثقافي. في اللحظات الهادئة، كان يخرج ألوانه المائية ويرسم المشهد الذي تظهر عليه ندب المعارك، أو يغوص في كتب عن التاريخ والعمارة الألمانية، أو ربما يشارك في جلسات التضامن المعادية للسامية مع إخوته في السلاح. في

الخنادق، كان المضيّع البوهيمي هتلر أحد الصبية، حيث كان يتشارك أفراحه وأحزانه وكراهته لليهود مع باقي الجنود.

عندما أعلنت الهدنة في ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٨، كان هتلر يتعافى في مستشفى عسكري، بعد هجوم بغاز الخردل البريطاني جعله أعمى مؤقتاً. كان غاضباً جداً من هذه "الخيانة" لدرجة أنه فقد بصره مجدداً. كان قادة ألمانيا خونة ومجرمين، عصابات للمؤامرة اليهودية الدولية. ومما زاد الطين بلة، أنه قبل يومين - في الذكرى الأولى لانقلاب لينين - أنهت ثورة في بافاريا حكم ثمانمائة عام من عائلة ويتلسباخ، وبلغت ذروتها بإعلان جمهورية اشتراكية.

في نظر هتلر، كانت الماركسية واجهة للرغبة اليهودية في السيطرة على العالم. وشاعراً بالفزع، وطد هتلر العزم على الدخول في السياسة - وهو قرار ازداد إصراراً بمجرد أن وقع ممثلو أرض الوطن معاهدة فرساي بعد سبعة أشهر. بجرة قلم، خضعت ألمانيا للإهانة الكارثية، وسلمت مساحات شاسعة من الأراضي، وقبلت كل المسؤولية عن الأضرار التي لحقت بالمدنيين أثناء الحرب، وخضعت بخنوع لمطالب الحلفاء من أجل القضاء الدائم على القوات المسلحة الألمانية. بدأ التضخم المفرط، وظهرت عربات اليد المحملة بالمال الذي بلا قيمة، والفوضى السياسية، وموسيقى الملاهي، وميليشيات الفيلق الحر Freikorps اليمينية، واليهود ككبش فداء، الصليب المعقوف، ومشية الإوزة، والكثير من الخطب، والجنس مع ابنة أخته القاصر[١]، انظروا، لقد ولد الفوهرر- ليس من الكتب، بل من بوتقة الحرب النارية والموت والانهيار المجتمعي.

لعقود من الزمن، ظلت هذه الصياغة عن صعود هتلر إلى السلطة سليمة إلى حد ما. المشكلة هي أنها تستند إلى رواية هتلر للحرب كما نقلها في كتابه **كفاحي** وكذلك الدعاية الرسمية النازية في الكتب المدرسية والصحف والمجلات[٢]. لكن، إن كان هتلر مذهلاً جداً، فمن الغريب للغاية ألا تتم ترقيته أبداً، وألا يمنح أي سلطة على الرجال، ولم يُرقَّ في أي وقت

---

١ - كما يُزعم. المؤلف

٢ - باستثناء موضوع الاعتداء على قريبته. المؤلف

مضى أعلى من الدرجة المكافئة للدرجة الأولى في الولايات المتحدة، والتي هي أقرب ترجمة لرتبته العسكرية.Gefreiter. من الغريب أيضاً أنه (كما ادعى) قد اعتنق المعاداة الشرسة للسامية مع فرقته من الإخوة الكارهين لليهود في الخنادق، وكانت تظهر عليه بالفعل علامات تحوله إلى الفوهرر الوشيك، أن يتم ترشيحه للصليب الحديدي (الدرجة الأولى) من طرف هوغو غوتمان، وهو ضابط يهودي.

تكشف الوثائق التي اكتشفها المؤرخ توماس ويبر في أوائل القرن الواحد والعشرين صورة مختلفة. اتضح أن وظيفة هتلر كعداء إيفاد لمقر قيادة الفوج كانت واحدة من المهن الأقل فتكاً المفتوحة أمام العسكريين خلال الحرب العالمية الأولى، والذي يتضح من حقيقة أنه على الرغم من وجود مئات الآلاف من الضحايا على كلا الجانبين في عام ١٩١٥، كان عدد الموتى بالضبط صفراً بين عدائي الإيفاد الذين خدم هتلر معهم. لا عجب في أن جنود خط المواجهة أشاروا إلى أمثال هتلر باسم **Etappenschwein**، "خنزير المنطقة الخلفية".

وكانت جلسات التضامن المعادية للسامية أسطورية أيضاً. في الواقع، حضر هتلر لمّ شمل واحد فقط لكتيبته، في عام ١٩٢٢، وفعل ذلك بينما كان يلتمس (مع القليل من النجاح) من إخوانه في السلاح الانضمام إلى الحزب النازي. بحلول عام ١٩٣٣، عندما كان نجمه صاعداً، اشترك ٢ في المائة منهم فقط.

ولعل الأكثر غرابة على الإطلاق، أن هتلر عمل فعلاً لصالح الجمهورية السوفييتية البافارية، كممثل لكتيبته. هذا بعيد كل البعد عن صورة العدو المحلّف للبلشفية وتهويد العالم المولود في الوحل والنار ودم الخنادق. بدل ذلك، يبدو أن أفكار هتلر كانت متقلبة، وأنه حتى عام ١٩١٩ كان مهتماً بمتابعة الفرص الوظيفية بخلاف كونه طاغية الإبادة الجماعية المتعصب المعادي للسامية.

لا يبدو أن هتلر وضع قدميه على هذا المسار حتى ذلك الخريف. كان لا يزال يعمل مع الجيش وقد كلف بمهمة مراقبة الجماعات السياسية المتطرفة، وهي مهمة تنطوي على التغلغل في تجمعات العنصريين الأحاديين، معادي السامية المهووسين، والشيوعيين، والقوميين الثوريين، ومنظري المؤامرة، وغير المنسجمين عموماً. في إحدى الأمسيات، حضر اجتماعاً

لحزب العمال الألماني الصغير جداً، والذي تم تأسيسه في وقت سابق من عام ١٩١٩ بواسطة شخص غير منسجم: عامل في سكة الحديد يدعى أنطون دريكسلر. ألقى دريكسلر باللوم على اليهود ونقابات العمال كسبب في إخفاقاته وخيبات أمله العديدة، وطور أيديولوجيا سياسية زاوجت كراهية اليهود مع الاشتراكية والقومية. غادر هتلر الاجتماع حاملاً نسخة من السيرة الذاتية لـدريكسلر وقرأها في تلك الليلة أثناء نوبة من الأرق. وإن لم يستطع ذلك الكتيّب المؤسف أن يحوّله إلى دير فوهرر على الفور -بل إنه كما يدعي نسبه على الفور - إلا أنه برمج وعيه بالتحول.

بعد بضعة أيام، تلقى هتلر بطاقة عضوية بالبريد، وعلى الرغم من أنه نظر إلى المجموعة، بدقة تامة، كتشكيلة من غريبي الأطوار الهامشيين، فقد حضر اجتماعاً آخر ووجد مصيره هناك، وسط الخاسرين وغير المنسجمين. سيتحول حزب العمال الألماني إلى حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني، المعروف أيضاً باسم الحزب النازي.

الآن، من خلال عضويته في هذه المجموعة من الترايلوبيت[1]، بدأ هتلر يتحرك في الأوساط الأدبية. كان أحد أصدقائه من الكتّاب الجدد موهوباً في الواقع: كان ديتريش إيكارت سليل عائلة مرموقة (كان والده مستشاراً للملك البافاري) وكانت روايته لمسرحية إبسن بير جينت تحظى بشعبية كبيرة في ألمانيا؛ حضر القيصر نفسه عرضين لها، وترجمت المسرحية إلى التشيكية والهولندية والمجرية. ومع ذلك، كان إيكارت أيضاً مدمناً على المخدرات، سكيراً، وقومياً ومعادياً غاضباً للسامية ينشر صحيفته الأسبوعية " بالألمانية العامية". ورغم أنه كان أكبر من هتلر بواحد وعشرين عاماً، فقد توحّد الاثنان بخلفياتهما البوهيمية وكراهتهما لليهود. ناقش إيكارت الكتب والأفكار والتاريخ مع هتلر - بما في ذلك أعمال هيوستن ستيوارت تشامبرلين[2] وبول دي لاجارد.[3] ساعد إيكارت هتلر في القواعد النحوية، التي لم تكن أبداً ميزة الفوهرر القوية.

---

١ - طائفة من مفصليات الأرجل تقع ضمن الأحفوريات البحرية المنقرضة-المترجم

٢ - صهر ريتشارد فاغنر.عنصري. المؤلف

٣ - باحث إنجيلي عنصري. المؤلف

شراكة ناجحة بالفعل. في هذه الأثناء، التقى هتلر بكاتب آخر، هو ألفريد روزنبرغ، لاجئ من أصل ألماني من الإمبراطورية الروسية المنهارة. ومثل هتلر، كان لديه ميل للفنون. لقد درس الهندسة المعمارية في ريغا وموسكو قبل الثورة. عمل روزنبرغ كخبير في الشأن الروسي في صحيفة إيكارت، وساهم بمقالات عن الثورة البلشفية "اليهودية". في عام ١٩٢٣، كتب تعليقاً على **بروتوكولات حكماء صهيون**، وهو النص السيئ السمعة الذي يُزعم أنه سجل لقاء بين زمرة من اليهود الذين يعيشون في بازل والذين كانوا يخططون لبدء حروب رهيبة وإثارة الفوضى الشاملة من أجل السيطرة على العالم. في الواقع، تمّ بالفعل الكشف عن أن **البروتوكولات** مزيفة: في عام ١٩٢١ نشرت صحيفة **لندن تايمز** تقريراً يوضح أن الكثير من النص قد انتشر من مجادلة فرنسية استهدفت نابليون الثالث، بعنوان "**حوار في الجحيم بين مكيافيلي ومونتيسكيو**". في الواقع، قامت الشرطة السرية القيصرية بإنتاج **البروتوكولات**، على الرغم من أن هذه التفاصيل لم تمنع أبداً من يسعون لأن ينخدعوا من خداع أنفسهم.[1]

حتى الآن، لم يبدأ هتلر فجأة في توليد مئات النصوص للتنافس مع هؤلاء المنظرين للنازية الناشئة. بالنسبة إلى البلاشفة اللوغوسيين، كانت الكلمة المكتوبة عبارة عن حلبة مصارعة كان عليهم فيها تأكيد الهيمنة؛ وكان موسوليني محترفاً في كتابة النثر. لكن يبدو أن الكتابة لم تكن وسيلة لتغذية أنا هتلر أو أنه قد يسعى إليها لتعزيز حياته السياسية. أثناء صعوده في الحزب، اكتشف بدلاً من ذلك أن حرفته هي الخطابة الهرائية، وليس الخربشة على الورق. كان بوسع هتلر أن يمسك بقاعة في راحة يده كلما فتح فمه ليدلق خطله المسموم عن اليهود، والبلاشفة، وكيف أن النجمة السوفييتية هي بالفعل نجمة داود، وأن النجوم الشيوعية كانت ذهبية لأن اليهود يحبون الذهب، وأي إثبات نحتاجه أكثر من ذلك؟ لأن حديث هتلر كان كافياً.

في الحقيقة، وعلى الرغم من أن هتلر فكر في تأليف كتاب عن تاريخ اليهود، إلا أنه قاوم بنجاح أي دافع ربما شعر به لتبتلي البشرية بمجلد من تأملاته حتى عانى من فترة غير متوقعة من الكسل القسري في عام ١٩٢٣. قبل عام، كان نجمه المفضل موسوليني قد زحف على

---

١ – من بينهم هنري فورد، الذي نشر في عام ١٩٢٢ مقالته الخاصة عن البروتوكولات، المعنونة "اليهودي الدولي"، والتي كشف فيها أن اليهود يتحملون أيضاً مسؤولية موسيقى الجاز وقد سيطروا على تجارة الخمور الأمريكية. امتلك هتلر نسخة من المقالة. المؤلف

روما وأصبح رئيساً لوزراء إيطاليا. أراد هتلر أن يكرر هذا النجاح في ألمانيا من خلال الزحف على برلين، لكن ثورته وصلت إلى أقصى حدها في وسط مدينة ميونيخ قبل أن تفتح السلطات النار على حشد الرعاع المؤلف من ألفي مؤيد. ولكونه Etappenschwein، انبطح الفوهرر على الأرض فور سماعة أول طلقة نارية. ولم يتعرض للأذى. ولم يكن الجميع محظوظين للغاية: فقد مات ستة عشر من النازيين الموالين.

تم إلقاء القبض على هتلر وحوكم بتهمة الخيانة، والتي من المقرر أن يتم إعدامه بسببها عادة، ما لم يتعاطف رئيس المحكمة مع آرائه. وهكذا كان، فعلى الرغم من إدانته، حُكم عليه بالسجن خمس سنوات مع قضاء الوقت وإمكانية الإفراج المبكر بسبب السلوك الجيد -لذلك توقع أن يقضي مدة أقل من ذلك.

هو الآن مقيم في الزنزانة رقم ٧ في سجن لاندسبرغ الذي يعود إلى القرون الوسطى في جنوب غرب بافاريا، وسرعان ما تغلب على كل من السجان والحراس الذين استقبلوه بـالتحية النازية " Heil". كان السجن مريحاً للغاية: كان هتلر في زنزانة فيها نافذة، يستقبل العديد من الزوار، ويستغرق الكثير من الوقت في التنزه حول الحدائق. حتى إنه استمتع بزيارات من كلبه الإلزاسي المحبوب. العيب الوحيد هو أنه كان من الصعب عليه إدارة الحزب من داخل الزنزانة، لذلك قام بتسليم زمام الأمور إلى روزنبرغ. ومع ذلك، أدرك هتلر، مثل لينين في سيبيريا، أن الدولة قد وفرت له الظروف المثالية لإجازة الكاتب الجامعية. وعلاوة على ذلك، كانت لديه عشرات الأمور لتسويتها وفواتير المحامين مستحقة الدفع. سدد صديقه إيكارت ١١ ألف مارك من الدين بعد نشره **بيير جنت**، واستمرت حقوق التأليف تنهال عليه حتى وفاته في العام السابق. ماذا لو كتب هتلر أيضاً أكثر الكتب مبيعاً...؟ في الواقع، في عام ١٩٤٢، كان يعترف لمجموعة من النازيين المخضرمين الذين كانوا معه منذ العشرينات من القرن الماضي "لو لم أكن في السجن، لما كُتب **كفاحي** أبداً".

زوده السجان بآلة كاتبة، في حين قامت وينفريد فاجنر، كنته الإنجليزية المولد المعادية المعروفة للسامية والسيد ريتشارد فاجنر والدها، بتزويد هتلر بما يحتاجه من ورق جيد. ماذا قد ينقصه أيضاً؟ حسناً، الموهبة كي يبدأ. لكنه كان على استعداد لخوض الأمر بغض النظر عنها.

* * *

حاول هتلر في البداية الجلوس على كرسي، على طريقة لينين وكتابة **كفاحي**، أو، كما كان عنوانه في الأصل Viereinhalb Jahre Kampf gegen Lüge، Dummheit und Feigheit (معركة الأربع سنوات ونصف ضد الأكاذيب والغباء والجبن).

ومع ذلك، وبينما كان يخربش على الورق أو يضرب بإصبعيه على الآلة الكاتبة، توسعت رؤيته وطموحاته. وبدلاً من كتابة مجرد هجوم عنيف على اليهود والبلاشفة وغيره من الأشياء التي تحض على الكراهية، بدأ في نسج قصة حياته الخاصة. وهكذا أصبحت ملحمة عملاقة على غرار **ديفيد كوبرفيلد**، تبدأ بمولد هتلر وتتبع تطوره الشخصي والفلسفي والسياسي من خلال دراساته، وسنواته البوهيمية، وسنوات الحرب، وصولاً إلى فوضى عصر فايمار المستمرة. لقد أصبح راغباً جداً في استحضار العاطفة بهدوء، ومستوعباً تماماً استكشاف أفكاره الخاصة، حتى إنه قلّل بشكل كبير من الزوار كي يكرس نفسه بشكل كامل لخلق تحفته.

بالطبع، الطموح يفوق القدرة. ومثل **ديفيد كوبرفيلد**، كان كفاحي طويلاً جداً. لكنه على عكس **ديفيد كوبرفيلد**، كتب بشكل سيئ للغاية. لم تكن المسألة فقط أن هتلر لم تكن لديه فكرة عن كيفية بناء النص، ولا في كونه دعائياً معظماً: كلا -كان عدم كفايته يكشف عن نفسه في النثر على المستوى الدقيق.

وبغض النظر عن كيف يصبح ديكنز مملاً، إلا أنه في النهاية كان محترفاً. لكن هتلر لم يكن محترفاً. إليكم حكم توماس ريباك، وهو باحث قام بفحص كتابة هتلر في شكلها النقي المخطوط قبل النشر: "في سن الخامسة والثلاثين، لم يتقن هتلر لا الإملاء ولا القواعد الأساسية. ونصوصه الخام كانت مليئة بالأخطاء اللغوية والنحوية. فعلامات الترقيم الخاصة به، مثل استخدامه للأحرف الكبيرة، خاطئة بقدر ما هي غير متسقة."

ومع ذلك، فإن الأجزاء المتبقية من المخطوطة تكشف أن هتلر كان يحاول، وأنه كان يعاني حتى. لقد أراد بالفعل أن يكون الكتاب جيداً. قام بتنقيح الفقرات الأولية عدة مرات، بينما كان يناضل من أجل الخروج بافتتاحية ملفتة للنظر، **تماماً مثل مؤلف حقيقي**. في النهاية، استقر على هذا:

يبدو لي اليوم أن من العناية الإلهية أن يختار القدر براوناو آم إنن مسقطاً لرأسي.
لأن هذه البلدة الصغيرة تقع على الحدود بين ولايتين ألمانيتين، والتي جعلنا نحن جيل
الشباب على الأقل من عملية إعادة توحيدهما شغل حياتنا بكل الوسائل المتاحة لنا.

... هذا ليس فظيعاً تماماً، لأنه يربط ولادته بمصير ألمانيا، ويعذر عدم ألمانيته في جملتين. المواضيع الرئيسية، من دون كراهية اليهود، كما يتضح.

ومع ذلك، مع استمرار هتلر في الكتابة، وجد أن الأمر برمته كان صعباً للغاية، لذا بمجرد أن انضم إليه مساعده الأفضل تعلماً رودولف هيس في القلعة، تحول إلى فعل ما كان جيداً فيه: استحضار الكلمات من الهواء، بينما يقوم هيس بإيداعها على الورقة، في عملية تظهر أن موهبة هتلر الكلامية تتطلب جمهوراً أكثر من شخص واحد كي تعمل بشكل صحيح. في حين أن بنية كفاحي "**الشفهية**" حيث أنها مليئة بالتكرار الإيقاعي وإعادة التأكيد على الأفكار المختارة. وأياً كان السحر الخطابي الذي استخدمه هتلر ليأسر جمهوراً كبيراً، فهو لم يترجم إلى الصفحة. حتى قراءتها بصوت عالٍ لناد من المعجبين المنقادين إليه، لا تمكنك من التقاط أيٍ من ذلك "السحر" البلاغي.

على الرغم من أن النص النهائي لا يعطي سوى القليل من الدلائل على أن هيس فعل الكثير لكبح جماح تجاوزات الفوهرر، تتذكر زوجة هيس فيها بعد صراعاتها مع هتلر بسبب المراجعات المقترحة للمخطوط. في الواقع، على مر السنين، قام حوالي عشرة من زملاء هتلر، بدءاً من سائقه إلى ناشره إلى ناقد موسيقي نازي، إما بادعاء الفضل في تشكيل النص أو تمّ إلقاء اللوم عليهم بسبب لعبهم دوراً في تشكيله قبل نشره في النهاية. هل فشلوا جميعاً؟ أم أنهم حالوا دون وقوع كارثة أدبية أعظم في عالم جاهل؟ من يدري ما نوع كفاحي الذي كنا سننتهي إليه لو كان هتلر قد واصل التعب عليه لوحده. مهما كانت الأشياء السيئة التي قد تظهر، فلن نفترض أبداً أننا نعيش أسوأ الاحتمالات الممكنة.

أما بالنسبة إلى السؤال عما في هذا الشيء اللعين، حسناً، -مثل كل السياسيين الذين ينتجون مجلدات سميكة لا يمكن قراءتها ليجعلوا من حياتهم أسطورة، أراد هتلر إغواء قرائه، لتقديم نفسه كطفل اختارته الأقدار، وهو الخيار المنطقي للمنقذ الوطني. بعرض

المواقف التي طورها لاحقاً في الحياة عائداً إلى الوراء بالزمن، وبالكشف على أنه حتى عندما كان طفلاً كان قائداً للرجال، فبينما كان يعيش سنواته الجائعة في فيينا، اكتشف أن "الوباء الروحي، الأسوأ من الموت الأسود" هو مشاركة اليهود في الصحافة والفن والأدب والمسرح.

يراكم هتلر أيضاً قصصاً تضخّم الذات عن بسالته في الحرب وروابطه الوهمية الوثيقة مع المحاربين الصناديد في الخنادق. وفقاً لـكفاحي، بحلول نهاية الحرب، كان قد تمّ تشكيله بشكل كامل من الناحية الفلسفية والسياسية، ولا يوجد، بالطبع، ذكر لمهنته القصيرة في جمهورية السوفييت البافارية. أصبح الكثير من هذه الأساطير حقيقة، قبلها مؤرخون جادون. فعلى الرغم من كل فظاعته، كان كفاحي ناجحاً جداً في مزاولة الكذب.

الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو وحشية الكتاب المتعمدة. على الرغم من أن هتلر يطرح نفسه كمفكر عميق - مستخدماً كلمات مثل **جوهرياً ودراية** في حين يستند على معرفة عنصرية منحولة، وينغمس في تنظير تاريخي مهيب- فإنه على الرغم من ذلك يستنكف عن إخفاء معتقداته القيامویة بأسلوب شبه علمي على طريقة ماركس ولينين أو ستالين. وتبدو دعوات موسوليني الشعرية للعنف "المقدس" متواضعة تماماً مقارنةً بحشو هتلر السام.

وهكذا، في أوائل أجزاء النص، يسأل:

> هل يوجد شكل من أشكال الفحش أو الخلاعة، خاصة في الحياة الثقافية، من دون أن يكون يهودي واحد على الأقل مشاركاً فيه؟
>
> وإذا توخيت الحذر في بضع مثل ذلك الخراج، فستجد يهودياً قذراً، كالدودة في جسد متعفن، وقد أذهلها الضوء المفاجئ!

لنص هتلر خاصية أحشائية فجة وتقريباً عدوانية الغباء، تتوافق بدقة مع نظرته إلى العالم: اليهود أشرار. والآريون خيّرون. البلشفية مؤامرة يهودية للسيطرة على العالم. العالم يتأرجح على شفا كارثة. وعلينا أن ننقذ العالم.

مثل لينين، ومثل موسوليني، يعتقد هتلر أنه يعيش على أعتاب التحول، وله فقط، تلوح في الأفق أهوال الهاوية أكثر من اليوتوبيا الموعودة. كانت الاشتراكية ميتافيزيقية متفائلة -وفقاً لماركس، كان التحول محتماً؛ ادعى موسوليني أنه دليل عصر ذهبي. لكن هتلر، من ناحية

أخرى، أكد على إمكانية نهاية العالم دون الخلاص والهلاك على يد اليهود. كان يعيش في عالم حيث كان كل شيء ينهار، وبسرعة.

في الكتاب، يعرض الرهانات الكونية:

> إذا تمكن اليهودي، بمساعدة عقيدته الماركسية، من الانتصار على شعوب العالم الأخرى، فإن تاجه سيكون إكليل جنازة البشرية، وسيتحرك هذا الكوكب، كما فعل منذ آلاف السنين[1]، عبر الأثير خالياً من البشر.

ثم، مع قرب نهاية الكتاب، بعد أن قادنا في رحلته الشخصية إلى الرجولة وسط الحرب والصراع، يستكشف الأسباب الجذرية للانهيار الذي يلوح في الأفق في تفصيل مُجهِد. ومع ذلك، فإن رؤيته كانت محدودة بصورة غريبة: كان البوهيمي دائماً ما يركز على مرض الزهري والفن. "نشر مرض الزهري في شعبنا" كان شديداً جداً لدرجة أن هتلر خصص أحد عشر صفحة لمناقشة الوباء، ليصل بدقة إلى "نشر الزهري" في الحياة الثقافية. فالأمر لا يقتصر على أن المسرح "يسارع نحو الهاوية"، ولكن في عالم الفن، تعكس مدارس أمثال التكعيبية والدادية "النموات الشاذة المريضة للرجل المنحط".

تتوازن رؤية هتلر عن نهاية الزمان بالإيمان بعصر ذهبي أسطوري غامض إلى حد ما. "الحضارة" كما يقول نشأت لأول مرة "في الأماكن التي قام فيها الآريون في مواجهاتهم مع الشعوب الدنيا بإخضاع هذه الشعوب لإرادتهم. حتى أصبحوا أول الأدوات التقنية في خدمة تطوير الحضارة ". ووفقاً لهتلر، فإن إخضاع "الفاتح" الآري كان "هدية"، ومصيراً كان أفضل مما كان يسمى سابقاً "بالحرية".

لا يتضايق هتلر المطرود من المدرسة الثانوية بشكل خاص من القدرات الفكرية للعرق السيد. وفي حين أن العروض العنيفة للفكر كانت مكرهة بالنسبة إلى البلاشفة المعذبين من قلق المكانة، يبدو أن هتلر مرتاح مع أدمغته ويسعده أن يعترف بأن **العامة** ليسوا أذكياء جداً:

---

١ - سواء كان ذلك نتيجة افتقار هتلر إلى التعليم أو الانزلاق في حمى الإملاء الذي نقله هيس بأمانة، فمن المستحيل أن نعرف. ومع ذلك، لم يكن هتلر محصناً من الإحراج: في الإصدار الثاني، سيتم تغيير "الآلاف" إلى "الملايين". المؤلف

"إن الآري ليس متفوقاً في قدراته العقلية كما هي. كلا، إن ما يميزه هو "مدى استعداده لوضع كل قدراته في خدمة المجتمع. "

يشعر هتلر بالارتياح الشديد إزاء عدم الأهمية النسبية للقوة الدماغية؛ بحيث يعود الى هذه النقطة بعد صفحتين، من خلال التأكيد على أنه "ليس في مواهبه الفكرية يكمن مصدر قدرة الآري على خلق وبناء الحضارة" مرة أخرى، بل لقدرته على التضحية بالنفس نيابة عن المجتمع بأسره. إن الآري "يدين بمكانته للعالم، وعليه، فالعالم مدين له". (على الرغم من أنه يناقض نفسه لاحقاً، مضيفاً أنه كان عبر "اقتران فريد بين القبضة الوحشية والعبقرية الفكرية أن استطاع الآريون خلق شواهد الحضارة الإنسانية").

وهكذا، من خلال عجائب الإسقاط، كان هتلر قادراً على إعادة النظر في حياته المتواضعة ومعاناته والتوصل إلى استنتاج مفاده أنه، مثل مسيح في القرن العشرين، كان كل ذلك ضرورياً لمصلحة ألمانيا الكبرى. وهل كان يعتقد سراً أن بعض تلك الخربشات التي أنتجها في فيينا قد لا تكون سوى "شواهد" خفية؟

بالطبع، كان على الميتافيزيقي الذي يفترض وجود عرق متميز، أن يوضح سبب ابتلاء العرق المذكور بمرض الزهري وتأرجحه على شفا الانقراض. يُبقي هتلر الأمر بسيطاً مع الأسطورة النازية للسقوط: "لقد تخلى الآري عن نقاوة دمه، وبالتالي انتهى مكوثه في الجنة". في الواقع، كان يشدد، رافعاً من صفاقة تبسيطه، "اختلاط الدماء والانخفاض الناتج في مستوى السلالة، هو السبب الوحيد في فناء الحضارات القديمة؛ لأن الرجال لا يهلكون نتيجة للحروب الخاسرة، بل لفقدانهم قوة المقاومة تلك التي لا يحتويها إلا الدم النقي".

ثم يشرع مرة أخرى في شرح سبب كون نظير الآري "الأكثر قدرة" وهو اليهودي، سيئاً للغاية، بمزيد من التفاصيل. يقول هتلر، في اليهودي تكون "إرادة التضحية بالنفس لا تتجاوز غريزة الفرد المجردة في الحفاظ على الذات".

لكن هذا ليس كل شيء: في نسختي من كفاحي، تأتي كل صفحة تلي أخرى بعنوان. ولا بد أن هذه العناوين المتتالية، والتي يتكرر العديد منها مع متابعة هتلر لطرح فكرته حد إثارة الغثيان، لا بد أنها كافية لمنح الإحساس بالقسوة المنهكة لهذا القسم:

عواقب الأنانية اليهودية

ثقافة الاحتيال عند اليهودي

اليهودي كطفيلي

العقيدة الدينية اليهودية

نشوء اليهود

نشوء اليهود

نشوء اليهود

نشوء اليهود

عامل المصنع

التكتيكات اليهودية

تنظيم العقيدة الماركسية العالمية

تنظيم العقيدة الماركسية العالمية

ديكتاتورية البروليتاريا

الشعوب المنحطة

وهكذا دواليك. ثم المزيد أكثر. في رؤية هتلر المروعة، يكون التمييز بين معاداة السامية والعنصرية واضحاً. لا يعتبر الفوهرر اليهود عرقاً أدنى، كما ينظر إلى السلافيين. وبدلاً من ذلك، يعتبر اليهود قوة شيطانية، طفيليين ذوي ذكاء خارق ينتقلون من حضارة إلى أخرى، ولا يخلقون شيئاً سوى التصنع الفاتن، من أجل تحقيق أهدافهم الشريرة المتمثلة في الهيمنة الكاملة. كانت هذه، بالطبع، هي الطريقة الوحيدة التي تُمكّن (هتلر) وغيره من أعداء السامية من إكساب كراهيتهم أي معنى على الإطلاق: هناك عدد قليل جداً من اليهود في العالم؛ ليس لهم بلد. ومع ذلك، فهم يتلاعبون سراً بالتاريخ، وقد حرضوا على الحرب العالمية الأولى والثورة الروسية، وكانوا على وشك السيطرة على الكوكب. لا بد أن اليهود أناس خارقون - وإن كانوا من نوع مختلف تماماً.

يشير هتلر إلى **بروتوكولات حكماء صهيون** في دعم رؤيته التآمرية للتاريخ، وهي واحدة من المصادر الخارجية القليلة التي أشار إليها في النص. كان يخفي المؤثرين فيه، مفضلاً تقديم نفسه على أنه فريد من نوعه. فعلى سبيل المثال، كان واضحاً غياب موسوليني، الذي ألهم بشكل مباشر شروعه في الزحف نحو برلين، والذي من حكومته الفاشية حاول ممثل هتلر، هيرمان غورينغ، الحصول على قرض أثناء وجود هتلر في السجن، وكان واضحاً غيابه عن المجلد الأول، وسيحظى فقط بأقل ذكر في المجلد الثاني. لكن **البروتوكولات** كانت استثناء: فقد أبهرت هتلر بوضوح، حتى لو ادعى بأن النص مزور. ولكن هذا، كما يقول، لا يهم. وكون نقاد **البروتوكولات** ينكرونها لأنها مزيفة فهذا "أفضل دليل على أنها أصيلة".

وإدراكاً منه أن هذه الحجة ضعيفة حتى بمعاييره، يواصل هتلر:

> ما قد يفعله الكثير من اليهود لاشعورياً مكشوف هنا بجلاء. وذلك هو المهم. من دون الاكتراث بمعرفة عن أي دماغ يهودي، تنشأ عمليات الكشف هذه؛ الشيء المهم هو أنها بيقين قطعي مرعب تكشف عن طبيعة ونشاط الشعب اليهودي وعن سياقاته الداخلية وكذلك أهدافه النهائية.

ما إذا كانت بعض **البروتوكولات** صحيحة أم لا، هو أمر غير مهم. مثل سيرته الذاتية، التي يمكن أن تنفع تماماً كأسطورة، تكشف عن حقيقة أعلى. ماذا يهم إن كانت القصة غير حقيقية عندما تكون واقعاً حقيقياً؟ هكذا كان "منطق" هتلر الخطير.

***

في ١٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٤، أوصى السجان في سجن لاندسبيرج بإطلاق سراح هتلر، على أساس أنه أصبح "أكثر نضجاً" و"مراعاة لشعور الآخرين" و"لا يفكر في العمل ضد السلطة الحالية". ومع ذلك، كان هتلر سيحبط؛ لم يترك السجن لمدة شهرين آخرين. لكنه مع ذلك، يستفيد بشكل أفضل من فترة سجنه المطوّلة، ويستمر في إملاء كتابه على هيس.

لقد خرج هتلر في الوقت المناسب لعيد الميلاد - وهو ممتلئ الجسم قليلاً بعد فترته المريحة في الداخل، الآن مع مخطوطة كاملة بين يديه، والتي كان مستعداً لإطلاقها إلى العالم. وعلى كل حال، كان السجن تجربة محفزة فكرياً. وصف هتلر الفترة التي قضاها في لاندسبيرج بأنها

"كالتعليم العالي على نفقة الدولة"، بينما زعم أحد رفاقه أنه قد استخدم الوقت ليس لكتابة كفاحي فقط، بل للتعمق أيضاً في أعمال مفكرين بارزين مثل شوبنهاور، نيتشه، ماركس وأوتو فون بسمارك. إن كان هذا صحيحاً، فإن هتلر لم يغص فيهم عميقاً جداً، لأن توليد ما يقرب من أربعمائة صفحة من الرطانة يستغرق الكثير من الوقت، ولم يقم هؤلاء المفكرون بتحسين نصوصهم كي يتم استيعابها بسهولة.

أما بالنسبة إلى كفاحي، فقد حاول هتلر أن يجد له ناشراً رائجاً ومحترماً قبل أن ينتهي منه، ولكنه لم ينجح. لذلك، في ١٨ تموز/ يوليو ١٩٢٥، أصدرت دار النشر النازية الرسمية، فرانز إير فيرلاج، الكتاب في ميونيخ بقطع كبير (٩ x 12 بوصة) وبسعر اثني عشر مارك للنسخة. العنوان الفرعي على الأقل كان ممتازاً: إحصاء، ولكن المراجعات كانت فظيعة. كتبت صحيفة **Frankfurter Zeitung** قراءتها للكتاب بعنوان "نهاية هتلر"، بينما قدم نازي كبير كألفريد روزنبرغ ما يعد في أحسن الأحوال استجابة غامضة رداً على ذلك الكتاب، واعتبر أنه قد "كُتب على عجل". أما بالنسبة إلى المبيعات، فكانت دون المتوسط. ادعى ناشر هتلر، ماكس أمان (الذي خدم في نفس الفوج البافاري مثل الفوهرر)، أنه وزع ٢٣٠٠٠ نسخة خلال تلك السنة الأولى. في الواقع، باع الكتاب أقل من ١٠٠٠٠ نسخة، وهي نتيجة تعد أقل إثارة بالتأكيد - لكنها مع ذلك تمثل معظم عدد نسخ الطبعة الأولى. تم إصدار طبعة ثانية من ١٨٠٠٠ نسخة في ٢ كانون الأول/ ديسمبر، بيع منها أقل من ٧٠٠٠ في عام ١٩٢٦، على الرغم من أن هتلر كان لديه جمهور يضم ١٧٠٠٠ عضو في الحزب. ارتفع عدد النازيين الحاملين لبطاقات العضوية إلى ٤٠.٠٠٠ في العام التالي، لكن أرقام المبيعات انخفضت أكثر، إلى ٥٦٠٠. مع هذه الأنواع من الأرقام، ربما كان بإمكان هتلر جمع النقود من أجل إنفاقها على عدد قليل من فراخ الحمام المحشية[1]، لكنه بالتأكيد لن يلحق أضراراً كبيرة بفواتير محاميه.

ومع هذا، وحتى قبل نشر المجلد الأول، كان هتلر يعمل بالفعل على المجلد الثاني، هذه المرة في أجواء مريحة على جبال الألب، يصرخ في السكرتير، بينما كان أمان، الذي منع خروج الكتاب تحت عنوان هتلر الأصلي، والكارثي، يساعده في إجراء التعديلات. مرة أخرى، لعب

---

١ - واحدة من وجباته المفضلة، وفقاً لفكتوريا كلارك وميليسا سكوت، مؤلفتي "عشاء الطغاة: دليل سيئ الطعم للترفيه عن الطغاة"المؤلف

الخمول القسري دوراً في نشأة النص، حيث كان هتلر قد مُنع من التحدث أمام الجمهور في أعقاب خطاب صاخب مهيج على وجه الخصوص كان قد أطلقه في ٢٧ شباط/ فبراير، بعد شهرين فقط من إطلاق سراحه من السجن. وقد مُنع من إطلاق العنان لقواه الخطابية الجبارة على الجماهير، عاد إلى فكرة أنه قد يكون لديه في الواقع بعض المواهب الأدبية، وشرع في تكملة تستمرئ كل عيوب الجزء الأول بينما تعمق الملل.

في المجلد الثاني من كتابه **كفاحي**، واجه هتلر العقبة التي يجب على العديد من أصحاب المذكرات التغلب عليها في كتابهم الثاني: الآن بعد أن انتهت قصة الحياة، ما الذي يمكن الكتابة عنه؟ ومما زاد الطين بلة (من جهة إنتاج المحتوى، على الأقل)، أن هتلر قد شرح مطولاً بالفعل نظرياته العنصرية، وشرح بالتفصيل لماذا كان اليهود "أشراراً" übel والآريون كانوا كرجال نيتشه الخارقين Übermenschen. لقد صار كفاحي الجزء الأول كتابه الكبير، تسديدته للوصول إلى جمهور كبير. وكان قد استهلك الحديث بالفعل عن كل الأشياء المثيرة. ماذا بعد؟

حسناً، كان هناك التكرار دائماً. وهكذا يتوسع هتلر في موضوعات كالخبث اليهودي والماركسية التي انتهى منها بالفعل في المجلد الأول. كما أن هناك الكثير من "خدمة المعجبين"، أي المواد التي لا يمكن إلا أن تهمّ المؤمن الحقيقي، مثل رواية هتلر عن اكتشافه قوته الخطابية الخارقة ووصفه المفصل لكيفية تمكّن الحزب، تحت إشرافه الحميد والحكيم (بمساعدة طبيب أسنان لم يكشف عن اسمه)، أن يختار عَلَمه المذهل. إما أن هتلر كان يتخلى عن أمله في كتابة أكثر الكتب مبيعاً لجمهور ضخم، أو أنه على الأرجح، لم تكن لديه أدنى فكرة عما يمكن أن يفعله غير أن يكرز في جوقة المنشدين.

ومع ذلك، ما إن يضيق إحساس هتلر بجمهوره، حتى ينعتق بكتابة المزيد من التفاصيل عن **السياسات** المحددة للدولة النازية في المستقبل، وذلك لصياغة إجابة اشتراكية وطنية عن **الثورة والدولة**. وعلى عكس نص لينين، كان هتلر مفصّلاً بشكل غير عادي، وهو يرفض الطوباوية الغامضة والسفاسف النظرية والاقتباسات الغزيرة لصالح المناقشات المطولة للدعاية والتنظيم الحزبي والسياسة الخارجية، وتضمن نصه تصريحات قوية عن النوايا في الحاجة إلى التوسع شرقاً.

يناقش هتلر كيف ستحمي الدولة المستقبلية "حق الإنسان الأقدس" في الحفاظ على الدم نقياً. وفي معاداة صريحة للديمقراطية، ذكر من دون مواربة أن على الحكومة أن تقتحم حياة مواطنيها بدرجة غير عادية. وعدّ من "العبثية" أنه "بانتهاء فترة الدراسة، يتوقف حق الدولة في الإشراف على مواطنيها الشباب فجأة، لكنه يعود في سن الخدمة العسكرية". وعلى العكس من ذلك، يقول هتلر "هذا الحق واجب، وعليه أن يكون موجوداً بصورة متساوية في جميع الأوقات. "

ما ينطوي عليه ذلك تحديداً، غريب بقدر ما يُقشعر الأبدان -أو ربما كان أكثر غرابة من كونه مخيفاً. فمثلاً، يشعر هتلر بالغضب بسبب اختيارات ملابس "الشباب" ويغتاظ شفقة بـ"الصبي الذي يركض في الصيف في سراويل طويلة كفوهات المداخن، وهو مغطىً حتى رقبته، فاقداً لوحده في ملابسه هذه، حافز الترّيض الجسدي". وبخجل غير مألوف، يناور حول الحاجة إلى "استغلال الطموح، وقد نوافق بهدوء أيضاً، واستثمار الخيلاء كذلك". ومع ذلك، ليست الخيلاء بالملابس ما يريد تشجيعه، بل بالأحرى الخيلاء "بالجسد الجميل وجيد التكوين الذي يمكن لأي شخص أن يُعان على اكتسابه."

بعد أن هاجم هتلر مرض الزهري والعاهرات والانحطاط الجنسي العام لصفحة تلو الأخرى في المجلد الأول، يدعو الآن إلى تحويل **das Vaterland** (أرض الأجداد) إلى سوق شاسع للحوم في الهواء الطلق، حيث يستعرض الأولاد والبنات سماتهم البدنية أمام بعضهم البعض. ويوضح الفوهرر، أن من خلال ارتداء المزيد من الملابس العارضة، سينجذب أجود أنواع اللحم الآري بشكل طبيعي نحو العينات الراقية الأخرى من اللحم الآري. لكنه بعد ذلك، ينتقل بسهولة من ازدراء "الموضات المسرفة في الأناقة" إلى خطاب يشتاط غضباً: فلولا كل تلك الياقات العالية والسراويل الطويلة، لما كان ممكناً "إغواء مئات الآلاف من الفتيات على يد الأوغاد اليهود البغيضين. "

حقاً؟

من الواضح أن هتلر قضى الكثير من الوقت في تخيل حالته المستقبلية أثناء وجوده في السجن، فبالإضافة إلى أفكاره عن الموضة، يستخدم الجزء الثاني من كتابه كفاحي كذلك للكشف عن فلسفة تعليمية مفصلة، حيث يطور شكوكه حول أهمية الفكر إلى شيء يشبه الاحتقار التام. ربما

كان كل ما قرأه عن ماركس في القلعة قد أضر برأسه؛ أو ربما توقف عن قراءة كتاب شوبنهاور عن **التعليم** بعد هذا الشيء: "يرى المرء أشياء كثيرة رائعة عندما ينظر إلى العالم بنفسه، يراها من جوانب كثيرة؛ لكن طريقة التعلم هذه ليست قصيرة جداً أو سريعة جداً كالطريقة التي توظف الأفكار المجردة وتكوّن تعميمات متسرعة حول كل شيء".

أو ربما كان هتلر ما يزال يشعر بالمرارة من تجاربه الطفولية البائسة في الفصل -وهو استنتاج يصبح من الصعب مقاومته بمجرد أن يبدأ في الثغاء بأن "على الدماغ الشاب عموماً ألا يكون مثقلاً بأشياء لا يستطيع استخدام خمسة وتسعين بالمائة منها، وبالتالي ينساها مرة أخرى". مستمراً تحت العنوان المؤثر بشكل لا يحتمل تقريباً "لا أعباء على الدماغ"، يدعو هتلر أيضاً إلى "تقصير المناهج الدراسية" كي تكون هناك مساحة كافية لـ"تمرين الجسم، والشخصية، وقوة الإرادة والتصميم".

وفقاً لهتلر، ونظراً لأنه "لا توجد روح سليمة وقوية إلا في جسم سليم وقوي"، يجب على الدولة المستقبلية "ألا تكتفي بضبط نظامها التعليمي بكامله ليهدف في المقام الأول إلى حقن المعرفة فقط، بل إلى تربية أجسام سليمة تماماً". إن "فقط" التي ذكرها تخبرنا، وهذا ما يؤكده هتلر، أن على التعليم العلمي أن يأتي في "المقام الأخير" بعد تطوير الشخصية. أما بالنسبة إلى اللاتينية، فيتوجب اختصارها إلى مجموعة من "الخطوط العامة"، بينما في التاريخ، "يجب اجتزاء المادة" والتركيز على الدروس المفيدة لـ"استمرار وجود جنسيتنا". التاريخ الروماني مقبول في خطوط عريضة، في حين أن التاريخ اليوناني جيد "للجمال المثالي". ورغم أن هتلر يعترف على مضض أن "الموضوعات العملية" ضرورية، إلا أن الرسام غير الموهوب والمؤرخ الهاوي الشغوف بالأوبرا يصر على أن "الموضوعات الإنسانية" هي في مرتبة أعلى. باختصار، على كل شيء لا يجيده أو لا يحبه هتلر أن يكون محدوداً أو محظوراً، ويجب تشجيع كل ما يستمتع به: إنه حلم تلاميذ المدارس الضجرين في كل مكان[1].

---

١ - بالطبع، وبمجرد أن تصبح حقيقة واقعة، ستظل الدولة النازية تشدد بقوة على "الموضوعات العملية" - وإلا، فلن يمكن لعلماء هتلر أن يطوروا كل تلك الصواريخ، ولن تكون حكومة الولايات المتحدة حريصة جداً على نسيان جرائمهم مقابل استغلال خبراتهم في عصر ما بعد الحرب. لا نازيون سابقون، ولا بشر على سطح القمر- المؤلف.

بعد أن قدّم العلم و"الموضوعات العملية" بطريقة موجزة، شنّ هتلر هجوماً كذلك على الكلمة المكتوبة، وهو ما كان مفاجأة بقدر ما هو مثير للفضول، بالنظر إلى أنه كان منخرطاً في كتابة كتاب مؤسس للأدب الديكتاتوري.

هذا يمثل تغيراً حاداً في الموقف من المجلد الأول، حيث يجادل هتلر بأسبقية الخطاب السياسي، لكنه يلمع أيضاً كلاماً غنائياً عن حبه للقراءة ويعبر عن إجلال بلشفي تقريباً للصحافة، معلناً أن "قوتها هائلة حقاً" و" لا يمكن المبالغة في تقديرها، لأنها "تواصل حقاً التعليم في مرحلة البلوغ". يقول هتلر إن المشكلة هي أن معظم القراء "بسيطو التفكير" و"يؤمنون بكل شيء يقرؤونه".

في المجلد الثاني، قام هتلر بتغيير موقفه. بعد أقل من عام من إكماله الكتاب الأول، يكشف الآن أن الكتّاب في الواقع ضعفاء، يكتبون فقط لأنهم "يفتقرون إلى القوة" لتحريك الجماهير بالكلمة المنطوقة. الكتابة واهية، وهي عمل تعويضي، وأولئك الذين يكرسون أنفسهم للـ"نشاط الأدبي البحت" يفعلون ذلك لأنهم فقدوا نفوذهم على الجموع. بإضفاء الطابع الفريد للأسلوب الكلاسيكي لهتلر على هذه النقطة، يسخر الفوهرر من "الكاتب البرجوازي الذي يخرج من أبحاثه لمواجهة الجماهير العظيمة" فقط "لتخنقه روائحهم" والذي "يواجههم عاجزاً بالكلمة المكتوبة". قارن هذا الخاسر مع الخطيب الذي -كما يقول هتلر يمكنه أن يتفاعل مع جمهوره في الوقت الفعلي، والذي يعرفهم عن كثب، والذي يدرس وجوههم وردودهم ويثير عواطفهم، مغيراً كلماته مباشرة حتى يكون لها الأثر الصحيح.

أما الكاتب، فعلى النقيض من ذلك، "لا يعرف قراءه على الإطلاق"، والنتيجة هي فقدان "الدقة النفسية وبالتالي المرونة". والخبر السار (لهتلر) هو أن مهارة التحدث بالكلمات، قابلة للتحويل إلى نثر مكتوب، وهكذا، "سيكون الخطيب البارع قادراً على الكتابة بشكل أفضل مما يمكن للكاتب اللامع التحدث، ما لم يمارس هذا الفن بشكل مستمر."

دون أن يسبق له مثيل في إبداء وجهة نظره بعد ضربها حتى الموت ثم سحب جثتها لعدة أميال مرهقة عبر الوحل، يواصل هتلر إدانته للنص المكتوب، معلناً أنه أدنى من أي نوع من الوسائط توجد به صور، بما في ذلك الأفلام، والتي هي أفضل من الكتب لأن "الإنسان [يحتاج] لاستخدام دماغه بشكل أقل". في الواقع، يقول هتلر "طوفان الصحف كلها وجميع

الكتب التي ينتجها المثقفون كل عام تنزلق بعيداً عن الملايين من المنتمين للطبقات الدنيا، مثلما ينزلق الماء على الجلد المشبّع بالزيت".

يمكن أن يثبت ذلك شيئين فقط: "إما عدم صحة محتوى هذا الإنتاج الأدبي كله لعالمنا البرجوازي، أو استحالة الوصول إلى قلب الجماهير العريضة من خلال مادة مكتوبة."

آه، ولكن ماذا عن نصوص ماركس أو لينين؟ يبقى هتلر غير مقتنع، معلناً أن "عامة الناس الأمين" لم يولدوا الحماس للثورة بسبب "القراءة النظرية لكارل ماركس، بل فقط من خلال الجنة المتلامعة التي قام الآلاف من المحرضين بأنفسهم متأكدين في خدمة الفكرة، بالحديث عنها إلى الناس". ولم تكن الثورة الروسية نتيجة لكتابات لينين؛ كان "النشاط الخطابي الذي يحرض على الكراهية لعدد لا يحصى من أعظم وأصغر رسل التحريض" هو الذي أشعل أحداث ١٩١٧. وينطبق الشيء نفسه على الثورة الفرنسية: المتحدثون، وليس الكتاب، من قلبوا العالم رأساً على عقب.

كان هتلر، بالطبع، محقاً في القول إن الجماهير لم تسرع بقضاء ساعات فراغها في التهام أعمال ماركس ولينين، بكميات لنقل، على غرار **هاري بوتر**، وأن الغالبية العظمى لم تقرأها على الإطلاق ما لم يطلب منها ذلك بالقوة. ومع ذلك، فهو يهاجم رجل القش[1]: لا يعتبر أي من هؤلاء الكتاب أن "عامة الناس الأمين" هم جمهورهم في المقام الأول، لأسباب ليس أقلها، كما يواصل هتلر، أنه من الصعب للغاية على الأمين قراءة الكتب. تلك النصوص الثورية لم تكن مخصصة لاستهلاك الجموع (باستثناء، ربما، **البيان الشيوعي**)، وكان لينين محتقراً للجماهير مثل هتلر. لم يعتقد أنه بإمكانهم قيادة ثورة من تلقاء أنفسهم، وكتب لجمهور مثقف من الثوريين المحترفين، وعلمهم كيفية الاستعداد للسلطة والاستيلاء عليها. كان نهج هتلر مختلفاً: لقد أراد أن ينفث الجنون في الناس.

---

١ - المغالطة البهلوانية أو رجل القش هي نوع من أنواع الحجج والمغالطات غير الرسمية، وتكون عن طريق إعطاء الانطباع بدحض حجة الخصم، في حين أن ما تم دحضه هو حجة لم يقدمها الخصم، فيقال إن مستخدم المغالطة "يهاجم رجل القش". وقد استخدم هذا الأسلوب عبر التاريخ في النقاشات الجدلية، ولا سيما في النقاشات حول القضايا المشحونة عاطفياً بشكل كبير، حيث يكون النقاش عبارة عن معركة والهدف منه هزيمة الشخص المقابل، أكثر مما يهدف إلى التفكير العقلاني أو فهم كل من طرفي القضية - المترجم

وبدلاً من قبول أن هناك طرقاً مختلفة لإحداث التغيير السياسي الجذري، كان ينكر فجأة أن للكلمة المكتوبة أي فعالية على الإطلاق.

لكن لماذا؟ حسناً، كما هو الحال مع مواقفه تجاه التعليم، فقد كان الأمر شخصياً. بحلول الوقت الذي كتب فيه هجومه على الكلمة المكتوبة، كان قد تم نشر المجلد الأول من كفاحي من دون إشادة، وأدرك هتلر الآن أن لكتابه عدد قليل من المعجبين خارج دائرته. في المجلد الثاني، يشير إلى "نقاش مطول في جزء من الصحافة" حيث سخر "المتبجحون البرجوازيون" من ادعائه "بأن جميع الأحداث العظيمة التي هزت العالم قد نشأت، ليس من خلال مادة مكتوبة، بل من خلال الكلام المنطوق". إنه يتجاهل أحد النقاد الصحفيين على وجه الخصوص، الذي جادل بأن "على الكاتب أن يكون بالضرورة متفوقاً عقلياً على المتحدث"، والذي لذع هتلر بتعليقه القائل: "غالباً ما يشعر المرء بخيبة أمل لرؤية خطابٍ مطبوع لخطيبٍ عظيمٍ معروف".

على الرغم من كل جهوده لخفض أهمية الفكر، كان من الواضح أن هتلر أصيب بجروح بالغة. وأصيب في الصميم، فرد بهجوم الأرض المحروقة على الكلمة المكتوبة، وكما لو كان يبرهن على وجهة نظره، واصل في بقية الجزء الثاني موضحاً بمهارة لا ترحم كيف يمكن أن تكون غير فعالة ومستغلقة على الفهم وميئوساً منها.

* * *

ثم، بحسب الناشر. نُشر كفاحي الجزء الثاني في أثناء عيد الميلاد، في ١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٦، بإهداء الى ديتريش إيكارت (المتوفى الآن)، "الذي كرس حياته لإيقاظ شعبنا، في كتاباته وأفكاره وأخيراً في أعماله".

ومهما كانت خيبة الأمل التي شعر بها هتلر بسبب الاستقبال الذي ناله المجلد الأول، فقد تضاعفت مع التتمة. في مراجعته للترجمة البريطانية لعام ١٩٣٩، لاحظ جورج أورويل أن الكتاب كشف عن القوة المغرية لهجوم هتلر على "الموقف التلذذي بالحياة" ومعرفته بأنه "لا يحتاج البشر فقط الى الراحة والسلامة وساعات العمل القصيرة والنظافة وتحديد النسل والبديهيات بصفة عامة؛ بل يريدون أيضاً، أحياناً على الأقل، نضالاً وتضحية بالنفس، ناهيك

عن قرع الطبول والأعلام ومسيرات الولاء". ومع ذلك، إن كانت تلك القوة المغرية موجودة، فقد فاتت جمهورها المستهدف في عام ١٩٢٧. لم يزعج أحد نفسه حتى للسخرية من الكتاب، وتم تجاهل كفاحي **الجزء الثاني** إلى حد كبير في السوق. كانت المبيعات بطيئة في المقابل: بعد عام، بيعت ١٢٠٠ نسخة كئيبة من مجموع الطبعة الأولى التي بلغت ١٨٠٠٠، وبدأ الانحدار من هناك. كانت مبيعات الكتاب الأول في تراجع أيضاً. بيعت أقل من ٦٠٠٠ نسخة في عام ١٩٢٧.

حتى قبل أن تصل التكملة إلى الأرفف، كان هتلر يجري محادثات مع ناشر أكبر غير نازي حول كتابة مذكرات مخصصة لتجاربه في زمن الحرب، لكن هذا المشروع لم يثمر أبداً، لأنه في عام ١٩٢٧ تم رفع حظر التحدث في معظم الولايات الألمانية، وفقد هتلر الاهتمام على الفور بالكلمة المكتوبة. ثم لفترة قصيرة عاد إلى الكتابة مرة أخرى في عام ١٩٢٨، وكانت مرة ثانية نتيجة لقوى خارجية. استقرت الأوضاع في ألمانيا، وعانى النازيون من نكسة كارثية في انتخابات ذلك العام، وفازوا بنسبة ٣ في المائة فقط من الأصوات. وقف الحزب على شفا الانقراض، وكان عدد قليل من الناس على استعداد للاستماع إلى هتلر وهو يناقش حول اليهود، والأمة والبناطيل الطويلة. على مدار ستة أسابيع في حزيران/ يونيو وتموز/ يوليو، قام بإخراج مخطوطة من ٢٣٤ صفحة مليئة بتكرار الأشياء التي قالها بالفعل، بالإضافة إلى مقاطع سردية أقل بكثير مما مضى، وفقرة مثيرة للسخرية كشف فيها "أن روسيا كانت أي شيء إلا أن تكون دولة معادية للرأسمالية" وقد "دمرت اقتصادها الوطني... فقط من أجل منح رأس المال الدولي إمكانية السيطرة المطلقة". في النهاية، تمّ وضع النص في مكان آمن وتم نسيانه لسنوات، ولم يرَ النور مطبوعاً إلا بعد عقود في الستينيات من القرن الماضي. ونظراً لأنه من غير المحتمل أن يكون أمان قد رفض الكتاب بسبب جودته المنخفضة جداً - فقد نشر في نهاية الأمر مجلدي هتلر الأولين من دون أن يرفّ له جفن -يبدو من المحتمل أن خيبة الأمل بشأن مبيعات كفاحي ربما لعبت دوراً في تقرير مصير الكتاب.

في مقدمته لنسختي من كتاب **كفاحي**، يصف الصحفي والمؤرخ اليهودي الألماني كونراد هايدن الذي وصم هتلر بأنه ديماغوجي خطير منذ العام ١٩٢٣، يصف الكتاب بأنه "دليل على العمى والرضا عن العالم... يعلن هتلر في صفحاته - قبل فترة طويلة من وصوله إلى

السلطة برنامجاً لسفك الدماء والإرهاب في رؤيا ذاتية بصراحة ساحقة، لدرجة أن قلة من قرائه امتلكوا الشجاعة لتصديقها".

من غير المرجح أن يكون غياب الشجاعة هو المشكلة. كان النازيون حزباً صغيراً، وكان يُنظر إلى هتلر على أنه جثة سياسية. وبالمثل، حدد لينين وستالين بالضبط ما سيفعلانه في الكتب ولسنوات، لكن بما أنهما، أيضاً، يمثلان طائفة صغيرة جداً من الثوريين، لم يهتم أحد. لكن بينما يكشف لينين في كتابه "**الثورة والدولة**" عن نفسه باعتباره رجلاً بارعاً أقنع نفسه كي يؤمن بالهراء، نجد في "كفاحي" أن هتلر يقدّم نفسه على أنه مستعرض علّم نفسه بنفسه، يبدو أنه لا يجد صعوبة في تصديق الكذب الأقصى.

كفاحي كتاب ضعيف بشكل مذهل. ومن دون الاستفادة من الإدراك المتأخر، لماذا يعد أي شخص هذه الفظاعة الأدبية تحذيراً؟ وهنا يكمن خطر الأدب الديكتاتوري: إنه يختبئ عن مرأى الناس، وحماقته الشديدة تجعل من المستحيل تصديق قدرته على التسلل وتغيير العقول إلى أن يفوت الأوان.

لكن التغيير كان قادماً. في عام ١٩٢٩ انهارت سوق الأسهم، وهبطت ألمانيا مرة أخرى في الهاوية. نهض هتلر من بين الموتى السياسيين كما فعل موسوليني قبله، وأعاد فرانز إير فيرلاج إصدار **كفاحي** في نسخة أصغر من مجلد واحد أعيد بيعها بثمانية ماركات، أي ثلث التكلفة الإجمالية لكلتا الطبعتين في نسختها الأصلية. انتهز أمان أيضاً الفرصة لتخفيف معاناة القارئ، وتم إجراء تصحيحات مذهلة بلغت ٢،٢٩٤ تصويباً على كفاحي بين ظهور الإصدار الأول في عام ١٩٢٥ والمجلد المشترك في عام ١٩٣٠، حيث تركزت الغالبية العظمى منها على تصحيح أسلوب هتلر المروع بدلاً من الأخطاء الحقائقية[1]. في المناخ الجديد للأزمة المروعة، وجدت الخطب الطويلة غير المتماسكة التي جعلت من اليهود كبش فداء جمهوراً أوسع، وارتفعت مبيعات الكتاب. بين ١٩٣٠ وكانون الثاني/ يناير١٩٣٣، وزعت إير فيرلاج أكثر من ٢٨٧٠٠٠ نسخة. وبعد أن أصبح هتلر مستشاراً في شباط/ فبراير ١٩٣٣، تصاعدت المبيعات،

١ - واصل الناشر محاولة جعل النص أقل فظاعة من خلال مزيد من التصحيحات، وإن لم يكن الكثير، حتى نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي. المؤلف.

وتم بيع ١.٥ مليون نسخة بحلول نهاية العام. واتضح أن تحول هتلر في حياته المهنية من زعيم حزب سياسي متطرف إلى ديكتاتور ألمانيا النازية، كان جيداً جداً بالنسبة إلى الأعمال، وتم تحويل كفاحي إلى أكثر الكتب مبيعاً بشكل إلزامي. وبدءاً من عام ١٩٣٤، ظهرت مقتطفات من تحفة الفوهرر الأدبية في الكتب المدرسية، في حين أوصى وزير الداخلية في نيسان/ أبريل ١٩٣٦ بمنح الكتاب للمتزوجين حديثاً كهدية، ما أدى إلى إنشاء **Hochzeitsausgabe** الأسطورية، المعروفة أيضاً باسم "طبعة الزفاف". كان المكفوفون محظوظين بما فيه الكفاية بتلقي نسخة برايل في عام ١٩٣٦، وفي عام ١٩٤٠ صدرت نسخة خاصة مطبوعة على ورق الأرز للجنود. في عام ١٩٣٨، تم توجيه تعليمات إلى بائعي الكتب بضرورة عرض النسخ الجديدة فقط، حيث كان من الواضح أن الكتاب كان رائعاً للغاية بحيث لا يمكن بيعه مستعملاً. وفي الوقت نفسه، في عام ١٩٣٩، تم إصدار طبعة فاخرة تكريماً لعيد ميلاد هتلر الخمسين، لإسعاد وتثقيف النخبة الحزبية. بحلول نهاية عام ١٩٤٥، كانت هناك عشر ملايين نسخة متداولة في ألمانيا، وكان الفوهرر قد جمع حوالي ثمانية ملايين مارك من حقوق الكتابة، لأنه مثل السيانتولوجيين اليوم، باع النازيون كتابهم المقدس بدل منحه مجاناً.

انتشرت الطبعات الأجنبية أيضاً خلال فترة الثلاثينيات من القرن الماضي، وكان الناشر الأمريكي المرموق هوتون ميفلين أول من يخاطر بنشر الشيء المعنون بطريقة خرقاء: **معركتي** في عام ١٩٣٣، والذي تلته ترجمة إنجليزية مختلفة في المملكة المتحدة في وقت لاحق من تلك السنة. تمتع الدانماركيون والفنلنديون والسويديون والنرويجيون والبرازيليون والبلغاريون والعراقيون والإسبان والهنغاريون والصينيون والتشيك والفرنسيون بترجمات كاملة، بينما كان المهاجرون الروس والمتحدثون باليابانية يستطيعون قراءة مقتطفات منه. كانت إيطاليا الفاشية مشاركاً متأخراً نسبياً في حزب ترجمة كفاحي، ولم تظهر نسخة محلية حتى عام ١٩٣٨. بالطبع اعتبر موسوليني نفسه الفاشي الأعظم، وكان دائماً رافضاً لكتاب هتلر ومعاداته للسامية. ولم يظهر في إيطاليا حتى شعر الدوتشي بالحاجة إلى تملّق هتلر.

وبعد... كم من هؤلاء الملايين قد قرؤوه بالفعل؟ كان جوزيف غوبلز بلا شك صادقاً، عندما كتب في مذكراته بعد قراءة الجزء الأول "رائع للغاية! من هو هذا الرجل الذي نصفه سوقي ونصف الآخر إله"، فحتى النازيون الملتزمون كانت لديهم شكوكهم بشأن جودته.

زعم أحد كبار قادة الحزب فيما بعد أن قدرته على قراءة مقاطع من الذاكرة كانت مصدر دهشة لزملائه؛ واعترف بأنه حفظ فقط بعض الأجزاء المختارة للتأثير، لقد اعترفوا أنهم، هم أيضاً، لم يكونوا قادرين على استيعابه بالكامل.

يعترف حتى هتلر بنفسه أن الكتاب لم يكن جيداً. وبعد أن تجنب كل ذكر لمثله الأعلى موسوليني حتى نهاية المجلد الثاني، نجده يقارن نفسه في عام ١٩٣٨ على نحو غير مناسب مع الدوتشي بينما كان يتحدث إلى محاميه هانز فرانك: "هذا الذي يكتبه ويقوله الإيطالي الجميل موسوليني. لا أستطيع الإتيان بمثله بالألمانية. أنا أفقد تسلسل أفكاري عندما أكتب". يُقال إن هتلر أخبر فرانك أنه ما كان ليكتب الكتاب أبداً لو علم في ١٩٢٤ أنه سيصبح مستشاراً. ومن يختلف مع تقييم هتلر النهائي لمهاراته؟ "Ich bin kein Schriftsteller" (أنا لست كاتباً).

من اللافت للنظر أنه على الرغم من أن هتلر، مثل ستالين وموسوليني، قد تنعم بطقوس عبادة الشخصية، إلا أنه كان على استعداد تماماً لمشاركة الأضواء كمؤلف مع زملائه النازيين. كان كفاحي أقدس الأقداس، لكن غوبلز نشر أيضاً **من القيصر إلى مستشارية الرايخ**، وهي مجموعة من المقتطفات من يوميات احتفظ بها بين عامي ١٩٣٢ و١٩٣٣ عندما صعد النازيون إلى السلطة. في عام ١٩٣٤، نشر هيرمان غورينغ كتاب "**ألمانيا المنبعثة**"، بينما حققت تحفة ألفريد روزنبرغ الضخمة مستحيلة القراءة، **أسطورة القرن العشرين**، وعلى وجه السرعة، أفضل مكان في ظل النظام النازي.

كان من المفترض أن يكون روزنبرغ في الواقع، الثقل الأيديولوجي للحزب النازي. على مدار سبعمائة من الوحشية خصصت لموضوعات مثل "النظافة العنصرية" و"الرايخ القادم" (فهو لم يعتقد أنه قد وصل بعد) و"الدين" (كان يتمنى انقراض المسيحية)، حاول بناء معتقدات الحزب غير المنطقية على أساس فلسفي متين. ومع ذلك، فإن **أسطورة القرن العشرين** كانت كتاباً متورماً جداً وغير قابل للقراءة، لدرجة أن مؤلفاً مساعداً نشر في عام ١٩٣٨ كتاباً كاملاً مخصصاً للتعريف بكلمات روزنبرغ المستحدثة، وكان عنوانه **٨٥٠ كلمة من أسطورة القرن العشرين**.

كان هتلر يتحدث من حين إلى آخر بعبارات مستهجنة عن نص روزنبرغ، كما فعل موسوليني مع كفاحي ("ذلك الشيء الذي لا يمكن لأحد أن يفهمه")، لكنه أشاد به أيضاً

باعتباره "إنجازاً هائلاً". ومع ذلك، لم يفعل شيئاً لمنعه أخيراً من التجذر في الثقافة النازية. بحلول عام ١٩٣٦، كانت نصف مليون نسخة منه قيد التداول، وهو رقم ارتفع إلى المليون بعد ست سنوات. انضم الكتاب إلى كفاحي في المناهج الدراسية، وفي عام ١٩٤٣، بحضور هتلر، حصل روزنبرغ على الجائزة الوطنية الألمانية الأولى، وحصل على الإشادة التالية من غوبلز:

> ساعد ألفريد روزنبرغ في أعماله بشكل ممتاز، في تأسيس وتقوية الأيديولوجيا العلمية للاشتراكية القومية. من خلال معركته التي لا تكل من أجل نقاء الأيديولوجيا الاشتراكية القومية، فهو يملك مؤهلات رائعة ومميزة. وليس سوى الزمن القادم من سيقدر تماماً مدى عمق تأثير هذا الرجل على الأساس الروحي والأيديولوجي للدولة الاشتراكية القومية.

وهكذا، ظل هتلر، وفياً لكلمته بأن الفكر لم يكن بنفس أهمية الجوانب الأخرى عند الرجل الآري، وعلى استعداد لمشاركة المجد مع كتاب آخرين، حتى الأسوأ منه. ومع هذا، عندما انهار الرايخ الثالث، اختفى كتاب روزنبرغ، في حين استمر هتلر في التمتع بأسلوب حياة غريب آخر. ليس ذلك فحسب، بل رغماً عن فظائعه النتنة، لم يتمكن سوى كتاب هتلر من تجاوز السياق السياسي المحدد الذي ولد فيه، وصار كفاحي يحظى بشعبية حقيقية تفوق بكثير أي نص كتبه أي من أقرانه الطغاة. غير مثقل بالالتزامات النظرية والأسلوبية لـ"العلوم" الاقتصادية في القرن التاسع عشر وآمناً في نزعته المعادية الفكر، يرفض كفاحي الحرب الطبقية والبحث عن "روح الروح" لصالح كراهية هائجة أكثر عمقاً، وديمومة، وإغراء لعتمة القلب البشري. متجانساً في فظاظته، وبساطته المتحررة، يتخطى الحقب والحدود، ليصل إلى خلود جانح بفعل شره المطلق الذي لا يلين. دعونا لا نخدع أنفسنا بالتفكير في أنه مجرد التعبير البارع عن الحقائق العظيمة ما يمنح الكتاب الوصول إلى مجمع الخالدين؛ فالتعبير العنيف والوقح عن الكراهية يدوم أيضاً. وكما قال ج. ج. بالارد "المجنون لا يهرم".

5- ماو



أفضل كتاب

بوفاة كل من هتلر وموسوليني، صعد ستالين الآن إلى ارتفاعات أكبر. كانت السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية جيدة بالنسبة إليه: أعطى له روزفلت وتشرشل الإشارة لاستمرار هيمنته على الدول التي كان الجيش الأحمر قد حررها من الاحتلال النازي، ما مكّن الرجل الفولاذي من فرض رؤيته القاتمة لليوتوبيا على ملايين الضحايا الآخرين. لكن الأمر لم يكن مقتصراً على أنه يقف الآن بلا منازع باعتباره الزعيم الأعلى للاتحاد السوفييتي والمهيمن العظيم على مدار من الدول الناشئة الدائرة في فلكه، كلا - لقد كان أيضاً المؤلف- الديكتاتور الفذ.

من غيره استطاع أن يجمع هذا القدر من القوة العسكرية والسياسية مع السيطرة الكاملة على المطابع؟ أي زعيم آخر لديه مثل هذا التوافر والعديد من قنوات التوزيع لأعماله؟ لم يكن هناك أحد.

وهكذا شرع أتباع ستالين بالعمل، فارضين بالقوة جديلة موقف الفوشد المجدولة من الماركسية اللينينية والافتراءات التاريخية والنثر الجزيل، على حيازاته الجديدة في أوروبا الشرقية، التي غطت هذه الدول "المحررة" حديثاً بلحاف من "التنظير" الفضفاض والإفك الجريء. غمرت محيطات الحبر غابات من الأشجار في قيامة جوتنبرغية أدبية، حيث تمّ سوق الحبر وإكراهه على أشكال أبجدية مفترضة، مرتبة ومعاد ترتيبها في لغط من اللغات التي كانت، بمجرد فك شفرتها، تقود إلى اختلافات من التفاهة المألوفة نفسها. من برلين الشرقية إلى فلاديفوستوك، كانت الأكاذيب الآن هي نفسها، حيث وجّهت النسخ المترجمة من **الدراسة القصيرة** التعليمات إلى السكان الأسرى حديثاً

بخصوص الأساطير التي سيعيشون فيها. اجتاحت أزمة متسارعة من الضجر، واحتلت مساحة جغرافية هائلة.

لكن هذا الانتصار لم يدم طويلا. في الواقع، وبالكاد استمر عقداً من الزمان. إذ توفي ستالين في آذار/ مارس ١٩٥٣، وبعد صراع قصير على السلطة بين أتباعه الملطخين بالدماء على رأس الحزب، ظهر تابعه السابق نيكيتا خروتشوف منتصراً كزعيم جديد للاتحاد السوفييتي. كان خروتشوف رجلاً مرحاً بشوشاً من أصول فلاحية، وكان حريصاً على الحفاظ على الاستمرارية، وأظهر منذ البداية الاحترام لسلفه ونصوصه. لكن هذا لم يدم: بعد أن أمضى عقدين فقط من الخوض في الدماء نيابة عن سيد متقلّب قتل العديد من زملائه المقربين، لم يعد خروتشوف يرغب العيش في الكذب - أو على الأقل ليس في هذا النوع من الأكاذيب. مرت ثلاث سنوات، وفي ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٥٦، وقف على المنصة في الجلسة المغلقة لمؤتمر الحزب العشرين، وهي الأولى منذ وفاة ستالين، وألقى خطاب حياته (السري).

في تقريره السري **عبادة الشخصية وتبعاتها**، ندد خروتشوف بالرجل الإله أمام جمهور من النخبة يضم ١٥٠٠ مندوب من جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية. كان يحدق في القاعة المليئة بالستالينيين المعروفين، الرجال الذين قضوا عقوداً وهم يصفقون للزعيم العظيم ويستشهدون بكتاباته، ويتسورون بقسوته. ولتعزيز قضيته، اقتبس من "العهد الأخير" الذي أخمده لينين طويلاً، والذي حذر فيه والد البروليتاريا العالمية من ستالين. وبعد أن استعان بسلطة مؤسس الاتحاد السوفييتي، أعطى خروتشوف بعد ذلك أمثلة على سبب صحة كلام لينين لأنه ندد بستالين بسبب الجرائم التي تراوحت من الإرهاب العظيم في ثلاثينيات القرن الماضي الذي توفي فيه العديد من أعضاء الحزب[1]، إلى عمليات الترحيل الجماعي لمجموعات عرقية بأكملها، إلى عمليات تطهير الجيش الأحمر، وسوء تصرفات ستالين في وقت مبكر من الحرب، والتي كادت أن تنتهي بكارثة.

---

١ - كان خروتشوف أقل اهتماماً بإدانة ستالين لاستخدامه الإرهاب ضد عموم السكان. المؤلف

لم يقم بمجرد مهاجمة ستالين الرجل. فلقد كانت نصوص الزعيم قوية جداً، لدرجة أنه شعر معها بأنه مضطر إلى التنديد بتلك النصوص أيضاً. وعن سيرة ستالين الرسمية، أعلن خروتشوف:

> هذا الكتاب هو تعبير عن الإطراء الأكثر استهتاراً، ومثال على تحويل الإنسان إلى إله، وتحويله إلى حكيم معصوم، "القائد الأعظم، الاستراتيجي البارع في جميع الأوقات والأمم". أخيراً، لا يمكن أن تكون هناك كلمات أخرى يرقى بها ستالين إلى السماء.

انتقد خروتشوف "التملق البغيض" الذي يملأ الكتاب، والذي قال إن ستالين نفسه قد وافق عليه وحرره، مضيفاً الثناء على نفسه بخط يده في مخطوطة النص. وانهال ازدراؤه الشديد على ستالين لإعادته كتابة التاريخ كي يحول نفسه إلى مؤلف "**الدراسة القصيرة**"، ثم كشف عن موقفه الحقيقي تجاه الكتاب، الذي كان قد أهال عليه من قبل الكثير من الثناء المتزلف:

> هل يعكس هذا الكتاب بشكل صحيح جهود الحزب نحو التحول الاشتراكي في البلاد، وفي بناء المجتمع الاشتراكي، في التصنيع وإنشاء المزارع الجماعية في البلاد، وكذلك الخطوات الأخرى التي اتخذها الحزب، والتي سارت من دون أن تنحرف عن المسار الذي حدده لينين؟ يتحدث هذا الكتاب أساساً عن ستالين وعن خطبه وعن تقاريره. وكل شيء فيه دون أصغر استثناء مرتبط باسمه.
>
> وعندما يؤكد ستالين نفسه أنه كتب "**الدراسة القصيرة**"، فإن هذا يدعو إلى الدهشة على الأقل. هل يستطيع الماركسي اللينيني أن يكتب عن نفسه مادحاً شخصه حتى السماء؟

لم يكن كافياً مهاجمة الرجل؛ كان على خروتشوف أيضاً تدمير سمعة النصوص المقدسة. وكانت الصدمة عنيفة للغاية على بعض المندوبين؛ حيث قيل إن بعضهم أصيبوا بأزمات قلبية داخل تلك القاعة.

بعد إلقاء خروتشوف للخطاب، سافر المسؤولون في أرجاء البلاد وهم يقرؤونه بصوت عالٍ في جلسات الحزب المغلقة. كان يعتبر ناسفاً جداً لدرجة أن النص نفسه لم ينشر في الاتحاد

السوفييتي حتى عام ١٩٨٩. وكان متفجراً: سمعة ستالين لم تتعاف أبداً، وسرعان ما بدأت كتبه تتلاشى من الرفوف في أنحاء الاتحاد السوفييتي ودول مداره، تاركة فجوات كبيرة في مكان كانت تشغله ملخصات ملحمية من الأكاذيب. ثبت أن المجد الأدبي عابر: فبدون القوة القمعية للدولة التي تقف وراءه، سلكت أعمال ستالين طريق العديد من الكتاب الأكثر مبيعاً الذين تلاشى نجاحهم بعد وفاتهم. لقد حان الوقت لينهض لينين مرة أخرى، حيث استعدت المطابع للبدء في إنتاج نسخة موسعة إلى حد كبير (الخامسة بالفعل) من أعماله الكاملة.[1]

لكن عصر عمالقة الأدب الديكتاتوري لم ينته بعد. وهو أبعد ما يكون عن ذلك. في الشرق، كان جديد يتهادى نحو بكين كاتب جديد كي يولد. كان الكتاب الذي بيع بالمليارات **اقتباسات من الرئيس ماو** قادماً، كانت عبادة النص في أنظمة لينين وستالين وهتلر وموسوليني شيئاً وديعاً، ومقدمة لجنون لم يسبق له مثيل في حجمه أو جياشته.

* * *

ولد ماو تسي تونغ عام ١٨٩٣ في قرية شاوشان الواقعة في مقاطعة هونان جنوب الصين. كان نجل أحد المزارعين الأثرياء، وكان مثله مثل كل مؤلف آخر في هذا الكتاب، طفلاً ليس له أهمية واضحة. كان ممكناً أن يكبر ويعيش ويموت ويُنسى مثلنا –وقد نجح والده في قصر تعليم ابنه عند مستوى محو الأمية الأساسية والحسابية لأغراض مهنة مسك الدفاتر، وهذا هو ما كان سيحدث بالضبط. وللأسف، اكتشف ماو القوة الإبداعية والمدمرة لمحو الأمية.

في البداية، لم تسبب النصوص التي قرأها ماو أي ضرر. في المدرسة، درس الشريعة الكونفوشيوسية، وولد بسرعة شعوراً بالكراهية نحو الحكيم، الذي كانت رسالته المتعلقة باحترام الوالدين والسلطة والتقاليد والفضيلة مفضلة لدى الطبقات الحاكمة لأكثر من ألفي عام. مثل ستالين، قام بتهريب الكتب المحظورة إلى الفصل. كان **كوبا** ماو هي رواية **حافة الماء**، حكاية الإخوة قطاع الطرق المائة والثمانية الذين يدافعون عن الفقراء ضد المسؤولين

---

١ - بالإضافة إلى مجموعات من خطب خروشوف الخاصة ومنشوراته، والتي وصلت إلى ما مجموعه ٢٣ مجلداً بحلول عام ١٩٦٤، وهو العام الذي تم فيه إزاحته عن منصبه. المؤلف

الظالمين؛ لكنه أيضاً فقد نفسه في الملحمة التاريخية **"حكاية الممالك الثلاث"**، وأحب **"رحلة إلى الغرب"**، والتي تضم بين أبطالها القرد الملك[1]، العابث المنفلت، والذي يتبول على أصابع بوذا فيما ظنه عموداً عند نهاية العالم -وهذه ليست سوى واحدة من أفعاله العديدة التي تعتبر فاحشة في أعين السماء. ولّد ماو أيضاً حباً للشعر والأدب الصيني الكلاسيكي الذي ستساهم لاحقاً في جعل نصوصه، التي نثر فيها المراجع الأدبية، تبدو أقل انغلاقاً (إن لم تكن بالضرورة أقل إثارة للملل) من نصوص معظم الشيوعيين الآخرين.

في سن السادسة عشرة، غادر ماو المزرعة للدراسة في مدرسة ذات منهج غربي حديث. أقنعه كتاب بعنوان **"كلمات تحذير في عصر الازدهار[2]"** بأن الإجابات على العديد من مشاكل الصين تكمن في الخارج، وقد تعلم الآن عن التنوير والقومية والعلوم وسير "الرجال العظماء" بما في ذلك نابليون وبيتر الكبير وجورج واشنطن. اتضح أن حدس ماو كان صحيحاً: لقد كان مستقبل الصين قادماً من جهة الغرب، وإن لم يكن بالشكل المتوقع. في عام ١٩١١، قاد صن يات -سن، المقيم السابق في هونولولو والزائر المنتظم للمكتبة البريطانية في لندن، ثورة أطاحت بأسرة تشينغ، والتي كانت متعفنة لفترة طويلة. خدم ماو في جيش صن يات -سن المنتصر، ولكن إعلان الجمهورية في عام ١٩١٢ لم تتبعه ولادة جديدة، بل فترة ممتدة من الفوضى قاتل فيها أمراء الحرب بعضهم وسط حطام الإمبراطورية المنهارة.

وفي الوقت نفسه، ظل ماو يقرأ. التحق بكلية تدريب المعلمين، وأكمل دراسته في عام ١٩١٨، ثم انتقل إلى بكين، التي أصبحت الآن مركز حركة "الثقافة الجديدة" الراديكالية، أو حركة "الرابع من أيار"، التي طالبت بثورة ثقافية من شأنها الإطاحة بالنظام الكونفوشيوسي

---

١ - صن وو كونغ، المعروف أيضاً باسم القرد الملك، هو شخصية أسطورية تظهر في مجموعة من الأساطير التي يمكن إرجاعها إلى عهد أسرة سونغ. يظهر كشخصية رئيسية في الرواية الكلاسيكية الصينية "رحلة إلى الغرب" في القرن السادس عشر. ويوجد في العديد من القصص والمقالات اللاحقة- المترجم.

٢ - نشره ثري صيني استطاع شراء عدد من الألقاب السياسية كما كان رائجاً في زمنه، اسمه تشنغ غوانيينغ عام ١٨٩٣. كان معروفاً لقراء تشنغ أن الكتاب نسخة موسعة من عمل سابق، حول التغيير، وهو مجموعة من ستة وثلاثين مقالة ظهرت في ١٨٨٠ (مع نسخة مختصرة صدرت في عام ١٨٨٢). كان تشنغ يأمل في الوصول إلى صانعي القرار على أعلى مستوى حكومي، أي محكمة تشينغ وكبار البيروقراطيين، وبتغيير العنوان الى كلمات تحذيرية في عام ١٨٩٣، بدا ملحاً من جديد في النبرة والنية. المترجم

القديم والدخول في حقبة جديدة من العلم والديمقراطية والنهضة الفكرية والحرية الفردية وحتى أسلوب **بايهو** الجديد في الكتابة، الذي كان أقرب بكثير إلى العامية من الصينية الكلاسيكية. وقتها، كان ماو يقرأ داروين وجون ستيوارت ميل وروسو وآدم سميث، وكان يتخذ أولى خطواته التجريبية ككاتب. لكن تركيزه، مع ذلك، كان جسدياً وليس ذهنياً. في عدد نيسان/ أبريل ١٩١٧ من مجلة **الشباب الجدد**، مجلة حركة الثقافة الجديدة، جادل بأن الصين كانت ضعيفة **حرفياً**، لأن الناس لم يقوموا بالتمارين الكافية، وكانوا بحاجة لتطوير قوة الإرادة. لم يكن ماو ثورياً بعد، لكن ببطء، كان يصل إلى هناك. في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٨، حصل على وظيفة في مكتبة، المكان المثالي لمجنون العظمة الوليد والمفتقر إلى المال والمحتاج إلى سهولة الوصول إلى الأفكار السيئة الملهمة. اليوم يمكنك الذهاب إلى الإنترنت من أجل ذلك، ولكن في القرنين التاسع عشر والعشرين، كانت المكتبات هي الخيار الوحيد لأولئك الذين يفتقرون إلى الوسائل اللازمة لبناء مجموعات خاصة واسعة النطاق من الأعمال النظرية والثورية.

كان هناك ما يسمى بـ"الماركسية" في الصين منذ نهاية القرن التاسع عشر، ولكن لم يكن حتى عام ١٩٠٣ قد ظهر مترجماً جزء من المجموعة الهائلة وصعبة التناول، في كتاب بعنوان "**الاشتراكية المعاصرة**". مثل بعض النقوش الطينية الموجودة في رمال بلاد ما بين النهرين، كان جُسيماً مجهرياً، واقتباساً واحداً من **البيان الشيوعي** في عمل مترجم من اليابانية حول تاريخ الاشتراكية وتطورها (حيث تم تمييز ماركس بالثناء على "معرفته العميقة"). وبدأت تظهر المزيد من الكتب والمقالات حول "الماركسية"، لكن الوصول إلى النصوص المصدر ظلّ بعيد المنال. لم يكن حتى عام ١٩٠٨ قد ظهرت مقدمة إنجلز لنسخة ١٨٨٨ من **البيان الشيوعي** في مجلة تحمل عنوان **عدل السماء**، وكانت المقدمة هي كل ما تم نشره. كان من المستحيل على أساس هذه الشظايا فهم ما تنطوي عليه "الماركسية"، وبهذه النقطة انقسم أتباع النبي بالفعل إلى رتب متصارعة على أي حال. كان ماو نفسه يستطيع أن يقول بعد سنوات إن الصينيين "في تلك الأيام" لم يعرفوا شيئاً عن وجود الإمبريالية في العالم أو أي نوع من الماركسية". ومع ذلك، كان رئيسه في مكتبة جامعة بكين لي دازاو، من المتحمسين للسلالة البلشفية من الماركسية، ويرتدي نظارة دائرية على غرار تروتسكي تجثم على أنفه. وفقاً للي، فإن

الثورة الروسية لم تمثل "نور الحضارة الجديدة" فحسب، بل أيضاً "انتصار روح جديدة قائمة على الصحوة العامة للبشرية في القرن العشرين". بدأ ماو الآن في التعرّف على مخالب الرأسمالية، ورعب البرجوازية، والقوة العلمية للجدلية التاريخية، وحتمية الثورة العالمية. على الرغم من أنه قد قرأ العديد من الكتب الأفضل بكثير لمؤلفين غربيين آخرين، إلا أن لقاءه مع ماركس عبر لي دزاو هو الذي غير حياته ومصيره. في غضون ثلاث سنوات، أعلن أن الخيار الوحيد للصين هو "الشيوعية المتطرفة" و"أساليبها في الديكتاتورية الطبقية".

اكتشف ماو أخيراً النصوص التي ستوفر لعقود مقبلة أساساً نظرياً وورقة توت أيديولوجية لرغبته القوية في السلطة. في عام ١٩٢٠، افتتح "مكتبة ثقافية" في مدينة هونان، حيث أخذ يبيع منشورات يسارية. وقام في نهاية المطاف بتوسيع هذا المشروع الصغير الناجح ليشمل سبعة فروع، حيث تألفت البضاعة من كتب ومنشورات حول مواضيع يسارية متنوعة كالاشتراكية وماركس والاتحاد السوفييتي. بعد عام، انضم إلى الحزب الشيوعي الصيني كعضو مؤسس. كان ماو الآن في الثلاثين من عمره. لقد كانت نزهة على مهل، وكأنها نزهة بوهيمية نحو الراديكالية، لكنه وصل أخيراً.

* * *

عاش كل واحد في هذا الكتاب حياة مليئة بالأحداث، لكن ماو أكثر من استطاع حشر معظمها في مداراته العديدة المؤسفة حول الشمس. بعد أن وصل إلى النور الماركسي في وقت لاحق من حياته مثل لينين أو ستالين، لم يُضع أي وقت كي يبدأ العمل، وقضى العقود الثلاثة التالية أو ما يقاربها في خوض الحروب الأهلية، ناجياً من بارانويا ستالين، منتعشاً من نكسات كارثية، متغلباً على منافسيه في الحزب، مقاتلاً اليابانيين ومديراً لدويلات شيوعية مارقة، قبل أن يخرج منتصراً في نهاية المطاف في الصراع على السلطة في الصين.

وهذه ليست سوى المرحلة الأولى من حياته المهنية. ما إن غرق في السلطة، حتى أمضى سبعة وعشرين عاماً في محاولة لتحقيق وهم طوباوي عبثي أدى إلى مقتل الملايين، بينما حقق لنفسه في ذات الوقت سمعة أدبية كمؤلف للكتاب الأكثر مبيعاً في التاريخ، بعد الكتاب المقدس. والذي كان بنفس روعة سيرة ماو الذاتية، ولكن لسوء الحظ، لا توجد مساحة هنا

لاستكشافه بالتفصيل، ومع ذلك، فإن بعض السياق ضروري لفهم كتابات ماو. فيما يلي نبذة مختصرة عن حياته وهو في طريقه إلى السلطة، حيث كتب خلالها أكثر أعماله تأثيراً.

١٩٢١: انضم ماو إلى الحزب الشيوعي الصيني (CCP) كعضو مؤسس.

١٩٢٣: في المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الصيني، تم انتخاب ماو لعضوية اللجنة التنفيذية المركزية. وقد وثّق هذه المناسبة بالإصرار على الإمكانات الثورية للفلاحين. ومع ذلك، كان الاعتماد على الفلاحين يثير مشكلة نظرية. يلتزم الكومنترن الذي يتخذ من موسكو مقراً له، بشكل صارم، بالخط الماركسي الأرثوذكسي المتمثل في أن الثورات تحدث في البلدان الرأسمالية ذات الطبقة البروليتارية التي تفتقر إليها الصين. ونظراً لأن الصين لم تكن جاهزة للثورة العمالية، فقد وجه الكومنترن قيادة الحزب الشيوعي الصيني للانضمام إلى القوميين، أو الكومينتانغ، لتشكيل "جبهة موحدة". سيدعم الحزب الشيوعي الصيني حزب الكومينتانغ ويكافح من أجل ثورة قومية برجوازية كنقطة انطلاق إلى النسخة البروليتارية، حيث تنتصر الطبقة العاملة. كان الحزب الشيوعي الصيني، الذي يعتمد بالكامل تقريباً على الكومنترن من أجل المال وأشكال الدعم الأخرى، خاضعاً لإرادة موسكو.

١٩٢٧: حلم الثورة على مرحلتين لم يعمل تماماً كما هو مأمول. بعد هزيمة أمراء الحرب في شمال الصين، يقوم زعيم حزب الكومينتانغ، شيانغ كاي شيك، بمسيرة في شنغهاي، حيث يربط نفسه على الفور بمصالح قوية راسخة في القطاع المصرفي والصناعة، ثم يبدأ في قتل الشيوعيين، وشنّ حرباً أهلية استمرت لأكثر من عقدين. تنتهي مقاومة الحزب الشيوعي الصيني بشكل سيئ: يفقد الحزب ٨٤ ٪ من أعضائه، ومما يتبقى، يمكن لمجرد ١٠ ٪ أن يزعموا أنهم بروليتاريين فعليين. في غضون خمسة عشر شهراً، ينخفض هذا العدد إلى ٣ ٪. يهرب ماو ويؤسس "سوفييت فلاحي" من حفنة من سكان القرى في جبال جينغانغ. وللاحتفال بذلك، يؤلف بعض الشعر:

العدو يطوقنا بالآلاف القوية،

ونحن نقف بثبات على أرضنا.

دفاعنا بالفعل لبس دروعه،

الآن تتوحد إرادتنا كالحصن.

كان ماو وحلفاؤه يجندون الفلاحين لبناء الجيش الأحمر، ويشرعون في تطوير تكتيكات حرب العصابات التي سيستخدمها خلال السنوات العشرين المقبلة. ومع ذلك، ظلت القوى الفاعلة داخل الحزب الشيوعي الصيني مركزة على فكرة الثورة العمالية المتمركزة في المدن، وعندما تفشل الشيوعية في النهاية في ترسيخ قاعدة جينغانغ، يضطر ماو إلى التحرك من جديد.

١٩٢٩: ينتقل ماو جنوباً إلى مدينة رويجين حيث يبدأ في تأسيس حكومة شيوعية بناء على أفكاره. يعود الى الصين فصيل من الشيوعيين الصينيين الذين تلقوا تعليمهم في موسكو ويعرفون باسم "البلاشفة الثمانية والعشرين". خلال السنوات القليلة المقبلة، سيتولى أعضاؤه السيطرة على الحزب الشيوعي الصيني، ما يجعل الحزب متوافقاً مع إرادة ستالين كما تم نقلها عبر الكومنترن. زعيمهم هو وانغ مينغ، الذي يظهر كمنافس رئيسي لماو من أجل النفوذ داخل الحزب، والذي ينتقد ماو بمرارة لتركيزه على الفلاحين. ووفقاً لما قاله وانغ مينغ، فإن ماو مذنب بارتكاب انحرافات "قومية" عن الماركسية "النقية"، لأن الثورة يجب أن تأتي من المدن. وكان ماو، من ناحية أخرى، يحتقر "الخبراء" والمنظرين الذين يفتقرون إلى الخبرة على أرض الواقع. رغم أنه يوافق على أن الطبقة العاملة يجب أن تكون في طليعة الثورة، إلا أنه مقتنع بأن الفلاحين سيلعبون دوراً رائداً.

١٩٣٠: في شباط/ فبراير، أنشأ ماو الحكومة السوفييتية لمقاطعة جنوب غرب جيانغشي. وواصل تطوير الجيش الأحمر، وبصفته مفوضاً سياسياً إلى جانب الجنرال تشو دي، فقد عزز عدد القوات من خمسة آلاف إلى مائتي ألف بحلول عام ١٩٣٣. ومع ذلك، ظلت اللجنة المركزية مقتنعة بأن الثورة ستكون حضرية، وطلبت من الجيش الأحمر احتلال المدن في جنوب الصين لدعم انتفاضة العمال. وعندما تفشل هذه الاستراتيجية، يعود ماو إلى جيانغشي في تحد لأوامر تشو. لكن زوجته كانت أقل حظاً: فقد أسرت وقطع رأسها. ينجو ماو من محاولة انقلاب في جيانغشي (فقد اعتبر "معتدلاً جداً") ويقوم بقمع أولئك الذين ثاروا ضده بلا رحمة.

١٩٣١: أعيد تسمية الحكومة السوفييتية لمقاطعة جيانغشي الجنوبية الغربية بجمهورية الصين السوفييتية، وتم انتخاب ماو رئيساً، ما جعله فعلياً زعيم الدولة، إن لم يكن الحزب الشيوعي الصيني نفسه. في نفس العام، غزا اليابانيون منشوريا وأطلقوا عليها اسم منشكو. اتبع ماو سياسات الأراضي المعتدلة حتى لا ينفر الفلاحين، وطور مهاراته في حرب

العصابات، وقاوم بنجاح ثلاث محاولات قام بها تشيانغ كاي شيك لتطويق الجمهورية. ومع ذلك، كان البلاشفة الثمانية والعشرون في صعود، وكانوا يعارضون سياساته. فبدأ تأثير ماو يتناقص تدريجياً رغم المنصب الرفيع الذي يحتفظ به على الورق؛ في عام ١٩٣٢ فقد حتى السيطرة على الجيش الأحمر. في عام ١٩٣٣، انتقلت قيادة الحزب الشيوعي الصيني من قاعدتها في شنغهاي إلى جيانغشي، وتم تهميش ماو أكثر.

١٩٣٤: قلقاً من حالة الأخلاق العامة، أطلق زعيم حزب الكومينتانغ تشيانغ كاي شيك حركة "الحياة الجديدة"، وهي مزيج من الكونفوشيوسية والقومية وبعض الاقتراض من الغرب. ولم تفعل شيئاً يذكر في تحسين الأخلاق العامة، لكن تشيانغ كاي شيك نجح في تطويق العدو الشيوعي في جيانغشي. مرة أخرى، ينجو ماو: في ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر، ليقوم باختراق خطوط العدو بقيادة قوة مكونة من خمسة وثمانين ألفاً من جنود الجيش الأحمر في انسحاب ملحمي طوله ستة آلاف ميل، احتُفل به لاحقاً باسم "المسيرة الطويلة". مرة أخرى، يحتفل ماو باستمرار بوجوده على الأرض من خلال كتابة قصيدة:

الجيش الأحمر لا يخشى مشاق المسير،

متحملاً عشرات آلاف من المنحدرات والسيول.

رياح الحيود الخمسة كالنسائم اللطيفة

ونهر وومينغ المهيب يدحرج كتل الطين.

١٩٣٥: بعد مرور أكثر من عام بقليل على بدئها، وصلت المسيرة الطويلة إلى نهايتها، رغم بعض النقص في عدد الجنود. ففي ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٥، وصل ثمانية آلاف فقط من أصل خمسة وثمانين ألف جندي إلى مقاطعة شانشي الشمالية. وأصبحت مدينة يانان العاصمة الشيوعية الجديدة. وبالرغم من العلاقات الوثيقة مع ستالين والكومنترن، فإن البلاشفة الـ ٢٨ لم يعودوا يبدون كالحصان القوي في النضال من أجل السيطرة على الحزب. وأخذ نجم ماو في الارتفاع.

١٩٣٧: يقوم الصحفي الأمريكي إدغار سنو بنشر كتابه **النجم الأحمر يعلو الصين**، بناءً على أربعة أشهر قضاها في حرب العصابات الشيوعية في العام السابق. كان تصويره

المعجب بماو وحكاية "المسيرة الطويلة" يؤسس للرئيس كمقاتل بطولي من أجل الحرية عند العديد من القراء الغربيين -وهي صورة ستستمر حتى في مواجهة مجاعة وجنون الثورة الثقافية. وفي الوقت نفسه، شنت اليابان غزواً واسع النطاق على الصين، بهدف الإطاحة بشيانغ كاي شيك.

١٩٣٧-١٩٤٣: يقوي ماو موقعه كزعيم سياسي أعلى ومنظّر بارز في الحزب الشيوعي الصيني. وبدأت تظهر ملامح عبادة الزعيم. تظهر دراسة ستالين القصيرة في ترجمة إلى الصينية في يانان، ويعتمد ماو مبدأه التوجيهي المتمثل في "أن التاريخ يتطلب في بعض الأحيان تصحيحه". تتم مراجعة تاريخ الحزب، بحيث يظهر ماو باعتباره الشخصية النبوية الحاسمة. في عام ١٩٤٢، يعلن ماو أن دراسات ماركس وإنجلز ولينين وستالين، وأن **تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي** على وجه الخصوص، يجب أن "تشكل قلب دراساتنا". وتجري "حملة تصحيح"، على مدى العامين المقبلين، لتطهير الحزب من جميع أولئك الذين لا يدينون بالولاء لماو بالقدر الكافي، وتظهر كتاباته الخاصة بشكل بارز في برنامج إعادة التعليم. والنتيجة هي "تصيين[1]" الماركسية عن طريق تكييفها مع الظروف الصينية بدلاً من اتباع أنموذج الاتحاد السوفيتي بصورة عمياء. اندلاع الحروب النظرية: في آذار/ مارس ١٩٤٣، ينشر شيانغ كاي شيك كتاباً بعنوان "**مصير الصين**" يباع منه مليون نسخة. ويستجيب الحزب الشيوعي الصيني لذلك بمزيد من إعلاء الشأن لماو كزعيم ومنظّر، وصياغة مصطلح "فكر ماو تسي تونغ" للإشارة إلى القسم الصيني من الماركسية اللينينية.

١٩٤٥: يتواصل صعود ماو. وينتخبه رفاقه رئيساً للجنة المركزية والمكتب السياسي ولأمانة الحزب والمجلس العسكري للجنة المركزية. صارت كل القوة بين يديه الآن، ولا يعلوه سوى ستالين فقط.

١٩٤٦: يهزم اليابانيون. تستأنف الحرب الأهلية بين الكومينتانغ والشيوعيين.

---

١ - هي عملية إخضاع المجتمعات غير الصينية لنفوذ الثقافة الصينية، وخاصة ثقافة الهان الصينية واللغة والأعراف الاجتماعية والهوية العرقية. كما قد يشير المصطلح إلى سياسات الاستيعاب أو الإمبريالية الثقافية التي تفرضها الصين على دول شرق آسيا المجاورة ومجموعات الأقليات العرقية داخل الصين- المترجم

١٩٤٩: ينتصر الشيوعيون أخيراً. في نيسان/ أبريل، ويتمكنون من الاستيلاء على نانجينغ، العاصمة الإمبراطورية السابقة. ومرة أخرى، يحتفل ماو عبر الشعر:

اجتاحت تشونغشان عاصفة، هوجاء،

جيشنا العظيم، المليون جندي، عبر النهر العظيم.

المدينة، النمر الرابض، التنين الملتف، يتألق بريق أمجادها القديمة.

في انتصار بطولي هز الأرض والسماء.

بالقوة والاحتياط علينا مطاردة العدو المترنح

ليس كالقرد يو شيانغ الفاتح، الساعي لمجد عقيم.

حيث الطبيعة المرهفة، تعبر أيضاً الشباب إلى الكهولة،

بل بتغيير عالم الإنسان، لتصير البحار حقولاً من التوت.

من هذه النقطة، أخذت المدن الخاضعة لسيطرة الكومينتانغ تقع في أيدي الشيوعية واحدة تلو الأخرى. تأسست جمهورية الصين الشعبية في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر، وشرع ماو يخاطب الأمة التي ولدت من جديد في ميدان تيانانمن، معلناً: "على الشعب الصيني أن ينهض!"

يتطلب العصر الجديد كتباً جديدة بالطبع، وهكذا تم نشر **أعمال ماو المختارة** في هاربين، ثم نشر على الفور في موسكو باللغة الروسية. والآن، لننتقل إلى أعمال ماو، حيث عليّ أن أقدم تقريراً عن مسيرتي الطويلة عبر بعض الاختيارات المنتخبة من الرئيس (في الغالب) مفضلاً ذلك على الشريعة المؤلمة.

تقرير عن استجلاء حركة الفلاحين في هونان (١٩٢٧)

كتب ماو هذا المقال الطويل في أوائل عام ١٩٢٧، قبل وقت قصير من بدء تشيانغ كاي شيك في تطهيره للشيوعيين داخل صفوف الكومينتانغ. كانت الانتفاضات العنيفة تهز الريف، ورأى ماو فرصة لاستخدام الفلاحين كوسيلة لتسريع الثورة. كان الصوت الوحيد، حيث أكد الكومنترن على أن الظروف في الصين لم تكن مناسبة لقيام ثورة بروليتارية، في حين أن العديد من الماركسيين الصينيين كانوا يستهزئون بالفلاحين باعتبارهم من بقايا طبقة محكوم عليها بالزوال. فالمستقبل سوف يأتي من المدن.

في تقرير عن استجلاء حركة الفلاحين في هونان، يعرض ماو قضية الريف. ويصف تجاربه في مقاطعة هونان، حيث أمضى اثنين وثلاثين يوماً في دراسة الوضع عن قرب. والنتيجة هي قراءة شبه مسيطرة، على الأقل بالمعايير (المنخفضة المسلم بها) للنصوص الماركسية. إنه بالتأكيد ليس تحليلاً محايداً ونزيهاً، كما يوضح العنوان الفرعي: **يسقط الطغاة المحليون والنبلاء الأشرار! تحيا الجمعيات الفلاحية!**

لا يزعج ماو نفسه كثيراً بالنظرية؛ فهو في هذه المرحلة من حياته المهنية لم يقرأ الكثير منها. وبالتالي، بدلاً من أن يعيد تقييم الفلاحين على أنهم بروليتاريا بطريقة ما في الواقع، أو يوحي بأن الصين قد تقفز على عدة مراحل من التطور التاريخي كالتي استغرقها اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية في بناء عدد قليل من المصانع والسكك الحديدية (الهراء الذي سيتم تبنيه لشرح ظهور دولة شيوعية في منغوليا الثيوقراطية)، أخذ يحث الحزب الشيوعي الصيني على احتضان الفلاحين. فهذه هي القوة التي لن تطيح فقط بملاك العقارات الإقطاعيين، بل ستدمر أيضاً سلطة الأسلاف والمعابد والأزواج وشيوخ العشائر وآلهة القرية، إلخ.

يصف ماو الإهانات التي تنهال على الطبقات الحاكمة بتفاصيل محببة مثيرة للعواطف، نادراً ما تُصادف في عالم الكتابة الشيوعية المنغلق. تحطيم المحفّات، وإلقاء ملاك الأراضي في السجن، وقرع النواقيس، إقحام رؤوس السادة السابقين في قبعات الأغبياء المذلة: يصف ماو كل شيء، يستحضر الضوضاء والفوضى، وهو يمتع نفسه بصورة واضحة. إنه لا يرفض فقط انتقاد قيادة الحزب بأن الفلاحين "قد تمادوا أكثر من اللازم" واتهام الفلاحين بأنهم مجرد "أوباش"، بل يفعل ذلك في بضع سطور بسرعة وسهولة ومن دون الكثير من الجهد، وأفضل بكثير من أي شيء كتبه ستالين على الإطلاق - أو أي شيء يكتبه **معظم** المؤلفين على الإطلاق، في هذا الشأن:

> الثورة ليست حفل عشاء، أو كتابة مقال، أو رسم صورة، أو عملاً من أعمال التطريز؛ ولا يمكن جعلها مهذبة للغاية، أو متأنية جداً ولطيفة، أو معتدلة تماماً، أو طيبة، أو دمثة، أو منضبطة وكريمة. الثورة تمرد، وهي عمل عنيف تُسقط به طبقة ما طبقة أخرى.

من السهل طبعاً الدفاع عن العنف. لكن ليس من السهل القيام بذلك بمثل هذا المستوى من عدم الاكتراث، بينما نتوصل أيضاً إلى سطر ذكي يستشهد به الثوار كمبرر لأعمالهم الإرهابية بعد عقود -كما حدث مع الإعلان البسيط "الثورة ليست حفل عشاء". ولكن ماو كان سيد الشعارات، بارع في اختيار الشخصيات الصينية التي تردد الصدى الأكثر تعبيراً عن المعنى. وهذا للقول، إن تقريره ليس مجرد تقريظ لملذات الحرب الطبقية والدمار الذي تتخلله العبارة المفاجئة العرضية. إنه أيضاً عمل تنبؤي: يمكن لماو أن يرى بالفعل مجتمعاً جديداً ناشئاً أكثر أخلاقية، حيث يحظر الفلاحون بالفعل المقامرة والأفيون و"العروض المبتذلة".

على الرغم من أن نثره ربما يكون لاذعاً في بعض الأحيان، فمن الواضح أن ماو لم يتعلم بعد أهمية الموقف النظري في الخطاب الماركسي اللينيني. فالنص لم يحتوِ على أي إشارات إلى لينين، بينما تظهر كلمة **الماركسية** ولكن مرة واحدة، قريبة من النهاية. في الواقع، كان موقف ماو الرافض تجاه أهمية البروليتاريا مبتدعاً جداً، لدرجة أنه تم شطبه أثناء تحرير الإصدارات الرسمية لأعماله بمجرد توليه السلطة: "لمنح الاعتبار عندما يكون الاعتبار مستحقاً، إذا خصصنا عشر نقاط لتحقيق الثورة الديمقراطية، ثم منحنا إنجازات سكان المدينة والجيش ثلاث نقاط فقط، إذاً فالنقاط السبع المتبقية يجب أن تذهب إلى الفلاحين في ثورتهم الريفية".

على الرغم من إخفاقاته من منظور "النظرية"، إلا أن **تقرير عن استجلاء حركة الفلاحين في هونان**، كان ناجحاً. هنا، كان التوقيت أمراً أساسياً، حيث كان الشيوعيون أكثر انفتاحاً على التعاون مع الفلاحين بعد أن قام تشيانغ كاي شيك بحملة لفرض النظام على الحزب الشيوعي الصيني. امتد الثناء على ماو إلى موسكو، حيث أعطى نيكولاي بوخارين، المنظّر الذي كان وراء فكرة ستالين عن "الاشتراكية في بلد واحد"، **تقريره** مراجعة إيجابية. ثم ظهرت له ترجمة باللغة الإنجليزية في عدد أيار/ مايو - حزيران/ يونيو ١٩٢٧ في مجلة **الشيوعية الدولية**. كانت وظيفة ماو ككاتب على وشك أن تبدأ بداية قوية.

يمكن لشرارة واحدة أن تشعل حريقاً في البراري (١٩٣٠)

نشأ هذا النص كرسالة من ماو إلى شيوعي شاب يدعى لين بياو. بعد ثلاثة عقود، سيصعد لين إلى منصب وزير الدفاع وأحد كبار الأتباع في حاشية ماو، حيث لعب دوراً رئيسياً في نشوء طقوس عبادة شخصية ماو ونشر الكتاب سيئ السمعة **اقتباسات من الرئيس ماو**.

ومع ذلك، في وقت كتابة **شرارة واحدة**، كان لين مجرد ضابط في الجيش الأحمر، كان يقوم "بأعمال حرب عصابات متجولة" على أمل أن يثور الناس في نهاية المطاف. انتقد ماو هذه الإجراءات باعتبارها استراتيجية سيئة: ومن الأفضل بكثير قضاء الوقت لتأسيس قاعدة أولاً، ومن ثم البناء نحو الثورة.

في **شرارة واحدة يمكن أن تشعل حريقاً في البراري**، ظل نثر ماو قابلاً للقراءة بشكل أو بآخر، إن لم يكن حيوياً كما هو الحال في **تقرير عن حركة الفلاحين**. هذه المرة، أخذ يجادل ضد اليأس والخيال، كما فعل لينين في كثير من الأحيان خلال صعود البلاشفة البطيء نحو السلطة. فعلى وجه التحديد، كان ماو يسعى إلى التخلص من ذلك التشاؤم، في الوقت الذي يتصدى فيه لخطر "الاندفاع الثوري". وبعد ثلاث سنوات من كارثة شنغهاي، ينظر ماو حوله ويرى أن العديد من رفاقه في الجيش الأحمر يضيعون في عالم من الوهم، والعيش على أمل أن يوحّد الحزب الشيوعي الصيني في نهاية المطاف جميع الجماهير في كامل أنحاء البلاد من خلال "أعمال حرب العصابات المتجولة". وسيقودون الجماهير بعدها في تمرد على مستوى البلاد يقود إلى اندلاع الثورة (المؤجلة حالياً).

يرفض ماو هذا الرأي باعتباره غير حقيقي بما يكفي، بحجة أن الظروف في الصين لا تشير إلى أن من المرجح حدوث الانتفاضة الجماهيرية الموحدة لأن القوى الثورية ضعيفة. لكنّ القوى الرجعية المعارضة كانت كذلك. لذا فهو يدعو إلى سياسة بناء القواعد تدريجياً، وتطوير الجيش، وتعميق الروابط مع الفلاحين، ودفع الثورة الى الأمام بثبات ومنهجية.

لكنه في هذه المرة، يقرر طرح القليل من "النظرية"، مشيراً إلى كثرة "التناقضات" القائمة بين الإمبرياليين والأمة الصينية، وأيضاً داخل المعسكر الإمبريالي نفسه. ويقول إن هذه التناقضات تشير إلى أن الثورة ليست قادمة فحسب، بل ستصل إلى الصين في وقت أقرب من أوروبا، حيث القوى الرجعية أكثر قوة.

الجانب الأعلى صوتاً في النص هو الخطوط العريضة الموجزة لكيفية إدارة صراع فعال من حرب العصابات، وهي الأفكار التي كان ماو سيتابعها ويشرحها طوال حياته المهنية الثورية.

وهنا مبادئه الأساسية الأربعة:

١ - "تقسيم قواتنا لإثارة الجماهير، وتركيز قواتنا للتعامل مع العدو".

٢ - "يتقدم العدو، فنتراجع نحن. يعود العدو إلى معسكراته، نضايقه. ينهك العدو، فنهاجمه. يتراجع العدو، ونحن نتابع".

٣- "لتوسيع مناطق سيطرة مستقرة، نستخدم سياسة التقدم في دفعات؛ وعندما يتبعها عدو قوي، نستخدم سياسة الالتفاف حوله".

٤ - إثارة أكبر عدد من الجماهير في أقصر وقت ممكن وبأفضل الطرق الممكنة".

بدلاً من الاغتياظ بشأن كيفية إنشاء بروليتاريا من لا شيء، أو الانتظار حتى تنطلق قوى ماركس التاريخية غير الشخصية في النهاية، ينحدر ماو إلى أساسيات خوض حرب عصابات طويلة ضد القوات المتفوقة، وبناء مراكز للسلطة الشيوعية هدفها النهائي هو السيطرة. لم تنجح هذه الاستراتيجية معه فحسب، بل أثّرت على الجماعات الثورية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، مما جعله مؤلفاً "حياً" بطريقة لم يكن عليها معظم الطغاة الآخرين.

من وجهة نظر أقل نفعية، يتميز نص **يمكن لشرارة واحدة أن تشعل حريقاً في البراري**، ببلاغته الشعرية أحياناً. على عكس معظم الشيوعيين الذين خلطوا بين إثارة السأم والفضيلة، قام ماو طوال حياته المهنية بذرّ التلميحات والاستشهادات من الأدب الكلاسيكي في نصوصه. ولكن رغم أنه قد يستعير العنوان من قول صيني قديم، إلا أن أفضل الكلمات تأتي من قلم ماو الخاص. بعد توزيع النصائح والانتقادات، وإنشاء قوائم مرقمة، يندلع صوت آخر -غنائي ومليء بالقوة والأمل ووهج الإيمان:

> ليس الماركسيون بعرّافين... لكن عندما أقول إنه ستكون هناك قريباً موجة كبيرة من الثورة في الصين، فإنني قطعاً لا أتحدث عن شيء "ربما يأتي"، على حد تعبير بعض الناس، شيء وهمي وغير قابل للتحقيق وخالٍ من أهمية الفعل. [ما أتحدث عنه] يشبه سفينة بعيدة في البحر يمكن رؤيتها من على الشاطئ؛ إنه كشمس الصباح في الشرق التي تظهر أشعتها متلألئة من أعلى قمة الجبل؛ وكطفل يوشك أن يولد يتحرك مُتقلّباً داخل رحم أمه.

ناهض عبادة الكتب! (١٩٣٠)

في أعقاب نشر **شرارة واحدة**، أعلن الكومنترن أن ماو قد تعرض لمرض السل، وتم نشر نعيه. لكنه كان لا يزال على قيد الحياة، ولا يزال مشغولاً بالكتابة. ربما كانت تلك رغبة من جانب السلطات في موسكو: فماو لم يدرس في الاتحاد السوفييتي، ولم يتحدث الروسية (ناهيك عن الألمانية)، لذلك كان تعرضه للنصوص المقدسة للماركسية محدوداً. في هذه الأثناء، كانت موسكو تعج بالشيوعيين الصينيين الشباب المتعلمين الذين لم يكونوا أكثر دراية بالنصوص فحسب بل كانت لهم روابط أوثق مع الكومنترن. وخلال هذه الفترة وصل البلاشفة الـ ٢٨ إلى الصين للسيطرة على الحزب.

بالنسبة إلى هؤلاء الشيوعيين الذين تلقوا تعليمهم في موسكو، كانت الماركسية نوعاً من عبادة الحمولة[1] التي تركّز على الاتحاد السوفييتي، وكانوا كذلك غير موفقين في هجماتهم على ماو. على سبيل المثال، في عام ١٩٢٩ عاد شاب يدعى ليو أنغونغ إلى الصين بعد أن أمضى سنة في مدرسة المشاة في موسكو. ودس نفسه على الفور في النزاع بين ماو وتشو دي، قائد الجيش الأحمر. وصف ليو ماو بأنه انشقاقي، وهو مصطلح قاتل تحديداً في قاموس الإهانات الماركسية. لقد تم حظر الانشقاق (بمعنى عدم الموافقة على توجه الحزب) في الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٢١، وكان ستالين قد استخدم القانون كي يجبر رفاقه على طرد تروتسكي من الحزب في عام ١٩٢٧. مات ليو في شهر تشرين الأول/ أكتوبر، لكنه كان مجرد طرف رمح طويل قادم من موسكو. كان ماو يشعر بالمرارة تجاه الشيوعيين الذين تلقوا تعليمهم في الاتحاد السوفييتي والذين افترضوا أنهم يعرفون أكثر منه عن الثورة في الصين، لأنهم كانوا يجهلون تماماً الظروف على الأرض.

في **ناهض عبادة الكتاب!** يصر ماو مرة أخرى على الموقف الذي مفاده أنه ينبغي للشيوعيين التحقق من الواقع العملي ومعرفة الوقائع قبل القفز إلى الاستنتاجات. واضح بشكل لافت للنظر؟ ربما، لكن حقيقة أنه اضطر إلى مواصلة الإصرار على هذه النقطة، يوضح كيف كان

---

١ - عبادة الشحنة أو الحمولة هي نظام معتقدي بين أفراد مجتمع غير متطور نسبياً، يمارس فيه أتباعه الطقوس الخرافية على أمل جلب سلع حديثة مقدمة من مجتمع أكثر تقدماً من الناحية التكنولوجية-المترجم

الشيوعيون متمسكين بالعقيدة ومتحصنين بالنظرية. في الواقع، لا يدافع ماو عن أولوية الأدلة أو البحث والتحقيق فحسب، بل يعبر عن الرغبة في إيقاف كل من لم ينجز العمل:

> ما لم تكن قد تحريت جوانب مشكلة ما، فستحرم من حق التحدث عنها. هل هذا قاسٍ جداً؟ كلا، مطلقاً.

ينتقد ماو الشيوعيين بسبب عادتهم"الدائمة" في استخلاص الاستنتاجات قبل الاستجلاء (وهي عادة لا تقتصر على الماركسيين، كما يجب أن يقال)، ويشن أيضاً هجوماً على لوغوسية الحزب:

> أياً كان ما هو مكتوب في كتاب فهو صحيح - هذه هي عقلية الفلاحين المتخلفين ثقافياً. الغريب في الأمر، أنه وفي داخل الحزب الشيوعي، هناك أيضاً أشخاص يقولون دائماً في النقاش "أرني أين هو مكتوب في الكتاب".

في وقت لاحق، كان ماو يأخذ عبادة الكتب إلى مستويات تاريخية عالمية، لكنه يحث الآن على ضبط النفس. "بالطبع نحتاج إلى الكتب الماركسية"، كما يعترف، "ولكنها يجب أن تتظافر مع الظروف الفعلية للبلاد". ولذا فهو لم يتحدَّ غطرسة "شيوعيي موسكو" فحسب، بل والتوثين الماركسي المتطرف للكلمة. لم يكن هذا مما قد يعجب ستالين أو الكومنترن، كان هجوم ماو الحاد غير ناجح. واستمر الشيوعيون الذين تلقوا تعليمهم في موسكو، في السيطرة على قيادة الحزب.

عن الممارسة (تموز/ يوليو ١٩٣٧)

حتى الآن، كان عمل ماو قابلاً للقراءة بشكل أو بآخر، حتى إنه يُظهر أحياناً ومضات من التميز الأسلوبي في عدد قليل من العبارات. كانت نصوص ماو المبكرة براغماتية، وتركّز على تحديد الطرق المناسبة للدفع بالثورة على أساس "الظروف الصحيحة" الفعلية التي لاحظها في الصين. ومع ذلك، في العالم الشيوعي، كانت العروض المتباهية للنظريات أساسية في تأسيس السلطة، وهنا كان ماو مفتقراً إلى حد كبير.

لقد خلق لينين صرحاً شاسعاً من الشروح، بينما كان هو وأعداؤه يقاتلون للتغلب على ماركس في فترة ما قبل الثورة، في حين اعتمد ستالين بشدة على عمله **الماركسية والقضية الوطنية** ليطرحه كمفكر عميق بمجرد وصوله إلى السلطة، وكان بارعاً في نثر الاستشهادات

في جميع الأنحاء حتى في النصوص الأكثر ضعفاً. قام زعماء شيوعيون آخرون في وسط وشرق أوروبا أيضاً بإنشاء أعمال "نظرية" فضفاضة لإظهار ملاءمتهم للقيادة.

كان ماو على غرار **الدراسة القصيرة** للشيوعية أكثر من كونه على نمط المفكر العميق، ولم يتمتع بفترة من الاستقرار إلا بعد مدة طويلة من المسيرة الكبرى، سمحت له ببعض الوقت لدراسة بعض الأعمال الماركسية، على الأقل تلك التي أهملها حتى الآن. وبعد وقوفه ضد عابدي الكتب، صار يشعر الآن بالثقة الكافية لتوليد حيّز من "النظرية" بنفسه، كي يدعم سلطته باعتباره الثوري البارز في الصين. وخلال هذه الفترة. كُتبت "كلاسيكيات: ماو **عن الممارسة** والكتاب الذي تبعه: **عن التناقض**".

داخل الصين، صار بناء الوظائف والسير الذاتية يُبنى على الحاجة إلى "مفسرين" لفكر ماو. وخلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، تمتعت أعمال الرئيس "النظرية" أيضاً ببعض التميز بين الفلاسفة غير الناطقين بالصينية في الغرب. وأثبت الفرنسيون حساسيتهم بشكل خاص، حيث أظهر أمثال كل من جان بول سارتر وميشيل فوكو وجوليا كريستيفا ولويس ألتوسر خبراتهم الفكرية الهائلة عبر حماسهم لأفكار الطاغية الشمولي. بالطبع، يمكن فقط للأشخاص الأذكياء بشكل استثنائي أن يكونوا أغبياء للغاية، وقد تعاملت مع هذه الأعمال "النظرية" المشهورة بدرجة من الرهبة، متأكداً أن النثر القاتم الممل بشكل تذكاري والغامض وحده، يمكن أن يكون جذاباً للغاية لجبابرة النظرية النقدية الفرنسية. في الواقع، كنت متردداً جداً في قراءة "**عن الممارسة**"، وانتظرت حتى عانيت من حمى عنيفة على أمل أن تمكنني من التعامل مع "فلسفة" ماو من خلال ضبابها المهلوس ما سيجعل التجربة أكثر احتمالاً إلى حد ما. ولم يحدث ذلك، ولم يتحسن النص عندما أعدت قراءته في حالتي الصافية.

إن العنوان الفرعي الكبير "**عن العلاقة بين المعرفة والممارسة، وبين المعرفة والقيام بالفعل**"، يقترح ضمنياً على القارئ بعضاً من التفكير العميق، ويبين أن ماو حريص على إثبات التزاماته نحو ماركس منذ البداية:

> قبل ماركس، درست المادية مشكلة المعرفة بصرف النظر عن الطبيعة الاجتماعية للإنسان وبصرف النظر عن تطوره التاريخي، وبالتالي كانت غير قادرة على فهم اعتماد المعرفة على الممارسة الاشتراكية، أي اعتماد المعرفة على الإنتاج والصراع الطبقي.

ومع ذلك، وفي الوقت الذي كان يتقدم فيه، متشبثاً بنظرية المعرفة بكل الثقة التي قد توجد في شخص قرأ شخصاً قد قرأ شخصاً قرأ شيئاً من هيغل، يصبح من الصعب أن نفهم على وجه التحديد السبب الذي يمكن لشخص أن يعتبر **"عن الممارسة"** وكأنها الطوطم الدال على أهمية ماو كمفكر. فالمتحمس لعنف الفلاحين يحدد ما يؤكد لنا أنه مرحلتان من الإدراك: "معرفة الإدراك الحسي"، التي لا تستوعب سوى المظاهر الخارجية، و"المعرفة المنطقية"، التي تسعى نحو الوصول "إلى فهم التناقضات الداخلية للأشياء الموضوعية، وقوانينها والعلاقات الداخلية بين عملية وأخرى، ذلك هو، الوصول إلى المعرفة المنطقية". ثم يتعمق ماو في تاريخ الصراع الطبقي، حيث نتعلم أن الإدراك أمر بالغ الأهمية. فعندما حوصرت في مرحلة الإدراك الحسي، شاركت البروليتاريا في انتفاضات عنيفة لم تحقق الكثير، لأنها لم تفهم شيئاً. وحالما تقدمت البروليتاريا إلى "فترة من النضال الاقتصادي والسياسي الواعي والمنظم" تحسّن الوضع، كما "يلخّص ماركس وإنجلز بشكل علمي [تجربة البروليتاريا في النضال المطول] لخلق نظرية الماركسية لتعليم البروليتاريا".

من الواضح أن غمر ماو في الأراضي النشطة إشعاعياً للنظرية الماركسية، كان له تأثير كارثي على أسلوبه الكتابي. صارت الكلمات تتراكم على الكلمات، ومن الصعب متابعة حججه، كما هي. وباستثناء غنائه مدائح في عنف الفلاحين أو سخريته من القراء واسعي المعرفة والاطلاع، يولد ماو بنفسه الآن التفاهات الجليلة مثل "تنبع كل المعرفة من إدراك العالم الخارجي الموضوعي بواسطة الأعضاء الحسية الجسدية للإنسان"، و"إجمالي مجموع الحقائق النسبية التي لا حصر لها، هو ما يشكل الحقيقة المطلقة"، أو "الماركسية اللينينية لم تستنزف الحقيقة بأي شكل من الأشكال، بل إنها تفتح بلا توقف الطرق أمام معرفة الحقيقة في سياق الممارسة".

لوصف التأملات الفلسفية الزائفة[1] المعقدة بالتفصيل، فإن ذلك يتطلب توليد كميات لا تُغتفر من الإسهاب في اللغة، تكون على الأقل بنفس فظاعة تلك الخاصة به، والتي تعد في حد ذاتها شكلاً ناجحاً للغاية للدفاع ضد النقد. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل التواءاته النظرية،

---

١ - مصطلح لوصف الفلسفة الشخصية للجماهير، أو التأملات الفلسفية للشخص الذي لم يدرس الفلسفة رسمياً- المترجم.

فإن ماو بدأ مما وصفه لينين بـ"الروح الحية" للماركسية -تحليل الظروف الملموسة، على الرغم من أنه يبسط الآن حججه بلغة "نظرية": "البداية من المعرفة الناجمة عن الإدراك الحسي وتطويره بشكل نشط إلى معرفة منطقية؛ ثم البدء من المعرفة المنطقية وتوجيه الممارسة الثورية بشكل نشط أيضاً نحو تغيير كل من العالم الذاتي والموضوعي".

كان ثبت المراجع في **عن الممارسة** ضئيلاً بشكل مثير للريبة. فماو يستشهد بكتاب واحد فقط لماركس، وكتاب ستالين التمهيدي، **أسس اللينينية** وثلاثة من أعمال لينين. في الواقع، يتم الاستشهاد بلينين في كثير من الأحيان أكثر من ماركس، وأكثر ما يستشهد به من نصوصه هو **المادية والمذهب النقدي التجريبي**، وهو عمل عشوائي من أعمال الفلسفة المزيفة التي حاكها في المكتبة البريطانية من أجل شن حرب نصية ضد ألكسندر بوغدانوف في عام ١٩٠٨. الأعجوبة الصغيرة هي أن "**عن الممارسة**" كتاب ممل، ومطّول، وغير مقنع. جادل بعض النقاد بأن ماو كتبه فيما بعد عام ١٩٣٧ بكثير، ثم "صحح" السجل التاريخي لجعله يبدو كما لو أنه ظهر كمنظّر كبير في وقت قبل ذلك بكثير. بينما لا يوافق الآخرون. وفي كلتا الحالتين، فليس سوى أولئك الذين هم في حاجة ماسة للاعتقاد أو التظاهر، بأن ماو كان منظراً مرموقاً، من يمكن أن ينخدع به.

عن التناقض (أغسطس/ آب ١٩٣٧)

واصل ماو التلميع الفلسفي طوال عام ١٩٣٧، متابعاً **عن الممارسة** في كتابه **عن التناقض**، والذي قدّم فيه عرضاً مطولاً لقانون الجدليات المادية. يبدأ ماو بالإشارة إلى لينين فيما يخص التناقض بين النظرة العالمية لما هو "ميتافيزيقي" وما هو "جدلي". من الواضح أن "الميتافيزيقيين" يرون أن جميع أنواع الأشياء المختلفة في هذا الكون وجميع خصائصها كانت هي نفسها منذ أن ظهرت الى حيز الوجود. "وبما أن هذا يعني أن الرأسمالية ستستمر إلى الأبد، فلا بد أنهم على خطأ. الجدليات -التي تسمح للتطورات أن تنشأ نتيجة للتناقضات داخل شيء ما - هي الصواب. أو شيء من هذا القبيل".

وكدليل على ذلك، يوجه ماو القارئ نحو النباتات والحيوانات التي -كما يؤكد لنا- كان نموها "نتيجة للتناقضات الداخلية". التطور الاجتماعي هو أيضاً نتيجة للتناقضات

الداخلية وليس لأسباب خارجية. لكنه يسارع في التأكيد على أن الجدلية المادية لا تستبعد الأسباب الخارجية. ففي نهاية الأمر، "الأسباب الخارجية هي شرط التغيير، والأسباب الداخلية هي أساس التغيير، وأن الأسباب الخارجية تصبح فعالة من خلال الأسباب الداخلية". فعلى سبيل المثال، يقول ماو، "عند درجة حرارة مناسبة، تتحول البيضة إلى كتكوت، ولكن لا يمكن لدرجة الحرارة أن تحيل حجراً إلى كتكوت، لأن لكل منهما أساساً مختلفاً". وكما أشار إنجلز "أحد المبادئ الأساسية للرياضيات العليا هو التناقض، في أنه وفي بعض الحالات قد تكون الخطوط والمنحنيات المستقيمة هي الشيء نفسه". فعلاً!

لا يحتوي عن **التناقض** على أي حكمة، ولو اختفى بطريقة ما من الزمان والمكان، لاغتنى تاريخ الكلمة المطبوعة بسبب غيابه. ومع ذلك، ومن خلال تناقضاته الخاصة، قد يولد سحراً محدداً. وككتاب معقد وغير مجدٍ، فإن قراءته هي كالتحديق في أنموذج مفصل لسفينة داخل زجاجة: يجعلك تتساءل كيف تمكن صانعها من دسها هناك، بينما تفكر أيضاً في أن تلك الطاقة كانت ستنفق بشكل أفضل في فعل شيء آخر.

قصائد متنوعة

إذا تركت فلسفة ماو الكثير مما هو مرغوب فيه، فماذا عن شعره؟ هو على عكس ستالين، لم يتخلّ عن ممارسة كتابة الشعر، ومثل الشعراء "الحقيقيين"، استخدمه كوسيلة للتعبير عن الذات. كتب بعد تعرضه للهزائم والمآسي الشخصية؛ وكتب بعد هروبه العجائبي. وكتب بعد انتصارات هائلة على خصومه. لقد كان، في الحقيقة، شاعراً أكثر بكثير من كونه منظّراً.

قد يدفعنا بعض النقاد إلى الاعتقاد بأن لجهود ماو قيمة تتجاوز عنصر التحفة. جاءت طبعتي الخاصة من شعر ماو مع الثناء الخفي للسترة الواقية من الغبار. وفقاً لصحيفة **لوس أنجلس تايمز**، يعتبر ماو "شاعر الحساسية والقوة"، في حين أن **هدسون رفيو** تشير إليه على أنه "سيد". ويصف المترجم ويليس بارنستون ماو بأنه "شاعر كبير". وعلى الرجل المسؤول عن موت الكثيرين، تلقّي الكثير من الثناء.

لا يكون الرجل السيئ شاعراً سيئاً بالطبع، رغم أنه بالنظر إلى نطاق جرائم ماو وحجمها، من الصعب عدم اعتبار بعض هذه الادعاءات بمثابة المعادل الفكري لما يصفه الاقتصاديون

بأنه "سلعة موقعية" -وهذا للقول، إنه رأي تم إجراؤه في المقام الأول للإشارة إلى المكانة العالية للشخص الذي يحملها (في هذه الحالة، حكم منحرف وغير محبوب لدرجة أنه يتطلب مهارة فكرية كبيرة لإثبات ذلك، ويوضح كذلك الانتماء إلى طبقة النخبة).

من الصعب على غير المتحدث بالصينية تقييم جودة شعر ماو. ومع ذلك، فمن الواضح أنه رغم كونه ثورياً عندما يتعلق الأمر بالسياسة، إلا أن ماو كان رجعياً فيما يخص الجماليات، مثل لينين وستالين. يستخدم الأنماط والتراكيب التقليدية، ويشير بانتظام إلى أو يستعير سطوراً من شعراء التراث الكلاسيكي. يعد الاستخدام الحكيم للاقتباس الصحيح مهارة شعرية بحد ذاته، وقد استخدم ماو هذه المهارة لفترة طويلة في مقالاته وخطبه. في الواقع، ومن الواضح حتى في اللغة الإنجليزية أن ماو كان على الأقل كُفُؤاً. تقرأ القصائد كتمرينات، فيها صور متكررة للجبال والسماء والجيوش والسحب والطبيعة، مما يجعلها مملة بعض الشيء بطريقة غير منفّرة: إنها المكافئ الأدبي لتلك اللفائف التي يرسمها الحرفيون الصينيون للسياح. وقد وصفه أحد المترجمين الصينيين بهذه المصطلحات إلى حد كبير: "ليس بالسوء الذي عليه لوحة لهتلر، ولكن ليس بنفس جودة لوحة لتشرشل".

ومع ذلك، سواء أكان شعر ماو عملاً لسيد صنعته أو مجرد عمل "متحذلق ومبتذل"، فإن الجانب الأكثر إشكالية فيه، هو في الحقيقة شيء ينبثق سلبياً من نزوات الترجمة: نظرة المؤلف المنمقة العظيمة دوماً، "نظرة الله الكلية".

لننظر الى هذا الجهد، على سبيل المثال:

رغم أول حملة تطويق

تتوهج الغابات حمراء تحت السماء المتجمدة،

غضب جيوش السماء يتصاعد إلى الغيوم.

يحجب الضباب لونغ كانج، ويغشى قممها الألف.

يصرخ الجميع في انسجام تام:

لقد سيطرت طليعتنا على تشانغ هويتسان!

يعود العدو إلى كيانغسي متقوياً بمائتي ألف،

تتصاعد الأدخنة الى قلب السماء.

يستيقظ ملايين العمال والفلاحون

ليقاتلوا كرجل واحد،

تحت صخب الأعلام الحمراء عند سفح بوتشو

بعد البدء كقصة شعرية غير ملهمة ولكنها مقبولة، تنتهي القصيدة بمجاز دعائي قياسي مذهل فقط في تفاهته. ومع هذا، فهي أفضل من القصيدة التالية، التي تبدأ بقصة دعائية وتنتهي بالطريقة نفسها.

المسيرة الطويلة

الجيش الأحمر لا يخشى مشاق المسير،

متحملاً عشرات الآلاف من المنحدرات والسيول.

رياح الحيود الخمسة هي كالنسائم اللطيفة

ونهر وومينغ المهيب يدحرج كتل الطين.

دافئة هي المنحدرات السحيقة التي تغمرها مياه

الرمال الذهبية،

باردة هي سلاسل الحديد التي تمتد على نهر تاتو.

ثلوج مينشان على الألف لي[1] تنثال بفرح،

تزحف الجيوش الثلاث، وكل وجه فيها مشرق.

رغم براعته، فإن ماو يفترض مرة أخرى منظراً بعيون إلهية، بحسب لوحته الختامية لمجموعة متنوعة من الشيوعيين الجريئين الذين يتحدون الطبيعة، بلاه بلاه بلاه. قد يكون هذا شعراً، لكنه بروباغاندا أيضاً.

هذا الجهد الصغير أقل لاإنسانية، ولكنه مع ذلك شبيه بسرد سير القديسين بطريقته الهادئة الخاصة:

---

١ - اللي وحدة صينية لقياس المسافة- المؤلف.

عن النسوة المسلحات

كم يَلُحْنَ مشرقات وباسلات، وهن يمتشقن بنادق الخمسة أقدام

على أرض العرض العسكري وهي تضاء بأول ومضات النهار.

لبنات الصين أذهان طموحة،

وهن يُفضّلن ثياب المعركة، على الحرير والساتان.

يبدو أن النظرة بعين الله قد انعكست في جدول نشر ماو التمهل لشعره. كان قد كتب الشعر معظم أوقات حياته، لكنه لم ينشره بشكل كامل حتى عام ١٩٦٥، عندما كان على وشك إطلاق الثورة الثقافية. كما كتب الأباطرة الصينيون الشعر، تخطى ماو نفسه رسمياً كممارس للفن قبل فترة وجيزة من ظهوره كمحور رئيسي لعبادة الشخصية الأكثر تطرفاً في القرن العشرين.

ومع ذلك، أمكن أن يعمل ماو في وضع أقل تشدداً. في "فقدت حكيمتي الفخورة"، يكتب بحزن عن وفاة زوجته الثانية. قد تكون هذه قصيدة جيدة حقاً، فرغم أنني لا أتحدث الصينية، ومن المستحيل بالنسبة إلي أن أحكم عليها، إلا أن لها على الأقل وقعاً أكثر حميمية. لكن وجود عدد قليل من السطور المقبولة، لا يشكل دليلاً قوياً على العظمة. الحياة قصيرة وهناك الكثير من الشعراء أفضل بكثير[1]. فدعونا نقرأ لهم بدلاً منه.

---

١ - من بينهم، رفيق ماو الثوري هو تشي منه. ورغم أن كتاباته الثورية تُحترم بدرجة أقل من كتابات ماو، فإن شعر الزعيم الفيتنامي أفضل بكثير، حتى في الترجمة. بين آب/ أغسطس ١٩٤٢ وأيلول/ سبتمبر ١٩٤٣، كان سجيناً لشيانغ كاي شيك في جنوب الصين، وخلال ذلك الوقت كتب ١١٥ قصيدة عن التجربة. مثل ماو، كتب بالصينية واستخدم أشكالاً صينية كلاسيكية، ولكنه على عكس ماو، لم يكتب كإله يقف فوق التاريخ. وبدلاً من ذلك، فإن قصائده كانت مفصّلة وإنسانية وعاطفية. في كل سنواته، لم يكتب ماو أبداً أي شيء بسيطاً مثل قصيدة هو "وداعاً لسن":

أنت قاس ومغرور يا صديقي،

لست ليناً وطويلاً كاللسان:

معاً تشاركنا كل أنواع المرارة والحلاوة،

لكن عليك الآن الذهاب غرباً بينما أتجه أنا شرقاً. - المؤلف.

كان ماو ذكياً ماكراً بارعاً، لكن هل كانت لديه حكمة؟ هذا يبدو وكأن فيه القليل من المبالغة. نعم، كانت بعض شعارات ماو جذابة، وقد دخلت معجم اللغة الإنجليزية، مثل "افعلها. فقط". ربما ساعد تلاعب ماو بالفلسفة على تأسيس علامته المميزة كخبير شيوعي، لكنه كان بالطبع محتالاً.

كانت قوة ماو الحقيقية في براغماتيته. لقد أدرك في وقت مبكر أهمية الفلاحين في الثورة، وفي عمل مثل **"عن الديمقراطية الجديدة"** قدم الخطوط العريضة لدولة الحزب الواحد. ربما كان ما تفوق فيه حقاً، وبالتأكيد على جميع الطغاة الآخرين، هو فهمه لكيفية خوض حرب العصابات. إن لم تكن مفكراً غربياً مخلوعاً يبحث عن القليل من الإثارة الفكرية الرخيصة، بل راديكالي من العالم النامي وتخطط لإدارة تمرد على مدى عقود، فإن ماو هو الرجل الذي تبحث عنه.

في المشاكل الاستراتيجية للحرب الثورية في الصين (١٩٣٦) **وعن الحرب المطولة** (١٩٣٨) وفي كتاباته العسكرية الأخرى، يكتب ماو بوضوح، متوسعاً في المبادئ المحددة في **الشرارة الواحدة**. وهكذا، فإن إصراره على تكييف الماركسية مع الظروف الصينية، أدى إلى إكسابه جاذبية دولية. يمكن للراديكاليين في البلدان "الاستعمارية أو شبه الاستعمارية أو الإقطاعية" الأخرى أن يتعلموا من الصين كيفية تجنيد الفلاحين في حرب تستمر إلى الأبد أو قريباً بما يكفي منه.

يحدد ماو بالتفصيل كيفية القتال والفوز. إنه لا يقدم أي وعود بانتصار سريع: فهو يعترف بأن الثورة تستغرق وقتاً طويلاً. سيتعين على الجيش الثوري العودة إلى الريف، والاعتماد على سكان الريف للحصول على الإمدادات والقوى العاملة، وشن حملة طويلة من حرب العصابات ضد العدو. مع وجود مساحة صغيرة للدفاع عنها، يصبح من الأسهل بكثير مضايقة أولئك الذين يفعلون ذلك. ويدافع عن بناء القواعد ويوفر هيكلاً للمقاومة، مقسماً على ثلاث مراحل: الدفاع الاستراتيجي، الجمود الاستراتيجي والهجوم المضاد الاستراتيجي، والأخير هو الذي سيتوج بالنصر. في نهاية المطاف، سوف يزداد الفلاحون قوة، ومع المدن المحاصرة، سيخنقون

الإمبرياليين البرجوازيين حتى الموت. عبر حرب العصابات، يمكن للضعيف أن يربك وينتشر ويقضم العدو حتى يصبح ضعيفاً - ثم يدمره من خلال الحرب العادية.

بين الحين والآخر، يحاول ماو وضع بعض اللمعان التنظيري على دليله للغزو والقوة، فعلى سبيل المثال، "الحرب هي أعلى شكل من أشكال النضال من أجل حل التناقضات، عندما تتطور إلى مرحلة معينة، بين الطبقات والأمم، ودول المجموعات السياسية". ولكن كما هو الحال مع جميع كتاباته الأفضل، تستند نصوصه العسكرية على مبدأ لينين في التحليل الملموس للظروف الملموسة. وهذا ما مكن الماوية من الازدهار في البلدان الفقيرة التي تضم أعداداً كبيرة من الفلاحين. قد لا يقدم ماو "الحكمة"، لكنه يستطيع أن يُظهر للضعفاء كيفية محاربة الأقوياء وليس القلق بشأن انتظار ظهور البروليتاريا الحضرية. من خلال مثاله الخاص، يعطي الأمل. وهكذا، لا يمكن العثور على قراء ماو الأكثر إخلاصاً في الصين، حيث تم التخلي عن الكفاح الثوري قبل عقود، بل في أماكن مثل منطقة كارالا في الهند، حيث تخوض جماعة ماوية تمرداً ضد الحكومة المركزية منذ عام ١٩٦٧؛ وفي البيرو، حيث تسبب مسار أبيميل غوزمان الساطع في الفوضى لعقود من الزمن؛ أو في نيبال، حيث حارب الماويون أولاً ضد الحكومة قبل الدخول إليها ثم قيادتها.

* * *

وكالعادة، كان لا بد من ترسيخ النعيم الجديد الذي تنبأ به ماركس وإنجلز عن طريق الإرهاب والعنف، ومن خلال اعتداءات الفلاحين الصينيين المحررين حديثاً على المّلاك، وبقمع "المعارضين للثورة" وأولئك الذين يعتبرون متدينين للغاية، وعبر العمل القسري وسَوق الفلاحين كالقطعان إلى المزارع الجماعية، وعلى الأقل في البداية، بموت ما بين مليونين وثلاثة ملايين شخص. لكن ماو ظل أيضاً يراقب عن كثب نقاء الحزب. في عام ١٩٥١، أي بعد عامين فقط من فجر الحقبة الجديدة، أطلق حملة "اللاآت الثلاثة"، التي استهدفت الفساد والهدر والبيروقراطية. اتضح أن هذا لم يكن عدداً كافياً من "اللاآت". وبعد بضعة أشهر، تم إطلاق حملة اللاآت الخمسة لمحاربة الرشوة والتهرب الضريبي وسرقة ممتلكات الدولة والفساد في تخصيص العقود الحكومية واختلاس المعلومات الاقتصادية. كان ضرب الرجعيين والبيروقراطيين الفاسدين سياسة شعبية، وتضخمت عضوية الحزب.

وفي الوقت نفسه، تجهز ماو للعمل على إعادة هندسة الأرواح. كان الحزب يستخدم نصوص الدعاية في حملات محو الأمية للفلاحين والجنود منذ منتصف الثلاثينيات، لكن صار من الممكن الآن العمل على نطاق أوسع، وخلق مئات الملايين من القراء الجدد، وتربية كل منهم على نظام غذائي من الكلاسيكية الماركسية اللينينية. وبحلول الخمسينيات من القرن العشرين، توافرت حصيلة خمس عقود من كتابات ستالين كطعام للهضم، وكذلك أعمال لينين وماركس وإنجلز وحشد من المؤلفين السوفييت الذين تدفقت كلماتهم الآن عبر حدود الاتحاد السوفييتي إلى الصين. على مدى فترة ست سنوات بدأت في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٩، تمت ترجمة حوالي ٢٣٠٠ كتاب من الأعمال الأدبية السوفييتية والروسية إلى الصينية. كان بعضها جيداً، مثل الكتب الكلاسيكية لماياكوفسكي وتشيخوف، وكان بعضها مفيداً، مثل كتب العلوم والتكنولوجيا. ولكنها كلها جاءت من موسكو، مما عزز مكانة العاصمة السوفييتية كمركز للعالم الجديد. كانت أعمال ماو وأعمال زملائه رفيعي المستوى متاحة أيضاً، لكن رغم ذلك، لم يُعتبر "فكر ماو تسي تونغ" أيديولوجيا منهجية، بل كان عبارة عن تنقيح للحقائق الأساسية في الشريعة الماركسية اللينينية، التي تم تكييفها مع الظروف الصينية.

كان ماو دائماً حريصاً على إظهار الاحترام اللازم تجاه ستالين، على الرغم من أن الفوشد لم يثق في الزعيم الصيني، الذي كان يتجاهل في كثير من الأحيان أوامره أثناء الحرب الأهلية مع الكومينتانغ. أعطى بُعد ماو عن موسكو والدعم الشعبي له حيزاً أكثر بكثير من قادة الدول التابعة لستالين في أوروبا الشرقية، الذين كانوا ينشئون أنظمة قمعية تحت العين الساهرة للرئيس. في الوقت نفسه، فهم ماو ميزان القوى، وقَبِل أقدمية ستالين وكونه "أب" الشيوعية بحس كونفوشيوسي بالواجب. بعد شهرين فقط من إعلان أن الشعب الصيني قد نهض، قام ماو بالحج إلى موسكو لحضور احتفالات عيد ميلاد ستالين السبعين. كانت هذه زيارته الأولى إلى العاصمة السوفييتية، وكان يجلس على يمين السيد. خلال الاحتفالات، قدم ماو نفسه بإلقاء كلمة متزلفة جديرة بالمتضرع الخاضع، حيث وصف ستالين بأنه "معلم وصديق لشعوب العالم وكذلك معلم وصديق للشعب الصيني"، الذي كان مسؤولاً عن "مساهمات بارزة وواسعة النطاق في قضية الحركة الشيوعية العالمية".

كان هذا بالكاد هو أول ثناء يقدمه ماو للمؤلف الأعلى للشيوعية العالمية، ولكن بسبب عادته في تجاهل أوامر ستالين بهدوء كلما شعر أنه قادر على التملص منها، كانت المواجهة بين ماو وستالين متوترة إلى حد ما. ولم يحدث إلا في العام الذي سبق فقط، أن أمر ستالين الحزب الشيوعي الصيني بأن يجلس لإجراء محادثات مع كومينتانغ تشوم كاي شيك؛ لكن ماو قد استثمر الأمر وهزمهم. قد يكون هذا ما أدى إلى انتصار الشيوعية، لكن حتى مع ذلك، كان العصيان عصياناً. ومما زاد الطين بلة، انشقاق الديكتاتور اليوغوسلافي المارشال تيتو عن موسكو في العام السابق، كان ستالين يبحث عن الأعداء والخونة. ولاحظ أن الشيوعية الصينية كانت "قومية"، وأن ماو "يميل نحو القومية".

نظراً لكونه من المحاربين القدامى لمدة ثلاثة عقود من الصراعات الأيديولوجية المحفوفة بالمخاطر، فقد أدرك ماو على الفور أن هذا كان خطاباً مشؤوماً. وللدفاع عن نفسه، التفت إلى نصوصه، مطالباً بإرسال خبير سوفييتي في الماركسية اللينينية إلى الصين لتحليل سجل منشوراته و"مراجعة وتحرير" أعماله. ونجحت المناورة. في أوائل عام ١٩٥٠، وصل السفير السوفييتي الجديد، بافل يودين، إلى بكين. وهو أكاديمي وخبير في "علم" الماركسية، وقد فحص عن كثب أعمال ماو بحثاً عن أي علامات على الابتداع. وأعلن رسمياً أنها سليمة أيديولوجياً في اجتماع للمكتب السياسي السوفييتي بعد ذلك بعامين، في الوقت الذي كانت فيه بالتأكيد: نسخة منقحة من **الأعمال المختارة** لماو، بعد تطهيرها من الهفوات الأيديولوجية المحرجة ولغة ماو الحارّة في بعض الأحيان، قد بدأ نشرها عام ١٩٥١ حتى وصلت إلى ثلاثة مجلدات بحلول عام ١٩٥٣. تم بيع ملايين النسخ، ولكن بعدها توفي ستالين، ولم تعد تلك النقطة موضع نقاش.

ومع ذلك، عندما ندد خروتشوف بستالين في مؤتمر الحزب العشرين في شباط/ فبراير ١٩٥٦، استاء ماو. لم يكن الأمر مجرد أن الزعيم السوفييتي الجديد قد عامل ماو كشريك صغير. (لم يخبر خروتشوف ماو قط أن الخطاب كان قادماً، ولم يزود الزعيم الصيني بنسخة منه).[1] اعتبر ماو الخطاب السري عملاً من أشكال عدم الاحترام لسلف عظيم، والذي

---

١ - علم ماو بذلك من الترجمة الصينية لمقال صحيفة نيويورك تايمز. المؤلف

كان، على الرغم من خلافاتهم، عملاقاً بين الشيوعيين. في الصين، كانت المسيرات تنتهي دائماً بشعار "يحيا ستالين! الزعيم العظيم لشعوب العالم"، أما بالنسبة إلى انتقادات خروتشوف لـ"عبادة الشخصية"، فحسناً، كان لماو مثلها. في الواقع، تم تكريس فكر ماو تسي تونغ في دستور الحزب الشيوعي الصيني منذ عام ١٩٤٥. وكان موقف خروتشوف، في نظر ماو، يفتقر إلى الفارق الدقيق: "ليس السؤال ما إذا كان ينبغي أن تكون هناك عبادة للفرد أم لا، ولكن بالأحرى هل ذلك الشخص المعني يمثل الحقيقة. إن فعل، فينبغي أن يُمجّد". عندما نشر ماو وبقية قادة الحزب الشيوعي الصيني حكمهم الرسمي في صحيفة **الشعب اليومية**، كان دقيقاً من الناحية الرياضية: كان ستالين ٧٠ في المائة ماركسياً، و٣٠ في المائة غير ماركسي. وكانت هذه نسبة جيدة جداً. ظلت كتبه مطبوعة، وبقيت صورته معلقة في المباني الرسمية، واصطفت أعماله الكاملة على أرفف المكتبات - حتى أثناء اختفائها من أرفف الكتب والجدران في الاتحاد السوفييتي والدول الدائرة في فلكه[1]. ومع ذلك، يبدو أن الحزب قد اهتز كفاية بسبب انتقاد خروتشوف لعبادة ستالين، حتى إنه أزال فكر ماو تسي تونغ من الدستور واستعاض عنه بتركيز أكثر عمومية على الماركسية اللينينية و"القيادة الجماعية".

بدأ الانجراف البطيء الآن، مما زاد من فصل الصين عن حليفها السوفييتي. فعلى الرغم من أن خروتشوف كان يحترم لينين ويضع نصوصه في مركز الدولة، إلا أن رؤيته للجنة الاشتراكية كانت أقل تجهماً من رؤية أسلافه. لقد خفف من الرقابة، وفتح معسكرات الغولاغ التي أنشأها ستالين، وحتى إن معهد الماركسية اللينينية كان يخطط للعمل على إصدارٍ من خمسة وخمسين مجلداً من أعمال لينين التي ستشغل المساحة المحررة الناجمة عن الاختفاء المفاجئ لأعمال ستالين الكاملة، حلم خروتشوف بالشيوعية المستقبلية التي كانت أقل تجريدية، وتشتمل على الكثير من النقانق. كان طموح خروتشوف هو الصعود إلى مستوى معيشة أعلى من مستوى الولايات المتحدة. وسخر ماو من مفهوم خروتشوف المادي للشيوعية. على الرغم من أنه الآن في أوائل الستينات من عمره، إلا أنه لم يكن أقل راديكالية. كان محط اهتمامه هو أن الحياة كانت سهلة للغاية، وأن الحزب كان يصبح سميناً وقانعاً

---

١ - لم يقرر الحزب حتى العام ١٩٨٩ أنه لم يعد من الضروري عرض صور ستالين في أيام العطلات الكبرى. المؤلف

ومنسلخاً عن الناس. كان المثقفون على وجه الخصوص مستائين، وأراد من ماو تسخير طاقاتهم لقضية الثورة.

في عام ١٩٥٦، انتزع ماو شعاراً من الكلاسيكيات الصينية كان يأمل أن يبشر بعصر جديد في حياة البلد: "دع مائة زهرة تتفتح، ومئات المدارس الفكرية تتنافس". من الآن فصاعداً سيصبح مثقفو الصين أحراراً في التعبير عن أنفسهم - حد الانتقاد. وبالنظر إلى أن مئات الآلاف من أقرانهم قد لقوا حتفهم في أعمال القمع التي قام بها ماو قبل بضع سنوات، فقد كان المثقفون بطيئين في قبول عرضه. لكن ماو أصر، وفي خطابه الذي ألقاه في شباط/ فبراير١٩٥٧، "على المعالجة الصحيحة للتناقضات"، أعلن أنه لا داعي للقلق. ففي حين فشل ستالين في التمييز بين النقد المفيد وغدر الأعداء الحقيقيين، فإن هذا لن يحدث في الصين؛ انتهى وقت الصراع الطبقي العنيف. حتى الحزب يمكن أن يرتكب أخطاء، وفقط عبر المناقشة العلنية لتلك الأخطاء، يمكن الوصول إلى المسار الصحيح. ومع هذا، عندما بدأ الفكر الحر في الازدهار، اتضح أن هذا لم يكن ما أراده ماو. كانت الهجمات على الفساد وجبروت الحزب مقبولة، ولكن ما إن بدأ المثقفون بانتقاد الأبقار المقدسة مثل دولة الحزب الواحد، وإنشاء المزارع الجماعية، واعتماد البلاد على موسكو وعبادة الزعماء، سرعان ما غير ماو رأيه. وامتلأت معسكرات العمل والحقول بالمثقفين الذين تبينت حاجتهم إلى "التقويم".

ولأن النخبة المتعلمة قد خذلته، فقد وجه ماو انتباهه الآن إلى الجماهير. في كتاباته الأولى قبل الماركسية، كان قد جادل بأن إنماء قوة الإرادة والعضلات الكبيرة كانت أساسية للتنمية في الصين. والآن يعود إلى هذا الموضوع. كان الديالكتيك التاريخي جيداً تماماً، لكن قوى ماركس غير الشخصية أخذت في النهاية مقعداً خلفياً في إيمان ماو بأن بذل الجهد الهائل والتضحية بالذات يمكن أن تدفع البلاد إلى المستقبل. في عام ١٩٥٨ بدأ الدعوة إلى "ثورة دائمة"، وحثّ الناس على الإنتاج "أكثر وأسرع وأفضل وبصورة أكثر اقتصاداً". "تجرؤوا على التفكير، تجرؤوا على العمل"، أعلن. لقد حان وقت "القفزة الكبيرة إلى الأمام". عندما تم تبني شعار "المزيد / وبشكل أسرع" كشعار رسمي في المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي الصيني في أيار/ مايو، اتضح أن ذلك يستلزم دمج التعاونيات الزراعية الأصغر في المزارع الجماعية الضخمة المعروفة باسم "كومونات الشعب". شكلت الجماهير مجموعات قراءة

لأعمال الرئيس ماو حتى تتمكن من استنباط القوت الروحي والتوجيه المباشر من كلمات القائد، وهي تشرع في أعمال بناء مصانع وطرق وجسور جديدة. كما قامت الجماهير أيضاً بتأليف الشعر، وقام موظفو الدولة بالتجوال في الصين لجمع هذه الأدبيات الجديدة التي أنتجتها الجموع، والتي نشأت نتيجة الإطلاق المفاجئ لطاقات الناس الإبداعية. ولأن الوقت كان قصيراً (طالب ماو الصين بالتفوق على المملكة المتحدة في خمسة عشر عاماً) اندفع الفلاحون بخواتم زفافهم وأدواتهم وأدوات مطابخهم إلى "أفران الفناء الخلفي" لتزويد الدولة بالصلب الذي تحتاجه.

ربما في القفزة العظيمة إلى الأمام، وليس في شعره الفعلي، كان ماو في أشد حالات شاعريته - بمعنى الشعر كتعبير غنائي، عاطفي، بارع، على الأقل. شاركت شعاراته أثناء القفزة العظيمة نفس وجهة نظر الله التي تجعل شعره مضخماً وغير مقنع. ناظراً إلى "الناس" من الأعلى، حيث اكتسحت الجموع الغريبة نحو الأمام استجابةً للحظة التاريخية العظيمة، لم يحفل ماو بما يعنيه هذا بالنسبة إلى الأفراد المحاصرين في داخل ذلك الدفق المتدافع. والأسوأ من ذلك، أنه استبدل السحر اللفظي بالاستراتيجية، كما لو كان يخطئ في تقدير فاعلية ستالين الانتقادية بالإفراط في الكتابة عن الواقع التجريبي على الورق بحثاً عن إلهام عن قدرة الكلمة على تبديل عالم الأجسام والأشياء المادية الفعلية بنفس سهولة كتابتها. لقد كان لوغوسياً تمادى كثيراً. كان ماو ملهماً لدرجة أنه بدأ يحلم ليس فقط بالصين الجديدة بل بالأرض الجديدة، التي سيتم توحيدها في ظل نظام تخطيط واحد تم تنظيمه في بكين، ما سيؤدي إلى "عصر من النعيم السرمدي".

لم تنجح الأمور كما كان مخططاً لها. بعد أن ألقوا معادنهم في نيران المصاهر، تُرك الفلاحون مع خنزير منخفض الجودة ومن دون شيء للطهي أو الأكل أو العمل. ولكنه كان عندما توجه سحر ماو اللفظي إلى مملكة الحيوانات، أن خرجت الأمور عن السيطرة. فاقتناعاً منه بأن البعوض والذباب والجرذان والعصافير ("الآفات الأربع") هي ما يقيد تقدم الصين نحو المستقبل، أعلن عن وجوب تعبئة الأمة بأكملها، بما في ذلك "الأطفال في سن الخامسة"، للقضاء عليها. لكن في حين أن القليل من قد لا يوافق على أن الآفات الثلاث الأولى يمكن أن تكون مزعجة وغير صحية، فإن التهديد الذي تشكله العصافير

كان أقل وضوحاً. وفقاً لماو، كانت هذه الطيور الصغيرة تأكل الحبوب التي كان من الممكن استخدامها لتغذية البشر. وهكذا بدأت حرب غريبة على العصافير، حيث احتشد الفلاحون في الحقول التي تناثرت فيها الأواني والمقالي والأجراس التي لم تتعرض للصهر لتخويف العصافير، تسلق الأطفال الأشجار لهدم أعشاشها. كانت الحملة ناجحة: طافت العصافير في الهواء إلى أن سقطت ميتة من الإرهاق، وهو ما فعلوه بالملايين منها. كانت الآفة الرابعة على وشك الانقراض -المشكلة الوحيدة هي أن العصافير لم تكن في الحقيقة تأكل الحبوب بل **الحشرات هي التي تأكل الحبوب.**

في غياب العصافير، أصبحت تلك الآفات الأخرى الآن حرة لتخريب محاصيل الصين من دون عوائق تقريباً، ما أدى إلى حدوث مجاعة. اقتصر طعام المنتصرين على العصافير على تناول الطين والحشرات، وفي بعض الأحيان، بعضهم البعض. أسفرت أوبئة الجفاف الإضافية وحصص الإنتاج التي فرضتها الدولة، عن الوفيات التي كان من الممكن تجنبها بالكامل، والتي ناهزت الخمسة والأربعين مليون شخص. وهذه حصيلة أكبر من ستالين أو هتلر.

غير مبال بذلك، حافظ ماو على وجهة نظر الله المعبّر عنها في شعره. وقال لزملائه "عندما لا يكون هناك ما يكفي من الطعام، يتضور الناس جوعاً حتى الموت". "من الأفضل أن نترك نصف الناس يموتون، حتى يتمكن النصف الآخر من تناول طعامهم". ومع تجويع الملايين على النحو الواجب، قدم الحزب مساعدات إضافية من الدعاية. من خلال الشعارات والملصقات والأغاني الوطنية، تم تذكير الصينيين أنه على الرغم من المعاناة الحالية، فإن زعيمهم كان العبقري الأسمى الذي لا نظير له، يوجههم نحو الخلاص التاريخي المنتصر. ومع ذلك، بحلول عام ١٩٦٠، أدرك حتى ماو نفسه أن القفزة العظيمة إلى الأمام شابهت إلى حد بعيد قفزة الانتحار إلى قاع الهاوية. مصدوماً، تراجع قاتل العصافير الكبير الآن إلى "الخط الثاني" في القيادة الصينية، واستقال من منصبه كرئيس للدولة، وسلّم المسؤولية عن تنظيف الفوضى إلى الرئيس ليو شاوغي والأمين العام للحزب دنغ شياو بينغ (الذي تولى "تقويم" المثقفين بعد اندحار حملة المائة زهرة). في نفس العام، خرج التوتر، الذي كان قائماً بين الاتحاد السوفييتي والصين، منذ خطاب خروتشوف السري، في النهاية الى العلن، بعد أن نكث السوفييت عهدهم بتزويد الصين

بالتكنولوجيا النووية[1]، وسحبوا جميع مستشاريهم من البلاد كنتيجة النزاع الذي تلى ذلك. تبعت الكارثة كارثة، ولكن على الأقل كانت هناك بعض الأخبار الجيدة: المجلد الرابع من أعمال ماو المختارة صار أخيراً على الرفوف.

***

كان الشقاق الصيني- السوفييتي تحدياً وتحرراً في آن واحد. فقدت الصين دعمها الهائل، لكن الحزب الشيوعي الصيني أصبح حراً الآن في التنافس مع المهيمن السابق على قيادة الحركة الشيوعية العالمية. ومع ذلك، بدأت المعركة بداية ضعيفة: من بين جميع الدول الشيوعية في العالم، انحازت ألبانيا الصغيرة فقط إلى الصين.

في عيني ماو، لم تتضاعف سوى بدع خروتشوف منذ شجبه ستالين عام ١٩٥٦. يبدو أن الزعيم السوفييتي لم يكن راغباً تماماً في الإطاحة العنيفة بالبرجوازية وإنشاء ديكتاتورية البروليتاريا. لقد أعلن الآن أن الرأسمالية والشيوعية يمكن أن يلتقيا معاً في حالة من "التعايش السلمي"، وأن الحرب لم تكن مقدمة أساسية لإقامة الاشتراكية، وأنه قد يكون من الممكن حتى للدول الشيوعية أن تتحد مع غير الشيوعية. بالنسبة إلى ماو، لم تكن هذه علامة على أن الاتحاد السوفييتي كان يتهاوى في منتصف عمره، أو أن خروتشوف كان يراجع الجوانب الأكثر فظاعة للماركسية اللينينية ليوضح التفنيد المتكرر للنبوءة. بدلاً من ذلك، كانت دليلاً لا جدال فيه على شيء أكثر شراً: أن البرجوازية كانت تستعد للعودة إلى الاتحاد السوفييتي. مثل روح ميتة خبيثة وقديمة، كانت هذه القوة الشريرة تكمن بصبر على العتبة، في انتظار لحظتها - لتقوم بضربتها.

وإن كانت قد وقعت في مهد الثورة، فقد تضرب في أي مكان آخر، بما في ذلك الصين. وهكذا، من مكانه في المنفى الذي فرضه على نفسه في "الخط الثاني"، أصبح ماو يشكك

---

١ - رفض ماو القنبلة ذات مرة باعتبارها "نمراً ورقياً"، لكن هذا يعبّر عن موقفه غير الواضح تجاه موت رعاياه أكثر من الشك في فعاليته كسلاح ذبح جماعي. في عام ١٩٥٧، أخبر زائراً يوغسلافياً إلى بكين أنه نظراً لأن الصين فيها "منطقة كبيرة جداً وعدد كبير من السكان"، فإن القنبلة الذرية لم تشكل تهديداً حقيقياً. "ماذا لو قتلوا ثلاثمائة مليون منا؟ لا يزال لدينا الكثير من الناس". المؤلف

بشكل متزايد في رفاقه الذين كانوا يحاولون إعادة بناء الأمة بعد الفشل الكارثي للقفزة العظيمة إلى الأمام. في البداية، كان قد جلس بينما كانت القيادة الجديدة تتبع سلسلة من الإصلاحات الاقتصادية العملية و"التصحيحات"، وحتى إنها قدمت "نقداً ذاتياً" في مؤتمر عُقد في بكين في حزيران/ يونيو ١٩٦١. لكنه، استاء من حرصهم على التصرف من دون استشارته. وسرعان ما أصبح ينظر إلى براغماتيتهم الأكثر دنيوية في ضوء مختلف: من الواضح أن البرجوازية كانت تعود الى الصين أيضاً. لقد حان الوقت للعودة إلى "خط المواجهة". بدأ ماو الآن يشدو بشكل مشؤوم في خطبه عن التهديد الذي تمثله الإجراءات "التصحيحية"، والحاجة إلى تجديد الصراع الطبقي، وضرورة القيام بثورة داخل الثورة لسحق الإقطاعية المنبعثة من جديد وقيم البرجوازية التي يراها من حوله.

مع تقدم الستينيات، واصل ماو متابعة الموضوع. وقد أخبر المؤلف الفرنسي الزائر (وزير الشؤون الثقافية) أندريه مالرو في عام ١٩٦٥ "أن الفكر والثقافة والعادات التي أوصلت الصين إلى حيث وجدناها، يجب أن تختفي"، وأن فكر وعادات الصين البروليتارية وثقافتها التي لا توجد الآن، هي ما يجب أن يظهر"، كما أنه كان حريصاً على أن يختفي منافسه، الرئيس ليو شاوغي، إلى جانب كتابه "**كيف تكون شيوعياً جيداً**"، والذي وزع منه خمس عشرة مليون نسخة بين عامي ١٩٦٢ و١٩٦٦، متجاوزاً أي شيء يُعزى إلى ماو خلال الفترة نفسها. والأسوأ من ذلك، أن **الأعمال المختارة** لليو كانت في مراحل الإعداد. ينبغي جعل ذلك يختفي قبل ظهوره. ولكن كيف؟ بالنسبة إلى شيوعي مهووس بالنصوص وذي إيمان لا حدود له بقوة الكلمة المكتوبة، كانت الإجابة واضحة: عن طريق نشر مراجعة قاسية لمسرحية قام بها شخص آخر، بالطبع.

كانت **إقالة هاي روي من المكتب** عملاً لعالم من أسرة مينغ يدعى وو هان. خلال القفزة العظيمة إلى الأمام، استشهد ماو باسم هاي روي كمثال رائع لمسؤول أمين لم يكن خائفاً من إخبار الإمبراطور الطاغية ببعض الحقائق المزعجة. مثّل وو هان قطعة من الدعاية حول الموضوع، حصلت على أدائها الأول في عام ١٩٦١. استمتع ماو بالمسرحية، لدرجة أنه دعا الممثل الرئيسي لتناول العشاء، وقدم لوو هان كهدية نسخة موقعة من المجلد الرابع من كتابه **أعمال مختارة**.

في عام ١٩٦٥، صار وو هان نائب عمدة بكين، وكان مرتبطاً بالقيادة "التصحيحية" التي يعتقد ماو الآن أنها عازمة على إرجاع حكم البرجوازية إلى الصين. أصرت زوجة ماو (الرابعة)، وهي ممثلة سابقة تدعى جيانغ تشينغ، على أن طرد هاي روي من منصبه، كان هجوماً سرياً على الرئيس نفسه. عند إيجاده فرصة لضرب البرجوازية المنبعثة، ولكن إما لأنه كان مشغولاً جداً أو كسولا جداً في كتابة أي شيء بنفسه، طلب ماو عمل نقد أدبي من صحفي في شنغهاي، تشرف عليه جيانغ. كان نشر المراجعات السيئة في المعارك الأيديولوجية تكتيكاً مفضلاً لدى ستالين، وهكذا شكّل ماو هجومه مع الأنموذج بكل جدية. بعد أكثر من نصف عام وعشر مسودات، حصل أخيراً على نقد مُرضٍ، نُشر في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٥ في صحيفة شنغهاي **تقارير أدبية**. (كان ماو يخشى أن يحول "المراجعون" في بكين دون نشره) خطة الهجوم؟ إن وو هان كان مذنباً بارتكاب خطأ أيديولوجي خطير: فقد ادعى أنه كان من الممكن لرجل من الخلفية الطبقية العالية مثل هاي روي، أن يتغلب على القيود المفروضة عليه من قبل أصوله الاجتماعية. كانت مسرحية وو باختصار "عشباً ساماً".

غير مدركين أن ماو كان وراء الهجوم على وو هان، حاول حلفاء الكاتب المسرحي منع إعادة نشر المراجعة في العاصمة. وعندها هدد ماو بتنظيم نشرها على شكل كتيب، تراجعوا، وسرعان ما تمكن مواطنو بكين من قراءة كل شيء عن هرطقة نائب العمدة المناهض للحزب في الصين في نسختهم من صحيفة الشعب اليومية. ومسروراً بذلك، احتفل ماو بنجاح هذا الصراع الأول في حروب الثقافة بكتابة قصيدة عن طائر متحمس لعاصفة قادمة. يزدري عصفوراً آخر يندفع خائفاً ليختبئ في الأدغال، ويصفه بأنه مهرج "ضرط بما يكفي".

متشجعاً بذلك، شن ماو سلسلة من الهجمات على جميع عملاء البرجوازية الذين كانوا يقوضون الثورة الصينية من الداخل. في خطاباته ومنشوراته، انتقد المفكرين والفنانين والكتاب وأعضاء النخبة الحزبية بسبب "التصحيحية"، وقارنهم بخروتشوف. في الواقع، كان خروتشوف قد خرج في هذه المرحلة من السلطة، لكن مسيرة العدو استمرت، وسخر ماو من القيادة السوفييتية الجديدة باعتبارهم "خروتشوفيين جدد". كما شهّر بالمعلمين، ودعا إلى الصراع الطبقي في الجامعات والمدارس الثانوية والابتدائية، حيث أعلن أن على الطلاب "الإطاحة بالأساتذة". ومتابعاً، ندد ماو بقسم الدعاية في اللجنة المركزية، ونعته بـ"قصر

ملك الجحيم"، وفي اجتماع للمكتب السياسي، أعلن أن قوى الشر قد تسللت إلى الحكومة والجيش والبيروقراطية الثقافية من أجل إقامة ديكتاتورية خاصة بها. كان لدى الصين خروتشوفيوها، وقد حان الوقت لشن "حملة جماهيرية" ضدهم. تم إعداد المسرح لمعركة جبارة بين الخير والشر، والتي كان ماو، المرتاح كما كان في فضيلته الثورية، متأكداً بأنها ستتركه سالماً. كان هناك شيء ما على وشك الحدوث، لكن ما هو؟

في ٢٩ أيار/ مايو ١٩٦٦، قامت مجموعة من الثوريين من طلاب المدارس المتوسطة في مدرسة النخبة الملحقة بجامعة تسينغهوا في بكين، بتعميد أنفسهم "الحرس الأحمر". كانوا، مثل الغالبية العظمى من الراديكاليين المنادين بالمساواة، يعارضون بعنف الامتيازات الممنوحة للآخرين، إن لم يكن حتى ما يخصهم. في البداية كان الأمر مجرد كلمات وإن كانت عنيفة. علق أحدهم ملصقاً في الجامعة كتب عليه "اضرب ضرباً مبرحاً أي شخص وكل الأشخاص الذين يعارضون فكر ماو تسي تونغ -بغض النظر عمن هم، أو أي لافتة يرفعونها، أو مدى سمو مكانتهم". وعندما اتصل الحراس بماو ليسألوه عن رأيه في تصرفهم المحرّض، أثنى الرئيس البالغ من العمر ٧٢ عاماً علانية على الثوار اليافعين، وأعلن أنهم كانوا "على صواب في الثورة على الرجعيين". بعد مصادقة ماو، انتشرت حركة الحرس الأحمر بسرعة، حيث رفضت مجموعات من المراهقين ذوي البثور سلطة الكبار. وانتفضوا ضد أساتذتهم. "للثورة ما يبررها"، كما أعلنوا. جاء الشعار، وهو ما يدعو للسخرية، من خطاب ماو الذي صدر عام ١٩٣٩ والذي عنوانه "ستالين هو قائدنا"، حيث سعى الرئيس جاهداً لإظهار قبوله وولائه للتسلسل الهرمي الشيوعي من دون أي نزوع إلى العصيان.

بعد الدعم الذي تلقاه من الشباب، واصل ماو، هجماته الخطابية على النخبة الحزبية. استنكر رفاقه باعتبارهم "الوحوش والمسوخ" في مؤتمر الحزب، وبعد ذلك بفترة قصيرة نشر مقالاً قصيراً بعنوان "اقصفوا المقر الرئيسي -ملصق شخصيتي الضخمة"، واتبعه بمخطط "النقاط الست عشرة" الضرورية لنجاح الثورة الثقافية في الصين. كانت الكلمات تتدفق، وكان النسغ الثوري للحرس الأحمر في ارتفاع. عندما دعا تشن بودا، كبير أيديولوجيي الحزب، شباب الصين إلى القدوم إلى العاصمة لإظهار دعمهم للزعيم، هبوا جميعاً. وفي تجمع حاشد في ١٨ أغسطس/ آب ١٩٦٦، خرج ماو من وراء رفوف أعماله المختارة والصور الدعائية لشكله البدين الذي كان

يتمايل على طول نهر اليانغتسي، لعرض جسده الحي على عشرات الآلاف من المعجبين المراهقين، في مشهد رائع قدم لنا الحلقة المفقودة بين نورمبرغ وجنون البيتلز.[1]

مرتدياً سترة عسكرية وشارة حمراء، لم يتحرك ماو كثيراً، ولم يتحدث مطلقاً. فمجرد وجوده هناك كان كافياً. قدم لحمه المتحرك إلى الحشود الغاضبة التي تحركها الهرمونات وتركها تحدق فيه وتصيح وتصرخ بالهتاف والتصفيق. في بعض الأحيان كان يرفع ذراعه، ليقر بوجودهم -لكن يا لها من ذراع! كانت تلك هي الذراع التي تنتهي باليد التي حملت القلم الذي كتب **عن الممارسة** والعديد من الروائع الأخرى التي كانت ثمينة للغاية عند الحرس الأحمر! الذين بكوا وهتفوا ورقصوا. وغنوا الأغاني الثورية، ولوحوا لصورة ماو، وحملوا لافتات مكتوب عليها "أحب كتب الرئيس ماو الأفضل من كل شيء". ومن بين كل تلك الكتب، كان الكتاب الذي أحبوه كثيراً، وأخذوا يلوحون به في الهواء، هو **اقتباسات من الرئيس ماو بحجم الجيب**، الأنطولوجيا الأسطورية "لأعظم نجاحات الرئيس".

عقدت سبع مظاهرات حاشدة أخرى خلال شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، حيث كان هناك ما يقارب ١٢ مليوناً من الحرس الأحمر في حضور معبودهم. اعتقد ماو أن أحد أسباب فشل ثورة الاتحاد السوفييتي أن لينين قد مات قبل أن يتمكن عدد كاف من الناس من رؤيته عياناً؛ ولقد حل هذه المشكلة فيما يتعلق بالصين. أكثر من ذلك، دعمه يعني أنه قد صار لشباب الصين الآن نضال بطولي من تلقاء أنفسهم. ثورة آبائهم قد انحرفت وأخطأت. والشباب فقط من يمكنهم مساعدة الرئيس على إنقاذها عبر القيام بثورة داخل الثورة، ولادة جديدة مطهرة. كان الشباب على حق، وكانوا بمثابة قبضة القائد العظيم، وضرب "العناصر الأربعة البالية": الأفكار البالية، والثقافة البالية، والأعراف البالية والعادات البالية.

بدأت عملية التطهير بعد فترة وجيزة من مواجهة شهر أغسطس/ آب مع ماو المبتسم، عندما داهم الحرس الأحمر ونهب أكثر من مائة ألف منزل في بكين، ودمر الكتب واللوحات والمنحوتات والنصوص الدينية وغيرها من رموز الثقافة القديمة أينما وجدوها. في سبتمبر/ أيلول انتشرت الثورة في جميع أنحاء البلاد، بعدما تم منح حق السفر بحرية والإقامة والسكن

---

١ - من قبيل الصدفة أن قدمت فرقة البيتلز أداءً أمام حشد صارخ في اليوم نفسه، وإن كان ذلك في بوسطن. المؤلف

للحرس الأحمر. شرعت مجموعات من الأطفال والمراهقين والشباب في رحلة مثيرة وممتعة عبر البلاد، تقوم فيها بإسقاط المعالم وإحراق المعابد وحرق أو سرقة محتويات المكتبات ونهب المتاحف والمعارض وتدمير القطع الأثرية وتدنيس قبور الفلاسفة القدامى (بما في ذلك قبر كونفوشيوس). ودمروا أيضاً قطعاً أثرية أقل قداسة، مثل الكتب السوفييتية، ومجموعات الشطرنج (التي تعتبر سوفييتية جداً)، والأسماك الذهبية والطيور المغردة -والتي كانت جميعها حواجز على ما يبدو في طريق سعادة الصين. أقام الحرس الأحمر نقاط تفتيش؛ حيث أخضعوا المارة لاختبارات تهدف إلى الكشف عما إذا كانوا يعرفون كلمات ماو أم لا، وفرضوا الأخلاق الثورية المتشددة، وهاجموا النساء ذوات قصات الشعر البورجوازية المفرطة، أو اللاتي وضعن الكثير من العطور، أو اللاتي يفضلن الأحذية الفاخرة. ولم تكن ثقافة الشارع مستثناة من ويلات كلاب ماو الهجومية الشابة: من الحانات إلى عروض الدمى، تم القضاء على العديد من متع الفقراء في تطهير لا يرحم.

قال ماو : "الأولاد يريدون التمرد ويجب علينا أن ندعمهم". في البداية، اقتصر التمرد على فئة الطلاب المتميزين، ولكن ثبت أن من المستحيل حرمان العمال والفلاحين من مسرات طقوس التدمير المتمردة. في شنغهاي، تعاونت مجموعات من العمال مع الطلاب لتكوين "الحرس القرمزي" وشنت إضراباً. في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر، أغلقت مجموعة من المتظاهرين وزارة العمل في بكين. بعد ذلك بيوم، احتفل ماو بعيد ميلاده الثالث والسبعين، وشرب نخب "الحرب الأهلية الشاملة الوشيكة في جميع أنحاء البلاد". وفي الوقت نفسه، واصل الحرس الأحمر سعيه وراء أعدائه "التصحيحيين"، وفضحهم بوصفهم "مستغلين رأسماليين". الأبطال السابقون للثورة، وزوجاتهم وأطفالهم، أيضاً.

سرعان ما بدأت الأمور تخرج عن نطاق السيطرة. تجزأت عبادة ماو إلى العديد من الطوائف المتنافسة. كانت مقاطعات هوبي وهونان وغوانغشي ومدن بكين وكانتون وشانغهاي بمثابة قواعد لما لا يقل عن ١٤١٧ مجموعة مميزة من "المتمردين المحقين" المتحمسين. حاربت الفصائل المتناحرة بعضها البعض، في حين أنشأ الزعماء المحليون فرقهم الخاصة من الحرس الأحمر، وحاربوا من أجل حماية الذات، لأن "المحافظين" اشتبكوا مع "الثوار" في حفلات معربدة من التعذيب والقتل والإذلال العلني. عندما تمت الإطاحة

بحكومة شنغهاي في أوائل عام ١٩٦٧ واستبدالها بكومونة شنغهاي الراديكالية، أيد ماو المتحمس الانتفاضة في البداية. لكنه، سرعان ما أصبح ينظر إلى البلدية على أنها متطرفة للغاية، وطالب بإنشاء "لجان ثورية"، مؤلفة من الحرس الأحمر وأعضاء الحزب والعسكريين، لتحكم المقاطعات كبديل. ومع ذلك، بحلول منتصف الصيف، شعر أن القوى "المحافظة" كانت في صعود، وبالتالي اقترح "تسليح اليسار" - وكانت النتيجة المتوقعة بالكامل أن المذبحة ازدادت سوءاً. لم يكن الأولاد بخير في النهاية: لقد بدؤوا في إطلاق النار وطعن بعضهم بعضاً بالأسلحة التي بقيت حتى الآن في أيدي أولئك المدربين على كيفية استخدامها. في الجنازات، أمسك الحرس الأحمر بالأطراف المقطوعة للرفاق الذين سقطوا. اجتاح الالتهاب السحائي الشوكي المحافظات، وربما نشره الشباب الثوريون من المدن. ودخل الفلاحون في حالة من الهياج. وفقاً للسجلات الرسمية، مات حوالي مليون ونصف مليون صيني في المجزرة.

قال أرسطو: "من السهل خداع الشباب لأنه سريع الأمل". بفضل الحنين إلى طفرة المواليد بسبب معارك شبابهم في مجال الحقوق المدنية، نشأ جيلان في الغرب وتربى على الأسطورة القائلة بأن تمرد الشباب هو دائماً وفي كل مكان قوة حميدة. ومع ذلك، كان أرسطو كريماً للغاية: يُخدع الشباب أيضاً بسهولة لأنه يجهل ويعاني من الافتقار التام للمنظور، بينما يثق بلا حدود في حكمه الخاص. ودعنا لا ننسى كلمات ألدوس هكسلي أيضاً:

> إن أفضل طريقة للقيام بحملة صليبية لصالح قضية عادلة، هي أن تعد الناس بأن لديهم فرصة لإساءة معاملة شخص ما. أن تكون قادراً على التدمير بضمير مرتاح، وأن تكون قادراً على التصرف بشكل سيئ وتسمي سلوكك السيئ "السخط الوجيه" - هذه هي ذروة الرفاهية النفسية، والمتعة المعنوية الأكثر لذة.

* * *

لم تكن الثورة الثقافية تدور حول الدمار. في اجتماعه مع أندريه مالرو في عام ١٩٦٥، تحدث ماو عن ثقافة جديدة كانت بحاجة إلى الظهور، وهي لم تكن موضوعاً جديداً لمدير الدفة العظيم حتى ذلك الحين. فقبل ذلك بسنتين، في خطاب ألقاه في مؤتمر للحزب في مدينة

هانغتشو، أكد من جديد بشكل أساسي إيمانه الميتافيزيقي بقوة الكلمات في تحديد الواقع والتحكم فيه: "صياغة واحدة [صحيحة]، وستزدهر الأمة كلها. صياغة واحدة [غير صحيحة]، وستنحدر الأمة كلها. ما يشار إليه هنا هو تحول الروحي إلى المادي".

الحروب الصليبية لتنقية اللغة تحدث حتى في مجتمعنا ذاته، بطبيعة الحال. لكن في الصين، ذهب الحرس الأحمر إلى أبعد من ذلك في إيمانهم بأنه من خلال أعمال الطقوس التعزيمية وحملات إعادة التسمية القوية، قد تُكرّس الأشياء القديمة من جديد وتولد ثانية في عصر الثورة. حصلت المتاجر والمدارس والبلدات والشوارع والصحف - جميعها، على عناوين جديدة أكثر تناغماً مع العصر. وهكذا أصبح محل الخياطة المسمى "السماء الزرقاء" في بكين متجر "لنحرس الشرق" للخياطة، وأصبحت "كلية بكين يونيون الطبية" (اسم منحته الولايات المتحدة الأمريكية الإمبريالية) "المستشفى المناهض للإمبريالية". وفي بعض الأحيان، كان لإعادة التسمية جانب هجومي ثقيل للغاية وساخر: فعلى سبيل المثال، وجدت السفارة السوفييتية نفسها فجأة في شارع مناهض للتصحيحيين. كما لم تكن الأشياء غير الحية فقط من حصلت على الألقاب الثورية؛ فكذلك ابتهج الأطفال حديثو الولادة بأسماء مثل "البطل الأحمر" و"تعلم من الفلاحين" و"احموا الأحمر" و"الثورة الثقافية".

كانت إعادة التسمية مسألة بسيطة نسبياً. في عام ١٩٦٣، كان ماو قد اشتكى من أن المراحل التاريخية الصينية كانت مليئة "بالأباطرة والملوك والجنرالات والمستشارين والجواري والجميلات"، وقد صممت زوجته جيانغ تشينغ مشروعاً أعظم بكثير: لإنشاء فن صيني ثوري جديد يحل محل ثقافة من الماضي عفا عليها الزمن. كانت جيانغ ممثلة سابقة، لذا فهمت الفنون من وجهة نظر الممارس، وكانت كذلك شخصية سياسية -وربما الأفضل من ذلك، هذا السلام الداخلي المحفوظ: يمكن أن يتابع ماو بسهولة أكبر اهتمامه بأجساد العاملات في صفوفه، إن انشغلت زوجته بمهمة ثورية هامة. أشرفت جيانغ على مجموعة من المبدعين الأيديولوجيين الأنقياء، الذين خرجوا في نهاية المطاف من مختبراتهم الثقافية للكشف عن "ثمانية أعمال أنموذجية"، والتي تم الاعتراف بها رسمياً على هذا النحو في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٦. أصبحت خمس أوبرات وعرض باليه وسيمفونية متاحة للجماهير الآن بديلة

عن خمسة آلاف سنة من الثقافة. حسناً، لقد كانت تلك البداية على الأقل. لكنها كانت بداية بطيئة، ولم تتحسن بشكل أسرع، حيث عانت جيانغ ورفاقها من حرج ندرة الأفكار. وحتى ضمن النطاق المحدود للثمانية أعمال، كانت السيمفونية الوحيدة، **قرية شاجيا**، تستند إلى نفس رواية المصدر التي لإحدى الأوبرات، وتسمى أيضاً **قرية شاجيا**. تم تنفيذ هذه المجموعة من الأعمال الهزيلة بصورة لافتة في جميع أنحاء البلاد حدّ الغثيان، كما تمّ تكييفها كأفلام تمّ بثها في جميع أنحاء البلاد. في النهاية تمت إضافة بعض الأعمال الأنموذجية إلى المجموعة، ولكن ليس الكثير.

أما بالنسبة إلى الأدب، فقد أحرق الحرس الأحمر الكتب القديمة، وتوقفت الدولة إلى حد ما عن طباعة كتب جديدة لم يكن لها اسم "ماو" على الغلاف. هذه مبالغة، لكنها ليست كبيرة جداً، حيث أن معظم الأوكسجين قد امتصّ من الحياة الأدبية خلال الثورة الثقافية. في المجموع، ظهرت حوالي مائة رواية، على الرغم من أنه أتيح للقراء على الأقل إعادة طبع العمل الكلاسيكي **حافة الماء** وقصائد لماو للاستمتاع بها: تصبح الرقابة مهمة أسهل بكثير إذا لم يكن لديك سوى حفنة من الأعمال لتراقبها. بالطبع، ماو المحب الكبير للكتب، لم يُحرم شخصياً أبداً، ولم تحرق مجموعته من الطبعات الكلاسيكية، ولم يكن يعمل فقط في مكتب محاط بالكتب، بل كان ينام أيضاً في غرفة ملأت فيها الكتب الرفوف وانسكبت على سريره. واثقاً تماماً من نقائه الثوري، لم يخش الرئيس من أن الكلمات الخاطئة قد تضرّ به.

لكن حتى تلك الروايات المائة التي نشرت خلال الثورة الثقافية، كانت في النهاية مجرد ظلال للتألق الذي يعرضه ماو، والذي صار مهيمناً الآن بين زملائه مرة أخرى. رغم أن أعماله لم تكن الأعمال الوحيدة الموجودة، إلا أنها كانت الوحيدة التي تهم حقاً -ومن بين تلك الكتب، واحد كان مبجلاً فوق الآخرين.

في عام ١٩٥٩، انتقد وزير الدفاع الصيني، بنغ ديهواي، تجاوزات القفزة العظيمة إلى الأمام. على الرغم من أنه تجنب انتقاد ماو مباشرة، إلا أن الرئيس غضب. لم يطل بقاء بينغ طويلاً في منصبه، ومات في النهاية في السجن في عام ١٩٧٤. وحل محله لين بياو، الذي

تلقى من ماو منذ فترة طويلة الرسالة التي أصبحت **"شرارة واحدة يمكن أن تشعل حريقاً في البراري"**.

كان لين بياو من الموالين لماو، وليس له مصلحة في توليد نظرية خاصة به. كان تصوره المثالي للحكمة، هو أن تكون مختصرة وسهلة التذكر، ويفضل أن يتم تقديمها في شكل يسهل استيعابه بسهولة (وكان يحب كتابة الأقوال الحكيمة على بطاقات الفهرسة). على عكس ما كان عليه عند قراءة كتب طويلة تحتوي على حجج معقدة، تعاطف لين مع الجندي العادي، الذي بالكاد يتوقع منه أن يتقن قواعد ماو بأكملها وهو ما يزال بحاجة إلى تكوين الألفة بكل من معجم الثورة ومبادئها الأساسية. مستوحياً بطاقات الفهرسة الخاصة به، في عام ١٩٦١ أصدر بياو تعليماته لصحيفة **جيش التحرير الشعبي** اليومية للبدء بنشر اقتباس يومي من ماو. كي يمكن حفظ هذه السطور الصغيرة من الأيديولوجيا (التي طبعت بالحبر الأحمر للمساعدة في تمييزها عن الألفاظ العادية) وضعت موضع التنفيذ، وقد تم كل ذلك تحت إشراف جيش من الموجهين السياسيين.

اتضح أن لين بياو كان لديه فهم جيد لاحتياجات الجيش الأيديولوجية. بدأ الجنود في استخلاص كلمات الرئيس من **صحيفة جيش التحرير الشعبي** اليومية ولصقها في كراسات، وخلق مجموعات محلية الصنع من حكم ماو. في كانون الثاني/ يناير ١٩٦٤، أدارت الإدارة السياسية لجيش التحرير الشعبي العملية، وأنتجت اختياراً رسمياً لكلمات الرئيس الأكثر حصافة. كانت تلك الطبعة مختصرة: حيث تضمنت ٢٠٠ مقتطف قصير من أعمال ماو التي تمّ تنظيمها في ٢٣ قسماً. ثم بدأ تضخم الحكم، وبحلول شهر أيار/ مايو، كانت النسخة الموسعة قيد الطباعة، والتي صارت تضم الآن ٣٢٦ اقتباساً موزعاً على ٣٠ فصلاً، وهي مخصصة أيضاً للاستخدام العسكري. كانت هناك نسختان: واحدة بأغلفة ورقية بيضاء للرتب الأدنى، وأخرى بأغلفة حمراء للنخبة. ثم في أغسطس/ آب ١٩٦٥ ظهرت النسخة الثالثة، بحجمها المناسب لجيب الزي العسكري. الآن أصبحت كل نسخة مغلفة بغطاء من الفينيل ضد الغبار وأحمر اللون، وهو ما سيصبح قريباً شيئاً أيقونياً، ولكن له وظيفة عملية بحتة: لقد كان هناك لحماية الكلمات الثمينة للزعيم من أضرار المياه.

امتدت الطبعة "النهائية" لأعظم أقوال ماو إلى ٤٢٧ اقتباساً، تم ترتيبها في ٣٣ فصلاً، حققت نجاحاً هائلاً بين القراء العسكريين والمدنيين. لقد استغل لين بياو مطلباً عميقاً ليس فقط من جانب الجيش، وإنما من عامة الناس للحصول على دليل سريع لهجوم الكلمات التي اجتاحتهم منذ عام ١٩٤٩، الكلمات التي ظلت حتى الآن متناثرة في **أعمال ماو المختارة** وكتيبات أخرى لا حصر لها. أصدرت وزارة الثقافة في حزيران/ يونيو ١٩٦٦ مرسوماً يقضي بضرورة طباعة مائتي مليون نسخة في نهاية العام، وقد عانت البلاد من نقص في الورق، لأن كلمة الرئيس التهمت معظم الموارد المتاحة لصناعة النشر في الصين. في النهاية، تمّ جمع كل شيء ضروري في مكان واحد. كانت تلك هي الكلمات المهمة. هكذا وُلد **اقتباسات من الرئيس ماو**، المعروف أيضاً باسم **الكتاب الأحمر الصغير** أو (كما كان معروفاً في الصين) **كتاب الكنز الأحمر**.

تقدم المقدمة المنسوبة إلى لين بياو مزاعم كبرى:

> بمجرد فهم الجماهير العريضة لفكر ماو تسي تونغ، يصبح مصدر قوة لا ينضب وقنبلة ذرية روحية لا حدود لقوتها. يعدّ النشر على نطاق واسع **للاقتباسات من الرئيس ماو تسي تونغ** مقياساً حيوياً لتمكين الجماهير العريضة من فهم أفكار ماو تسي تونغ وتشجيع إحداث ثورة في تفكير شعبنا.

وصف الكتاب بأنه "قنبلة ذرية روحية"، كان بالطبع مجازاً مثيراً للسخرية على الطراز الشمولي الكلاسيكي. ولكن لم يكن الأمر كذلك: ففي أواخر عام ١٩٦٤، نجح الصينيون في تفجير سلاح نووي خاص بهم في منطقة شينجيانغ في شمال غرب البلاد. ارتفعت سحابة الفطر تلك، والمصنوعة محلياً من دون مساعدة سوفييتية، فوق سماء الصحراء، بينما كان خروتشوف يسقط عن السلطة في موسكو. كانت القنبلة الذرية رمزاً للفخر الوطني، مشبعة بالأصداء الرمزية، ودليلاً على أن الصين تستطيع تحدي الاتحاد السوفييتي في قيادة العالم الشيوعي. كانت **الاقتباسات من الرئيس ماو** معادلها الأيديولوجي، سلاح نصي من شأنه أن يقلب موازين القوى في العالم.

كان ماو -الذي كانت لديه في هذه المرحلة أسنان خضراء[1] ودخل مرحلة النشوة الدينية - مسروراً بهذه الطبعة الثالثة، حيث قارنها بالأعمال التاريخية التي ساهمت في بناء الحضارة كأعمال كونفوشيوس ولاو تزو. ومع ذلك، في حين كان جدول محتوياته طويلاً للغاية بالتأكيد، فإن الكتاب لم يكن شاملاً بشكل خاص. وبدلاً من ذلك، فإن تراتبية الاهتمامات تعكس بوضوح أصوله كدليل للجنود. بعد بضعة فصول مخصصة لأسس الشيوعية، يخصص الكتاب العديد من الصفحات للقضايا العسكرية والحزبية قبل أن يعالج أخيراً (في نهايته تقريباً) بعض الأفكار الذميمة المتخلفة مثل "الشباب" و"المرأة" و"الثقافة والفن" و"الدراسة".

تصبح هذه القيود أكثر وضوحاً أثناء تقليب الصفحات. وفي حين أن ستالين كان حريصاً على فرض تفسيره للأيديولوجيا الرسمية في الاتحاد السوفييتي عن طريق ملء **"أسس اللينينية"** ليس فقط بالاستشهادات الغزيرة من لينين، بل وأيضاً سياقها التوضيحي، لا يوجد مثل هذا التأطير الدقيق للمواد الأيديولوجية في **الاقتباسات من الرئيس ماو**. هذا لأنه تمّ تصميم الكتاب للاستخدام من قبل أشخاص لديهم محترفون أيديولوجيون متفرغون في متناول اليد لدسهم في خط الحزب الرسمي. لم يكونوا أبداً بعيداً عن خبير يمكنه إخبارهم بالضبط عن كيفية تفسير ما كانوا يقرؤونه. ولكن بمجرد إزالتها من الثكنات، تصبح **الاقتباسات من الرئيس ماو** على وجه التحديد ما تعلن هي عنه: كومة من الاقتباسات جردت من السياق، مفككة، مكررة، مملة وتافهة.

ومع ذلك، فإن الكتاب لا يخلو من الميزات. يحتوي على بعض من أعظم سطور ماو، بما في ذلك ما يتعلق بحفل العشاء في **تقرير عن استجلاء حركة الفلاحين في هونان**. وبترك النقاط الموجزة جانباً، فإن الكثير من **الاقتباسات من الرئيس ماو** رديئة بشكل مذهل. وفقاً لما هو عليه في النسخة المطهرة من سجل منشورات ماو، لا تحتوي الأنطولوجيا على إيقاظ الشياطين النابض بالحياة، أو الطيور التي تضرط، أو "قصر ملك الجحيم"، ولا أي من شعره، الذي، على الرغم من أنه متوسط الجودة، إلا انه أقل فظاعة من أعماله الدعائية أو

---

١ - ذو أسنان خضراء، تعبير عامي يطلق على الشخص عندما يكون منتشياً ثم يشعر بالجوع-المترجم

النظرية الصريحة. تكمن اليد المحنطة للماركسية اللينينية في الأسلوب، حيث يتعرض القارئ لحفظ واستظهار الهراء الذي يمكن أن ينتجه أي ديكتاتور شيوعي بعد عام ١٩١٧.

> يا شعوب العالم، اتحدوا واهزموا المعتدين الأمريكيين وكلابهم! يا شعوب العالم، كونوا شجعاناً، وتجرؤوا على القتال، وتحدي الصعوبات، وتقدموا موجة تلي موجة. وسيصبح العالم كله ملكاً للشعب. يجب تدمير الوحوش مهما كان نوعها.

خطاب خشبي مثل هذا، تعقبه شعوذة سياسية من دون طعم مثل هذه:

> يجب أن يكون التوفير هو المبدأ الموجه في الإنفاق الحكومي. يجب أن يكون واضحاً لجميع العاملين في الحكومة أن الفساد والهدر هما من الجرائم الكبيرة جداً. لقد حققت حملاتنا ضد الفساد والإهدار بعض النتائج بالفعل، ولكن يلزم بذل مزيد من الجهود. يجب أن يسترشد نظامنا المحاسبي بمبدأ توفير كل النحاس في المجهود الحربي، وللقضية الثورية ولبناء الاقتصاد.

تستنتج الخلاصات من الكلمات وتلصق في الكتاب بالجملة، جنباً إلى جنب مع مقاطع طويلة من الأعمال الرئيسية. وهكذا، على سبيل المثال، يتم تقديم القارئ مع استنتاج من ست نقاط عن **الموقف الحالي ومهامنا** من دون قراءة أي من الحجج الداعمة المؤدية إليه. الهدف من ذلك هو عدم التعامل مع فكر ماو، بل تعلم كيفية إنتاج الكلمات والأفكار الصحيحة حسب الطلب. وفي الوقت نفسه، يتم استخراج العديد من الاقتباسات "الحكمية" من أجزاء مختلفة من نفس المقالات. بالكاد يمكن تحمل قراءة **عن التناقض** و**عن الممارسة** المميزين كثيراً في شكلهما الكامل، كما لا يتحسن ذلك بمجرد تقسيمهما إلى أجزاء وتجريدها من السياق. من الصعب أن نتخيل جندياً أو عاملاً في مزرعة جماعية عائداً من عمله الشاق في خدمة الدولة، قد يستفيد شيئاً ما من هذا النص المنفر المجتزأ من إطار الكلمات في **عن التناقض**:

> لا يمكن حل التناقضات المختلفة نوعياً إلا بطرق مختلفة نوعياً. فعلى سبيل المثال، يتم حل التناقض بين البروليتاريا والبرجوازية بطريقة الثورة الاشتراكية. ويتم حل التناقض بين الجماهير العظيمة للشعب والنظام الإقطاعي بطريقة الثورة الديمقراطية؛ يتم حل التناقض بين المستعمرات والإمبريالية بطريقة الحرب الثورية الوطنية؛ يتم حل التناقض بين الطبقة العاملة والطبقة الفلاحية في المجتمع الاشتراكي بطريقة

التجميع والميكنة في الزراعة؛ يتم حل التناقض داخل الحزب الشيوعي بطريقة النقد والانتقاد الذاتي؛ يتم حل التناقض بين المجتمع والطبيعة من خلال طريقة تطوير القوى المنتجة... مبدأ استخدام أساليب مختلفة لحل التناقضات المختلفة، هو مبدأ يجب على الماركسيين اللينينيين مراعاته بدقة.

إن إنجاز **اقتباسات من الرئيس ماو**، هو أنه يحدّ من فكرة ماو تسي تونغ ويحولها إلى سلسلة من النغمات المتشنجة عن العمل الجاد، والتضحية بالنفس، والكراهية للإمبرياليين، وأهمية الاقتصاد، والرواقية، والطاعة والولاء لماو وللحزب. الكتاب ممل بشكل مذهل من منظور المحتوى، وهو أيضاً تقليدي للغاية في شكله. في الصين، عُرفت المختارات من الاقتباسات التي تهدف إلى تقديم الإرشادات الأخلاقية أو الدينية باسم "**يولو**"، وهي تعود إلى كونفوشيوس ومقتطفاته. وهكذا فإن **الاقتباسات من الرئيس ماو** كانت لها سوابق كثيرة بالأحرف الصينية الكلاسيكية والحديثة، ولم تمثل بأي حال من الأحوال تحسناً في الأنموذج[1]. وعلى الرغم من ذلك، كانت ظروف السوق مواتية للغاية لنص ماو، وليس بسبب هيمنته على السلطة السياسية فقط. وبمساعدة حلفائه المراهقين ذو البثور، شرع ماو في إتلاف الثقافة الصينية، وقام بتصفية جميع منافسيه بنجاح، وصنع ما تنفر منه الفطرة السليمة بإطلاق الحرس الأحمر الجاهل على الأمة وتاريخها ومؤسساتها، فتح ماو فراغاً لا يمكن لشيء سوى صورته وكلماته الإلهية أن يسده.

تمّ تخصيص أحواض ضخمة من الحبر، ومستودعات ضخمة من الورق، وبحيرات كبيرة من الفينيل الأحمر لعبادة الإله ماو الوضيء. بحلول نهاية العقد، كانت هناك أكثر من مليار نسخة من **اقتباسات من الرئيس ماو** قيد التداول، مضافة إلى ٧٨٣ مليون نسخة من كتبه وكراساته الأخرى التي طبعت بين عامي ١٩٤٩ و١٩٦٥. وبالنظر إلى أن سكان الصين خلال الثورة الثقافية كان في حدود ٧٥٠ مليوناً، وهو رقم يشمل الرضع والأطفال في مرحلة

---

١ - لم يكن ماو حتى أول زعيم يفرض اليولو على الشعب الصيني. فقبل قرون، أنتج مؤسس سلالة مينغ مجموعة من أفكاره العميقة تحت اسم **مينغ تا كاو** (مرسوم مينغ العظيم)، وكانت جميع الأسر مجبرة على امتلاك نسخة منه، ولأن عدد سكان الصين كان وقتها ثمانين مليون نسمة، فلا بد أن هذا الكتاب تمتع بتداول مرتفع للغاية في تلك الفترة. المؤلف

ما قبل المدرسة والأطفال الصغار غير القادرين على قراءة أي شيء أكثر تعقيداً من رسم كاريكاتوري دعائي عن الحرب الصينية اليابانية، فمن الواضح أن العرض فاق الطلب بكثير. وحتى لو عاد العديد من موتى القفزة العظيمة الى الأمام فجأة من القبر مليئين برغبة لا تقاوم لقراءة ما كتبه ماو، كان لا يزال هناك بضع مئات من ملايين النسخ المتبقية.

قفزت اقتباسات ماو من بين حدود أغلفة الفينيل الحمراء لتتسلل إلى العالم عبر وسائل أخرى، وأخذت تستشري عبر المشهد المادي. وظهرت ككتابات على جدران المنازل الخاصة في شكل لوحات اقتباس، أو تم لصقها على لوحات العرض في الشوارع والمتنزهات، في حين اقترح بعض الحرس الأحمر المتحمس بشكل خاص إرفاق لوحات اقتباس في السيارات والقطارات والدراجات. في شكل غير مجسم، وبمصاحبة موسيقى مرحة، غزت اقتباسات ماو الموجات الهوائية كأغانٍ تفّجرت من أجهزة الراديو في جميع أنحاء البلاد. تم إطلاق العشرة الأوائل في ٣٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٦، في حين كانت حفلات الاستقبال الجماعية لماو لا تزال جارية. وبينما كان شباب الغرب المتمردون يزعجون آباءهم وأمهاتهم بالاستماع إلى "دعونا نتفق الليل معاً"، كان أندادهم في الصين الحمراء يرقصون على أنغام "القوة التي تقود قضيتنا إلى الأمام هي الحزب الشيوعي الصيني" و"لنضمن أن الأدب والفن يعملان كأسلحة قوية لإبادة العدو". في المجموع، تم تقديم ٣٦٥ من اقتباسات ماو في شكل موسيقي، واحدة لكل يوم من أيام السنة. كما تلقت بعض أبيات الرئيس معالجة لتحويلها إلى أغان راقصة.

كانت تلك هي المظاهر الرسمية لكلمات ماو. ومع ذلك، كانت هناك المئات من الطبعات المحلية وغير الرسمية **من اقتباسات الرئيس ماو**، والإصدارات الأجنبية أيضاً، حيث أطلقت الدولة الصينية "قنبلة ذرية روحية" على كوكب الأرض، على أمل أن تنفجر لتزيل من الوجود تأثير الاتحاد السوفيتي على الثورة العالمية. بدأت الصين بإطلاق الاقتباسات على أهداف خارجية في عام ١٩٦٦. وبحلول شهر أيار/ مايو من العام التالي، كانت هناك أكثر من ٨٠٠ ألف نسخة مطبوعة بأربع عشرة لغة. وسترتفع هذه الأعداد إلى ١١٠ مليون نسخة وست وثلاثين لغة بحلول عام ١٩٧١. لم ترق إصدارات الاقتباسات التي ظهرت في الخارج للثوريين في العالم النامي والشباب الثوري في الحرم الجامعي في باريس وبيركلي فحسب، بل وأيضاً لكبار السن الذين لا بد أنهم عرفوا ما هو أفضل، مثل جان بول سارتر، وميشال

فوكو، وإيرلي إيه، وشيرلي ماكلين[1]. بهذه العملية، أصبح ماو ثرياً للغاية. مثل هتلر، جمع المال من مبيعات كتبه: وفقاً لمقال نشر عام ٢٠٠٧ في مجلة **العالم الأدبي لتاريخ الحزب**، بحلول عام ١٩٦٧ حصل ماو على ٥.٧ مليون يوان (٧٨٠،٠٠٠ دولار) من بيع الطبعات الصينية والإنجليزية والروسية والفرنسية، والإسبانية واليابانية من كتبه.

ولكن كانت هناك مشكلة. عندما تحول تلاميذه الصغار إلى الكتاب المقدس لنيل التوجيه، لم يكن لديهم مفوضون سياسيون يتمتعون بالسلطة التفسيرية لتعليمهم الفهم الصحيح لكلمات السيد. لم يجدوا حقيقة واحدة بل حقائق متعددة، وسادت الفوضى التفسيرية، حيث قامت الفصائل المتحاربة من الحرس الأحمر بإلقاء الاقتباسات على بعضها البعض في معارك أيديولوجية مريرة. كانت كلمات ماو الآن عبارة عن شظايا حرة، يمكن استخدامها لتبرير الحجج المتعارضة.

كان الرئيس مستاءً، وكان يشعر بالضيق مرة أخرى عندما بدأ الحرس الأحمر في نشر طبعات من نصوصه التي منع نشرها، والتي اكتشفوها عند مداهمة منازل النخبة الحزبية "التصحيحية" الذين تمكنوا من الوصول إلى ماو غير الصحيح. كشفت هذه "الأناجيل الضائعة" عن الماويون الآخرين: ماو الصريح جنسياً، ماو الراديكالي، ماو غير الماركسي تماماً. كان للكشف عن هذه الأقوال الخفية للإله-الإنسان، القدرة على زعزعة استقرار الشريعة الرسمية والصورة التي تمّ بناؤها بعناية للرئيس نفسه. ولم تكن السيطرة على النصوص المقدسة فقط من كانت تفلت من سيطرة ماو. انتهى حظر الحزب الرسمي على الصور المحفورة التي تمثل الأحياء بينما بدأ الحرس الأحمر في رفع نُصُب للرئيس. في عام ١٩٦٧، أقام الطلاب في تشينغهوا دمية كبيرة لماو، وهو العمل الذي أدى إلى سباق مسلح هائل، حيث تنافست الفصائل المتصارعة على إقامة التماثيل لمعبودها، وغالباً ما يتم القيام بمبالغات رمزية في أبعادها.

واحداً تلو الآخر سقط "التصحيحيون"، ومن بينهم عدو ماو ليو شاوغي، الذي وضع رهن الإقامة الجبرية في منزله في عام ١٩٦٧. رغم أن ليو لم يمت بعد (لم يزره قابض الأرواح إلا في عام ١٩٦٩، بعد فترة طويلة من التعذيب في السجن)، كان بلا شك جثة سياسية - ومع

---

١ - جعل سارتر نفسه أضحوكة في أيامه الأخيرة من خلال نشر نسخ من الصحف الماوية في شوارع باريس، في حين نشرت شيرلي ماكلين مذكراتها "**يمكنك الوصول إلى هناك من هنا**"، تحدثت فيها عن جولة في الصين "غيرت حياتها" قامت بها في عام ١٩٧٢. المؤلف

ذلك استمر الحرس الأحمر في الغضب. عرف ماو أن المذبحة لا يمكن أن تستمر إلى أجل غير مسمى: لقد كان الأمر محرجاً عندما طفت الجثث إلى الأراضي البريطانية في هونغ كونغ، وصار محرجاً أكثر عندما هاجمت مجموعة من المصلين المتحمسين لماو القنصلية البريطانية في بكين. في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٧، قرر استعادة بعض النظام، وتلقى شباب الأمة تعليمات للعودة إلى الفصول، بعد فترة راحة خصصت لإثارة الثورة استمرت حتى تلك اللحظة لما يتجاوز العام[1]. كما كرر ماو دعوته لتشكيل "لجان ثورية" لحكم المقاطعات بدلاً من الهياكل البيروقراطية القديمة (والمدمرة الآن(. تمت تعبئة فرق للعمل السريع من العمال الأيديولوجيين في جميع أنحاء البلاد، وتنظيم فصول لدراسة فكر ماو تسي تونغ لضمان توجيه الشعب بشكل سليم في التعامل الصحيح مع أفكار الرئيس.

وعلى الرغم من هذه الجهود لكبح جماح الفوضى، بقي إخوة وأخوات ماو الصغار مصرين على تشويه وقتل بعضهم البعض. اندلعت المعارك بين فصائل الحرس الأحمر في عام ١٩٦٨. بعد أن طلب منهم القتال، استمروا في القتال، ولم يدركوا أن ماو نفسه، وليس قوى "الرجعية السوداء"، من يريد الآن منهم أن يتوقفوا. كان الشباب الراديكالي عازماً ومصمماً على الاستمرار في تمرده عندما أرسل الرئيس فرق العاملين في الدعاية لفكر ماو تسي تونغ من مصانع بكين إلى الحرم الجامعي بالمدينة في تموز/ يوليو ١٩٦٨، رد الحرس الأحمر بالعنف على أولئك المصالحين المحتملين والمعلمين الأيديولوجيين. في إحدى المدارس، ألقوا الحجارة وأطلقوا النار على هؤلاء المفسرين المعينين رسمياً، وقتلوا خمسة منهم. استثير غضب ماو، فاستدعى قادة الحرس الأحمر لحضور لقاء شخصي، كشف فيه أن "اليد السوداء" هي التي أرسلت الفرق التي هاجموها. انتقل الجيش إلى الحرم الجامعي لاستعادة النظام، في حين تم إرسال ملايين من الحرس الأحمر بعيداً للقيام بالأعمال الزراعية أو الكدح في المصانع كجزء من حركة "صاعدين الجبال، منحدرين نحو القرى". لم يعد الكثيرون أبداً إلى مدنهم الأصلية، رغم وجود مصائر أسوأ من المنفى الدائم. تضمنت حملة ماو "تطهير الرتب الطبقية"، ما أدى إلى مزيد من العنف والتشويه والاضطهاد والموت الجماعي، بينما تطور

١ - كان هناك نداء مماثل صدر في وقت سابق من شهر فبراير، لكن من الواضح أن عدداً قليلاً من الحرس الأحمر استجاب له. المؤلف

النضال الطبقي في بعض أجزاء الريف إلى درجة جعل فيها الصالحين سياسياً يأكلون اللحم والأكباد أو حتى الأعضاء التناسلية لخصومهم المعادين للثورة.

كان من المفترض أن يتم استرجاع **اقتباسات من الرئيس ماو** من حالة الفوضى التفسيرية، وفُرض تفاهم موحد على الأمة المجزأة. كان جيش التحرير الشعبي بمثابة "المدرسة العظيمة" للمجتمع الصيني وتعليم الناس المعنى الحقيقي لماو. بالنسبة إلى الملايين، كان هذا يعني دراسة يومية مكثفة ومنتظمة لكلماته. لم يكن الهدف هو تعزيز الوعي النظري للناس، بل تعميق درجة خضوعهم للإله البشري. في عام ١٩٦٨، أطلق الحزب حملة الولاءات الثلاثة:

1. الولاء للرئيس ماو.
2. الولاء لفكر ماو.
3. الولاء لخط ماو البروليتاري الثوري.

و، إلى حد كبير، أضاف أربعة محبات بلا حدود:

1. الحب الذي لا حدود لها.
2. الولاء الذي لا حدود له.
3. الإيمان بلا حدود. و
4. العشق بلا حدود للرئيس ماو.

بعد عامين من الثورة الثقافية المزعومة، عاد ماو على الفور إلى الفئات المرقّمة التي جاءت مباشرة من الكتب المقدسة في الصين القديمة لإعادة تأسيس النظام. وفي الواقع كان على وشك رفع تقليد قديم آخر -تبجيل الفيلسوف/ الحكيم/ الإمبراطور وكلماته - إلى مستويات غير مسبوقة من العبثية.

* * *

في عام ١٩٦٥، نشر كاتب الخيال العلمي الكبير فيليب ك. ديك، من كاليفورنيا كتاب **سمات بالمر إلدريتش الثلاث**. في هذه الرواية، تجد مجموعة من المستعمرين الذين تم إعدادهم لبناء مجتمع جديد على سطح المريخ. إن البيئة قاسية للغاية وحياتهم مليئة بالكدح،

لدرجة أنهم يفرون بانتظام إلى عوالم بديلة. في البداية، تناولوا عقار Can-D، الذي يمكّنهم من المشاركة في هلوسة جماعية تركزت على مجموعة ألعاب كين وباربي. معاً، يتجولون في سيارة، ويعيشون الحياة الاستهلاكية المثالية في الخمسينيات من القرن العشرين، من النوع الذي اعتقد خروتشوف أنه هدف مناسب للاتحاد السوفييتي، طالما كان أفضل من الإصدار الأمريكي. المشكلة هي أن المستعمرين كانوا يميلون إلى التشاجر تحت تأثير الهلوسة حول المسار الذي يجب أن تأخذه، مما دمّر التجربة. إلى جانب ذلك، فإن الرحلة كانت قصيرة للغاية. لذا عندما يعود عالم صناعي غامض يدعى بالمر إلدريتش من رحلة استغرقت عشر سنوات بين النجوم مع عقار مهلوس جديد أكثر فعالية هو Chew-Z، فإنهم يتخلون عن Can-D على الفور تقريباً. يمكن لمستخدمي عقار إلدريتش إنشاء عوالم بديلة خاصة بهم، والتي يستطيعون تشكيلها حسب رغبتهم، كالآلهة، بحيث يتجاوزون فظاعة حياتهم التي لا تطاق.

لسوء حظ المستعمرين، فإن إلدريتش كان شريراً أكثر منه منقذاً. يمكن التعرف عليه من خلال "سماته" الثلاث -ذراع ميكانيكية وأسنان من الصلب الذي لا يصدأ وعيني الروبوت- وكان يتجلى في العوالم المهلوسة التي ينشئها مستخدمو Chew-Z، حتى أنه يفرض نفسه على أجساد الذين يتعاطونه. إن بالمر إلدريتش موجود في كل مكان، وهو خالق شرير يحبس ضحاياه في واقع يسيطر عليه: "كل شيء هو الخالق"، كما يقول بارني مايرسون، بطل الرواية. "ذلك من هو وما هو، صاحب هذه العوالم. بقيتنا يسكنونها فقط وعندما يرغب يمكنه أن يسكنهم أيضاً. يمكنه أن يركل المشهد، ويُظهر نفسه، ويدفع الأشياء في أي اتجاه يختاره".

على الرغم من أن ديك قد أنتج كتابه **سمات بالمر إلدريتش الثلاث** بينما كان تحت تأثير كميات فلكية من الأمفيتامين (ومستلهماً من رؤية لوجه شرير رآه في السماء)، إلا أنه يعتبر أنموذجاً للواقعية المقيدة مقارنة بالأحداث التي تكشفت بالفعل في الصين، بعد وقت قصير من نشر **اقتباسات من الرئيس ماو**. من دون مساعدة من عقار كوني اكتشف في مجرة أخرى، غزا ماو الواقع إلى حد بعيد لم يحلم به بالمر إلدريتش الخيالي.

كانت سماته الخاصة -خط الشعر المتراجع، أشعة الشمس المنبعثة من خلف رأسه، الخدين السمينين، الابتسامة اللطيفة -منتشرة في جميع أنحاء الصين. كان ماو في المشهد الطبيعي، يشع على الجماهير من ملايين الملصقات الملصقة على الجدران، بينما يكرر جسده نفسه في تماثيل من

الذهب في ساحات البلدة، وفي حرم الجامعات، وفي شوارع المدن. في شكل أزرار، تم تثبيت المليارات[1] من وجوه ماو على أجساد الجماهير، لا تفصلها عن القلوب سوى بوصة أو نحو ذلك من القماش والجلد واللحم والعظام: بعضها يتوهج في الظلام. كان يُعثر على صورة ماو في قلوب بلاستيكية حمراء، أو مطرزة على القماش، أو محفورة في كرات البلياردو، أو محاطة بالصدف المصقول وريش النعام المزيف. كانت نماذج أكبر لماو تتدلى من أعناق المؤمنين في صور كبيرة مؤطرة، أو تخرج الآلهة الأقدم من محاريبها في المنازل الريفية.

لم تكن صورة ماو هي التي انتشرت. فكذلك، فعلت كلمته. كانت محفورة على جوانب الجبال وعلى حبوب الأرز. تم استنساخها على الملصقات ودونت على النصب التذكارية. غطت جدران "معابد الاقتباس" و"قاعات الولاء" التي أقيمت على شرفه. لكن غزو ماو الإلهي لم يكن مجرد اعتداء على العينين: لقد كان شيئاً حميمياً، وحشوياً، استولى على اللسان وهزّ الأطراف. على نحو متزايد، عندما يتحدث سكان مدينة ماو الصينية، كان عليهم قول كلام الرئيس وليس كلامهم، لأن الأمة كانت غارقة في معجم اللغات الثورية الغريبة. عبر أفواه الملايين، تحدث ماو، وكرر نفسه مراراً وتكراراً، واختبر حدود قدرة معاني اقتباساته على التدمير في غرفة صدى أيديولوجية واسعة وخانقة.

كانت ورشة الحياكة العامة في بكين "مصنعاً أنموذجياً" يشتهر بجواربه المصنوعة من النايلون، ولكن أثناء جنون الحرس الأحمر، انحدر إلى معسكرين منقسمين بمرارة على أسئلة التفسير النصي. في أواخر عام ١٩٦٧، أرسل ماو خبراء أيديولوجيين من مكتبه المركزي للحرس إلى مصنع الحياكة لتعليم موظفيه البالغ عددهم ألفي شخص الطريقة الصحيحة لقراءة أعماله. وقد أسعدته النتائج: لم يحقق العمال وحدهم مستويات غير مسبوقة من الاتحاد عبر الدراسة المكثفة لكلماته، لكنهم كانوا رواداً في طقوس جديدة للعبادة، تركزت على صورته وكتاباته المقدسة. يبدأ كل يوم والعمال ينظرون إلى صورة ماو و"يطلبون التعليمات"، كما لو كان قائد الدفة العظيم، أو روحه، حاضرين في الغرفة. وبفضل طبيعة كلماته، كان ماو دائماً في متناول اليد. على مدار اليوم، كان عمال ورشة الحياكة قادرين على البقاء ملهمين في مهامهم من خلال اللجوء إلى لوحات الاقتباس التي أحاطت بهم، ما عزز "حماسهم للعمل" بالحديث عن

---

١ - تتراوح التقديرات بين ٢.٥ مليار إلى ٥ مليارات. المؤلف

حكمة ماو. في نهاية كل نوبة عمل، كان الرئيس حاضراً أيضاً عندما نقل العمال السلطة الملهمة إلى بدائلهم عبر نطقهم كلمات القائد. ولم يتخلَّ ماو عن أطفاله في نهاية يوم العمل، لأن صورته كانت لا تزال معلقة على الحائط، تستمع فيما هم "يعيدون إخباره" عن إنجازاتهم وصراعاتهم. ولكن بقي هناك المزيد من طقوس المشاركة التي يتعين القيام بها، حيث يجتمع العمال في المساء لمناقشة تجاربهم في ضوء اقتباسات الرئيس. ما هي الدروس التي يمكن تعلمها؟ ما الحكمة المطبقة في المرة القادمة؟ كان ماو يتطفل على كل لحظة تكون فيها مستيقظاً.

كتب ماو تأييداً سريعاً لما يجري في "ورشة الحياكة" على التقرير الذي تلقاه ("جيد جداً")، وأصبحت هذه هي الورقة التالية والحبر عليها التي ستقوم بتغيير معالم حواس الأمة الأكثر اكتظاظاً بالسكان في العالم. كان التمرد يخفت. كان التبجيل يعلو. وهكذا، انتشرت اللوغوسية فائقة التعبئة من ورشة بكين للحياكة العامة إلى جميع أنحاء البلاد. بدأت الصين تشبه ديراً ماوياً عملاقاً، اضطر فيه مئات الملايين من القاطنين للمشاركة في طقوس جديدة صارمة من عبادة الدولة. وإن كانت الجوانب الدينية الستالينية واضحة تحت اللباس الشيوعي، فإن ماو لم يكن مغطى حتى بشيء شفاف كثوب النوم. كان الكتاب الأحمر في كل مكان، والصلاة الجماعية الصباحية أمام الأيقونة، وفترات الراحة المنتظمة لقراءات الكتاب المقدس طوال يوم العمل، وتلاوات عامة من الأعمال المقدسة، واعترافات بالخطايا، ومباركة الطعام بنطق "يحيا الرئيس ماو" أو التلاوات الطويلة من الدعوات الطيبة لموجه الدفة العظيم. لم يكن العمل وتقديم التزلف كافياً. بل يجب التوكل على الألوهية باستمرار، ومراجعة كلماته باستمرار، ومديح جلالته باستمرار. ترك هذا القليل من الوقت للتفكير، ولكن ذلك كان هو بيت القصيد.

مثله مثل من يمتلك أكثر من ٧٧٥ مليون قطعة سلاح، تسبب ماو في إطباق فكي الجماهير ليصطدم الأعلى بالأسفل، مردداً كلماته. في المدارس، شارك الطلاب في "تبادل الاقتباسات"، قاذفين حكمة الرئيس تجاه بعضهم البعض كما لو كانوا يشاركون في لعبة بينغ - بونغ أيديولوجية. في المحلات التجارية في نانجينغ، توحد الموظفون والعملاء في أغنية وتحية للرئيس، كما تناسوا قليلاً تجاراتهم كي يدرسوا أعماله عن كثب بدلاً من ذلك. عندما انخرطوا أخيراً في تبادل السلع، فعلوا ذلك مع اقتباسات ملائمة من الرئيس:

ونجحت كتيبات البقاء على قيد الحياة التي يتم منها إعطاء التوجيهات بشأن الأقوال التي تتناسب والسياقات، وصولاً إلى الفئة الاجتماعية للمحاور الخاص بك. ولعل أبرز مثال على غزو ماو للغة، يأتي من الناقد الأدبي الصيني هوانغ زيبنغ، الذي يتذكر محاولة أحد الأصدقاء إثارة مشاعر رفيقة أنثى عبر استخدامه اقتباسات ماو حصرياً، ما أدى إلى هذه القصيدة الخشنة للغاية:

١- نلتقي من البحيرات الخمس والبحار الأربعة، من أجل هدف ثوري مشترك.

٢- علينا تبادل المعلومات.

٣- علينا أولاً أن نفهم جيداً، وثانياً أن نكون واعين بالسياسة.

استحوذت كلمة ماو أيضاً وسيطرت مباشرة على الأجساد من خلال "جمباز الاقتباس"، حيث قدم الرفاق الواعون باللياقة البدنية - فالزعيم العظيم، قد شدد على أهمية التدريب البدني حتى في أعماله قبل الثورة، كما تتذكر -قصة ثورية مسلسلة من تسعة تمارين مستمدة من الموضوعات الماوية. بالنسبة إلى الزائر الأجنبي أو الغريب الذي وصل مؤخراً، فإن ما كان يشبه تسلسلاً عنيفاً من حركات الشدّ كان في الواقع استحضاراً لمقالات ماو "الثلاث المقروءة باستمرار"، بينما كانت هناك أيضاً سلسلة من التدريبات بناءً على ملاحظة ماو الشهيرة "القوة السياسية تأتي من فوهة البندقية". تبلغ التدريبات ذروتها بالإعلان عن النية في قراءة المزيد من ماو.

بقيت منتشرة على نطاق واسع رقصات الولاء التي حاول المصلون من خلالها إظهار "حب حار لا حدود له" للرئيس. رغماً عن أن ترابطها السردي كان أقل تماسكاً من الجمباز المقتبس، إلا أن إحدى التنويعات كانت تتطلب ليّ الجسم في شكل الحرف الصيني الذي يعني "الولاء". لذلك كان فكر ماو تسي تونغ قد بدا بشكل متزايد ليس منفصلاً عن الماركسية فقط، وإنما أيضاً عن الفكر ذاته. البديل، كان يتعلق بالطقوس والتعاليم والمظاهر العلنية للولاء: وهكذا فقط يمكن إنقاذ الناس. بالطبع، عندما يكون هناك مؤمنون، لا بد أن يكون هناك كفرة أيضاً، وهؤلاء عوملوا بكل وحشية المفتشين الدينيين. حتى التعديات العرضية على الكلمة، مثل الخطأ في استعمال قطعة من الورق عليها نصوص ماو كورق تواليت (من

السهل القيام بذلك في ظل شح الورق)، أو نطق عبارة ماو بالتنغيم الخاطئ، قد يؤدي إلى السجن أو الموت.

ولكن هذه كانت المظاهر الأقل لكلمة ماو المهيبة. بدأت القصص المذهلة تظهر في الصحافة الصينية التي أوضحت أن نطق اقتباس ماو الصحيح في المكان المناسب في الوقت المناسب قد يتسبب في حدوث المعجزات. تميل قصص المعجزات هذه إلى اتباع صيغة بسيطة: تكون هناك مشكلة؛ يقول المتشككون إنه لا يمكن التغلب عليها؛ ثم ينظر أحد المؤمنين في مجموعة ماو المكتوبة ويكتشف اقتباساً (أو اقتباسات) ذا قوة عظمى. صار ماو في هذا أفضل من يسوع: فبينما كان لا بد أن يكون ابن الله حاضراً جسدياً ليحيي الموتى أو يعيد البصر إلى الأعمى، قام ماو بتبسيط العملية وأجرى معجزاته عن بُعد، حتى من دون أن يعرف أنها حدثت. وقد أسند العمل إلى أي شخص يقرأ كلماته بإيمان كافٍ.

في البداية كانت المعجزات بسيطة نسبياً. يبدأ تقرير نشرته وكالة أنباء الصين الجديدة في أغسطس/ آب عام ١٩٦٦، قبل أن تصبح الثورة الثقافية هائجة تماماً، بسؤال عميق:

> ما هو السر وراء التقدم السريع لفريق تنس الطاولة الصيني وانتصاراته الرائعة في البطولات الدولية؟ يقول أعضاء الفريق إن الإجابة هي الفكر العظيم لماو تسي تونغ.

اتضح أن مقالات ماو **عن التناقض** وعن **الممارسة** كانت الأولى التي كان لها تأثير عميق على مهارات فريق البينغ بونغ. قبل سبع سنوات، وجد الفريق بعض الأفكار الاستراتيجية الحاسمة (غير المحددة) وسط "الفلسفة". لكن تلك كانت البداية فقط. منذ ذلك الحين، طور الفريق الصيني معرفة عميقة بالعديد من كتابات ماو، وقد وجدها الآن مفيدة جداً، لدرجة أنهم في جولة حديثة في اليابان وكمبوديا وسوريا قد استغلوا "كل جزء من الوقت المتاح" لدراستها. في الواقع، كان التعامل مع كتابات الزعيم، وليس التدريب الرياضي، "حاجة أساسية للفريق":

> في مناقشة حديثة، اتفق اللاعبون الصينيون على أنهم "مسلحون بفكر ماو تسي تونغ، سيكون لدينا أعظم وحدة وأعلى مشهد وأكبر شجاعة وأعلى معنويات. يجب ألا نخشى الوحوش والشياطين في الصراع الطبقي، ولا المعارضين الأقوياء في اللعب".

بحلول عام ١٩٦٨، اكتسبت كلمة ماو الكثير من القوة، بحيث استطاعت أن تفعل أكثر من الفوز بمباريات قليلة من تنس الطاولة. إنها الآن علاج للسرطان. ظهرت قصة معجزة مفصّلة بشكل خاص، وهي قصة تشيانغ تشو تشو، امرأة مصابة بورم يزن تسعة وتسعين رطلاً، ظهرت في مجلة **بكين رفيو** في آب/ أغسطس ١٩٦٨. عندما بدأت القصة، كان أطباء شيانغ الأوائل فاسدين بسبب تعرضهم للعلم البرجوازي الغربي، ولم تكن لديهم ثقة في بقائها على قيد الحياة. ولم تلقَ الأمل إلا عندما قابلت الأطباء الذين قرؤوا الكثير من ماو. لا يتخلى هؤلاء الأطباء عن غرورهم فحسب، بل يتركون أيضاً وراءهم أي فكرة تقول إنه ينبغي عليهم الاعتماد على الخبرة الطبية لتوجيه قراراتهم. وبدلاً من ذلك، يستسلمون للرئيس وهو يظهر إرادته في اقتباسات متنوعة. أثناء التشخيص الأولي، على سبيل المثال، اعتمد أطباء تشيانغ على هذه الفكرة العميقة: "لا يمكنك حل مشكلة؟ حسناً، انزل واكتشف الحقائق الحالية وتاريخها السابق".

بعد إدراكها لأهمية رؤية الرئيس، تتخذ "مجموعة التحقيق" الخطوة التالية المتمثلة في سؤال المستشفى عن مكان تلقي المريض للعلاج في السابق للحصول على نسخ من سجلاتها الطبية. حتى هذه اللحظة، على ما يبدو، لم يفكر أحد في القيام بذلك. هذا لا يعني أن قراءة ماو فجأة تحل جميع المشاكل. تبقى المعركة ضد السرطان صراعاً دراماتيكياً. لحسن الحظ، يمكن دائماً التغلب على العقبات من خلال الإخلاص للرئيس وعمل تحديد مكان الاقتباس الملهم، بغض النظر عن السياق الأصلي. وهذا مفيد بشكل خاص عندما يحين الوقت لإزالة ورم تشيانغ. يلجأ الأطباء الآن إلى كتابات الرئيس **العسكرية**، حيث يجدون هذه الكلمات:

> "هاجموا قوات العدو المنتشرة والمعزولة أولاً؛ ثم هاجموا قوات العدو القوية المتمركزة لاحقاً". وأيضاً: "طوقوا قوات العدو بالكامل، واسعوا إلى القضاء عليها تماماً".

من وحي الإلهام، قاموا بإزالة الورم الهائل من تشيانغ تشو تشو، التي تعافت من الجراحة، ولم تشكر الأطباء الذين أنقذوها فحسب، بل الطبيب العظيم نفسه: "يعيش الرئيس ماو! لقد أنقذني الرئيس ماو! " وفي اليوم الثامن بعد الجراحة، كانت تستطيع النهوض المشي.

اتضح أيضاً أن اقتباسات ماو كانت فعالة جداً ضد الطقس العاصف، حيث أنقذت البحارة في البحار الهائجة على طريقة يسوع. أبلغ راديو بكين مستمعيه في ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٦٩، أنه عندما هددت عاصفة رهيبة بإرسال زورق من صيادي القريدس إلى المقابر المائية، استمد قائد القارب تشن تشاو القوة من هذا الاقتباس:

> يجب أن يتألف التنظيم الحزبي من العناصر المتقدمة للبروليتاريا؛ يجب أن يكون منظمة طليعية قوية قادرة على قيادة البروليتاريا والجماهير الثورية في الحرب ضد العدو الطبقي.

ثم أعاد هو وزملاؤه من صيادي الروبيان إعادة تكوين عناصر النص باعتبار وجود العدو الطبقي، وبدعم إضافي من بضعة أسطر من شعر ماو، نجحوا في الوصول الى الشاطئ بأمان.

وهكذا انتشرت المعجزات في الصحافة الصينية. عندما حوصرت فتاتان في أخدود جليدي، تغلبتا على قضمة الصقيع بفضل كلمات الرئيس. عندما كاد ثمانية من الرفاق أن يعانوا من العطش، تلوا كلمات ماو، وأصبحت "حسوة أو ثلاث حسوات" من الماء كافية للجميع - وظل الماء متوفراً. ساعدت كلمة ماو زوجاً أيضاً على تجاوز الحزن الذي شعر به بعد وفاة زوجته، وجعلت الزوجات الكسولات يستعدن انتظام حياتهن، وأحيت الموتى، وأعادت البصر، ومكنت الصم والبكم من غناء ترنيمة الشيوعية" الشرق أحمر".

يمكنني الاستمرار، ولكن دعونا نتوقف هنا. لقد تبين أن ماو كان محقاً تماماً في مواصلة الطرق القديمة في التفكير والرؤية، سوى أنها لم تكن بالطريقة التي كان يتخيلها. لقد تحول نظام الاعتقاد الذي بدأ كعلم زائف معقد لغوياً، إلى إيمان أقل تطوراً بكثير من إيمان حواة الثعابين في فرجينيا الغربية.

المرحلة الثانية:
الطغيان والتطفّر

١- الشياطين الصغار

كان وصف لين بياو لكتاب **اقتباسات من الرئيس ماو** بأنه "قنبلة ذرية روحية ذات قوة لامتناهية" وصفاً صائباً، لا في ضوء التأثير المدمر للكتاب على الثقافة الصينية فحسب، بل أيضاً من حيث الموقف الذي يحتله في تاريخ الأدبيات الديكتاتورية. لتمديد الاستعارة أكثر: إن كان ماركس وإنجلز يمثلان "الانفجار الكبير" في فجر الزمن، وكان لينين وخصومه يشكلون النجوم والكواكب في أعقاب هذا الانفجار الافتتاحي، فإن ظهور ماو يمثل تسارعاً حثيثاً نحو عصر آينشتاين وأوبنهايمر، حيث صار من الممكن تسخير تلك القوة النصية لهندسة سلاح دمار شامل من الكلمات، يستطيع على نطاق واسع أن يأتي على الأخضر واليابس من كل ما تم إنشاؤه.

في الحقيقة، لقد كان قنبلة ذرية روحية بمعنى آخر: إنه سريع الزوال ومراوغ مثل طيف، لقد انفجر ولكنه تلاشى بعد ذلك من الذاكرة بسرعة كبيرة. في عام ١٩٦٩ بدا كل شيء نهائياً: تم تسمية لين بياو رسمياً خلفاً لماو، وتم إعلان انتصار الثورة الثقافية، وأعيد "فكر ماو تسي تونغ" للدستور بعد غياب دام ثلاثة عشر عاماً. لكن لين بياو انقلب على سيده و"مات في حادث تحطم طائرة" أثناء محاولته الانشقاق مع عائلته إلى الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٧١. ثم، في عام ١٩٧٦، أصبح ماو نفسه ميتاً آخر في صندوق زجاجي في قلب الحزب الشيوعي، على الرغم من حقيقة أنه وزملاءه من قادة الحزب الشيوعي الصيني قد وقعوا اتفاقية لمنع التحنيط قبل عقود. الآن وقد مات، أمكن ترويضه، وإخضاع كلماته.

وهكذا على الرغم من أن ماو الميت، مثل لينين، كان يتمتع ويستمر في التمتع بوضع الكائن الصنم، إلا أن وضع كتاباته لم يكن هكذا دائماً. تم سحب المجلد الخامس من أعماله المختارة التي تغطي الأعوام ١٩٤٩ إلى ١٩٧٦ باعتباره "ثورياً جداً"، مما أدى إلى توقف الشريعة الرسمية عند العام ١٩٤٩، قبل حملة المائة زهرة، والقفزة العظيمة إلى الأمام، والثورة الثقافية. في عام ١٩٧٩ استهجن **الكتاب الأحمر الصغير** لأنه شوه فكر ماو، وسحب من الرفوف

وطحن لاستخراج لبه الورقي. بعد ذلك بعامين، ردد خليفة ماو دينغ شياو بينغ حكم الحزب السابق على ستالين، معلناً أن ماو كان صحيحاً بنسبة ٧٠ في المائة ومخطئاً بنسبة ٣٠ في المائة. باختصار، خرج الحزب في طريقه للتظاهر بأن قنبلة ماو لم تنفجر أبداً، وما لبث طويلاً حتى أخذ يطارد الاستثمار والانفتاح التجاري، وأخذت النخبة في البلاد تزداد ثراءً.

وفي الوقت نفسه، وعلى الرغم من كل الدمار الذي أحدثته قنبلة ماو على الصين، وعلى الرغم من أنه كان لها أتباعها في أدغال أمريكا اللاتينية، وفي نيبال والهند، وبين البلهاء المتعلمين فوق حاجتهم في حرم الجامعات الغربية، إلا أن العديد من الديكتاتوريين الآخرين واصلوا اعتبارها وكأنها لم تنفجر. وجاء البعض بعد ماو، وكان بعضهم أقرانه. بالنسبة إلى الكثيرين، كان يكفي أن يكونوا في أذهانهم هم الأسمى، رغم أنه حتى ذلك الحين، تم إخضاع بعضهم لديكتاتوريين أكثر قوة.

في هذا القسم، نلقي نظرة على الشياطين الصغار: الطغاة الذين لم يبلغوا أو حتى يرغبوا مطلقاً في تحقيق التأثير العالمي لهتلر ، ولكن نظمهم وأعمالهم عاشت أمداً سفيهاً مزمناً وغالباً ما كانوا مريعين بشكل فتاك وبطرقهم الخاصة..

كيف فعلوا ذلك؟ لنقتبس تعبيراً من أحد أعظم شعراء القرن العشرين[1]، الذي كان نفسه من المعجبين بالديكتاتور الأول الذي سندرسه في القسم التالي:

أوه، لا تسأل، "ما هذا؟"

دعنا نذهب ونقوم بزيارتنا.

---

١ - الأبيات من قصيدة للشاعر الأمريكي ت. س. إليوت. ذكر بيتر اكرويد في كتابه ت.س إليوت، سيرة حياة أن الشاعر سافر في إبريل/ نيسان ١٩٣٨ إلى لشبونة ليتقدم إلى لجنة تحكيم جائزة كاميونس. ويثير الشكوك حول إعجابه بنظام سالازار. المترجم

٢- العمل الكاثوليكي



"- أقول، لقد قمت للتو بنشر كتاب ممل حقاً، وكلمة "عقيدة" في عنوانه".
"- حقاً؟ وأنا أيضاً."

بالرغم من أن مشهد مسؤولي الاتحاد الأوروبي الذين يحاضرون في بلدان أخرى عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، هو أمر مألوف بالتأكيد، إلا أنه يجدر بنا أن نتذكر مدى وصول الديمقراطية وحقوق الإنسان إلى العديد من البلدان في القارة العجوز. لأنه ولفترة من الوقت ظل من غير المألوف الاستماع إلى الصحفيين والمعلقين الذين يشيرون إلى التنازل عن "الديمقراطيات الجديدة" في بولندا ورومانيا والمجر وغيرها. بعد أكثر من خمسة وعشرين عاماً من خروجها من تحت أنقاض الشيوعية في التسعينيات، الحقيقة هي أنه حتى في العديد من بلدان أوروبا الغربية، فإن الديمقراطية الليبرالية لم تُعرف سوى منذ جيل أو جيلين. ويبلغ عمرها سبعين عاماً تقريباً في ألمانيا وإيطاليا، وفي حين أن الأثينيين القدامى ربما اخترعوا أشكالاً ديمقراطية من الحكم، فإن أحفادهم المعاصرين كانوا يعيشون في ظل ديكتاتوريات عسكرية حتى عام ١٩٧٤.

أما بالنسبة إلى الديمقراطيات في شبه الجزيرة الأيبيرية، فهي أصغر سناً من الدمى المتحركة، والنجم جوني ديب وموسيقى الديسكو. فخلال الجزء الأكبر من القرن العشرين، حكم كلا الديكتاتوريين: دكتور أنطونيو دي أوليفيرا سالازار في البرتغال، والمسمى بإسراف: فرانشيسكو بولينو هيرمينيجيلدو تيودولو فرانكو باهاموند في إسبانيا. كان للرجلين مزاجين مختلفين للغاية، لكن كليهما كان قومياً كاثوليكياً مستبداً، وقد أعربا في وقت أو آخر عن إعجابهما بموسوليني. لقد اتحدا أيضاً في افتقارهما التام إلى الاهتمام باختبار

شعبية حكمهما عن طريق الاستفتاء، وبالطبع أنتجا كتباً. كان سالازار، أكبر الاثنين سناً، أول من صعد إلى السلطة وأول من أرسل نسخة إلى المطابع. ولد في عام ١٨٨٩، كان أصغر من هتلر بتسعة أيام، وعلى الرغم من أن هناك القليل ممن يتذكرونه اليوم خارج البرتغال[1]، فإن نظامه لم يسبق فقط نظام كل من هتلر وماو، بل إنه أيضاً تجاوز نظام ستالين وموسوليني على مدى عقود.

مثل معظم أوروبا، وفرت البرتغال في أوائل القرن العشرين ظروفاً قوية لظهور ديكتاتور. منذ زمن بعيد، كان هناك فاسكو دا غاما، والطريق البحري من أوروبا إلى آسيا، وإنشاء العديد من المستعمرات في جميع أنحاء العالم، التي يحكمها من بعيد سلسلة من الملوك المطلقين المتجسدين في كراسٍ متقنة في لشبونة. لكن الحكم المطلق أفسح المجال أمام الملكية الدستورية في القرن التاسع عشر، ثم الثورة بعد فترة من قتل الملوك عام ١٩٠٨ -وتأسيس جمهورية علمانية معترف بها في عام ١٩١٠. كان أول رئيس للجمهورية، تيوفيلو براغا، رجلاً آخر من رجال القلم، فهو شاعر وجامع للفولكلور البرتغالي، معادٍ بقوة للكنيسة، انساق وراء ذكائه وقدرته على خلق عوالم بالكلمات. لكنه لم يدم. وعلى مدى السنوات الست عشرة المقبلة، كان للبرتغال خمس وأربعون حكومة، وعانت الأمة من حرب أهلية وتمرد وعنف وخسائر فادحة في النزاعات التي خاضتها في مستعمراتها الأفريقية وعلى الجبهة الغربية. إن لم يستطع شيء الاستمرار، فلن يستمر، وهكذا توقف. حصل انقلاب عسكري، وظهر سالازار بعد ذلك بفترة وجيزة ليبشر بالطريقة الجديدة لفعل الأشياء.

ماذا كانت تلك الطريقة الجديدة؟ مثل العديد من المثقفين من جيله، كان سالازار مرتاحاً للديموقراطية والليبرالية، ولم تُغوه كلمات ماركس أو لينين. وقد روّعته البلشفية. كما أنه لم يكن هو نفسه ذاتي التعليم من المحافظات المهمشة ولا صحافياً برجوازياً مدللاً أو شاعراً صار ثورياً. بدلاً من ذلك كان أستاذاً في جامعة كويمبرا، أحد أقدم معاهد التعليم العالي في العالم، وكان بإمكانه التحدث باللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية. على عكس لينين، أنهى سالازار

---

١ - لم تنشر أول سيرة ذاتية باللغة الإنجليزية لسالازار حتى نوفمبر ٢٠٠٩، بعد عام من نشر السيرة الذاتية لشيتا، الرفيق الشمبانزي لطرزان جوزاني ويسملر. تمت مراجعة كتاب شيتا على نطاق واسع، وبيع المزيد من النسخ.مقارنة مع سيرة سالازار- المؤلف

شهادة الحقوق، وعلى عكس ستالين، لم يتنصل أبداً من تعليمه في المدرسة. وظل كتابه المقدس هو الكتاب المقدس. وفي الوقت نفسه، كان مجال خبرته في الاقتصاد، ولكن كانت لديه وجهة نظر مختلفة تماماً في الموضوع عن تلك التي لمؤلف رأس المال.

بدأت حياة سالازار السياسية بداية خاطئة: تم انتخابه للبرلمان البرتغالي في عام ١٩٢١ لكنه سرعان ما عاد إلى منصبه التدريسي. وفي عام ١٩٢٨، بعد عامين من الانقلاب العسكري، وافق على أن يكون وزيراً للمالية في الديكتاتورية العسكرية قبل أن يصبح رئيساً للوزراء عام ١٩٣٢.

أثبت سالازار أنه باحث سريع في طرق السلطة. وفي العام التالي، نشر دستوراً جديداً، أعلن فيه عن ولادة "الدولة الجديدة" التي تمزج بين التعاونية، والكاثوليكية، والقومية، والعداء المتواصل للشيوعية. أثبت الالتحام أنه دائم: فقد حكم البلاد بقبضة قوية لمدة ستة وثلاثين عاماً، ولم يتوقف إلا عندما جعلته السكتة الدماغية يفقد القدرة على مواصلة القيام بذلك.

كان نظام سالازار استبدادياً وقمعياً وغير ديمقراطي، ولكن وفقاً لمعايير أقرانه الديكتاتوريين، فإنه يبرز متميزاً بضبط النفس المتفرّد. وعلى الرغم من أنه أبقى صورة موقّعة للدوتشي على مكتبه، فقد رفض "القيصرية الوثنية" للديكتاتور الإيطالي، وانتقد الدولة الفاشية لفشلها في إدراك "قيود النظام القانوني أو الأخلاقي". في الواقع، لم يقم سالازار بحظر المنظمات الماركسية فقط، وإنما ضيق الخناق على تلك الفاشية المتطرفة أيضاً، بينما انتقد في كتابه "**كيف تقيم دولة**" عام ١٩٣٧ قوانين نورمبرغ التي أصدرها هتلر، والتي وضعت ثقل الدولة الألمانية وراء المعاداة النازية للسامية. كان لولايته الجديدة جميع الزخارف المعتادة للديكتاتورية: الرقابة والتعذيب وحتى قبضة الشرطة السرية التي حددها اختصار شرير، PIDE. ومع ذلك، رغم إدانة الآلاف لأسباب سياسية، لم تقع عمليات قتل جماعية للمنشقين خارج نطاق القانون. أثبت سالازار أيضاً أنه محصن ضد الأوهام التوسعية التي سادت في منتصف القرن والتي خلبت لب هتلر وموسوليني، وهكذا أبقى البرتغال خارج الحرب العالمية الثانية. خاض حروباً للدفاع عن أراضيه الإمبريالية، لكن هذه بالكاد ميزة فريدة للأنظمة الديكتاتورية: ففي الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، أطلقت بريطانيا

وفرنسا النار وشنقت أشخاصاً في كينيا والجزائر باسم الحضارة، في حين أن التدخلات النبيلة للقوى الغربية في أوائل القرن الواحد والعشرين، قادت بالمثل إلى مذبحة هائلة.

سالازار، إذاً، لم يكن شاعراً أو حالماً أو متعصباً. كانت جاذبية الشرفة والحشد العاشق غريبين عليه. كما أنه لم يعتقد بأنه عبر إبادة الأمم أو الطبقات الاجتماعية، يمكن تحقيق الجنة على الأرض. كمؤمن متدين في إله خارق للطبيعة، أمكنه بسهولة إدراك حماقات اليوتوبيا المادية. ما أراده سالازار هو النظام والتقاليد والدين و... الأشياء التي تثير اهتمام الاقتصاديين. عند دخوله الحكومة، أعلن أنه سينهي حالات العجز في البرتغال وسيبني فائضاً في الميزانية لتمويل التنمية. ونجح في ذلك، رغم أنه كان ديكتاتوراً متواضعاً، غير مهتم بفرض أيديولوجيا عالمية على العالم، وبينما كان يستطيع مقاومة الرغبة في غزو جيرانه، وفتح معسكرات الغولاغ، وإعادة التقويم إلى عام صفري ولصق وجهه على كل شيء، كان هناك مجال واحد لا يستطيع فيه حتى أهدأ الديكتاتوريين كبح جماح نفسه: وهو الكتابة.

ومع ذلك، بصرف النظر عن حقيقة وجودها على الإطلاق، فإن كتب سالازار تظهر ضبط النفس والحذر الذي يتميز به. يبدو كتابه **عقيدة وفعل** (١٩٣٩) فاشياً بالتأكيد، مثل ما قد يكتبه موسوليني في أبهى كتابة (شبحية)، لكن كلمتي **العقيدة** وحتى **الفعل** كانتا مستمدتين من الخطاب الكاثوليكي بدلاً من الخطاب الفاشي. الآثار المترتبة على العنوان واضحة: هذه حقائق يجب الاعتقاد بها والتصرف بناء عليها، أكثر منها عروضاً "نظرية" تنقل علمية زائفة عن الخيال الوهمي الاشتراكي أو العنصري. لكن سالازار يبدأ كتابه العجيب بلهجة مترددة بشكل لافت، معرباً عن شكوكه حول قيمة الكتاب ويعلن: "لقد ترددت لبعض الوقت في نشر هذه الخطب، لأنني شعرت أنه يوجد بالفعل عدد كبير جداً من الكتب المتوفرة كي يزيد عددها أشخاص لا جديد لديهم، ولهم من جهة أخرى مهام ضرورية أخرى ليقوموا بها".

إن هذا الانتقاد الضمني لرواجية الكتب الديكتاتورية، قد أخفى بالطبع حقيقة أن سالازار نفسه أنتج واحداً. ومع ذلك، فإن الافتتاحية المستهينة بالكتاب، توحي بأنه ربما يقول الحقيقة بدلاً من الانغماس في تقديم عرض أنموذجي للتواضع الديكتاتوري الزائف. وعوضاً عن إعلان العظمة التاريخية للدولة الجديدة أو التفوق المتأصل في الدم البرتغالي، يثني سالازار على

نفسه بهدوء لأنه حافظ على فهم متساوق ينبذ العنف. ثم يبدأ في مناقشة إصلاحاته المالية، والتي هي (كما يؤكد لنا) من الحس السليم على أي حال. فمثلاً:

> أن نقول إنه رغم الأزمة التي دمرت العالم فقد تمت موازنة ميزانيتنا خلال السنوات الثماني الماضية، والتي توجت هذه السنوات برصيد ائتماني كبير، هو كالتفاخر بمسألة تبدو مضحكة تقريباً، لأنه يجب أن يكون هذا هو الحال دائماً.

الاستقرار هو الشاغل الرئيسي لسلازار، وبينما يصر على أن الدولة الجديدة لديها أيديولوجيا، فإنه يصعب إغفال حقيقة أنه بتأكيده على وجودها إنما يشير إلى أن خصائصها المميزة ليست واضحة على الفور بالطريقة التي تتضح بها على سبيل المثال معتقدات النازية. عندما يبدأ سالازار في وضع الخطوط العريضة لأيديولوجيته، يعرّفها على أنها "تُقرّ بصحة بعض المبادئ". ومع ذلك، هذا لا يعني أنه على وشك أن يكتب "أطروحة عن الفقه القانوني". بل إن هذه المبادئ "هي حصيلة تلك الخبرات الاجتماعية والسياسية الكامنة في ضمير الأمة، والقادرة على أن تصبح حقيقة واقعة".

وهكذا يتجنب الالتزام بأي شيء منظم للغاية، وما يتبع هو الكثير من التأملات غير الملحوظة حول أهمية الأسرة، وأدوار الجنسين التقليدية، والوحدة الوطنية، والقيم الروحية، والمعتقد الديني وضبط النفس. يصل سالازار الذي يخرج من النص إلى الراديكالية عبر المفارقة. إنه الديكتاتور والشخص غير المحب للرؤيوية، الذي يبرز بين أقرانه لرفضه الواضح لكل موضوع طوباوي في القرن العشرين.

> نحن ضد كل أشكال الأممية والشيوعية والاشتراكية والنقابية، وكل ما قد يقسم أو يقلل أو يفتت الأسرة. نحن ضد الحرب الطبقية والدين وعدم الولاء لبلدنا؛ ضد القنانة، والتصور المادي للحياة، والقوة فوق الحق.

فلننسَ الأحلام الكبرى للمسيحيين السياسيين، كما يقول سالازار. لننسَ الفاشية الشبيهة بالدين أو الماركسية. فهذا ما تحتاجه البرتغال: الكهرباء، مدارس أفضل، شركة طيران وطنية، تحسين التعليم، طرق جيدة، نساء في المنزل، خبز على الطاولة وعائلات في الكنيسة. ويبدو أنه مصمم على تخفيف الحماس الشعبي والهيجان نحو نصوصه. بعد عقود من عدم الاستقرار،

تولى خبير الاقتصاد أمر ترتيب الأمور، والأمور كانت متعبة كما قد تتوقع. اترك إدارة الدولة له، وربما لن يكون كل شيء استثنائياً، لكنه سيصير حسناً.

تواصلت هذه الرؤية لنظام غير ثوري في عمل سالازار عام ١٩٣٩. **ما يقوله سالازار رئيس وزراء البرتغال**، وهي مجموعة من الاقتباسات التي سبقت **اقتباسات من الرئيس ماو** بحوالي ربع قرن، هي مساهمة الديكتاتور البرتغالي في حقل الأمثال الاستبدادية والشعارات التنافسي. ومع ذلك، وعلى عكس **الكتاب الأحمر الصغير**، فهو لا يحتوي على خواءات تُخفيها المصطلحات أو النظريات الباطلة. حتى في أكثر حالاته تطرفاً، يقرأ في أحسن الأحوال مثل "موسوليني لايت"، وإذا أراد سالازار أن يكون تافهاً، فسيفعل ذلك بلغة واضحة. وهكذا يمزج غذاءه:

> نحن نعيش حياتنا على الأرض، ومن واجبنا أن نعطيها معنى وقيمة.

... مع الهراء الميتافيزيقي المتفرع عن الفاشية والمستمد من الكاثوليكية:

> الحقيقة، كالسلطة، وهما تتشاركان الطبيعة المطلقة.

... مع الأمثال النيتشاوية الغامضة:

> لا توجد مشاكل غير قابلة للذوبان عند الأمة التي تعرف كيف تملك الإرادة.

ينتقد سالازار مراراً وتكراراً إنشاء الأخلاق الجديدة، والأوهام الثورية. بدلاً من ذلك، يشدد على أهمية الضوابط حتى على الأقوياء:

> يجب أن تكون الدولة قوية، لكن يجب أن تكون مقيدة بمتطلبات الأخلاق، وبمبادئ حقوق الإنسان، وبالضمانات الفردية، وهو الشرط الأول والأهم للتضامن الاجتماعي.

تمثل أعمال سالازار، إذاً، مساهمة متواضعة في شرائع الديكتاتورية، وهي مهمة بشكل أساسي لمدى الصعوبة التي تكبدها الكاتب في عدم توليده الإثارة. لقد حافظ على تفانيه بعدم إثارة المخاوف لعدة عقود. وطالما كان في السلطة، ظلت الكتب والنشرات تظهر واسمه عليها، من: **عند مفترق الطرق** في عام ١٩٤٦ إلى **البرتغال والحملة المناهضة**

للاستعمار في عام ١٩٦١ إلى قرار البقاء؛ رد رئيس الوزراء على الإشادة التي قدمتها له مقاطعة أنغولا في ١٣ نيسان/ أبريل ١٩٦٦. كما أنه انخرط في كتابة الشعر، وتأليف قصائد دينية ووطنية لإلهام الناس. ومما يلفت النظر أن سالازار لم يغادر البرتغال أبداً، ومع ذلك فقد أرسل نصوصه إلى العالم للعمل كمبعوثين لفكره، وقام بترجمتها إلى الإنجليزية وتوزيعها في الخارج. في عام ١٩٦٨، أنهت السكتة الدماغية حياته المهنية الطويلة كديكتاتور ومؤلف. وتوفي بعد ذلك بعامين.

لا تقرأ أي من كتب سالازار اليوم، لكنها ما زالت موجودة، على ورق يتفكك ببطء: تذكارات الديكتاتور الذي كتب من دون أن يكون عنده أي شيء مثير للاهتمام ليقوله، لكنه لم يصل أبداً إلى المستويات المتعالية من الضجر الفائق التي وصل إليها الديكتاتوريون اليساريون. إن لم يكن انتصاراً كبيراً، فهذا على الأقل يمثل أسلوباً غريباً من الرحمة.

* * *

الرحمة، مع ذلك، ليست سجية مرتبطة عادة بالجنرال القومي الإسباني فرانكو، الذي، في الوقت الذي كان سالازار يكتب فيه عن نجاحه في موازنة الميزانية في البرتغال المجاورة، كان قد بدأ بالفعل حرباً شاملة على نمط حروب القرن العشرين ضد القوات الجمهورية اليسارية. لم تكن الأحداث التي أدت إلى تولي هذا الرجل العسكري المحترف دور ال كاوديلو " El Caudillo" تمثل اختلافاً عن الأحداث التي أدت إلى وصول سالازار إلى السلطة -إلى حد ما. كانت إسبانيا، كالبرتغال، ملكية كاثوليكية سابقة، كانت مطلقة في السابق، وكانت ذات يوم تحوز إمبراطورية منتشرة في جميع أنحاء العالم، لكن ذلك دخل في فترة انحطاط طويل، اكتمل بعدم الاستقرار السياسي والاقتصادي، ومناهضة الاكليروس، وفي عام ١٩٣١، أعلن عن الجمهورية بعد عقدين من قيام البرتغال بفعل الشيء نفسه.

في حين استغرق الأمر في البرتغال حوالي خمسة عشر عاماً كي يقوم الجيش بانقلاب ضد الحكومة الجمهورية، استغرق الأمر في إسبانيا خمس سنوات فقط وانتهى بالفشل. ما تلا ذلك كان حرباً أهلية شرسة انقسمت فيها الأمة على نفسها، على طول خطوط اليمين واليسار، والقومية والاشتراكية، والفاشية والشيوعية، والمدينة والريف، والعمال والبرجوازيين،

والكاثوليك والملحدين. برز فرانكو كقائد للقوات القومية، مدعوماً من موسوليني وهتلر والحزب الفاشي محلي المنشأ في إسبانيا، حزب الكتائب. كان لدى قادة الجبهة الشعبية اليسارية طاغية خاص بهم وفي صفهم: ستالين. أرسل الفوشد ألكسندر أورلوف المخضرم في المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية لإسداء المشورة للحكومة الجمهورية، وأمر الكومنترن أيضاً بتنظيم الألوية الدولية، التي زودت الحكومة الإسبانية بخمسين ألف متطوع مسلح مناهض للفاشية مكرس لهزيمة فرانكو. من ناحية استاطيقية، كان الجمهوريون منتصرين: خاض جورج أورويل وأرنست هيمنغواي غمار الحرب كمتطوعين وكتبا **الحنين إلى كاتالونيا** و**لمن تقرع الأجراس** على أساس خبراتهما تلك، في حين رسم بيكاسو رائعته **غيرنيكا**. لكن، وبصرف النظر عن إنتاج بعض الكلاسيكيات الفنية، كانت الحرب هزيمة كاملة لليسار. بعد ما يقرب من ثلاث سنوات من القتال، أعلن فرانكو النصر في ١ نيسان/ أبريل ١٩٣٩. وأعدمَ على الفور نحو عشرين ألف جمهوري.

على عكس سالازار، أو موسوليني أو هتلر، كان فرانكو قد وصل إلى السلطة، ليس من خلال انقلاب أو من خلال لعبة في النظام البرلماني، بل من خلال فعل الإخضاع بالانتصار في حرب أهلية. وكذا (على عكس سالازار) كان أيضاً رئيساً لحزب أسسه المتحمسون للفاشية الإيطالية، يبدو من المنطقي افتراض أنه ربما يتمادى ويشرع في حروب استعمارية، أو على الأقل التلفظ ببعض الرطانة، والنثر شبه الفلسفي الذي يمجّد متع العنف، والسمو الذي لا يوصف للروح الإسبانية، وتفوق الدم اللاتيني. ولكن عندما غزا هتلر بولندا بعد خمسة أشهر من انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية، رفض فرانكو إلزام قوات بلده المنهك والمرهق بالحرب والذي تطرقه المجاعة بمساعدة الرايخ الثالث. في حين توقع الفوهرر بالتأكيد استرداداً لمساهمته في انتصار إل كاوديلو على القوات الجمهورية، كان لدى فرانكو أفكار أخرى. وقال إنه سيركز جهوده على توطيد نظامه، وإعادة بناء البلاد، و-لم لا؟ - كتابة كتاب بينما يقوم بذلك. لقد صار ديكتاتوراً الآن، وربما كان هذا يعني أنه عليه أن يكتب شيئاً.

كتب فرانكو **العرق** Raza في نهاية عام ١٩٤٠ وبداية عام ١٩٤١، ونشرها بعد عام تحت اسم مستعار هو خايمي دي أندرادي، وهو اللقب النبيل الذي وجده في نسبه. يعتبر العِرق عملاً غير معتاد بالنسبة إلى ديكتاتور، بعدة طرق، لكن ربما يكون ذلك على الأخص في أنه

عمل خيالي أكثر من كونه مجموعة من الأكاذيب التي تم تمريرها كحقيقة، على غرار أقران فرانكو. في الواقع، حتى ظهور **العرق** في المكتبات في عام ١٩٤٢، كان موسوليني هو الديكتاتور الوحيد الذي عمل حسب الأنموذج، وحتى ذلك الحين كانت **عشيقة الكاردينال** تعود إلى أيامه كصحفي راديكالي. لكن فرانكو أنتج روايته بينما كان يدير بلداً بالفعل. عندما سُئل كيف كان ذلك ممكناً، أجاب، "إنها إدارة الوقت". هذا الاهتمام بالوقت قد أدى إلى جانب آخر غير عادي في الكتاب: شكله. فرواية **العرق** عبارة عن هجين جيد بين السيناريو والرواية، ثقيلة في الحوارات وقصيرة في المقاطع الوصفية. فمن الأسهل بكثير أن تكتب أكواماً من الحوارات بدلاً من المقاطع الطويلة من النثر الوصفي التي تتطلب الكثير من المراجعة -إنه الشكل المثالي لديكتاتور مشغول، إذاً.

كما أن الرواية ضئيلة للغاية عندما يتعلق الأمر بالتطواف العلمي الزائف في دجل أيديولوجيات القرن العشرين. وفي حين أن العنوان، الذي يعني "العِرق"، قد يبدو مشؤوماً وهو بالضبط ما تتوقعه من ديكتاتور عسكري متحالف مع هتلر يقود حزباً كان اسمه الكامل هو الكتيبة الإسبانية، فإن فرانكو، حتى إن لم يكن خاملاً بصورة قوية مثل سالازار، فإن ضبط النفس بكل تأكيد بمجرد أن يكون في الطريق إخلاصه لشباب إسبانيا، "الذي فتح بدمه الطريق إلى نهضتنا". فبدلاً من القفز إلى تلك المتشتتات المجنونة التي تمزج ماضي إسبانيا قبل المسيحية بنظريات عنصرية في القرن التاسع عشر، دخل في ميلودراما تخطيطية حول عائلة إسبانية نبيلة تنقسم على نفسها خلال الحرب الأهلية.

الحبكة بسيطة وليست واهية تماماً. تعتمد قصة العائلة على قصة عائلة فرانكو نفسه، وإن كانت مثالية وتمت ترقيتها إلى طبقة اجتماعية أعلى، وهو خيار يعبر عن نفس قلق المكانة الذي يتجلى في بحث الديكتاتور عن ماضي عائلته ليحصل على اسم مستعار لامع. أحد الأشقاء في العائلة، وهو خوسيه (نظير فرانكو نفسه)، يناضل من أجل القوميين، بينما ينضم شقيق آخر، هو بيدرو (نظير رامون شقيق فرانكو في الحياة الواقعية) إلى الجانب الجمهوري. كان بيدرو يعذب طائراً عندما يتعرّف عليه القارئ، وهذه ليست سوى علامة على أشياء قادمة. الجمهوريون سيئون للغاية ويفعلون أشياء سيئة للغاية. كم أنهم قساة على الراهبات. أما القوميون من ناحية أخرى فهم نبلاء للغاية ويفعلون أشياء نبيلة. إنهم لا يؤذون الراهبات.

ولديهم شعور قوي بالواجب، يقاتلون من أجل الله والعائلة والبلاد، ويتقبلون الشهادة إذا تطلب الأمر ذلك. ومع ذلك، فإن الأخ الشرير بيدرو ليس شريراً تماماً. ففي نهاية الرواية، يتوب عن أساليبه الجمهورية ويعبر إلى الجانب القومي، ما يشير إلى أن المغفرة والمصالحة يمكن أن توجد في العالم الجديد. ثم، يموت بيدرو، ما يشير إلى أنها تأتي بتكلفة عالية. تدخل الرواية نفحة من الفاشية في مشهدها الختامي في موكب النصر عام ١٩٣٩. وهذا، كما يقال للقارئ، يمثل "روح العِرق". ومع ذلك، فإن وصوله في وقت متأخر من الكتاب كما يفعل، هو في أغلبه نفخة كريهة بعض الشيء من كونه ريحاً كاملة. والأمر الأكثر إثارة للدهشة، هو انغماس فرانكو المفاجئ في مسرح ما بعد الحداثة المتعارض نصياً، حيث أن نظيره التماثلي خوسيه يتعهد بالولاء للـ"كاوديلو". وهكذا يبدو فرانكو كأنه الأنا والأنا البديلة في كتابه، وهو ابتكار سبق وقته بعقود من الزمن[1]. احتمال أن يكون ذلك عرضياً تماماً بدلاً من أن يكون مقاربة متلاعبة بالإبداع الأدبي، أمر غير مهم: ففي النهاية، لم يكن اكتشاف البنسلين أمراً مخططاً له، أليس كذلك؟

بوضع هذه اللحظة المتوهجة من الإبداع الطليعي جانباً، ليس **العرق** إلا عملاً محافظاً للغاية. وإن تقاسمت رواية فرانكو أي شيء على الإطلاق مع نص راديكالي مثل كفاحي، فهو حقيقة أن المؤلفين كانا يمليانها على أحد الطباعين وهما يذرعان الغرفة جيئة وذهاباً. لا يوجد أي من شعور هتلر **بالحنين للوحل**[2]، لا شيء من حقده أو استيائه، كما لا يوجد تنظيره العنصري. ولا ينغمس فرانكو في الرعب الجسدي على سبيل المثال، على طريقة موسوليني، على الرغم من أن ظروف الحرب الأهلية في **العِرق** وفرت له فرصة كبيرة للقيام بذلك. وعلى النقيض من ذلك، فهو يدفع بأجندة قومية كاثوليكية محافظة تتشارك الكثير مع مقاربات

---

١ - بقيت مضاعفة السيرة الذاتية غير شائعة في الخيال القصصي، وقد تطلب الأمر عدة عقود من العالم الأدبي للحاق بفرانكو. قام مؤلفو الخيال العلمي كيرت فنغوت وفيليب روث بتفاعلات فيما بينهما وتسمية نظائرهما الخيالية بشكل مختلف في **فطور الأبطال** (١٩٧٣) **وفاليس** (١٩٨١)، على التوالي، بينما دخلت التقنية في التيار الأدبي الرئيسي مع كتاب فيليب روث **عملية شيلوك، اعتراف** (١٩٩٣)، حيث يتفاعل "فيليب روث" مع "فيليب روث" آخر. المؤلف

٢ - هو الانجذاب لثقافة وتجارب الحياة المنخفضة المعايير والتدهور، توجد في بعض الأحيان سواء في الأفراد أو في الحركات الثقافية. صاغ هذه العبارة في عام ١٨٥٥ الكاتب المسرحي الفرنسي إميل أوجير. المترجم

سالازار المقيدة ولا تتشابه كثيراً مع طوباوية اليسار أو اليمين. وفي بعض النواحي، يكون فرانكو أكثر تحفظاً من سالازار، الذي، رغم كل احتياطاته وحذره، تشارك مع نظرائه الديكتاتوريين الرأي القائل بأنه من الأفضل إبقاء السرد للجولات الأيديولوجية المملة التي تُظهر حكمة القائد ومدى ملاءمته للحكم. يروي فرانكو بدلاً من ذلك ما هو فعلاً قصة عند النوم طويلة جداً تحل بدقة جميع التوترات والصراعات في الحرب الأهلية، من دون أن تطلب من القارئ التفكير بجهد (أو التفكير على الإطلاق). ينهزم الأشرار وينتصر الخيرون، وفي النهاية تم الحفاظ على الكنيسة والأمة. أراد فرانكو التواصل مع الجماهير وإلهامها، وليس إفزاعها لإرغامها على الخضوع؛ فاحتكاره للعنف تولى مهمة ذلك.

تم تكييف **العِرق** بسرعة وتحويلها إلى فيلم سينمائي حتى يتمكن الأشخاص الذين لا يستطيعون القراءة (حوالي ٢٣ في المائة من سكان إسبانيا) من الاستفادة من رسالته. قام ألفريدو مايو، وهو ممثل طويل القامة، وسيم له ملامح عسكرية رفيعة، بلعب دور خوسيه/ فرانكو. وعلى الرغم من صعوبة الوثوق بمراجعات الأفلام المنشورة في ديكتاتورية الأربعينيات من القرن العشرين، إلا أن أحد المشاهدين على وجه الخصوص أعجب بعمق عندما تم إصدار الفيلم في عام ١٩٤٢: لقد تغلب الحماس الشديد على فرانكو عندما شاهد عالمه الخيالي على الشاشة الكبيرة، لدرجة أنه شاهد الفيلم والدموع تتدفق على خديه الرجوليين خلاف ذلك. بعد ذلك شوهد فيلم **العِرق** مراراً وتكراراً، وتم تعديله لمواكبة الأوقات المتغيرة. في عام ١٩٥٠ تم إصدار نسخة حذفت منها جميع التحيات الفاشية والإشارات إلى الكتيبة الإسبانية.

على عكس هؤلاء الطغاة الآخرين الذين رأوا أعمالهم كأدوات للترويج لأنظمتهم في الخارج، فإن فرانكو لم يترجم **العِرق** إلى الإنجليزية؛ كما أنه لم يوزعها في الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة من خلال وكالة حكومية. ربما كان هذا خطأ، حيث أضاع إل كاوديلو فرصة كي يظهر لنقاده الأجانب أنه كان نوعاً عسكرياً مملاً لا يمكن تخيله، وليس أيديولوجياً فاشياً مخبولاً. في سنوات ما بعد الحرب، انتشر فرانكو على نطاق واسع باعتباره "آخر ديكتاتور فاشي في أوروبا"، وبينما كان اتحاد ستالين للجمهوريات الاشتراكية السوفييتية شديد الاحترام وموضع ترحيب على المائدة العليا في المؤتمر التأسيسي للأمم المتحدة في كانون الأول/

ديسمبر ١٩٤٦، استبعدت إسبانيا فرانكو الأقل استبداداً. وتم تشجيع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة على سحب سفرائها من إسبانيا، بينما طلبت الجمعية العامة من مجلس الأمن النظر في القيام "بتدابير" إذا لم تنتقل إسبانيا إلى حكومة منتخبة. ومن دون عناء، عين فرانكو نفسه في تموز/ يوليو ١٩٤٧ رئيساً للدولة مدى الحياة.

في مجموعته مقالات عن العقيدة السياسية: **كلمات وكتابات ١٩٤٥-١٩٥٠**، قدم فرانكو أجندة كاثوليكية أساساً ورجعية قومية استبدادية في المقام الأول. يعد هذا الكتاب، الذي تم تجميعه من خلال الخطب والمقالات وحتى الرسائل إلى الصحف، حجماً ضخماً -بمعنى أنه كبير جسدياً للغاية وثقيل للغاية وغير عملي -ولكنه من حيث المحتوى خفيف نسبياً وأقل فلسفية ومهنية من أعمال سالازار وأقل منه بكثير امتلاء بمصطلحات النصوص الشيوعية. تغطي فصوله الاثني عشر موضوعات مثل "سياسات إسبانيا" و"السياسات الدولية" و"السياسات الدينية" و"السياسات العسكرية" و"سياسات الروح". يطرح فرانكو نظامه باعتباره القوة التي تدافع عن إسبانيا من تقلبات عالم ما بعد الحرب الفوضوي الملحد، الساعية إلى بناء المستقبل. سوف ينبثق الاستقرار من الاستمرارية، من الكنيسة، والملكية، وعظمة إسبانيا التاريخية. كما هو الحال مع أعمال سالازار، هذه عقيدة وليست نظرية: هذه أشياء يجب عليك الإيمان بها، لا أن تشق طريقك منطقياً نحوها.

ومع ذلك، لم يكن فرانكو متفرغاً بالكامل لسياسة الملل المحترم. فلو انتهت الحرب العالمية الثانية بفوز هتلر، لسهل علينا أن نتخيل واقعاً بديلاً حيث تصبح كتابات فرانكو عنصرية بدرجة أو أقل، والتي وصلت فيها التمتمات الغامضة عن السلالة في كتابه **العِرق** إلى أبعاد ملحمية. ليس من الضروري القيام بالكثير من التخيل. لأن فرانكو كان يعرف شغف الكراهية المتحمس، فقد كان حقده وجنونه يركزان على يد التاريخ الأخرى الخفية: كان يكره الماسونيين حقاً.

في العِرق كانت هذه الكراهية صامتة. رغم أن فرانكو كتب أن الجمهوريين تلقوا السلاح من هذه الشبكة العالمية الشريرة، إلا أنه امتنع عن تقديم تنديد هذائي مرتاب واسع النطاق. في عام ١٩٥٢، نشر مجموعة من المقالات الصحفية التي تحمل عنوان "**الماسونية**"، حيث هاجم الماسونيين بلا هوادة (كان يكتب باسم "خاكيم بور"). أخيراً، أنتج أحد المستبدين

الأيبيريين نصاً متطرفاً حقيقياً، ثوراناً حقيقياً ونقياً للكراهية والخوف والتفكير السحري. في هذا التأليف المجنون، يكشف فرانكو والزبد يعلو شفتيه، أن منظمة الماسونيين الأحرار العالمية تربض في جذور العديد من مشاكل إسبانيا، بما في ذلك استبعاد البلاد من الأمم المتحدة. ووفقاً لما قاله فرانكو، فإن "الماسونية" عبارة عن "سرطان يفسد مجتمعنا"، وأعضاؤها "قتلة ولصوص". كانت عناوين الفصول مثل "الماسونية والشيوعية" و"السر الأعظم" و"الكراهية المطلقة" تنقل إحساساً قوياً بالعقلية التآمرية التي تظهر في الداخل، إلى جانب الهجمات اللاذعة على الليبراليين والديمقراطيين والشيوعيين والأمم المتحدة، يكشف فرانكو أيضاً أن إليانور روزفلت هي "ماسونية معروفة جيداً" وطرفاً في المؤامرة التي حيكت لتدمير إسبانيا، والتي (وغني ذلك عن القول) تمتد قروناً إلى الوراء وتشمل أيضا الإمبراطورية البريطانية. ها هو أخيراً ذلك الرعب الهتلري والفزع أمام اليهودي الشيطاني، تلك الكراهية الماركسية اللينينية للبرجوازية ذات الأذرع الكثيرة، الغضب غير العقلاني للمريض بالهوس الأحادي، الذي يستأهل كتيباً مستنسخاً وسخاً يمرر في قاعات البيرة قبل قرن مضى، أو يتفشى على شبكة الإنترنت اليوم. أخيراً، استخدم فرانكو القلم للكشف عن الحقيقة، إن لم يكن عن العالم، فعن نفسه. كان قد مزق القناع وكشف جنونه الداخلي.

وبعد... ليس تماماً. بقي لديه الوعي، الذي كان ينقص أقرانه الفاشيين والنازيين والماركسيين اللينينيين. فرانكو، في نهاية المطاف، لم يوقع اسمه على هذا الجمع من العبثيات. حتى في الجزء المحموم الأحلك والأكثر عرقاً في دماغه، كان يعلم أن هذا لم يكن نوع الشيء الذي يريده مرتبطاً باللقب الكبير "ال كاوديلو"، لا سيما إذا كنت تتمنى أن يتم الترحيب بك في نادي "الأمم المتحضرة" مرة أخرى وإلى الأبد. لم ينسَ فرانكو أبداً أنه لا ينبغي السماح لذلك المخبول المصاب بداء العظمة الموجود بداخله أن يطغى على الاستبداد القمعي من دون القيام بضبط النفس. وهذا كان مستحيلاً على حلفائه السابقين هتلر وموسوليني.

لقد أثمر هذا الوعي الذاتي، وحافظ فرانكو على اتجاه ثابت نحو "الاحترام" في الخمسينيات. في الواقع، بحلول الوقت الذي نشر فيه **الماسونية**، كانت إسبانيا دولة عضو في الأمم المتحدة منذ عامين، وستنضم إلى حلف الناتو في غضون ثلاث سنوات، لأن أولئك الذين شجبوا فرانكو ذات يوم كديكتاتور وحشي، أصبحوا الآن حلفاء له في الحرب ضد

الشيوعية. لم يعد منبوذاً، حتى إن رفض أن يؤيد إجراء انتخابات، وسينشر خلال بقية فترة حكمه بشكل دوري مجلدات من خطبه وأفكاره، مثل **كلمات إل كاوديلو** في أربعة مجلدات **وخطب ورسائل رئيس الدولة** في خمسة مجلدات، في حين تمكن حتى من إصدار **الفكر السياسي عند فرانكو** المكون من جزأين في عام ١٩٧٥، وهو العام الذي قام فيه أخيراً بالتخلي عن هذه البكرة المميتة. مضى وقت طويل على الميلودرامية الرنانة لرواية **العرق**. يملأ فرانكو الصفحات الآن بالخطب المملة. تم الحفاظ على البرقيات الموجزة للأجيال القادمة، سواء التي أرسلها لتهنئة ليندون ب. جونسون على إطلاقه الفضائي الناجح، أو التي بعثها للتعبير عن تعازيه في وفاة كاردينال في توليدو.

كما هو الحال مع **العرق**، لم يهتم فرانكو أبداً بترجمة أي من كتاباته إلى اللغة الإنجليزية، ولا يبدو أنه استقطب اهتمام أي ناشر تجاري يتطلع إلى تحقيق ربح سريع من الجدال، كما حدث مع موسوليني وهتلر وستالين وماو وهو شي مينه، أو معمر القذافي وصدام حسين. أو ربما حصل ذلك، لكنه رفض هذه الأساليب. هل هذا تواضع من جانب الجنرال؟ لا يبدو هذا مرجحاً؛ فقد كان إل كاوديلو، في نهاية المطاف. لكنها قد تكون علامة على الثقة القوية بالنفس. استراتيجية النشر التي نهجها فرانكو تجعله واحداً من أكثر المؤلفين الديكتاتوريين اطمئناناً للذات على الإطلاق، إنه وطني حقيقي، يكتفي بالتسبب في ضجر قرائه المحليين على وجه الحصر، ويترك بقية العالم لوحده.



٣- آلات تعطيل العقول

في منتصف العشرينيات من القرن الماضي، كان الاتحاد السوفييتي يقف بمفرده تقريباً في العالم، وقد اتضح فشل كل محاولته في تصدير الثورة إلى أوروبا للمثقفين الذين ثملوا بالكلمات التي أطلقها ماركس كبشائر شديدة البؤس عن ديكتاتورية البروليتاريا. في أعقاب عام ١٩١٧، حاول الثوريون في برلين، بافاريا، بودابست وخارجها، إقامة دول العمال في أوطانهم. لكن، في كل مرة يرفع فيها أحد قراء النبي الألماني المرتدين للنظارات أنفه (أو أحياناً أنفها) عن كتاب إذكاء نيران الانتفاضة الشعبية، فإنه دائماً ما ينتهي إما ميتاً، أو في السجن، أو هارباً، أحياناً نتيجة للبروليتاريا نفسها التي ترفض بعنف قيادة الطليعة الثورية المعلنة ذاتياً. مثل العديد من الأشخاص الذين يقضون وقتاً طويلاً في القراءة والكتابة والتفكير، أخطأ هؤلاء المثقفون الماركسيون بين قدرتهم على تشكيل الكلمات والأفكار في أشكال وجدوها مُرضية على الصفحات، وبين القدرة على فرض نفس التماسك على العالم المادي الفوضوي. وعلى الرغم من أن الكلمة كانت مصدر إلهام، إلا أنها لم تكن في حد ذاتها كافية لتسريع ظهور العصر الجديد ما لم تكن مدعومة بالدبابات والمدافع والطائرات. وهكذا، ربما كان لينين وتروتسكي، على الرغم من طلاقتهما في الأمور النظرية، يدينان أكثر في نجاحهما لقبولهما إيقاع العنف الشديد على خصومهما أكثر من إحكامهما السيطرة على نظرية ماركس العمالية الخاصة بالقيمة.

كان العنف، أيضاً، ضرورياً لظهور النظام وبقائه في منغوليا، التي كانت طوال ثلاثة عقود تقريباً البلد الوحيد في العالم إلى جانب الاتحاد السوفييتي وفيه حكومة شيوعية. أرض بتضاريس كالقمر غير ساحلية يبلغ عدد سكانها حوالي ٦٤٧٠٠٠ من الرهبان والبدو الذين يحكمهم بوذا الحي (مدمن الشراب)، كانت منغوليا تفتقر إلى كل من الصناعة والبروليتاريا، وكانت على الأرجح ملائمة كموقع لثورة ماركسية مثلما قد ينفع لذلك قاع المحيط. ومع ذلك، في أعقاب نمط الفشل الكارثي في البلدان الرأسمالية المتقدمة في أوروبا، فإن لينين كان سيأخذ ما يمكنه الحصول عليه. إذا لم يطبع التاريخ وصفات الكتب، فسيتم إعادة تفسير

الكتب -مرة أخرى. في معرض إسقاطه تخيلاته الثورية شرقاً، أظهر لينين، في وقت مبكر من عام ١٩٢٠ أنه أصبح من الممكن الآن "للبلدان المتخلفة" المضي قدماً نحو الشيوعية مع "تجاوز المرحلة الرأسمالية من التنمية". لكن، يمكن أن يحدث هذا فقط طالما حصلت هذه البلدان على مساعدة البروليتاريا في "الدول الأكثر تقدماً".

كان لينين مستعداً منذ زمن طويل لإعادة تفسير ماركس، لكن هذا كان مستوى جديد من التطفر، وهو ضعف جذري في النظرية لغرض خدمة الرغبة السياسية. وضع هذا النص الجديد -لأنه بالطبع لا يمكن فعل أي شيء من دون تبرير نظري -الأسس الأيديولوجية لنشر أية "شيوعية" في أي مكان تريد. عندما امتدت الحرب الأهلية الروسية عبر منغوليا في عام ١٩٢١، قبل لينين "الثورة" التي أعقبت النصر على القوات القيصرية هناك. كان العملاء السوفييت نشطاء لفترة طويلة خلف الحدود المنغولية، وكان الاتحاد السوفييتي مستعداً "لمساعدة" الحكومة الجديدة. أثبتت هذه المساعدة أنها مهمة إلى حد ما: حتى إن الحزب الثوري الشعبي المنغولي الحاكم تلقى اسمه من الخبراء السوفييت، وانضم رسمياً إلى الشيوعية العالمية بقيادة موسكو في عام ١٩٢٤.

رغم أن منغوليا مُنحت الإذن من لينين لتخطي مرحلة تطور رئيسية، كانت الشيوعية بطيئة نسبياً في الوصول. ولتسهيل عملية الانتقال إلى العصر الجديد، بقي بوذا الحي على عرشه مثل تمثال في مقدمة سفينة حتى وفاته في عام ١٩٢٥، ولم يبدأ حقاً العصر الذهبي لجنّة العمال حتى ظهر شيوعي تم تدريبه في موسكو اسمه خولوغين شويبالسان. على رأس السلطة في أوائل الثلاثينات من القرن الماضي. كان شويبالسان، مثل ستالين، ابناً لأم عزباء فقيرة، ومرة أخرى مثل ستالين كان قد حصل على محو الأمية عن طريق التعليم الديني قبل اكتشافه عقيدتي ماركس ولينين (في حالته، في المدرسة الروسية المنغولية للمترجمين الفوريين في ايركوتسك، سيبيريا). مستوحياً من هذه المنشورات، بدأ شويبالسان مسيرته الشيوعية التي تُوِّجت بتعيينه مديراً إقليمياً لأول امتياز ستاليني في الاتحاد السوفييتي. مع أنه كان يدين بمكانته البارزة للسادة في الكرملين، فهو لم يكن طاغياً مستقلاً بقدر ما كان كائناً ستالينياً، ومخلوقاً اصطناعياً محاطاً بالميداليات والألقاب، لا يستطيع العمل إلا ضمن المعايير التي يحددها له صانعه.

تم إطلاق حملات شرسة لمحو الأمية، وتم استيراد آلاف النسخ من دراسة **ستالين القصيرة** لتزويد قيادة الحزب بالفهم الصحيح للوالد الأيديولوجي لمنغوليا. لم تستهدف حملات محو الأمية هذه الجماهير فقط: ففي عام ١٩٣٤، كان ٥٥ في المائة من أعضاء الحزب أميين، وبالتالي لم يتمكنوا من قراءة "الحقائق" التي استندت إليها سلطتهم. وفي الوقت نفسه، فإن تجربة التطهير الحية والخطط الخمسية والتجميع والتصنيع زودت قادة الحزب وتابعيهم بفهم عميق للتفاصيل المخبأة في الدعاية الرسمية. تم استيراد عبادة ستالين الشخصية بالجملة، ولكن تمت ترجمتها أيضاً واستُخدمت كقالب لعبادة شويبالسان المتفرعة عنها. أضاف الزعيم المنغولي ميلاً للرماية بالسهام إلى فضيلته الثورية وعبقريته الربانية، بنفس الطريقة التي قد يضيف بها فرع شركة ماكدونالدز في إسطنبول وجبة كباب "McTurco" إلى قائمة أطعمته الغربية. خلاف ذلك، تم استيراد الأشكال الأدبية السوفييتية بالجملة، وأصبحت الكلمة الشيوعية مركزية ومقدسة في منغوليا.

كان شويبالسان نفسه حريصاً على التأكيد على تفوق عبادة ستالين، وتحديداً نصوص ستالين. في تعليقات نشرت في صحيفة "الحقيقة" Unen، جريدة الحزب، في ١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧، أعلن أن "الحدث الأهم في الحياة الأيديولوجية للحزب" خلال العقد السابق كان "ظهور ونشر كتب الرفيق ستالين أسئلة **اللينينية** والمجلد الأول من الأعمال الكاملة للرفيق ستالين وأعماله الأخرى."

لكن شويبالسان كان مضطراً أيضاً حسب التقاليد الاشتراكية للقيام بأعمال "نظرية" علنية على الورق، وشعر بالضغط لخلق أعماله الخاصة. وباعتباره بشرياً اصطناعياً، مع ذلك، كان في موقف صعب. كان ستالين بابا الشيوعية قد أغلق أبواب التفسير. لا يمكن قول أي شيء جديد أو كبير عن ماركس أو لينين، طالما كان الفوشد في السلطة. كيف، إذاً، يمكن أن يكتب شويبالسان شيئاً عبقرياً كبيراً من دون أن يكون قد قال من قبل شيئاً جوهرياً أبداً؟

لحسن حظ الديكتاتور المنغولي، كانت هناك سوابق. ففي وقت مبكر من عام ١٩٢٦، لاحظ بوريس سوفارين، وهو كومنترن سابق، خوائية ومطاوعية اللغة السوفييتية.

من دون حقيقة واحدة، أو اقتباس واحد، ولا فكرة واحدة، ولا حجة واحدة: هناك فقط التأكيدات الصفيقة ونصف دزينة من الكلمات القابلة للتبادل آتية من "الأعالي"، خذ عبارة "من أجل الوحدة البلشفية للحزب اللينيني"؛ إذا قلبت ترتيب الصفات، فستحصل على "من أجل الوحدة اللينينية للحزب البلشفي"، وإذا قلبت ترتيب الأسماء، فستحصل على "من أجل الحزب البلشفي والوحدة اللينينية"، وهكذا. أليس هذا رائعاً؟

كان ستالين قد قدم عرضاً عملياً عن كيفية الهروب من الطريق النظري المسدود. وكان هو أيضاً يفتقر إلى ببليوغرافيا نظرية كبيرة عندما وصل إلى السلطة، لكن محرري **أعماله الكاملة** قاموا بتوسيع إنتاج سيدهم الضئيل من خلال التعامل مع كل تعبير تقريباً يصدر عن الإنسان المؤلّه كنص مقدس، تماماً كما جمع أصحاب محمد، أقوال وأفعال النبي، وتوسعت إلى حد كبير لما كان يمكن أن يكون مجموعة قصيرة جداً من النصوص المقدسة (يبلغ القرآن أربعة أخماس فقط طول الأحاديث النبوية). على الرغم من أن عملاً أساسياً مثل "أسس اللينينية" قد نشأ كسلسلة من المحاضرات المنطوقة، إلا أنه كان بمثابة كتاب له تأثيره الأكبر. في الواقع، أثبتت الطبيعة المسطحة وغير الفنية لخطب ستالين، أنها مصدر قوة بمجرد طباعتها وتجليدها وتقديمها كنصوص. لم يكن خطاب ستالين ممارسة ديماغوجية تهدف إلى تأجيج المشاعر مثل هتلر أو موسوليني؛ وكان بدلاً من ذلك عبارة عن سلسلة من التعليمات، أو ربما كان تقريراً جافاً يحتوي على إحصائيات يسهل استيعابها على الورق أكثر من تلاشيها في الهواء. كانت الخطب مملة، ولم تحاول الحث على الانخراط فيها. وهذا ما أعطاها مظهراً رزيناً.

باتباع المثال الذي وضعه سيده، تمكن شويبالسان من ملء أربعة مجلدات من **التقارير والخطب** بكلمات ألقاها في مؤتمرات الحزب. تم نشر **"أعظم الزيارات"** لاحقاً في موسكو؛ إن إلقاء نظرة سريعة على بعض العناوين الموجودة على جدول المحتويات يعطي إحساساً بالإثارة الموجودة فيها:

رسالة إلى الشباب المنغولي حول الأراضي السوفيتية ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٣

الذكرى الحادية عشرة لوفاة لينين والاستقلال الوطني لمنغوليا

الاحتفال الكبير بالوحي وسياسة المسار الجديد

خطاب في اجتماع للعمال في مدينة أولان باتور ٢٣ حزيران/ يونيو ١٩٤١

تحتوي الخطب نفسها على لغة آلية ميتة مثل هذه:

> علينا أن نوحد أنفسنا ونكرس حياتنا وممتلكاتنا لتوحيد عقول الناس ومسؤولي اللافتات المنغولية والطبقة العادية، كي نحرس أرواح المنغوليين وأراضي منغوليا. بعد تأسيس حزب الشعب المنغولي، سنعلن هدف الحزب. الهدف هو المزيد من الحقوق والامتيازات للناس العاديين. بعد القضاء على معاناة الناس، ينبغي السماح لهم بالعيش في سلام، ومثل أي دولة أخرى، يجب على الشعب المنغولي تطوير قوته ومواهبه. عندها سيكونون قادرين على العيش بسعادة حياة مستنيرة وعادلة.

لم يكن الأمر كله مجرد دعاية خانقة. فلقد أتقن شويبالسان الضراوة الستالينية. واحتوت خطبه في أواخر الثلاثينيات على العديد من الاحتجاجات على رفاق فجر الثورة المنغولية، على غرار هجمات الفوشد وأتباعه الخانعين ضد تروتسكي وغيره من البلاشفة الرواد في **الدراسة القصيرة** والتصريحات العامة التي لا حصر لها إلى جانب ذلك. في خطاب ألقاه في الذكرى الثامنة عشرة للثورة المنغولية، يتحدث شويبالسان ذاماً الرفاق الذين عرفهم منذ عشرين عاماً:

> لقد كُشف عن دامبا ونايدان ودوفشين وبقايا منظمة غندونغ ديميد وكذلك عن أعداء غادرين آخرين. ومنذ ذلك الحين، وآمور الذي أطلق عليه اسم رئيس الوزراء في هذا البلد، والذي كان في مجمله نبيلاً إقطاعياً، مشبعاً بالمذاهب الرجعية للإقطاع القديم، والبوذيين والمنشوس، مع الشياطين الآخرين، تم القبض عليه. حتى الآن نحن نستأصل تماماً الأعداء الذين حاولوا عرقلة حرية الشعب والصداقة الدافئة بين الاتحاد السوفييتي ومنغوليا (تصفيق هائل: وصيحات "هووورا").

بعد سابقة ستالينية أخرى، أنتج شويبالسان أعمالاً تاريخية، بما في ذلك سيرة بطل الحرب المنغولي خاتان باتور ماكسارجاب (الذي حارب الصينيين قبل أن يحول انتباهه إلى الجيوش القيصرية) وتاريخ الثورة الشعبية المنغولية، كان دائماً حريصاً على تكريم جاره العظيم.

* * *

طوال ثلاثة عقود من وجود الاتحاد السوفييتي، كانت منغوليا هي القمر الصناعي الوحيد الدائر في فلك موسكو، والتكافل الانفرادي لشويبالسان هو المثال الوحيد الذي يمكن ملاحظته للظاهرة التي اختفى فيها رجل قوي محلي تابع لستالين وراء شخص خيالي إلى حد كبير مُحاك قريباً جداً على غرار الفوشد. بعد الحرب العالمية الثانية، ظهرت مجموعة من الأقمار الصناعية الجديدة على الحدود الغربية للاتحاد السوفييتي، حيث جلبت دبابات وبنادق الجيش الأحمر الاشتراكية إلى أوروبا. في ألمانيا الشرقية، المجر، رومانيا، ألبانيا، يوغوسلافيا، تشيكوسلوفاكيا وبلغاريا، تولى السلطة الكائن الستاليني الشبيه بالإنسان، في حين تم استيعاب دول البلطيق لاتفيا وليتوانيا وإستونيا في الاتحاد السوفييتي. باستثناء تشيكوسلوفاكيا حيث حدث أن فاز الشيوعيون بتفويض للحكم من خلال الانتخابات، بينما في يوغوسلافيا فقط قامت القوات المحلية بدلاً من الجيش الأحمر بتحرير البلاد. ومع ذلك، حتى في هذه الحالات، كان قادة الأحزاب المحلية، كليمنت جوتوالد وجوزيف بروز تيتو، على التوالي، من المتلقين لفترة طويلة لرعاية ستالين ومن الذين قضوا سنوات في العيش في موسكو[١]. ولم يكن تفاني الحزب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا في الانتخابات شيئاً أكثر من الانتهازية: في مواجهة احتمال فقدان التصويت الشعبي في عام ١٩٤٨، قام الحزب بانقلاب لضمان أن تستمر الجماهير العاملة في التمتع بمزايا الاشتراكية -حتى لو فضلوا عدم نيل ذلك.

لم تظهر أي من هذه الدول الجديدة كنتيجة لثورة بروليتارية. مرة أخرى، لم تتناسب الأحداث التاريخية الفعلية مع "القوانين العلمية" المدرجة في النصوص المقدسة. ولكن تمّ اتخاذ القرار الذي لا رجعة فيه منذ فترة طويلة، وأصبح المنظّرون في موسكو الآن بارعون في إعادة تفسير الجوانب غير المناسبة للعقيدة. في نهاية الأمر، إن كانت الاشتراكية ممكنة في بلد واحد (كما قال ستالين)، ويمكن لمنغوليا تجاوز المرحلة الرأسمالية بالكامل (كما أوضح لينين)، فمن المؤكد أنه يمكن بسهولة تعديل العقيدة لاستيعاب وجود أتباع الاتحاد السوفييتي

---

١ - كان طغاة أوروبا المستقبليون وثيقي الصلة ببعضهم البعض، حيث عاش معظمهم في وقت واحد أو آخر تحت سقف واحد، في فندق لوكس في شارع غوركي، على بعد ١٥ دقيقة سيراً على الأقدام من الكرملين. كان هو تشي مينه، الزعيم الشيوعي المستقبلي لفيتنام، مقيماً أيضاً. المؤلف

الدائرين في فلكه؟ وهكذا تبين أنه في البلدان الأوروبية "المتقدمة" نسبياً، لم تكن ثورة ولا ديكتاتورية البروليتاريا ضرورية للغاية. يمكن للدول التقدم نحو الاشتراكية في "ديمقراطيات الشعوب"، حيث قد يتعاون الشيوعيون حتى مع غير الماركسيين في البرلمانات المحلية. ربما، حتى إنه كان من الممكن لهذه الأقمار الصناعية أن تجد طرقها الخاصة في الاشتراكية: الأنموذج السوفييتي لم يكن السبيل الوحيد!

لكن مع اشتداد الحرب الباردة، غيّر ستالين رأيه. اتضح أن الطريق الجديد إلى الأمام يشبه إلى حد كبير الطريقة القديمة للمضي قدماً، وقد اشتمل على الخطط الخمسية وعمليات التطهير وإنشاء المزارع التجميعية والشرطة السرية والواقعية الاشتراكية وتماثيل لينين وتماثيل ستالين والاحتفال بعيد ميلاد ستالين ٢١ كانون الأول/ ديسمبر من كل عام. مثل شويبالسان في منغوليا، اختفى أصحاب الامتياز المحليون الآن خلف تنويعات محلية من عبادة شخصية ستالين. ابتسم المجري ماتياس راكوزي وهو يداعب سنبلة قمح في الصور الدعائية؛ كان الزعيم البولندي بوليسوا بيرووت، وهو نظام لدعم الحياة، خالياً من الكاريزما للشارب البيروقراطي، يتشمس في مجد القصائد المكتوبة على شرف عيد ميلاده؛ وكان التحنيط على غرار لينين من ضرورات الموتى الذين لقوا حتفهم خلال فترة الستالينية العالية، مثل البلغاري جورجي ديميتروف وكليمنت غوتوالد التشيكي.

وبالطبع كانت هناك نصوص، الكثير من النصوص. بالإضافة إلى الروائع مثل **الدراسة القصيرة**" و"**أسس اللينينية**"، فإن الروايات الاشتراكية السوفييتية الواقعية المتشددة، كانت تنثال من المطابع. لكن سكان الأقمار الصناعية السوفييتية الجديدة تعرضوا لمعاناة إضافية خاصة. وفي الواقع، كان على الذين يعيشون في بلدان ذات معدلات معرفة القراءة والكتابة أعلى بكثير من منغوليا، قراءة ملايين الكلمات العقيمة التي تم إنشاؤها في أوطانهم، مثل النشيد التالي للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي بقلم فيتوسلاف نيزفال، وهو شاعر سريالي موهوب ذبلت موهبته وتوفي لحظة بدأ التطبيل للعصر الجديد:

أحيي حزبنا المحبوب،

يحيا ستالين، مثالنا الساطع...

يعيش كليمنت جوتوالد قائدنا،

في هذا قوتك، وصيتك!

أما بالنسبة إلى أشباه الإنسان، فقد وجدوا أنفسهم في نفس المكانة الصعبة مثل شويبالسان: كيف يمكنهم كتابة شيء عبقري وعظيم بينما هم لم يقولوا أبداً أي شيء ذي معنى؟ كان عليهم إنتاج نص، لكنهم لم يتمكنوا من الابتكار. على عكس ماو، هم مدينون في ارتقائهم بالكامل إلى ستالين، وكانوا يعتمدون على ستالين، وخاضعين لستالين. لن يجرؤ أي شخص منهم على الإصرار على أهمية الفلاحين، أو الحديث بقوة عن الظروف المحلية كما كان ماو، وقد تعرض هو أيضاً لقيود على المدى الذي يمكن أن يذهب إليه.

وبدلاً من ذلك، اتبعوا الأنموذج الذي ابتكره شويبالسان خلال سنوات حياته الوحيدة كقائد لأول نظام تابع للاتحاد السوفييتي: تجميع الخطب والتقارير وإدانات الإمبرياليين وتقديم التحديثات عن التقدم المذهل نحو الاشتراكية في الطبعات متعددة الأجزاء التي التزمت بدقة بخط ستالين. وهكذا أخذ النثر الشيوعي يتصاعد مثل ضباب دخاني سام في جميع أنحاء العالم، حيث إن إدارات اللغات الأجنبية في دور النشر الحكومية في المجر ورومانيا وبولندا وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا، أكدت أن الكلمات الحكيمة لزعمائها كانت متاحة باللغة الإنجليزية والألمانية والإسبانية والعديد من اللغات الأخرى جنباً إلى جنب.

أي نفاية غير قابلة للقراءة كان كل شيء! كانت الكثير من الأوراق الأكاديمية في الفنون والإنسانيات، وربما أكثر من ذلك، إن هذه النصوص غير مقروءة كلها تقريباً اليوم. ولا عجب في ذلك: فالمعاناة من خلال قراءة بعض المقاطع تكشف عن مطابقة ملحمية وقابلية للتبادل، مميزة حقاً بالنظر إلى الخلفيات الإثنية والثقافية المتنوعة للمؤلفين.

امتدح اليهودي المجري راكوزي ستالين قائلاً:

> ... الغالبية العظمى من أعضاء الحزب ليسوا على دراية بتطويرات ستالين الأخيرة للماركسية اللينينية. لقد أثراها حقاً يوماً بعد يوم على مدار الخمسة والعشرين عاماً الماضية: وبالتالي، لا ينبغي أن يكون برنامج عملنا الماركسية أو اللينينية البحتة، بل الماركسية اللينينية في شكلها الستاليني.

كما فعل القطب بوليسوا بيروت:

في بناء الاشتراكية في بولندا، نحن نقف إلى جانب الفيلق العظيم من بناة الاشتراكية والمقاتلين من أجل الاشتراكية التي تنمو اليوم في جميع بلدان العالم. قائدنا ودليلنا هو ستالين، وبالتالي فإن فكرتنا وصفوفنا لا تقهر.

وفاءً لأفكار ماركس وإنجلز ولينين وستالين، لن ندخر جهداً لتحقيق خطة السنوات الست، مساهمتنا في قضية الدفاع عن السلام والانتصار الكامل للاشتراكية!

وكما فعل البلغاري جورج ديميتروف:

قوياً في النطاق الهائل لبنائه الاشتراكي، وفي القدرة القتالية العالية لجيشه الأحمر، في وحدته المعنوية والسياسية، يقدم الشعب السوفييتي - محتشداً وملتفاً حول الحزب الشيوعي والحكومة السوفيتية والرفيق ستالين، زعيم الشعب العامل - الدعم القوي لعمال العالم كله.

بطرح عدد قليل من العبارات، يمكن بسهولة تحويل الخطاب الذي ألقاه زعيم في بلد ما إلى قالب آخر يلقيه زعيم مختلف في يوتوبيا اشتراكية أخرى. لننظر في هذا المقطع من خطاب في ١٩٤٩ ألقاه الزعيم الألماني والتر أولبرشت عن طريق إزالة ثلاث كلمات، بيترفيلد، ألمانيا، واثنين آخرين، يتم تقديم نص يصلح للغرض تقريباً في أي من الدول التابعة للاتحاد السوفييتي، أو حتى في الاتحاد السوفييتي نفسه.

تواجه خطة إعادة الإعمار الخبراء الفنيين بمهمة عظيمة ومشرفة. بعد تقديم الخطة التي تستغرق ______ سنوات، تحدثت في اجتماع عقد في ______إلى الكيميائيين والمهندسين والفنيين. عليّ أن أقول إن الخطة ذات______ سنوات حظيت بموافقة غالبية الحاضرين. لم يكن هذا صدفة. توفر الخطة خلال ______سنوات فرصاً طويلة المدى للخبراء التقنيين. هناك هدف أمامهم كمختصين. هم حتى الآن قاموا بإعادة بناء المصانع، في كثير من الأحيان بجهد كبير وحرفياً من الأنقاض. الآن وقد تم تخصيص مبالغ كبيرة للاستثمارات في إطار الخطة، سيتعين استخدام هذه المبالغ بطريقة عقلانية؛ يجب تحسين جودة الإنتاج عن طريق

الابتكارات التقنية، ويجب زيادة الإنتاج بمساعدة تنظيم أفضل للعمل وتحسين وسائل الإنتاج.

بعد أن أمضوا سنوات وهم يخضعون أنفسهم لتغير نزوات ستالين، اكتسب ديكتاتوريو أوروبا الشرقية قدرة هائلة على التعايش مع التنافر المعرفي، في عملية تطوير أسلوب للكتابة والكلام الذي كان مرناً، متسامحاً، معتماً، عاطفياً، فارغاً، قابلاً للتبادل، مليئاً بالمصطلحات. إذا كشفت اللغة عن أي شيء، فهو الحالة التي هي عليها من العبودية العقلية. في مقاله المؤثر عام ١٩٧١ بعنوان "قلق التأثر"، وصف الناقد الأدبي هارولد بلوم "الإنفلونزا"، بأنها "مرض نجمي" يصيب الشعراء الذين يتعرضون دائماً لخطر إنتاج أبيات اشتقاقية، نظراً لأنهم يستوحون من شعراء آخرين. إن رغب الشعراء في أن يحققوا الأصالة وينتجوا أعمالاً باقية حتى الأجيال القادمة، يجادل بلوم، فإن عليهم أن يخطئوا عن قصد في قراءة أعمال سابقيهم. ربما كان الجانب الأكثر لفتاً للنظر في أعمال شبيهي البشر أولئك، هو نضالهم اليائس لتحقيق العكس: بالنسبة إليهم، كان التأثر صريحاً، خشية أن يشتبه ستالين في عدم ولائهم. كان قلقهم هو إظهار هذا التأثر، ورؤيتهم باستمرار وسماعهم وقراءتهم يُظهرون ذلك. كانوا بالكاد مؤلفين مستقلين (وعلى الأرجح لم تكن أعمالهم الخاصة)، فقد كانوا تحت ثقل رهيب لم يتمكنوا من الخروج منه. وكما قال الزعيم الشيوعي البولندي فاديساو جوموكا لاحقاً، فإن مجدهم "يمكن أن يُطلق عليه فقط تألق منعكس، وضوء مستعار، يشرق كما يفعل القمر".

٤- مقاربات شرقية

"حرية التعبير حق طبيعي لكل شخص، حتى لو اختار الشخص أن يتصرف بطريقة غير عقلانية، ليعبّر عن جنونه."

مع تقدم القرن العشرين، انهارت الإمبراطوريات الممتدة في العالم القديم أو تعثرت، أو ببساطة ألغت نفسها، وظهرت دول جديدة في آسيا وأفريقيا، خالقة إمكانيات جديدة لتشكيل الهويات والأيديولوجيات. فبدلاً من الخضوع الأعمى للعقائد الجامدة للحكم الشمولي المعاصر، جرّبت النخب المتعلمة في الغرب في كثير من الأحيان في هذه الأراضي المستقلة حديثاً كافة المدارس الفكرية، ما أدى إلى ظهور أيديولوجياتها المختلطة والمهجّنة. كانت إحدى أفكار القوى الاستعمارية السابقة والتي لم يرفضوها، هي أن على القادة الحكماء أن يبرهنوا على حكمتهم عبر كتابة الكتب.

لذا في هايتي، قام فرانسوا دوفالييه "بابا دوك"، وهو طبيب تحوّل إلى القومية السوداء، باستراحة من قتل خصومه ليرفع إصبعه المناهض للإمبريالية في وجه الولايات المتحدة في: **تحية للشهيد زعيم اللاعنف المحترم الدكتور مارتن لوثر كينغ جونيو (١٩٦٨)**. أما في زائير، فقد حشر المحرر الصحفي موبوتو سيسي سيكو[1] الذي تحول إلى لص كبير، حشر خطباً ملهمة مدتها عشر سنوات في مجلدين صدرا عام ١٩٧٥، بينما نشر أيضاً مجموعة

١ - أو لمنحه لقبه الكامل، موبو سيسي سيكو كوكو نجبندو وازا بانقا ("المحارب الأقوى الذي، بسبب قدرته على التحمل وإرادته غير المرنة للفوز، سينتقل من نصر إلى نصر، ويترك النار في أعقابه"). المؤلف

من المقابلات في فرنسا بعنوان **الكرامة لأفريقيا** (يا للسخرية المذهلة). وفي أوغندا، أصدر عيدي أمين عدة كتب: **الأيام الـ ٣٦٦ الأولى**، ولا بد من القول، أنه كان خفيفاً إلى حد ما على الكلمات، التي تضمنت معظمها صوراً للزعيم نفسه. أما كتابه: **أزمة الشرق الأوسط: مساهمة فخامة الرئيس الحاج عيدي أمين دادا في حل أزمة الشرق الأوسط خلال السنة الثالثة من جمهورية أوغندا الثانية** (١٩٧٤) فكان مجهوداً أكثر أهمية، رغم أن حماس أمين لحل هتلر النهائي قد أفقده بعض المصداقية كصانع سلام في بعض الأوساط. وربما كان أكبر إسهام له في الأدب الديكتاتوري هو: **برقيات من وإلى الرئيس أمين** (١٩٧٥)، الذي "يفعل إلى حد كبير ما يقوله على العلبة[1]". في هذه الأثناء، في زمبابوي، أخذ القومي الأفريقي المتعلم من اليسوعيين روبرت غابرييل موغابي استراحة من إعلانه أنه سيبني الاشتراكية، في حين أنه لا يبنيها فعلياً، كي يقوم بإصدار موضوعات كلاسيكية مثل: **حديث الرئيس في مأدبة بكوريا الشمالية، ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٠**؛ **حربنا التحررية** (١٩٨٣)؛ **بناء الاشتراكية في أفريقيا** (١٩٨٤)؛ **والحرب والسلام والتنمية في أفريقيا المعاصرة** (١٩٨٧) والمنشور الأخير، على الرغم من غلافه الفني، فهو مجرد خمس وعشرين صفحة، إذا استبعدت المقدمة - وهو ليس من عمل موغابي نفسه.

وعلى الرغم من ظهور هذه الكتب (وغيرها) بالتأكيد، واحتلالها حيزاً مادياً على الأرفف، تجمع الغبار، وتتعرض لهجمات السمكة الفضية وتأثيرات الأكسدة، سيكون من المبالغة ذكر أنها لا تحتوي على أي مخاطر، أو محاولات منهجية لبناء الأيديولوجيات. لقد كانت سريعة الزوال أكثر من كتب شبيهي البشر الشيوعيين، رغم أنها مثل تلك الأعمال، سعت إلى تخصيص السلطة الثقافية "للكتاب" التي تمنح أنظمتها صبغة من الاحترام. وبصرف النظر عن الخطاب التحريري، فإن أعمال موبوتو وآخرين -كانت كالقصور الضخمة المكسوة بالرخام والمراحيض الذهبية أو الصناديق المزينة بالميداليات - كانت للاستعراض فقط.

---

١ - جملة إعلانية صارت لها استعمالات مجازية شائعة. تعود لإعلان عن منتج لطلاء الخشب تصنعه شركة رونال. وتعني أنه يفعل بالضبط كل ما يعلن عنه. المترجم

في أماكن أخرى، كانت هناك محاولات أكثر جدية في بناء أنظمة أيديولوجية جديدة لإلهام وتوجيه البلدان أثناء خروجها من أنقاض الإمبراطورية.

***

كانت النخبة في تركيا ومصر وإيران، مثل تلك التي في أوروبا والصين، وارثة ثقافة شديدة التركيز على اللغة. على الرغم من ظهور الإسلام في عصر الكتابة بالريش، على الرق، أو المخطوط، إلا أن التقاليد تقول إن محمداً كان أمياً. ويؤمن المسلمون أنه تلقى نص القرآن باللغة العربية عن طريق الإملاء المباشر من الملاك جبرائيل، الذي كان يتلو من "أم الكتاب"، التي تقع عند الله في السماء.

كلمة القرآن نفسها مشتقة من الجذر العربي قرأ، بمعنى "التلاوة" أو "القراءة"، وفقط عندما تتم قراءة الكتاب باللغة العربية، تكون تجربة التفاعل مع كلمة الله أصيلة تماماً. في الواقع، هذا النص قوي جداً لدرجة أن حفظه عن ظهر قلب يضمن الدخول إلى الجنة[1]. في التقاليد الإسلامية، يعتبر القرآن كائناً مادياً مقدساً أيضاً، وهناك قواعد معقدة تحكم التعامل معه. على سبيل المثال، يجب دائماً وضعه أعلى من الكتب الأخرى، وإذا كانت مقتضيات الوجود الأرضي تجعل نسخة منه غير صالحة للاستعمال، فيجب التخلص منها بعناية فائقة[2].

بالإضافة إلى القرآن، كان هناك الحديث (مجموعات من أقوال النبي) وقرون من التعليقات عليها - تراكم هائل للنص تكدّس على مر الأجيال. يركز التعليم الإسلامي التقليدي بقوة على تحفيظ الكتاب المقدس، بينما ظلت دراسة قواعد اللغة في جامعات مثل الأزهر في القاهرة ولعدة قرون، أساسية في تعليم الإمام. ومع ذلك، وفي أوائل القرن العشرين، استنكر العديد من أعضاء النخبة المثقفة في الدول ذات الأغلبية المسلمة ما اعتبروه

---

١ - حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، قَالَ سَمِعْتُ زُرَارَةَ بْنَ أَوْفَى، يُحَدِّثُ عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ، عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ "مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهْوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهْوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهْوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ، فَلَهُ أَجْرَانِ". صحيح البخاري، الحديث ٤٩٣٧ - المؤلف

٢ - أوصى آية الله الخميني بأنه إذا سقطت صفحة من القرآن في المرحاض، فيجب استعادتها فوراً "بغض النظر عن النفقات". وإذا ثبت أن عملية الإنقاذ مستحيلة، فيجب أن يظل غير مستخدم حتى يكتمل تحلل الصفحة.

التأثير الرجعي للإسلام على ثقافاتهم. وظهر قادة جدد ممن كانوا أقل اهتماماً بالكلمات المقدسة للقرآن من اهتمامهم بالعقائد الغربية الجديدة المتمثلة في القومية والعلمانية.

كان أول هؤلاء القادة وأكثرهم تأثيراً هو مصطفى كمال، المعروف أيضاً باسم أتاتورك ("أب الأتراك")، الذي أسس الجمهورية التركية في عام ١٩٢٣، وهو العام الذي أعقب نجاح زحف بينيتو موسوليني على روما في آذار/ مارس. كضابط عسكري له سجل حافل بهزائم الجيوش الأوروبية في كل من الحرب العالمية الأولى والحرب اليونانية التركية اللاحقة، اكتسب أتاتورك مكانة مرموقة في الأيام الأخيرة للإمبراطورية العثمانية. على الرغم من أنه ليس مستبداً شمولياً على نمط الدوتشي، إلا أنه كان يشعر بالارتياح الشديد للسلطة، وظل على رأس نظام الحزب الواحد حتى وفاته في عام ١٩٣٨. وكانت هالة القوة تلك التي لزمت أتاتورك حتى بعد وفاته، قد أكسبت حتى ملابسه الداخلية مكانة "الآثار التذكارية" التي تستحق المحافظة عليها -كما اكتشفت في عام ٢٠١٢، في زيارتي لمتحف الصناعة والنقل في إسطنبول. هناك رأيت ضريحاً للزعيم شمل من بين الأشياء المعروضة عرضاً لسرواله التحتاني الطويل المحفوظ بمحبة.

كان أتاتورك قارئاً نهماً ومفكراً صارماً. أثناء خوض الحروب، وإنشاء الدولة وإدارتها، وإتقان فن الرقص في قاعة الرقص، تمكن أيضاً (كما يُزعم) من قراءة حوالي أربعة آلاف كتاب خلال حياته، معظمها بالتركية والفرنسية. وسواء أكان ملحداً كاملاً أو أكثر من متدين على النمط التنويري، فمن الواضح أن الإسلام كان ذا جاذبية محدودة بالنسبة إليه. وكان أكثر اهتماماً بالأفكار الحديثة التي وجدها في الكتب الأوروبية، وقد أطلق حملة جذرية للقضاء على الإسلام من المجال العام.

ألغى مكتب الخلافة، وقام بتحويل آيا صوفيا من مسجد إلى متحف كبير للغاية ليس مخصصاً لديانة معينة. وألغى الشريعة الإسلامية، واستبدلها بتشريع قانوني علماني حسب التوجهات الأوروبية، وحذف ذلك السطر من الدستور الذي يجعل من الإسلام دين الدولة. كان يشعر بالارتياح الشديد لكسر التحريم الإسلامي للكحول، ولم يسمح لنفسه فقط بالتقاط صورة له وهو يشرب الراكي (محتوى الكحول: ٤٥ ٪) ولكنه تمكن حتى من الموت بسبب تليف الكبد. كما شن هجوماً غير خفي تماماً على نصوص الماضي الإسلامي، من خلال

إلغاء الكتابة العربية واستبدالها بأبجدية مشتقة من اللاتينية، وجعل بحركة واحدة حتى النقوش التي على مقابر الأسلاف غير مقروءة لمعظم الأتراك، وفي الوقت نفسه عزز بقوة إعادة توجيه الثقافة نحو الغرب. لم يكتفِ بتطهير اللغة التركية من الكلمات المستعارة من العربية والفارسية فحسب، بل أيد أتاتورك أيضاً ترجمة القرآن إلى اللغة التركية "الزائفة"، على الرغم من حقيقة أنه لو أراد الله من جبريل أن ينقل الوحي الأخير بهذه اللغة، لكان قد وجد شخصاً آخر غير محمد لكي يخاطبه.

وبالطبع، قام أتاتورك بإنشاء نصوص - الكثير منها في الواقع، شملت مجموعة واسعة من المواضيع، مثل موسوليني (سوى أنها مع انتصارات)، نشر سرداً لحملاته العسكرية، حيث جمع يومياته وملاحظاته في مختارات. لقد كان من أوائل من تبنى استراتيجية إنشاء ببليوغرافية مبنية على الملاحظات والخطب وغيرها من الوثائق التي أنتجها أثناء إدارة البلاد. كان كتابه: **خطاب** Nutuk في الأصل خطاباً ضخماً ألقاه أمام البرلمان التركي في عام ١٩٢٧ واستغرق إلقاؤه ستة أيام وتم نشره لاحقاً ككتاب: لقد أنشأ الطريقة الرسمية للتفكير في تأسيس ومستقبل الجمهورية الجديدة. تم نشر العديد من مجلدات الخطب والوثائق تحت عنوان "**الأعمال الكاملة لأتاتورك**". وبشكل غير عادي، قام أيضاً بتأليف الكتب المدرسية، بما في ذلك كتاباً في الهندسة قام فيه بنبذ اللغة العربية كلغة للعلوم والرياضيات. وبدلاً منها، سعى إلى الحصول على مصطلحات تركية (أو تركمانية) لوصف المفاهيم الهندسية، على سبيل المثال استبدال كلمة (zaviye الزاوية) ذات الأصل العربي بكلمة Açı للدلالة على "الدرجات".

بخلاف نظرائه الشيوعيين أو النازيين، لم تكن لدى أتاتورك نظرية مبسطة لكل شيء. بدلاً من ذلك، كانت لديه "ست نقاط" (الجمهورية، ومركزية الدولة، والشعبية، والعلمانية، والقومية، والإصلاحية)، وبما أن العامل الموحِّد هو أنها كانت جميع الأشياء التي وافق عليها، فإن هذه الأيديولوجيا تحمل علامة "الكمالية" (نسبة إلى اسمه).

* * *

لم يكن أتاتورك القائد الوحيد في العالم الإسلامي الذي كان ينوي حظر الدين إلى المجال الخاص. فعلى سبيل المثال، شرع كل من الملك أمان الله في أفغانستان (١٨٩٢-١٩٦٠) ورضا

شاه بهلوي في إيران (١٨٧٨-١٩٤٤) في حملات التحديث من أعلى إلى أسفل، وإن كان ذلك من دون إصدار أي كتب ملحوظة. في مصر، موطن الأزهر، أهم مقر لتلقي العلم في الإسلام السني، كانت المواقف تجاه الإيمان أكثر اختلاطاً. في ما اعتبره البعض الإجابة على أزمات الحداثة - في عام ١٩٢٨ أسس أستاذ المدرسة حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين، وهي منظمة سياسية دينية تهدف صراحة إلى إقامة مجتمع جديد قائم على الشريعة الإسلامية[1]. وكان هناك الكثير من المثقفين المهتمين أكثر بالبحث في الكتب الغربية واستكشاف الاحتمالات الكامنة في القومية والاشتراكية. وفي هذه البيئة المعقدة ولد رئيس مصر المقبل جمال عبد الناصر عام ١٩١٨.

على الرغم من أنه كاد بالكاد سليل الامتيازات -كان نجلاً لمدير مكتب بريد - إلا أن ناصر تلقى تعليماً جيداً، وخلال سنوات مراهقته كان يعيش على مقربة من المكتبة الوطنية في القاهرة، ما مكنه من أن ينغمس ليشبع رغبته في الكتب. وشارك الشاب ماو ذوقه في قصص "الرجال العظماء" مثل نابليون والإسكندر الكبير وغاريبالدي، لكنه قرأ أيضاً سيرة أتاتورك التي بعنوان **الذئب الرمادي**، والتي وُصفت بأنها "دراسة حميمة عن الديكتاتور"، وعدة كتب عن التاريخ الاستعماري لشمال أفريقيا. يبدو أن ناصر كان مهتماً بشكل خاص بمحمد أحمد، وهو شيخ سوداني أعلن نفسه "المهدي"، ثم قاد انتفاضة ضد الإمبراطورية البريطانية. التي صادف أنها كانت القوة المحتلة لمصر أيضاً.

من بين إحدى روايات الصراع، رواية **حرب النهر**، التي كانت بقلم ونستون تشرشل. الذي حارب كجندي شاب ضد المهدي. أعلن تشرشل بعض الأحكام القاسية المشهورة عن الإسلام في الكتاب، لكن ناصر لم يكن أتاتوركاً وشيكاً قيد الانتظار، وعازماً على التخلي عن التقاليد ونبذها جانباً. وبدل ذلك، كان مستلهماً من منتج ثقافي هجين، رواية أخرى بعنوان "**عودة الروح**"، نشر فيها المؤلف، توفيق الحكيم، شكلاً أدبياً غربياً في خدمة سرد قومي عن شاب اعتقل في ثورة ١٩١٩ التي اندلعت في مصر ضد الإنجليز. كتب الحكيم، "على الرغم من أنهم بائسون اليوم"، فقد ينتج الشعب المصري "معجزة أخرى إلى جانب الأهرامات"

---

١ - في ٢٠١٢ فاز حزب الإخوان السياسي الحرية والعدالة بالانتخابات الرئاسية ولا داعي للقول لم تسر كما كان مخططاً لها. المؤلف

إذا جاء الزعيم الصحيح. لو كان لناصر كتاب **ما العمل؟** لكان هذا هو: فهو لم ينس كلمات الحكيم أبداً.

شارك ناصر في احتجاجات الشوارع ضد البريطانيين بينما كان ما يزال تلميذاً، لكنه بقي قادراً على متابعة التعليم. بعد تخرجه من الأكاديمية العسكرية في عام ١٩٣٨، صعد بسرعة سلم الرتب، بينما كان يمضي على الهامش كصحفي يعلق على المعارك الأيديولوجية. بعد إذلال مصر في حرب ١٩٤٨ مع إسرائيل، شعر بخيبة أمل من الحكومة، وفي تموز/ يوليو ١٩٥٢ شارك في انقلاب عسكري أطاح بالملك عن السلطة. وبحلول عام ١٩٥٤، صار رئيساً للوزراء، وقد كتب خلال هذا العام كتابه "**فلسفة الثورة**".

إذا وضعنا جانباً عظمة العنوان، فإن **فلسفة الثورة** هو كتيب أكثر منه كتاب، وكما يفتقد الدقة التحليلية، فهو يفتقد أيضاً أي نوع من التجهيز النظري المتضخم الذي يمكن استخدامه لإخفاء ذلك النقص الأساسي الأول. وبدلاً من ذلك، يلتزم ناصر بتدوين مجموعة من التأملات الشخصية الحائرة حول الأسئلة العميقة التي تواجهه، وتواجه مصر والعرب وقارة أفريقيا. يبدأ ناصر في عدوانية فوق-نصية بتحذير القارئ من أن هذا العمل الفلسفي ليس عملاً فلسفياً حقيقياً، فإلى جانب ذلك، ما الذي تعنيه كلمة فلسفة بالضبط؟ وهذا غريب بالنسبة إلى رجل عسكري قوي يتمتع بالثقة حد القيام بانقلاب، وحظر جميع المعارضة وتنفيذ حكم الحزب الواحد، لا يبدو أن ناصر يعرف بالضبط ما الذي يتصدى له، أو حتى لماذا يكتب الكتاب؛ في هذه المرحلة من القرن العشرين، كان مجرد شيء فعله "القادة العظام". وهكذا يكتب ناصر محاولاً الكتابة، والتشبث بالمواضيع، ومجابهة الألغاز، وفي هذه العملية ينتج مقاطع عما يعذّب ليله مثل هذا المقطع:

> أعتقد اعتقاداً راسخاً أنه لا يوجد شيء يمكن أن يعيش في فراغ. الحقيقة الكامنة في أعماقنا هي هذه: أن كل ما نتخيل أنه الحقيقة، هو في الواقع، الحقيقة بالإضافة إلى محتويات أرواحنا؛ أرواحنا ليست سوى الأوعية التي يعيش فيها كل شيء فينا، وشكل هذه الأوعية يعطي شكلاً لكل ما يتم إدخاله فيها، حتى الحقائق.

يتأمل الآن في ذاته، وينقلب الآن عبر الزمن للتفكير في الفراعنة، وروما، والهجرات العربية، والحروب الصليبية، وانتفاضة جيش العبيد المملوكي ونضال مصر من أجل الحكم

الذاتي، يبحث ناصر عن موضوعه، وينتج الكلمات والجمل، والفقرات وهو يفعل ذلك. بينما يبدأ الكتاب نوعاً ما، وعلى مضض، في الخروج من مسارات الحبر على الورق، يجد ناصر في النهاية الاستعارة الأكثر ملاءمة لأي شيء يكتب عنه في الحداثة الأوروبية العالية. ومع ذلك، ظل يبدو في حيرة:

> لا أرى أي سبب، حيث أجلس بمفردي في دراستي وأفكاري تجول بعيداً، لماذا يجب أن أستعيد، في هذه المرحلة من تفكيري، قصة معروفة للشاعر الإيطالي لويجي بيرانديلو، والتي سماها "ست شخصيات في بحث عن ممثلين".[١]

كان بيرانديلو فاشياً يحمل بطاقة تعريف بذلك، بعد وقت قصير من مقتل أحد منتقدي موسوليني الأكثر صراحة في عام ١٩٢٤، أرسل برقية إلى موسوليني يسأله عما إذا كان بإمكانه الانضمام إلى الحزب. لكنها ليست سياسات بيرانديلو المشبوهة من جذبت ناصر إليه. فعلى الرغم من ادعاءه أنه "لا يرى أي سبب" للتفكير المفاجئ في المسرحية، إلا أن الزعيم المصري سرعان ما أوضح سبب صداها القوي عنده. إنها عن مجموعة من الشخصيات تعمل على دراما غير مكتملة، وتقوم بإفساد بروفا لعمل آخر كوسيلة للمطالبة بأن يحوّل المؤلف انتباهه إلى قصتها. كما يفسر ناصر (بأسلوب حائر بشكل مميز):

> سجلات التاريخ مليئة بالأبطال الذين نحتوا لأنفسهم أدواراً عظيمة وبطولية ولعبوها في مناسبات مهمة على المسرح. كما أن التاريخ مشحون بأدوار بطولية عظيمة لا نجد ممثلين لها. لا أعرف لماذا أتخيل دائماً أنه في هذه المنطقة التي نعيش فيها، هناك دور يتجول بلا هدف باحثاً عن ممثل يلعبه. لا أدري لماذا لا يجب على هذا الدور، الذي سئم من التجوال في هذه المنطقة الشاسعة التي تمتد إلى كل مكان من حولنا، أن يستقر أخيراً، متعباً ومرهقاً، على حدودنا يحثنا على التحرك واللباس من أجله والقيام به، لأنه لا يوجد أحد آخر يمكنه القيام بذلك.

وبعد أن قضوا وقتاً طويلاً "يتخبطون بلا هدف بحثاً عن بطل" حان الوقت الآن للعرب كي يلعبوا "دوراً إيجابياً في بناء مستقبل الإنسانية". وقد تخلت عن كونها مكاناً مستعمراً

---

١ - عادة ما تترجم إلى ست شخصيات تبحث عن مؤلف. المؤلف

راكداً، تقف مصر وقد كشفت عن أهميتها كمركز للحضارة، وهي التي تقع في قلب ثلاث دوائر متداخلة: العربية والأفريقية والإسلامية. الجانب العربي ضعيف، لكنه من المحتمل أن يكون الأكبر بسبب عوامل منها تراثها الثقافي وتقاليدها التوحيدية والحصول على النفط، الذي يقول ناصر إنه "النظام العصبي للحضارة". من خلال الجانب الأفريقي، تشارك مصر في الحرب العالمية ضد الاستعمار. يقدم الإسلام إمكانية الوحدة -يقترح ناصر أن يصبح الحج السنوي إلى مكة أكثر من مجرد طقوس دينية، وأن يكتسب جانباً سياسياً أيضاً. يمكن للمدينة المقدسة أن تستضيف مؤتمراً سياسياً حيث تلتقي "الدول الإسلامية، ورجالها العامون، وروادها في كل مجال من مجالات المعرفة، وكتابها، والصناعيون البارزون والتجار والشباب في هذا البرلمان الإسلامي العالمي لوضع الخطوط الرئيسية لسياسات بلدانهم وتعاونهم معاً حتى يجتمعوا ثانية في المرة القادمة. "

وهكذا، بعد بداية بطيئة وحائرة تبعها زحف بطيء وموجع إلى حد ما، وصل ناصر إلى ذروة كتابه بإعلان الطموح الكبير. يجب أن تنتشر الثورة المصرية إلى خارج البلاد، وهي لن توحد العرب فحسب، بل ستجمع أفريقيا أيضاً - إلا أن ذلك، ربما ليس بعد. وفجأة، يتطرق ناصر الى موضوع بيرانديلو مرة أخرى:

> أعود الآن إلى الدور المتجول الذي يبحث عن ممثل يؤديه. هذا هو الدور، هذه هي معالمه وهذه هي مرحلته.
>
> نحن، ونحن فقط، المدفوعون بمحيطنا والقادرون على أداء هذا الدور.

وفقاً لإحدى الروايات، فإن **فلسفة الثورة** موجود لأن زوجة ناصر استرجعته من القمامة التي ألقاه مؤلفه فيها. والكتاب غير ناضج بدرجة كافية، ترجّح أن هذا قد يكون صحيحاً. يمكن أيضاً تفسير غموض ناصر وتردده في حقيقة أنه كتب المخطوط في عام ١٩٥٤، عندما كان شخصية قوية وراء الكواليس، ولكن بعد عامين من ارتدائه عباءة الرئيس. كان ناصر ما يزال شخصية تنتظر هذا الدور الرائد في الدراما، لكنه كان على وشك اقتحام المسرح.

في عام ١٩٥٥، بينما كان في غرفة انتظار القدر، نشر **مذكرات عن حرب فلسطين الأولى**. في تلك السنة، شنت إسرائيل غارة على قطاع غزة، والذي كان في ذلك الوقت تحت

سيطرة القاهرة، وكان ناصر ملهماً بالكتابة عن تجربته السابقة في القتال ضد جار مصر الجديد وغير المرغوب فيه. لكنه لم ينجح حتى في الوصول إلى نهاية تلك الفكرة، رغم أنه على النقيض من عمله "الفلسفي" الحائر، قدم الكثير من التفاصيل الملموسة. النص شخصي بشكل مذهل، ونجح ناصر في أن يستحضر حياة جندي محترف خلال نزاع كارثي، بطريقة مختلفة تماماً عن وضع موسوليني المتمثل في السياحة الحربية التي يعقبها اليأس. يكتب ناصر كجندي حقيقي اعتاد المجازفة بحياته من أجل بلده. يصل الجزء الأبرز في المذكرات عندما يتم إطلاق النار عليه في صدره، والذي يصفه بأنه "أكثر الأحاسيس إثارة للفضول"، يتركه "لا آسفاً على نفسي ولا حزيناً". يستمر هذا الموقف الواثق بمجرد وصوله إلى المستشفى، حيث يصل إلى مستويات من المتانة في مواجهة الشدائد كانت لا تضاهى، إلى أن بدأت صور تشاك نوريس بالتداول على الإنترنت بعد ستين سنة:

> استلقيتُ على طاولة العمليات، بينما كان يفتش في صدري. وفي غضون عشر دقائق كان يسلم لي أجزاء وقطعاً من المعدن الملتوي قائلاً: "خذ هذه واحتفظ بها."

أخيراً، في عام ١٩٥٦، وصل دور ناصر الذي كان ينتظره منذ قراءة كتاب "عودة الروح" في سنوات المراهقة. في كانون الثاني/ يناير، كشف النقاب أمام البرلمان المصري عن مسودة دستور، أصبحت مصر من خلاله دولة اشتراكية ذات حزب واحد، وقومية عربية، والإسلام هو الدين الرسمي. بعد الاستفتاء في حزيران/ يونيو، صار قانونًيا - وصار رئيساً. وبصفته المرشح الوحيد في الانتخابات، فاز بنسبة ٩٩.٩٤٨ ٪ من الأصوات، أي أقل بنسبة ٠.٠٥٢ ٪ فقط من نتيجة كيم جونغ أون في "انتخابات" كوريا الشمالية لعام ٢٠١٤.

الموت أو الكارثة فقط هو القادر على إخراج السلطة من يديه الآن، وقبل سنوات من تقابله مع صانعه، تحرك ناصر بسرعة للاستيلاء على مكانته في التاريخ. فبعد شهر من انتخابه قام بتأميم قناة السويس. غزته فرنسا وبريطانيا وإسرائيل على الفور، لكنها سرعان ما انسحبت، وتركت ناصر في مكانه. لقد ساعده في ذلك، بالطبع، رفض الولايات المتحدة دعم حلفائها، وبدلاً من دعمهم، أدانتهم ودعمت قرار وقف إطلاق النار في الأمم المتحدة. ربما لم يكن ناصر قد حقق نصراً عسكرياً، لكن ذلك كان مهماً

بدرجة ما: فقد تفوق على خصومه وأذلهم وبرز كبطل للعرب، وكبطل عالمي لمناهضة الاستعمار وعدواً لدوداً لدولة إسرائيل.

وبينما كان يصعد إلى مصاف "الرجال العظماء"، توقف ناصر أيضاً عن كتابة مقالات استطلاعية تشير إلى الحداثيين الإيطاليين. وأخذ الآن موجات الأثير ليبشر برسالة القومية والاشتراكية والوحدة العربية عبر إذاعة صوت العرب. هذا لا يعني أن الكتب التي تحمل اسمه على الغلاف قد توقفت عن الظهور. على العكس من ذلك، ثبت أن الكلام كان أسهل بكثير من الكتابة، وكان ناصر قادراً على إنشاء بيبلوغرافيا سريعة. ظهرت مجموعة من الخطب من سبعة مجلدات في عام ١٩٥٩، وكان من المقرر أن يتبعها الكثير، لدرجة أنه لجأ إلى ملء الصفحات ليس فقط بكلمات ملهمة موجهة إلى الأمة العربية، وإنما أيضاً بالهراء الديكتاتوري الشائع مثل الخطب التي تقال عند إطلاق الصواريخ وافتتاح المصانع: نفس نوع الشيء الذي ربما أنتجته شركة شويبالسان أو كليمنت جوتوالد. وعلى الرغم من أن ناصر هو بلا شك شخصية تاريخية ذات أهمية كبيرة، إلا أنه من الصعب مقاومة الاستنتاج بأنه مع ذلك كان مؤلفاً ثانوياً نسبياً في الشريعة الديكتاتورية.

* * *

ليبيا ليست، مثل تركيا، الدولة الوارثة لإمبراطورية شاسعة متعددة الأعراق يديرها السلاطين المسلمون. كما أنها، ليست كمصر، مركز الحضارة القديم الذي تحوّل إلى قلب ثقافي للعالم العربي. وبدلاً من ذلك، إنها رقعة استعمارية قليلة الكثافة السكانية، تم تجميعها معاً من قبل الإيطاليين من قصاصات الإمبراطورية العثمانية، والتي لن تصبح مستقلة إلا بعد الحرب العالمية الثانية. في الواقع، عندما ولد معمر القذافي، لم يكن قد تم اكتشاف النفط، ولم يكمل موسوليني رحلته بعد إلى عمود الإنارة، وكانت ليبيا لا تزال جزءاً من إمبراطوريته الفاشية.

أما بالنسبة إلى "الأخ القائد" لمستقبل ليبيا المقبل، فقد كان من أطراف الهوامش، حيث دخل العالم كابن لراعي ماعز بدوي أميّ في عام ١٩٤٢. كان لمساره من الخيمة إلى مجمع مدجج بالسلاح فيه ساحة ألعاب صاخبة، وحديقة حيوانات خاصة وفريق نخبة من

الحارسات الشخصيات، الكثير مما يتقاسمه مع القرويين المتعلمين ذاتياً مثل ستالين أو ماو مقارنة ببرجوازي راديكالي مثقف مثل لينين. ولكن القذافي كان أقل قراءة بكثير من القادة السوفييتي أو الصيني. لقد تعلم تلاوة القرآن الكريم عن ظهر قلب عندما كان طفلاً، ثم تخرج من أكاديمية بنغازي العسكرية، قبل أن يسافر إلى المملكة المتحدة في عام ١٩٦٦ لإكمال تدريبه خلال إقامة لمدة خمسة أشهر في مدرسة للجيش في بيكونسفيلد، بالقرب من لندن. كانت ثورة ماو الثقافية جارية في الصين، وهناك نوع آخر من الثورة الثقافية التي بدأت تتكشف في بريطانيا، لكن القذافي لم يبد اهتماماً بالثقافة التجريبية للندن المتقلبة. لم يتناول العقاقير مثل LSD ولم يحضر أي تجربة من تجارب جيمي هندريكس، وبدلاً من ذلك، كان يتجول حول سيرك بيكاديللي في ردائه العربي الغريب، ويستمتع بزيارة القرى في المقاطعات المزدهرة بالقرب من لندن.

كانت ثورة عبد الناصر المناهضة للاستعمار، هي التي أعطت لحياة القذافي معنى وهدفاً. عندما كان مراهقاً، كان يستمع إلى إذاعات الرئيس المصري، وهو يتشرّب بعمق رسالة الوحدة العربية، مكرراً خطب ناصر لزملائه من الذاكرة، لأنه كان يحمل كلمة الله من معلميه في مدرسة القرآن خلال طفولته. كانت القيادة الليبية أقل إلهاماً بكثير. بعد اكتشاف النفط في عام ١٩٥٩، تبنى الملك إدريس سياسة خارجية مؤيدة للغرب، ورفض دعم عبد الناصر خلال حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧. اعتبر القذافي رفض الملك الليبي الانضمام إلى النضال ضد إسرائيل بمثابة خيانة للأمة العربية. وفي غضون عامين قام بانقلاب ناجح على غرار ناصر. أصبح الشاب القادم من الصحراء رئيس الدولة، وعمره سبعة وعشرون عاماً فقط. وللاحتفال، رقّى نفسه من نقيب إلى عقيد، في محاكاة لبطله ناصر.

كانت هذه مجرد بداية لاستعارات القذافي من أساليب ناصر. وتماشياً مع رسالة معلمه المعادية للإمبريالية، قام العقيد الجديد بطرد الأمريكيين والبريطانيين من قواعدهم واستعاد السيطرة على موارد بلاده من المستغلين الأجانب. وتماشياً مع معاداة السامية التي قام بها معلمه، قام أيضاً بطرد السكان اليهود القدامى في ليبيا[1]. وتمشياً مع عروبة معلمه الشاملة،

---

١ - بدأت الهجرة الجماعية للسكان اليهود القدامى في مصر في عام ١٩٥٦. طُرد بعضهم مباشرة نتيجة تعاطف "صهيوني" مزعوم، في حين أن كثيرين آخرين "اختاروا" المغادرة. المؤلف

فقد سعى إلى دمج ليبيا في اتحاد سياسي مع مصر والسودان، رغم فشل هذه الدولة العظيمة في شمال أفريقيا في التحقق عقب وفاة ناصر في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠.[1]

لكن القذافي لم يكن مجرد شبيه إنسان ناصري. بل كان مثله مثل نبي قديم، خرج من الصحراء ليغير مجرى التاريخ، وشاباً كما كان، بدأت الأمور تدخل تفكيره على الفور تقريباً. ذكر أول بيان صدر عن مجلس قيادة الثورة، أن الثورة الليبية مرتبطة "بوحدة العالم الثالث وبجميع الجهود الموجهة نحو التغلب على التخلف الاجتماعي والاقتصادي". ومن الواضح أن هذا لم يكن مجرد مثال آخر للغليان السياسي في أرض متربة لا يعرف معظم الناس عنها إلا القليل، لكنه حدث مزلزل ذو أهمية كبيرة. تلقى كلام القذافي العلني الخاص تقديس وتبجيل الديكتاتور الكامل على الفور تقريباً، حيث تم جمعه، وتجليده ونشره في سلسلة بعنوان **السجل القومي**، الذي ظهر المجلد الأول منه في ١ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٩. وفي غضون عامين من الثورة، كان قد مدد سلطته الى المجال الروحي: في عام ١٩٧١ أمّ صلاة في المسجد الرئيسي في طرابلس لأول مرة، مما أثار جزع المؤسسة الدينية الليبية. لم تكن تلك طقوساً يؤديها عقيد يبلغ من العمر تسعة وعشرين عاماً.

في أوائل عام ١٩٧٣، على النمط النبوي الحقيقي، انسحب القذافي إلى الصحراء. وبسبب خيبة أمله في ثورته، عرض أن يتنحى كزعيم، إلا أنه غير رأيه بسرعة. وبدلاً من ذلك، ألقى القذافي في السادس عشر من نيسان/ أبريل - في ذكرى مولد النبي محمد، دون غيره - خطاباً على طريقة ما يعلن فيه بداية الثورة داخل الثورة. كان هناك شيء قادم -لكن ما هو؟ تم الكشف عن كل شيء في مؤتمر للشباب القادمين من الدول العربية والأوروبية، حيث كشف النقاب عن ثمار تأملاته في الحياة البرية: "النظرية العالمية الثالثة". هذه، كما كشف العقيد، كانت "حقيقة عالمية" وبديلاً للأيديولوجيات المتصارعة، الشيوعية والرأسمالية. النظرية

---

١ - تم التصويت على خطة أخرى لتوحيد مصر وليبيا وسوريا في دولة واحدة في سبتمبر ١٩٧١ ولكن لم يتم تنفيذها في الواقع، في حين أن "الجمهورية الإسلامية العربية" عام ١٩٧٤ التي وحدت ليبيا وتونس فشلت في عبور الحاجز بين الحلم والواقع. وقع القذافي معاهدة اتحاد مع الحسن الثاني ملك المغرب في عام ١٩٨٤، لكن ذلك البلد المحتمل فشل كذلك في مواجهة التحدي القائم. المؤلف

العالمية الثالثة، كما أعلن القذافي، "ستخدم البشرية جمعاء". بعد أربع سنوات فقط من حكمه، تحول العقيد إلى مسيح كامل يبشّر بالخلاص.

نشر القذافي الكلمة في ليبيا ومصر والسودان، لكن الارتباك حول ما تستلزمه نظريته العالمية الثالثة كان واسع الانتشار. في الغرب، جذب الانتباه إن لم يحوّله. عندما قام بجولة ترويجية إلى باريس في عام ١٩٧٣، أكسبته غرائبيته مقارنات مع ديغول وماركس، بينما في كاليفورنيا، أصبح ديفيد بيرج، زعيم طائفة أطفال الله، مقتنعاً بأن للعقيد دوراً يلعبه كما تلوح في الأفق نهاية الزمان، وأشاد بالنظرية العالمية الثالثة في الخطب والأغاني[١]. كانت مسألة وقت فقط قبل أن يعلن القذافي نفسه "القائد الأممي"، وهو ما فعله بالفعل، بعد رحلة إلى باكستان في عام ١٩٧٤. وضع قادة الطوائف في كاليفورنيا جانباً، ففي النهاية، كان النبي ينال الشرف فقط في وطنه، إن ناله فيه. في عام ١٩٧٥، نجا القذافي من محاولة انقلاب. تبعتها عمليات التطهير المعتادة، وقام بشيء آخر: قدم نصاً جديداً للعالم كي يعيش به.

في **الكتاب الأخضر**، أنتج القذافي خطة سياسية واقتصادية واجتماعية لمجتمع جديد. وعلى الرغم من أن عنوانه يُظهر تأثير ماو ويشير إلى الرغبة في الاستفادة من حقبة من الاضطرابات الطلابية والتطرف العالمي، إلا أن التغيير في التدرج اللوني كان مهماً لأسباب أخرى: الأخضر غني بالصدى الرمزي في الإسلام -لبس النبي محمد، حسب ما يقال، عباءة خضراء وعمامة - لكن هذا المدلول الرمزي كان كما يرغب القذافي على وشك التلاشي؛ فهو لا يشير إلى الإسلام أو حتى الى قومية ناصر العربية. لقد كان من المفترض أن يكون شيئاً جديداً، تلك النظرية العالمية الثالثة.

المشكلة هي أن الكتاب فظيع للغاية، حتى بحسب المعايير المنخفضة للغاية للأدب الديكتاتوري. يبلغ طول نسختي من "الكتاب الأخضر" ١٣٧ صفحة فقط، ولا يحقق القذافي هذا الطول إلا باستخدام خط كبير جداً. لا توجد استشهادات أو أي مؤشرات على أن القذافي نفسه قد قرأ كتاباً من أي وقت مضى (رغم أنه ربما قرأ بعض مقالات

---

١ - لبعض الوقت، رأى القذافي إمكانية في متابعة بيرج العالمية؛ أنها وسيلة لنشر أفكاره في جمهور واسع. كان لدى بيرج شبكة عالمية من المتابعين المكرسين لنشر أفكاره. المؤلف

الصحف)[1]. إنه ليس مجرد عمل ممل، أو عادي، أو متكرر، أو لا معنى له، رغم أنه بالتأكيد كل هذه الأشياء. إنه غباء بكل بساطة، وعلى هذا النحو، ربما يكون التعامل معه أكثر صعوبة من أي كتاب ديكتاتوري إلى جانب كفاحي. ومع ذلك، ولأكثر من أربعة عقود، فرضه القذافي على أمته ونشره في جميع أنحاء العالم من خلال معهد مخصص لنشره. وإذا لم يحقق مستويات ماو من التواجد في كل مكان وزمان، فلن يكون السبب هو عدم المحاولة. ولكن ماذا كان ذلك؟

* * *

ظهر الجزء الأول من **الكتاب الأخضر**، "حل مشكلة الديمقراطية: سلطة الشعب"، في عام ١٩٧٦. يبدأ القذافي بمعالجة "المشكلة السياسية الأولى التي تواجه المجتمعات البشرية"، أي "أداة الحكم". ولهذه، كما يؤكد لنا، **الكتاب الأخضر** هو "الحل النهائي".

الديمقراطية وفقاً للقذافي هي لعبة محصلتها صفر. نظراً لأنه، كما هو معمول به حالياً، سيهيمن ٥١ ٪ من الفائزين دائماً على نسبة الـ ٤٩ ٪ الخاسرة، إنها في الواقع ديكتاتورية وليست "ديمقراطية حقيقية"، وهي طبيعة سيكشف عنها. يستمر القذافي في هذا السياق، حيث يلقي خطاباً طويلاً حول إخفاقات البرلمانات والاستفتاءات. التمثيل تدجيل، والتصويت هو عملية احتيال، والفقراء يخسرون دائماً، والأحزاب أداة من أدوات الطغيان، لأن أي شخص ينشئ حزباً لا يريد سوى ممارسة السلطة على الآخرين. في الواقع، كما يقول القذافي، "إن أكثر الديكتاتوريات طغياناً التي عرفها العالم قامت في ظل البرلمانات" -وهو ما قد يكون في الواقع صحيحاً، حيث كان لاتحاد جمهوريات ستالين الاشتراكية السوفييتية برلمان، وإن لم يكن ديمقراطياً للغاية. ومع ذلك، من المشكوك فيه أن هذا هو المثال الذي وضعه القذافي في ذهنه.

بدلاً من ذلك، يدافع القذافي عن أسلوب للديمقراطية المباشرة، والذي كما يطمئننا، يمثل "نهاية الرحلة في حركة الجماهير وسعيها نحو الديمقراطية". رؤيته للديمقراطية متفوقة،

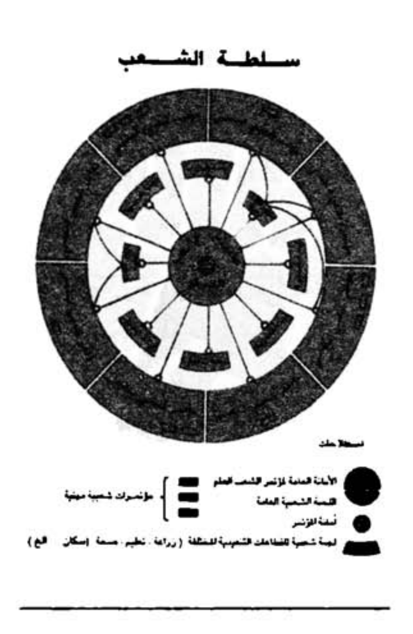
---

١ - في السبعينيات من القرن الماضي، زعم صحفي أنه شاهد نسخة من شيء ما بقلم هاينريش فون كليست قرب القذافي. المؤلف

لأنها ليست نتاجاً للخيال، ولكنها في الواقع تتويجاً لجميع التجارب التي عبر عن الفكر. وهكذا تم "حل مشكلة الديمقراطية أخيراً".

الخطوة التالية سهلة. كل ما تحتاج إليه الجماهير الآن هو الكفاح من أجل وضع حد لجميع أشكال الحكم الديكتاتوري، ولكل أشكال ما يسمى زوراً بالديمقراطية -من البرلمانات إلى الطائفة، والقبيلة، والطبقة والحزب الواحد، أو الحزبين أو الأنظمة متعددة الأحزاب.

ولكن ما هو هذا "الحل النهائي" للأسئلة العميقة التي أرقت الفلاسفة السياسيين لآلاف السنين؟ لحسن الحظ، يمكن تلخيصه بسرعة كبيرة: في **الكتاب الأخضر**، يغطيه القذافي في ثلاث صفحات فقط. يتمثل حله في تقسيم "الشعب" إلى "مؤتمرات شعبية أساسية"، فوقها "مؤتمرات شعبية"، فوقها اجتماعات "لجان الشعب الإدارية"، والتي تهدف إلى استبدال الإدارة الحكومية. ستقوم اللجان بإدارة مرافق الدولة وتنفيذ السياسات الناشئة عن المؤتمرات الشعبية الأساسية. هناك أيضاً اتحادات ونقابات، ومن هذه المجموعة المتشابكة من الكيانات، ستظهر إرادة الشعب ويعبر عنها تعبيراً نهائياً في مؤتمر الشعب العام. أوليس كذلك؟ لأنه يجب أن تُرجع القوانين المعدّة إلى اللجان والهيئات المتنوعة الأخرى قبل اتخاذ أي إجراءات. واضح؟ لا تقلق، لأن القذافي يوفر مخططاً مفيداً:



من خلال هذا النظام -الذي ليس جديداً تماماً لأنه يذكرنا فعلاً وبقوة بالمجالس القبلية، هو فقط على نطاق واسع - سيشارك الجميع في كل شيء، وسيتم تمكين الجماهير، من تملّك وإدارة جميع موارد الدولة وإدارة البلاد مباشرةً. وبالتالي سوف يحل الناس مشاكلهم الخاصة ويعيشون من دون طغيان. وهذا كل شيء.

* * *

في عام ١٩٧٨، نشر القذافي الجزء الثاني من **الكتاب الأخضر**: "حل المشكلة الاقتصادية". في هذه الجزء، يكشف أن أي نوع من العمل المنجز مقابل أجرة هو نوع من العبودية، وأنه يجب على الجميع أن يتشاركوا في الثروة الوطنية. لا يمكن تحرير العمال من الاستغلال إلا من خلال المشاركة في وسائل الإنتاج.

أما كيف يمكن تحقيق ذلك بالضبط، فهو مربك إلى حد ما، على الرغم من بذل القذافي ما في وسعه. من الواضح أن العمل مقابل المال أمر سيئ على أساس أن "الأجير هو شبه العبد للسيد الذي يوظفه". وفي الوقت نفسه، على الرغم من أن القذافي يرى بعض الاختلافات بين الملكية العامة والخاصة، إلا أنه كلما كان العامل مدفوع الأجر فالنتيجة هي نفسها: العبودية. من الواضح أن الحل هو إلغاء "نظام الأجور" والعودة إلى الظروف التي كانت موجودة قبل ظهور الطبقات، والحكومة، والقوانين التي من صنع الإنسان، وما إلى ذلك. القذافي يستمر مطولاً في هذا السياق، ويتقدم من تاريخ خام الحديد إلى الانتقال من الإبل إلى المصنع، وصولاً إلى الاستنتاج بأن المشكلة يمكن حلها بجعل العامل شريكاً في الإنتاج بدلاً من بقائه كادحاً بالأجرة. ودعونا لا ننسى أن التقدم في العلوم سيقلل من الحاجة إلى العمل الشاق.

يتمكن القذافي من الموازنة بين دفاعه عن الأفكار الاشتراكية والإيمان بالملكية الخاصة، على الأقل بقدر ما توفره من الاحتياجات الأساسية. وبالتالي، من الجيد امتلاك مسكن، لكن من السيئ امتلاك منزل ثانٍ لأن تأجيره سيكون إخضاعاً لجارك؛ وبالمثل، يؤدي استخدام سيارة ثانية كسيارة أجرة أيضاً إلى الاستغلال مباشرة. كما يقول القذافي، "حرية الإنسان ناقصة إذا كان هناك شخص آخر يسيطر على ما يحتاج إليه". لا يمكن امتلاك الأرض، رغم أن لكل شخص الحق في استخدامها. ولا يسمح لأحد بتوظيف الخدم.

وهكذا يحل القذافي تناقضات الرأسمالية والشيوعية على حد سواء، ويوفر للجنس البشري "الطريق الثالث" الذي يمكنه أن "يحرر الشعوب المضطهدة في كل مكان".

* * *

نُشر في عام ١٩٧٩، القسم الختامي من **الكتاب الأخضر**، "الأساس الاجتماعي للنظرية العالمية الثالثة"، وهو الجزء الأكثر إمتاعاً في أعمال القذافي، وأيضاً ما يتم الاستشهاد به بشكل متكرر (لأسباب ستظهر قريباً). يبدأ القذافي بالإصرار على نفس النغمة كما كان من قبل ("العلاقة بين الفرد والجماعة هي علاقة اجتماعية، أي علاقة بين أعضاء الأمة")، ويعدنا الناشر بأن النص "يقدم التفسير الحقيقي للتاريخ، الحل لصراع الإنسان في الحياة البشرية، ولمشكلة الرجل والمرأة التي لم تجد حلاً".

جيد جداً حتى الآن. لكن للأسف، يتحول **الكتاب الأخضر** سريعاً إلى جولة تقريباً من تيار الوعي في تأملات العقيد في موضوعات كبيرة متنوعة لا معنى لها أبداً، ولا تحاول حتى تقليد تقدم منطقي. لكن القذافي كان يعتزم القيام بشيء جديد، ربما لأنه كان متأكداً من ضرورة وجود هذا القسم، إلا أنه غير متأكد مما يجب أن يكون فيه. بعد إساءته استخدام الأسلوب "النظري" في الأجزاء السابقة، يكتب القذافي الآن فيما يتخيل أنه وضع أكثر تقيداً بالشروط العلمية، ويفترض أنه يبين نطاق معرفته. عند البحث عن استعارة للأمة، ينظر إلى السماء ليلاً، ويجد صخباً كبيراً وسط النجوم:

> القومية في عالم الإنسان والحيوان، مثل الجاذبية في عالم الجماد والأجرام، فلو تحطمت جاذبية الشمس لتطايرت غازاتها وفقدت وحدتها، ووحدتها هي أساس بقائها، إذاً، البقاء أساسه عامل وحدة الشيء. وعامل وحدة أي جماعة هو العامل الاجتماعي، أي القومية. ولهذا السبب تكافح الجماعات من أجل وحدتها القومية، لأن في ذلك بقاءها.

إنه في أحسن حالاته عندما يتصدى لقضية الرجل والمرأة. القذافي هنا ساذج وغريب للغاية، ويفتقر إلى الوعي الذاتي، لدرجة أنه يصل إلى مستويات متعالية من الإسفاف. بالتأكيد، فإن التباين مع التشتتات المتطورة لمعبوده ناصر، لا يمكن أن يكون أكثر إثارة

للانتباه. "إنها حقيقة لا جدال فيها أن كلاً من الرجل والمرأة إنسانان"، هكذا يقول القذافي بحكمة، ثم يستمر:

"المرأة أنثى، والرجل ذكر... والمرأة طبقاً لطبيب أمراض النساء... (تحيض أو تمرض كل شهر، والرجل لا يحيض لكونه ذكراً فهو لا يمرض شهرياً (بالعادة). وهذا المرض الدوري، أي كل شهر، هو نزيف... أي أن المرأة لكونها أنثى تتعرض طبيعياً لمرض النزيف كل شهر. والمرأة إن لم تحض فهي حامل... وإذا حملت تصبح بطبيعة الحمل مريضة قرابة سنة. أي مشلولة النشاط الطبيعي حتى تضع. وعندما تضع أو تجهض فإنها تصاب بمرض النفاس وهو مرض ملازم لكل عملية وضع أو إجهاض. والرجل لا يحمل، وبالتالي لا يصاب طبيعياً بهذه الأمراض التي تصاب بها المرأة لكونها أنثى. والمرأة بعد ذلك تُرضع ما كانت تحمله. والرضاعة الطبيعية تستغرق قرابة العامين. والرضاعة الطبيعية تعني أن المرأة يلازمها طفلها وتلازمه بحيث تُصبح كذلك مشلولة النشاط ومسؤولة مباشرة عن إنسان آخر هي التي تقوم بمساعدته في القيام بكل الوظائف البيولوجية، وبدونها يموت. والرجل لا يحمل ولا يُرضع). انتهى شرح الطبيب.

تشير الذروة المفاجئة والمربكة لهذا المقطع الرائع، إلى أنه حتى القذافي نفسه كان يشعر بأنه ربما يكون قد ذهب بعيداً للغاية -ولكنه كان غير قادر بشكل واضح على التحرير الذاتي، واحتفظ بكل شيء هنا. كما أنه يتوقع أن "السود سيسودون العالم"، على أساس غامض لأن (كما يخبرنا العقيد) "السود أقل تركيزاً على العمل ولا يحبذون تحديد النسل، فهم سيتكاثرون بأعداد أكبر". أثناء مناقشة الفنون، يكشف القذافي عن نفسه كرائد في الكفاح ضد "الاستيلاء الثقافي"، على الرغم من أنه يجذر معارضته في مقاربة لاماركية لعلم الوراثة، مدعياً أنه بسبب أن "المشاعر" يمكن أن تنتقل عبر الجينات، فهذا يعني أن "الشعوب لا تنسجم إلا مع فنونها وتراثها". عندما يتعلق الأمر بالتعليم، يحلم القذافي بقيام "ثورة ثقافية عالمية تحرر عقلية الإنسان من مناهج التعصب والتكييف العمدي لذوق ومفهوم وعقلية الإنسان". ثم يرفض الفنون المسرحية، مستشهداً بالمواقف المتفوقة للعرب الرحل مثله شخصياً:

وهكذا فالشعوب البدوية لا تهتم بالمسرح والعروض، لأنها كادحة وجادة في حياتها للغاية، فهي صانعة الحياة الجادة، ولهذا تسخر من التمثيل. والجماعات البدوية كذلك لا تتفرج على لاعبين، بل تمارس الأفراح أو الألعاب بصورة جماعية، لأنها تحس عفوياً بالحاجة إليها فتمارسها دون تفسير.

... قبل أن يصل إلى ذروته بإدانة الملاكمة والمصارعة على أنها نوع من "الوحشية".

وهذا كل شيء بالنسبة إلى الكتاب الأخضر.

***

الكتاب الأخضر كان مربكاً للقذافي ولليبيا. إلا أن العقيد لم يكن يشعر بالحرج. بل على العكس من ذلك، كان جاداً تماماً في فلسفته، واعتبر النص بإخلاص بمثابة مخطط مباشر لدولته الجديدة. وبينما كان على لينين أن يقدم للقارئ مجرد تأكيدات بأن الدولة سوف تختفي، قدم القذافي التفاصيل. باختصار وبساطة كما كان، تضمن **الكتاب الأخضر** خطة لإنشاء مؤتمرات شعبية؛ وكان هناك أيضاً ذلك الرسم البياني المفيد. وهكذا، قدم الكتاب طريقاً يؤدي إلى دخول "الديمقراطية المباشرة". كل ما تبقى علينا هو تنفيذه -وبدأ العمل على ذلك حتى قبل أن يستكمل القذافي الأجزاء الثلاثة من **الكتاب الأخضر**.

بزغ الفجر على عصر جماهير القذافي في الثاني من آذار/ مارس عام ١٩٧٧. وكان فيدل كاسترو ضيف الشرف في الإعلان، مضيفاً اندفاعة من الحماس الثوري العالمي إلى هذه المناسبة. اكتسبت ليبيا الآن الاسم الصعب إلى حد ما، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، وتم إنشاء نظام القذافي للمؤتمرات في جميع أنحاء البلاد (مع وضع نفسه على رأس الأمانة العامة، دون داع للقول). انتشرت قاعات الاجتماعات المصممة لتشبه الخيام البدوية في كل مدينة، وتم إلغاء العمل بالأجرة، وأدين رجال الأعمال والتجار[1]، واستفاد الفقراء من سياسات جديدة تفرض إعادة توزيع الثروة. كانت الصناعات خاضعة لرقابة "لجان الإنتاج الأساسية"، وكان يُسمح للمزارعين باستئجار الأرض التي كانت ضرورية لهم فقط. وبصورة غامضة، بقيت صناعات النفط والمصارف على حالها.

---

١ - صودرت كل مصانعهم وعقاراتهم واستثماراهم فيما سميّ بالزحف الأخضر أو ثورة المتنجين. المترجم

وهكذا انتقلت أفكار **الكتاب الأخضر** بسرعة من الورق إلى العالم المادي. ولكن عندما فشلت الجنة في البزوغ، وقوبلت إصلاحات القذافي باللامبالاة أو المعارضة، أبدى استعداده لتجاوز ما كتبه بين أغلفة تحفته. في عام ١٩٧٨، كشف أن السلطة الثورية هي سلطة عليا منفصلة عن سلطة الشعب. استقال من مؤتمر الشعب العام وتولى لقب "الأخ القائد". ولم يشغل أي منصب رسمي، لكنه كان في الواقع قد تحرر ليكون الثوري الأعلى، فوق الجميع ويوجه كل شيء، حراً في تفسير الثورة كما يريد. وشمل ذلك تقديم المزيد من الابتكارات، مثل "اللجان الثورية" (التي ضمت عدداً كبيراً من أقاربه) وتولت القضاء على المعارضين[1] وفرضت الثورة وسيطرت على مؤتمر الشعب.

في هذه الأثناء، أقدم القذافي على اتخاذ خطوة لم يتخذها أي ديكتاتور آخر في العالم الإسلامي: شن هجوماً مباشراً على النصوص المقدسة نفسها. رغم أن أتاتورك قضى عقوداً في إخراج الإسلام من المجال العام، ولم يكن يُكّن احتراماً كبيراً لمحرماته، إلا أنه لم يعلن قط أن الله قد مات، أو دنس القرآن أو انغمس في العنف المعادي للدين على النمط السوفييتي. ولم يحاول أن يستبدل النصوص الإسلامية المقدسة بقانون من عمله هو. تم وضع الدين عند أتاتورك في مكانه ثم تُرك في مكانه. أما بالنسبة إلى ناصر، فقد كان مؤمناً حتى إنه تطرق إلى الإسلام قليلاً في كتابه **فلسفة الثورة**، رغم أنه قمع بقسوة الجماعات الإسلامية مثل جماعة الإخوان المسلمين.

ومن المفارقات أن القذافي كان على الأرجح الأكثر تديناً بين الثلاثة، ومع ذلك لم يكن له أي منافس على **الكتاب الأخضر**. حسناً، قد يقبل بعض المنافسة من الله، لكن من هذا المصدر فقط. كانت هناك الكثير من النصوص الإسلامية، كما يعتقد القذافي، وبعضها يتناقض مع رؤيته: يجب القيام بشيء ما. في عام ١٩٧٨ ألقى خطاباً ذكر فيه أن القرآن وحده هو المقدس، وأن الحديث (مجموعات من كلمات وأفعال النبي) هو من صنع الإنسان، وأن الشريعة الإسلامية لم تعد تنطبق على أسئلة المجتمع الحديث الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية. وأن

---

١ - فتكت اللجان الثورية وقمعت الشعب، وكانت بمثابة الشرطة السياسية للنظام وأشبه بحرس ماو الأحمر، لكنها كانت أكثر ضراوة منه بكثير. المترجم

هنالك كتاباً آخر الآن، كتاب أخضر، يحمل حلولاً للمشاكل التي لم يتناولها الكم الهائل من النصوص التي جمعها المسلمون على مر القرون.

إضافة إلى تمديد سلطته إلى المسائل الدينية، أعاد القذافي تحديد الزمن. في أواخر عام ١٩٧٨، وحتى تلك اللحظة، كان الليبيون يستخدمون التقويم الإسلامي نفسه الذي يستخدمه المسلمون الآخرون، والذي يبدأ السنة القمرية بهجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة المنورة. لكن القذافي نقض هذا بعد عشر سنوات: من الآن فصاعداً، تبدأ السنة من لحظة وفاة النبي، تم إلقاء القبض على الزعماء الدينيين الذين تجرؤوا عن التعبير عن استيائهم من هذه التغييرات، أو اختفوا بشكل غامض.

بهذه الطريقة، استمر القذافي في إدارة ليبيا كمختبر خاص به لإجراء التجارب الاجتماعية والثقافية والسياسية، ووضع **الكتاب الأخضر** في مركز الجنون. درسه الليبيون في المدارس والجامعات، واستمعوا إلى تلاوات منه على شاشات التلفزيون، وحضروا مؤتمرات أقيمت للكشف على أسراره الدقيقة. تم إنشاء "المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر" في طرابلس، وكان له أيضاً فروع في جميع أنحاء العالم، وقد أشرف على ترجمة نص القذافي إلى أكثر من ثلاثين لغة. كتبت عنه الدراسات العلمية. وعقدت الندوات. واضطر الملايين إلى التظاهر بأن هذا المزيج من الرطانة الأكثر وضوحاً كان تحفة فنية.

لكن حتى مع بقاء الكتاب الأخضر ثابتاً، فقد أثبت القذافي أنه زئبقي، يجرب الأفكار مختلفة الأحجام. تركت الوحدة العربية الطريق للوحدة الأفريقية، في حين أن رعاية الإرهاب أفسحت له المجال لالتقاط الصور مع توني بلير، وهو مؤمن أيضاً بـ"الطريق الثالث" السياسي. وفي ظل كل هذه التحولات، واصل القذافي الكتابة. في تسعينيات القرن العشرين، كتب مجموعة من "القصص القصيرة" نُشرت في ليبيا في البداية في مجموعتين هما: **الفرار إلى جهنم** (١٩٩٣) و**المنشورات غير القانونية** (١٩٩٥). لم تكن هذه قصصاً قصيرة بأي معنى تقليدي، لكنها في الواقع مختصرات نثرية قصيرة وتيارات تأمل من الفلسفة الزائفة، أقل انضباطاً من **الكتاب الأخضر** - الذي لم يكن منضبطاً أصلاً.

في هذه "القصص"، يجوب القذافي مجموعة واسعة من المواضيع. ساخراً من الظلاميين الإسلاميين، رغماً عن امتلاء سرده بالإشارات إلى القرآن، على عكس **الكتاب الأخضر**.

وباحثاً عن تاريخ خفي، يكشف أن "أميراً عربياً" وليس كولومبوس هو من اكتشف أمريكا. كما يثني على القرية ويدين المدينة باعتبارها "كابوساً" حيث يشاهد الناس مصارعة الديوك ويموت الأطفال في الشوارع أو يختطفهم أعضاء العصابات الإجرامية. وفي "**انتحار رائد الفضاء**"، يسخر من السفر إلى الفضاء عندما يعود مسافر قمري إلى الأرض ويكتشف أن مؤهلاته جعلته غير قادر على تأمين عمل مفيد. وفي "الموت"، يتجاوز القذافي حتى مستويات ناصر من التحديق التأملي في الذات وهو يعالج السؤال الملح: هل الموت رجل، وبالتالي يجب مقاتلته، أم امرأة علينا أن نستسلم لحضنها الناعم؟

ثم، في أحد الأيام، أخرجته مجموعة غاضبة من أنبوب كان يختبئ فيه. واعتدت عليه، ثم أطلقت النار على رأسه، ثقبت تلك الرصاصة الدماغ المميز الذي نشأت منه النظرية العالمية الثالثة. وتم التخلص من جثته في مقبرة لا تحمل أي علامات، ومضى **الكتاب الأخضر** في الطريق التي سلكتها جميع النصوص التي فقدت قداستها فجأة، والتي فرضت على السكان لمدة جيل كامل. ولم تحرق كل نسخة أو يتم إلقاؤها في سلة المهملات، بل سعى الموالون إلى إبقاء "**الكتاب الأخضر**" على الإنترنت، واليوم، يوجد موقع إلكتروني حزين يضم بعض الترجمات المجانية التي تطفو في الفضاء الإلكتروني كشاهدة قبر افتراضية على طموحات العقيد العظيمة.

على ليبيا اليوم أن تتعامل مع مشكلة نجاح القذافي. فعلى عكس العديد من الطغاة الآخرين، نجح القذافي فعلياً في تنفيذ الرؤية التي أوضحها في كتابه: وبحلول الوقت الذي مات فيه، لم يكن هناك برلمان ولا أحزاب سياسية، بل هاوية فاغرة الفم سقطت فيها الأمة. شرارة الحرب، والإسلام الراديكالي وأنهار الدم العظيمة، تتدفق في شوارع المدن والقرى وتخرج إلى الصحراء.

٥- رسائل ضائعة

ماذا تقول؟ هل كتبت سيرة ذاتية؟

كان العالم الذي خلقته الثورة الروسية في عام ١٩١٧ يتحرك إلى مرحلة ما بعد منتصف العمر ويتجه نحو الخرف. سواء في المركز أو في المدارات حوله، كان القادة المؤلفون يقتربون من الموت. لقد كانوا متهالكين، وهرمين -وكانوا أكثر اهتماماً بالحفاظ على الوضع الراهن ومكانتهم المتميزة فيه، أكثر من اهتمامهم بقلب العالم رأساً على عقب. ضعفت الأجواء الأيديولوجية من حولهم، وليس هذا لأنهم وصلوا إلى قمة الجبل. بل كان الأمر كما لو أنهم جميعهم كانوا عالقين في رحلة بعيدة بالطائرة إلى مكان مجهول، يتنفسون خلالها الهواء المعاد تدويره.

لم يكن ذوبان الحماس الثوري يعني توقف القادة المسنين عن توليد النصوص. وعلى العكس، كان من الضروري دلق الكتب لإثبات التواصلية مع الماضي، ولإثبات أنهم لا يزالون يتشاركون تقليداً بدأه مؤسسو العقيدة. في الغالب كانت هذه الكتب استكشافات في الضجر الفائق، على الرغم من أن عالم الرسائل الشيوعية لم يكن حتى الآن مميتاً بكامله. فقد كان معظمه مميتاً، نعم، وكان دائماً مملاً بشكل مؤلم، ولكن على هامش هذا الوباء الواسع من الثرثرة "النظرية"، أمكن التعرف على بعض الأشكال الطافرة، والحدب الظليلة والكلاب ذوي الثلاثة ذيول وهي تركض خارج جدران المدينة، بعيداً عن متناول يد السلطة في موسكو.

***

في رومانيا، على سبيل المثال، انتقد نيكولاي تشاوشيسكو زملاءه الرومانيين بسبب سجودهم "أمام كل ما هو غريب" في **أطروحة تموز** التي كتبها بنفسه، وكذلك كتب أيضاً في أطروحة زوجته إيلينا **البلمرة المناوعة فراغياً للأيزوبرين**، التي كتبتها له عن الجماهير. لكن بينما قدم تشاوشيسكو أداءً رائعاً في استقلاليته عن موسكو، كان حريصاً دائماً على عدم تحدي أي من الشعارات المركزية للعقيدة الشيوعية، مثل التخطيط المركزي أو دولة الحزب الواحد، وكان هناك القليل مما يعد راديكالياً في مجلدات **كتاباته المختارة**. ومن أجل تعبير أكثر قوة وديمومة عن الاستقلال الأدبي والسياسي، علينا أن ننظر أبعد إلى الشرق، إلى كوريا الشمالية، حيث حكم كيم إيل سونغ من العاصمة بيونغ يانغ.

ولد في عام ١٩١٢ لعائلة من الفلاحين المسيحيين أطلقوا عليه اسم كيم سونغ غو[1]، وهو السلف المستقبلي لأسرة من ثلاثة أجيال من الطغاة (حتى الآن). قضى معظم حياته المبكرة خارج وطنه. كانت كوريا تحت الاحتلال الياباني منذ عام ١٩١٠، فرت عائلة كيم إلى منشوريا عندما كان في السابعة من عمره. كان سيبقى في الصين لواحد وعشرين عاماً (قضى فترة عامين في شبابه عندما عاد إلى كوريا). اكتشف نصوص ماركس، ولينين وآخرون. وانضم إلى الحزب الشيوعي الصيني في عام ١٩٣١. وهكذا أصبح كيم ممارساً لحرب العصابات على غرار ماو، حيث أجاد القتال ضد اليابانيين قبل أن ينتقل إلى الاتحاد السوفييتي، وينضم إلى الجيش السوفييتي الأحمر في الشرق الأقصى. أفاده هذا الانتقال من الصين إلى الاتحاد السوفييتي في حياته المهنية بشكل كبير. بعد الحرب، خدم كيم ستالين كشبيه بشري مخلص في الحكومة المؤقتة المدعومة من الاتحاد السوفييتي في النصف الشمالي من كوريا، وتمت مكافأته بمنصب القائد عندما تأسست جمهورية كوريا الشعبية الديمقراطية رسمياً في عام ١٩٤٨.

ولأنه قضى معظم حياته في مكان آخر، كان بالكاد يعرف كوريا إلا من خلال القصص والكتب وذكريات الآخرين. لكن السنوات التي قضاها في الصين واتحاد الجمهوريات

---

١ - كان كيم إيل سونغ، أو "كن الشمس"، اسماً ثورياً، كما ادعى، منحه له الرفاق المتحمسون على الرغم من تحججه بالتواضع. المؤلف

الاشتراكية السوفييتية قد زودته على الأقل بفهم كبير لكيفية تعامل ماو وستالين مع الشيوعية -وهي معرفة أساسية بالفعل، بالنظر إلى أن كوريا الشمالية تشترك في الحدود مع كل من الصين والاتحاد السوفييتي. في الأيام الأولى للنظام، كان يعتمد فعلياً على سيده ستالين. ثم صمم له الخبراء السوفييت طقس عبادة شخصية باستخدام التقنيات التي طوروها في الاتحاد السوفييتي، وفي خطاباته ونصوصه كان كيم حريصاً على تكريم سيده بالأسلوب المتزلف لماثليه الآخرين. لكنه، لم يكن خاضعاً تماماً، ملاحظاً مدى حرية ستالين في إعادة كتابة التاريخ في كتبه الخاصة. طلب كيم من مستشاريه السوفييت، إن كان يمكنهم فعل شيء كهذا له، وصياغة واقع بديل تكون فيه حركة حرب العصابات المناهضة لليابان التي كان ينتمي إليها قد ساهمت في تحرير كوريا. لقد كانت كذبة متواضعة مقارنة بأكاذيب ستالين الهائلة، وهي رشوة للكبرياء الوطني مفهومة الدوافع، ومن السهل معرفة سبب رغبته في ذلك -وقوبل الطلب بالرفض. ولكن كيم يستطيع أن يكون مقنعاً عندما يريد ذلك. فبعد أن تم تقسيم كوريا رسمياً إلى دولتين في عام ١٩٤٨، فاز بدعم ستالين لغزو الجنوب الذي سيعيد توحيد شبه الجزيرة بأكملها تحت قيادته. ولولا الدعم السوفييتي القوي وتدخل ماو على الجانب الكوري الشمالي، لكان كيم قد خسر. بدلاً من ذلك، انتهت الحرب في عام ١٩٥٣ بملايين القتلى وبأزمة مميتة استمرت حتى يومنا هذا.

مات ستالين قبل أشهر من انتهاء الحرب، وبالتالي لم يكن لدى الفوشد فرصة لمعاقبة تابعه على الكارثة الدموية. بقي كيم في منصبه، متجاوزاً الأزمة الداخلية من خلال تطبيق التكتيكات المعتادة: القمع، وتكثيف عبادة الشخصية، ونشر الأكاذيب - وهي في هذه الحالة، أن الولايات المتحدة هي التي بدأت الحرب. كان كذباً جريئاً. مدعوماً كما كان بسلطة الدولة، أثبت قلم كيم أنه أقوى من أي شيء آخر، وتواصلت الكذبة.

لكن الكذب لم يكن كافياً، ومع وفاة ستالين الآن بسلام، بدأ كيم في تجربة الكلمات والأفكار التي لم تنشأ في موسكو. ظهرت كلمة **جوتشي**، والتي تُترجم عادةً باسم "الاعتماد على الذات" ولكنها تحمل أيضاً دلالات "الهوية الذاتية"، في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٥، في خطاب "**حول الحاجة إلى صد العقائدية والشكلانية وتأسيس جوتشي لتنفيذ البرامج الأيديولوجية**"، الذي سبق "الخطاب السري"

لخروتشوف بشهرين. أدى استنكار ستالين إلى تخفيف التوتر الناشئ بين بيونغ يانغ وموسكو، لأن كيم لم يكن يهتم اهتماماً كبيراً بمتابعة طريقة خروتشوف في التحرر أو الإصلاح، أو في التخلي عن عبادة شخصيته. على نحو متزايد، بدأ ينظر إلى الصين كأنموذج بديل للتطور الشيوعي. عندما أطلق ماو "القفزة الكبرى إلى الأمام" في عام ١٩٥٨، حذا كيم حذوه بحملة تشوليماندونغ المماثلة، والتي سميت باسم حصان أسطوري يمكنه السبق لمسافات طويلة في فترة زمنية قصيرة.

يبدو أن حماس كيم لكل من ماو والأنموذج الصيني، قد برد إلى حد ما خلال الثورة الثقافية، ولم يكن الأمر مساعداً عندما شجبته مجموعة من الحرس الأحمر في مطبوعاتها باعتباره "خنزيراً سميناً مضاداً للثورة". حمل كيم الموضوع على محمل شخصي. وانتقم ليس فقط من خلال التدابير التقليدية كسحب الطاقم الدبلوماسي، بل قام أيضاً بنشر استراتيجية "الجار المزعج" المتمثلة في استخدام مكبرات الصوت لإحداث ضجة رهيبة لغرض إقلاق الجيران. في هذه الحالة، كان الضجيج الرهيب عبارة عن تعليقات مهينة عن نظام ماو أخذت تعصف عبر الحدود. وعلى الرغم من أن علاقات كيم المتزايدة التعقيد مع جاريه القويين كانت تشكل مخاطر، إلا أنها أتاحت فرصاً أيضاً. فعلى عكس فترة ما بعد الحرب، عندما كانت هيئات الرقابة الأيديولوجية السوفييتية في كل مكان، مارس كيم الآن السيطرة على نصوص النظام. في الدعاية الرسمية، قام مقاتلوه الآن بدور البطولة في سرد تحرير كوريا الشمالية من اليابان. في أواخر الستينيات من القرن الماضي، انتشرت بذور **جوتشي** التي زرعت منذ أكثر من عقد من الزمان وأورقت الانتقام، حيث بدأ كيم في توضيح معناها في خطبه التي طبعت بسرعة وجلدت ووزعت على الجماهير.

ما هي **جوتشي** إذاً؟ في عام ١٩٩٧، انشق هوانغ جانغ يوب، الرئيس السابق لجامعة كيم إيل سونغ (والحاصل على العديد من الألقاب الكبيرة الأخرى) واتجه إلى الغرب، مدعياً أنه والد أيديولوجية الدولة؛ وكنتيجة لذلك، يشار إليه أحياناً باسم "القوة الفكرية" أو "المهندس المعماري" وراء **جوتشي**. وحتى لو كانت ادعاءاته صحيحة، فإن هذه الألقاب مبالغ فيها بعض الشيء، لأن **جوتشي** ليست، في الواقع، بكل هذا الذكاء. وهل يحتاج كوخ الحديقة إلى مهندس معماري؟ هل تحتاج مجموعة من الأفكار البسيطة التي يمكن لأي شخص

فهمها إلى وجود "قوة فكرية"؟ هل من الصدق القول بأن ١) الرجال هم أسياد التاريخ، لكنهم، ٢) لا يستطيعون تحقيق الثورة تلقائياً، وبالتالي فهم محتاجون إلى قائد عظيم ليقودهم إلى التحرير؟

ليس صحيحاً. فالجملة الأولى ليست ماركسية جداً، ولكن مرة أخرى، كان إنجيل ماو ثقيلاً أيضاً بفكرة الخلاص من خلال العمل الجاد والتضحية. أما بالنسبة إلى الجملة الثانية، فهي مجرد خطوة صغيرة إلى الأمام ابتعاداً عن إصرار لينين على الحاجة إلى طليعة ثورية، وهي الخطوة التي اتخذها ستالين قبل عقود. لقد أخذت جوتشي ببساطة اتجاهات طويلة الأمد، ودفعها إلى الأبعد قليلاً، ورفع الصوت بالقومية. شدد كيم نفسه على الاستمرارية من خلال الادعاء بأن جوتشي لم تكن ماركسية فقط بل "الفلسفة الإرشادية الماركسية واللينينية الأكثر صدقاً في التوجه، والتي صممت لقيامنا بالثورة والبناء". من النواح الأسلوبية، أيضاً، كانت جوتشي معتمدة اعتماداً كلياً على الماركسية اللينينية، كما أن نصوص جوتشي كانت مليئة بالمثل بالجمل الطويلة، والإحصائيات الزائفة، والمبالغة، والأكاذيب، والإعلانات الجريئة فيما يتعلق بـ"النضال"، و"المستقبل"، والكثير من التكرار، الكثير من التكرار، وأخيراً، المزيد من التكرار.

من يخنة الكلمات صعبة الهضم هذه، يظهر جانب آخر أكثر شخصية. فبعد عقدين من الحكم، أخذ كيم، المقلّد العملاق الذي لم يحقق أي شيء من دون دعم ستالين وماو، يحرر نفسه من الحاجة إلى إظهار الخشوع أمام "ضباطه الكبار". وهناك موضوع متكرر هو رفض وضع "الإمّعة" والركوع أمام "القوى العظمى والعقيدة". وبالنسبة إلى ما يعنيه هذا، فإن كيم واضح تماماً:

> عدم اتباع الآخرين بصورة عمياء، والتعامل مع الأشياء الأجنبية بشكل ناقد بدلاً من استنساخها أو بلعها بالكامل؛ والسعي لحل جميع المشاكل وفقاً للظروف الفعلية لبلادنا وعلى أساس حكمتنا وقوتنا.

هنا يردد كيم أصداء إصرار ماو على تكييف الماركسية مع "الظروف الملموسة"، لكن الآثار المترتبة على ذلك كانت أعمق. كان ماو والشيوعيون الصينيون مهتمين للغاية باحتلال

مكان الاتحاد السوفييتي في طليعة الحركة الثورية العالمية. لكن على الرغم من أن كيم كان ما يزال يحمل شعار "يا عمال العالم، اتحدوا" على مقدمة كتبه، فقد كان بإصراره على الاستقلال السياسي الكامل، يتخلى عن حلم المجتمع الشيوعي العالمي تحت قيادة بيت المقدس الماركسي. "جميع الدول متساوية ولها حق رسمي في تقرير المصير الوطني لتحدد مصيرها بنفسها"، أعلن كيم في "**فلنعمل على تجسيد روح الاستقلال الثورية والاعتماد على الذات والدفاع عن النفس في جميع مجالات نشاط الدولة**" أنه "لا يمكن للأمة ضمان الاستقلال والحرية وتحقيق الرفاهية والازدهار، إلا إذا نالت حق تقرير مصيرها السياسي كاملاً ومارست حقوقها وأمسكتها بقوة في يدها".

يرى كيم أن "من الواجب المقدس" مساعدة الدول الاشتراكية الأخرى، لكنه يؤكد أن "العامل الحاسم للنصر في الكفاح ضد رد الفعل الإمبريالي" هو "في القوى الداخلية للبلد المعني". **جوتشي** فكرة عالمية إذاً في كونها تصر على أن يُسمح لجميع البلدان بمتابعة طريقها الخاص، وهو أمر ضروري كي "يزدهر كل شيء". وعظيماً كما قد يبدو، جّرد كيم كل ما يخص الشعور بحتمية جنة نهاية الزمان البروليتارية، وفي خطب أخرى تحولت **جوتشي** إلى القومية غير الآمنة والتي تشكل عبئاً. في **سياسة حزبنا تجاه المثقفين**، ينتقد كيم الأشخاص الذين يستخدمون الكلمات الصينية عندما تكون هناك بدائل كورية جيدة تماماً، ويدين "مغنياً معيناً" "يصر على غناء الأغاني الإيطالية، معتبراً أنها الأفضل في العالم". وكذلك انتقد كيم الشعراء الكوريين الذين استلهموا من بوشكين، والموسيقيين الذين أحبوا تشايكوفسكي. كانت موسيقى الجاز أيضاً أمراً سيئاً للغاية: لقد كان "خطأً أساسياً" أن يرقص الكوريون "عراة على المسرح" على أنغام "الجاز" الأمريكي (كما زعم أنه حدث في إندونيسيا).

لكن كيم لم يتخل عن تطلعات الشيوعية المتعالية، ليستبدلها بشكاوى عن موسيقى الجاز أو الحديث الغامض عن تقرير المصير. وكان لديه شيء أكثر بدائية، وحشوية، ليقدمه لشعبه. بعد أن أمضى معظم حياته خارج كوريا، عاد ليجد أن وطنه لم يكن كاملاً. وهكذا، مراراً وتكراراً في نصوصه، اختار الجرح النفسي، واصفاً إياه بأنه مشكلة بالنسبة إلى الجنوب أكثر منه مشكلة الشمال. مثلما عرضت الماركسية على مؤيديها كل ذلك التشويق النفسي للكراهية

العادلة في شيطنتها للبرجوازية الشريرة، صور كيم بلا هوادة "المحتل" وهو الولايات المتحدة بأنه معتدٍ عنصري وإمبريالي مذنب بارتكاب القسوة الوحشية. ورغم أن أسلوب النثر الرسمي لكيم كان الأسوأ من بين كل الطغاة الشيوعيين، إلا أن الكراهية النشطة تبرز حتى في نصوصه المتغزلة **بجوتشي**. كانت عبادة القائد جيدة تماماً، لكن إضافة الفخر العرقي وخيالات الانتقام أضرمت النار في الطقوس، في حين قام الوعد بالانتقام الرهيب من المعارضين بتوفير عنصر الخوف الأساسي. وهكذا ساعدت **جوتشي** في ربط الأمة ببعضها البعض، وبالتالي فإن هذا الإعداد الهرائي استمر لعقود من الزمن، ونجا من انهيار الشيوعية وتغييرين للقائد[١].

ولكن إن كانت الكراهية تنفث الحياة نوعاً ما في **جوتشي**، فقد حدّت من جاذبيتها. في أواخر الستينيات، انخرط نظام كيم في النضال العالمي "المناهض للإمبريالية"، حتى أنه شكل تحالفاً مع الفهود السود. في أوائل السبعينيات من القرن الماضي، ذهب كيم بشكل أكبر قليلاً مع التيار السائد، حيث قام بنشر إعلانات في النيويورك تايمز لترويج **جوتشي** وإعادة توحيد كوريا[٢]. كما بذل جهوداً لتصدير **جوتشي** إلى أفريقيا: بين ١٨ و٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٢، انحدر خمسون مندوباً من ستة عشر بلداً صوب فريتاون في سيراليون، لحضور "ندوة لعموم أفريقيا" حول تطبيق فكرة كيم العظيمة على أوطانهم. في الكتيب المنشور للاحتفال بالحدث كُتب: **فكرة جوتشي العظيمة تتوسط النضالات الثورية للشعوب الأفريقية**، وقد زُعم أن هذا الحدث كان "يجري في وقت يتبنى فيه العديد من رؤساء الدول

---

١ - حتى بعد مرور عقود، لا تزال الكراهية سائدة، كما يوضح هذا المقتطف من كتاب مدرسي كوري شمالي: "أثناء حرب تحرير الوطن (اسم كوريا الشمالية الرسمي للحرب الكورية) قتل الأعمام في جيش الشعب الكوري الشجاع ٢٦٥ من الأوغاد الإمبرياليين الأمريكيين في أول معركة. وفي المعركة الثانية، قتلوا ٧٠ من الأوغاد إضافة إلى من قتلوهم في المعركة الأولى. كم عدد الأوغاد الذين قتلوا في المعركة الثانية؟ وكم عدد الأوغاد الامبرياليين الأمريكيين الذين قتلوا جميعاً؟". المؤلف.

٢ - كان زعيم الفهود السود إلدريدج كليفر مغرماً بشكل خاص بكوريا الشمالية، وزارها مرتين، في عامي ١٩٦٩ و ١٩٧٠، وحتى إنه كتب مقدمة للمختارات الأمريكية من كتابات كيم إيل سونغ، بعنوان **جوتشي**؛ لكن هذا السحر لم يدم: بعد ذلك أسس كليفر دينه الخاص، كريسلام، الذي كان له جناح عسكري يسمى حراس الحيوانات المنوية. ثم انضم إلى كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة وأنهى أيامه محافظاً سياسياً. المؤلف

المبادئ العالمية لجوتشي كأساس لأعمالهم ذاتها". كما هو الحال مع كل شيء آخر تقريباً، ادعى النظام ومراسلوه، أن هذا لم يكن صحيحاً. وأن **جوتشي** كانت للاستهلاك المحلي فقط، وهكذا ستبقى.

وعلى الرغم من كل ما قدمه من تقريع لوضع "الإمّعة"، كان كيم ما يزال في ربقة العرف الشيوعي. حتى مع الاستقلالية النسبية التي منحها لنفسه، لم يستطع الهرب من الظروف التي خلقها. مثله مثل الضابط في قصة كافكا "**في مستعمرة العقاب**"، لم يكن فقط حارس السجن المعزول حيث يتم تعذيب الناس حتى الموت بواسطة آلة كتابة وحشية، ولكن أيضاً في عبودية الأداة التي صنعها.

في تلك القصة، يُدعى زائر إلى جزيرة يسكنها فقط المدانون وحراسهم إلى إعدام جندي ضبط نائماً أثناء نوبة حراسته. على طريقة كافكا الأنموذجية، لم يخضع الجندي لمحاكمة، ولم يُبلّغ بأنه قد حُكم عليه، إذ إنه "مذنب دون شك". وبدلاً من ذلك رُبط عارياً، ووجهه نحو الأسفل، إلى آلة الإعدام التي تشبه سريراً بأربعة قوائم. يوضح الضابط المسؤول أن الموت سيأتي من فعل الكتابة، حيث يقوم "المشط" الذي يتألف من صفوف عديدة من الإبر بكتابة رسالة على جسده تقول "احترم رؤساءك"، حتى يتمكن الرجل المدان من قراءة الجريمة من خلال جروحه. وبمجرد موته، ستدفعه الآلة إلى حفرة. يشعر الزائر بأن الضابط يطلب موافقته على طريقة التنفيذ الهمجية هذه؛ وعندما لا تأتي، يربط نفسه إلى الآلة ويخضع لنحت المشط. بعد ذلك، وبمجرد أن تكتب الآلة رسالة "كن عادلاً" على ظهره، تنهار ويموت الضابط.

بالنسبة إلى كيم، لم يكن الأمر سيئاً تماماً مثل كل ذلك. لكنه في الوقت نفسه، لم يستطع أن يعلن نفسه رئيساً مدى الحياة ويستمتع بقصوره ومحظياته. لقد شعر أنه مضطر لإنتاج "نظرية" ثم ينشر ببليوغرافيا واسعة مخصصة للتوسع فيها حد الغثيان. أسيراً لنفس تقليد عبادة الكتب مثل الطغاة الشيوعيين الآخرين، استأجر جيشاً من العمال الأيديولوجيين لإنتاج رزم من نسخة جامدة. ثم قام بجولة في البلاد لإلقاء الخطب، وزيارة المصانع وإصدار التصريحات التي كرر نفسه فيها مراراً وتكراراً. خاضعاً لا لموسكو ولا لبكين، كان ما يزال عالقاً داخل بلد يديره وفقاً لفلسفته الهرائية، وشعر بأنه مضطر إلى الكذب بشأن ذلك طوال

الوقت للإبقاء على الوهم. لم تقتله الأمشاط؛ الإبر لم تكن مصممة لذلك. لقد نجح في النجاة بظهره، مما أعطاه تدليكاً قهرياً لم ينته أبداً.

* * *

هل هناك مخرج، أو تحرر من طوفان اللاجدوى، والكلمات غير الصادقة؟ في الواقع، لم يكن هناك مخرج. كما زادت مسافة الزمن من عام ١٩١٧ إلى ما بعده، وصار فشل النبوءة أكثر وضوحاً من أي وقت مضى، وتلاشى الإيمان في القشرة الهامدة، هكذا استمرت الكتابة. وجد كيم على الأقل اهتماماً جديداً انصب على الصور البلاغية، وأحياها ببعض الكراهية. أبقى معظم الطغاة على تحريك الطبعات المجمعة من الخطب الكئيبة. ثم، في ألبانيا -وهي دولة ستالينية أيضاً، وإن كانت أكثر هامشية وعزلة من كوريا الشمالية -ظهرت طفرة أخرى في هذا النوع من الأدب الديكتاتوري. لقد حان الوقت للتحول إلى الداخل، للتركيز على التجربة الشخصية للزعيم.

عندما فكر ستالين في المشاعر، كان يفكر في هندستها، مع التركيز على العالم الداخلي وليس الماركسي فقط؛ لقد كانت برجوازية إيجابية. نادراً ما احتفظ القادة الشيوعيون باليوميات، ولم يكتب لينين ولا ستالين مذكراتهما. وبين المؤلفين الأقل ديكتاتورية، كانت النصوص الشخصية نادرة أيضاً، رغم وجود بعض الأمثلة عليها. قبل تعيينه من طرف ستالين في أعلى منصب في الكومنترن، وقبل أن يصبح زعيماً لبلغاريا الشيوعية بفترة طويلة، نشر شبيه الإنسان الفائق جورجي ديميتروف مذكرات مجمعة عن محاكمته في ألمانيا النازية. يمزج ديميتروف بين الوثائق والرسائل والخطب الشخصية لتوضيح كيف دافع عن نفسه بنجاح ضد الاتهامات بأنه شارك في حرق الرايخستاغ. وقد كتبها قبل أن تتلف روحه تماماً، إنها قابلة للقراءة بشكل مدهش.

في عام ١٩٧٠، نشر خروتشوف المجلد الأول من مذكراته، **خروتشوف يتذكر**، رغم أنه بحلول تلك المرحلة كان خارج السلطة وقبل عام واحد من موته. ليس ذلك فحسب، بل تم نشر الكتاب في الغرب، وليس في الاتحاد السوفييتي فقط.

من الجدير بالذكر أن كاتب المذكرات الشيوعي الرائد وهو لايزال في السلطة، أنور خوجة (١٩٠٨-١٩٨٥)، زعيم ألبانيا، كان أخر مدعٍ ستاليني في هذا العالم. إذا لم يعد بإمكان أحد

المتعصبين من هذا النوع أن يستمر في الانتصار بشكل لانهائي على الماركسية اللينينية، وكان عليه أن يبدأ في نبش طفولته وشبابه من أجل تلبية عدد الصفحات، فمن المؤكد أن هناك خطأ ما.

أما بالنسبة إلى الطفولة والشباب، فهي كما قد تتوقع: الأرياف والدين (في هذه المرة الإسلام)، والمدرسة، والمنح الدراسية، وماركس. تلتها السلطة، والتطهير، التملق الستاليني والسعي الذي لا يرحم لإفقار البلاد على مدى عقود عديدة. ما يميز خوجة هو أنه بقي مخلصاً لستالين لفترة أطول من أي شخص آخر: كان ممتناً للفوشد في منعه امتصاص ألبانيا داخل يوغوسلافيا، ولم يخفت امتنانه أبداً. عندما توفي ستالين، ركع خوجة أمام تمثال الطاغية البرونزي في تيرانا وأعلن فترة حداد رسمي لمدة أسبوعين، وهي فترة أطول حتى من تلك التي أعلنت في الاتحاد السوفييتي. عندما استنكر خروتشوف ما فعله ستالين، قام خوجة بإصدار الأصداء المناسبة -"لقد ارتكب ستالين بعض الأخطاء التي كلفت الشعوب السوفييتية وقضية الاشتراكية عميقاً" -لكنه لم يتابع قوله بأي فعل. بقيت النصب على قواعدها، وبقي عيد ميلاد ستالين، يوم ٢١ كانون الأول/ ديسمبر عطلة. عندما توفي خوجة نفسه في عام ١٩٨٥، كان ستالين البرونزي ما يزال قائماً في جادة ستالين في عاصمة ألبانيا، تيرانا. وبقي هناك حتى عام ١٩٩٠.

كما كان موالياً لستالين، كان خوجة معادياً لخروتشوف، الذي أغضبت مقارباته مع يوغوسلافيا عام ١٩٥٥ الديكتاتور الألباني. انحاز خوجة إلى ماو بعد الانقسام الصيني السوفييتي، ولفترة من الوقت كان يتطلع إلى الصين بحثاً عن الإلهام. بين عامي ١٩٦٦ و١٩٦٩، استمتعت ألبانيا بـ"ثورتها الثقافية"، على الرغم من أنها كانت في شكل أكثر رقابة، ومن دون التجاوزات الوحشية لعبادة قائد الحرس الأحمر. لكن هذا التحالف انهار أيضاً. وبحلول عام ١٩٧٨ قاد خوجة ألبانيا إلى حالة من العزلة الشديدة. كان قلبه ما يزال منتمياً إلى ستالين، وفي بعض النواحي كان أكثر منه راديكالية. بينما كان ستالين قد أخضع المؤمنين لقمع شديد، فقد ذهب خوجة إلى الأبعد: في عام ١٩٦٧، أغلق كل مسجد وكنيسة في البلاد، وسجن جميع الزعماء الدينيين، وأعلن ألبانيا "أول دولة ملحدة في العالم" (تم الإعلان في مجلة أدبية، بالطبع). أخذ جنون العظمة الستاليني إلى مستويات الهلوسة، وأمر ببناء ٧٥٠،٠٠٠ مخبأ (واحد لكل أربعة مواطنين)، مستوحياً الخوف من أن يكون الغزو وشيكاً. ومثل ستالين،

كان محباً للكتب. امتلك خوجة ٢٢ ألف كتاب، بما في ذلك المذكرات والأعمال الشعرية والتاريخ؛ كان لديه ميل إلى قصص مصاصي الدماء. بالنظر إلى مكانته البارزة كديكتاتور لألبانيا، تمكن من الحصول على العديد من الطبعات الموقعة النادرة، من بينها كتب الشيوعيين البارزين مثل الرئيس ماو والسريالي الفرنسي لويس أراغون.

وكتب أيضاً مثل ستالين، سوى أن خوجة كان أكثر غزارة. في حياته، أنتج ثمانية وستين مجلداً من الأيديولوجيا، بما في ذلك عمل غنائي اسمه **الشيوعية الأوروبية هي معاداة للشيوعية** (١٩٨٠). كان على رعاياه التعساء الخضوع لدراسة أعماله في المدارس والجامعات والمصانع على غرار الثورة الثقافية. ومع ذلك، في أواخر سبعينيات القرن العشرين، عندما تقدم في العمر وانغمس بشكل متزايد في حالة من العزلة المتطرفة، دخل عمله مرحلة جديدة أكثر تطلعاً إلى الداخل: أنتج خوجة ثلاثة عشر مجلداً من المذكرات، تصل إلى سبعة آلاف صفحة مثيرة للإعجاب من التأمل الذاتي.

تماماً مثل كورتز في رواية كونراد **قلب الظلام**، لم يكن خوجة يعرف أي قيود. ثم مرة أخرى، كان سريعاً، ويبدو أنه كان واحداً من أولئك المؤلفين المحظوظين الذين تجيئهم الكتابة من دون مجهود. لقد كتب مذكراته في غضون سبع سنوات فقط، بمعدل اثنين كل اثني عشر شهراً في المتوسط؛ علاوة على ذلك، لم يكن هناك أحد يمنعه. لم تكن زوجته نشمية رئيسة تحريره فحسب، بل كانت أيضاً مديرة معهد الدراسات الماركسية اللينينية الذي نشر جميع كتبه. على الرغم من حقيقة أنه ليس لديه حلفاء ويمثل شكلاً من أشكال الماركسية تم التخلي عنه، فقد تمسك خوجة بالتقاليد العالمية للشيوعية بكل حماسة المؤمن الحقيقي. كان الطلب على كتاباته يقارب الصفر، ولكن بقيت كتبه تترجم إلى اللغات الأجنبية وتوزع في الخارج.

تقدم عناوين المذكرات نفسها الخطوط العريضة لحياة خوجة:

سنوات الطفولة

سنوات الشباب

عندما ولد الحزب

وضع أساس ألبانيا الجديدة

التهديد الأنجلو أمريكي لألبانيا

التيتويون

الخروتشوفيون

تأملات في الصين

شعبان صديقان

ويستمر هكذا. لكن، وكما يوضح التعامل مع أي من كتبه، كتب خوجة الكثير من المجلدات، ليس لأنه كان لديه الكثير ليقوله، وإنما لأنه لم يكن ذلك الكاتب الماهر، على وجه الخصوص، ولم ينقّح أبداً مادته، بل أبلغ عن كل التفاصيل الدقيقة. في "**التهديد الأنجلو أمريكي على ألبانيا**"، على سبيل المثال، يرتكب الخطأ الأساسي المتمثل في ملء الصفحات بالكثير من الحوار المبالغ فيه. ومعظمه متكلّف، رغم أنه في بعض الأحيان يرتفع إلى مستويات ستالين (إن لم يكن لينين):

> الإمبرياليون الأنجلو أمريكيون، أعداء الشعب الألباني الوحشيون والعازمون أولئك، دائماً ما استخدموا بلدنا كوسيلة للتبادل في معاملاتهم الدولية... أرادت بريطانيا من إيطاليا أن تحتل ألبانيا، لأنها خططت لضبط الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية، والتي كانت تقوم بتمويلها، كالكلاب لمهاجمة الاتحاد السوفييتي.

حتى وإن كان هذا تعبيراً عاماً إلى حد ما عن الكراهية المناهضة للإمبريالية، فإن خوجة هو من أسوأ أنواع رواة القصص: الضجِر الذي يتباهى بكيفية فوزه في كل قتال، والذي تنتهي كل حكاية بتسويغه. ألبانيا هي الضحية، خوجة المدافع الفاضل والنبيل عن شرفها ومصالحها. على الرغم من أن المذكرات شخصية ظاهرياً، فقد تبين أنه لم يتبق الكثير من العناصر الشخصية: الشهرة ليست القناع الوحيد الذي يأكل الوجه[١].

ومع ذلك، نجد في كتابه **مع ستالين**، الذي نُشر عام ١٩٧٩ للاحتفال بالذكرى المائة لميلاد معبود خوجة، عنصراً من العناصر الشخصية الحقيقية، حتى لو كان تلميحاً من اللطف، إن لم يكن شغفاً واشتهاء كاملاً للمماثل. التقى خوجة ستالين خمس مرات بين عامي ١٩٤٧

١ - تعبير للكاتب جون أبدايك. في الوعي بالذات. المترجم

و١٩٥١، ينقسم الكتاب إلى خمسة فصول، كل واحد منها مخصص للقاء من تلك اللقاءات. يحرص خوجة على الدفاع عن شرف بطله، قائلاً: "كلا، لم يكن ستالين طاغياً ولم يكن متجبراً"؛ إن قراءته أشبه بالدخول إلى واقع موازٍ، يمدح فيه الديكتاتور الألباني (الذي لم يكن غريباً على نمط العنف السياسي الذي ارتكبه ستالين بالضبط) الفوشد باعتباره لطيفاً ورقيقاً وصبوراً وما إلى ذلك. إنه ليس صادقاً فقط بل عاطفي أيضاً: بعد مرور ثلاثين عاماً تقريباً على وفاة الطاغية، تندلع الشعلة بداخل خوجة. وهو "منقطع النفس" عند التفكير في مواجهته "الرجل الفولاذي" متجسداً، ويعترف بـأنه "كان يحلم ليلاً ونهاراً بمقابلة ستالين". هناك لحظات من الثرثرة المرتاحة حيث يتظاهر ستالين بالفضول حول إثنية ضيفه ولغته، ويتساءل عما إذا ألبان خوجة يمتون بالصلة إلى الشعوب التي لها نفس الاسم في القوقاز والقرم. يتلقى خوجة هذا التصرف المهذب كدليل على مهارات القائد العظيمة في معرفة الشعوب، وينتهي الاجتماع الأول به جالساً بالقرب من معبوده على أريكة، ويشاهد عرضاً موسيقياً سوفييتياً مثيراً بعنوان "سائقو الجرارات". هذا الإحساس بقرب ستالين وإشارة خوجة إلى "صوته الدافئ" يعطي الكتاب جودة حميمة غريبة. عادة ما تكون أجساد الطغاة مصنوعة من البرونز، أو مخللة ومحفوظة: ولا تجلس بجوارك لمشاهدة فيلم السهرة.

ومع ذلك، هذا ليس كل ما قيل. لم يكن خوجة مقرباً من ستالين، بل كان بدلاً من ذلك بمثابة شبيه بشري يأتي من طرف الإمبراطورية السوفييتية، وطريقة تناوله للموضوع كانت متخمة ويمكن التنبؤ بها. تظهر التعاويذ المعتادة عن الحركة إلى الأمام، والعمال المتمنين، والأخوة والتقدم، ويغازل خوجة ستالين كبطل للشيوعية، بينما يدين خروتشوف باعتباره الشرير الشنيع الذي قاد الشباب السوفييتي بعيداً عن الحقيقة. تتواصل الكتابة على نمط سير القديسين، بينما يشجع خوجة بصورة خجولة طقس عبادته الشخصية إلى جانب عبادة بطله. في بعض الأحيان، يستبق أحكام ستالين، بتقمصه دور التلميذ النجيب عند قدمي سيده. والنتيجة هي إثبات الاستمرارية بين اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية الستاليني وحكمه هو، وبالتالي "إثبات" أن فرعه الطائفي الخاص من الشيوعية هو الوريث "الحقيقي" للثورة الروسية، حتى لو كان هامشياً تماماً ومن دون أي تأثير على الشؤون العالمية.

مع تقدم الكتاب، يكرس خوجة عدداً أقل من الكلمات لإذكاء ذكريات الحديث الصغير مع ستالين وعدداً أكثر ليهجو "الإمبرياليين" و"الفاشيين الملكيين" والشيوعيين المرتدين. يُعدّ عالم خوجة مكاناً عدائياً مليئاً بالتهديدات، حيث يمكن الوثوق بستالين فقط -وقد مات. يجب أن تكون هناك "تصفية جسدية"، ويتعهد خوجة بأنه "سيمسح" خصومه من على وجه الأرض. إنه مكان مظلم وموحش، ويمثل الكتاب عواءً من حلم مات، لكن مؤلفه لا يستطيع أن يستيقظ منه. خارج نافذة خوجة، يقبع ٧٥٠،٠٠٠ مخبأ تكمن في الظلام، غير مشغولة، في انتظار الأزمة التي لن تحدث أبداً، لأن لا أحد اهتم بها فيه الكفاية. إلى أين يذهب، وماذا يفعل إلا الصعود إلى داخل آلة الكتابة؟

وكذلك فعل.

***

من بين الجثث الكثيرة المربوطة بآلة الكتابة خلال هذه المرحلة المتأخرة من الشيوعية، كان الأكبر والأكثر أهمية هو ليونيد إيليتش بريجنيف (١٩٠٦-١٩٨٢)، الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي منذ سقوط خروتشوف. إعلان سلفه بأن الاتحاد السوفييتي يستطيع أن يبني بنجاح مجتمعاً شيوعياً بحلول عام ١٩٨٠ تم تأجيله. وكان بريجنيف راضياً عن إنجازات أكثر تواضعاً. قد لا تكون الدولة قد ذبلت، بل في الواقع، تضخمت أكثر من ذلك بكثير. لكن على الأقل كان لدى الكثيرين من الناس أجهزة تلفزيون وغسالات، وكان لدى البعض سيارات، حتى لو كانت أقل جودة من تلك التي يمكن أن تشتريها في الغرب الإمبريالي. كان الخبر السار هو: أن الشيوعية كانت أكثر أخلاقية من الرأسمالية. وهكذا، على الرغم من أن النخبة السياسية مازالت تدعي أنها تؤمن بالماركسية اللينينية، وبينما واصل النظريون المحترفون التملص من التنقيحات ومراجعات الأيديولوجيا، فقد كان واضحاً من تصرفات وأولويات الرجال في القمة أنهم قد لا يكونون قد آمنوا بها على الإطلاق، وإن فعلوا فإيمانهم كان فاتراً إلى حد ما.

على عكس خوجة، الذي كان طاغية لا يرحم من مدرسة ستالين، كان بريجنيف في تناغم أكثر استرخاء مع أعراف عصره. لقد أراد أن يكون ممثلاً، لكن انتهى به الأمر عالم معادن. كان

تعليمه تقنياً وإدارياً أكثر منه نظرياً. لم يكن يكره القمع؛ في عام ١٩٦٨، أرسل الدبابات إلى شوارع براغ لقمع محاولة من الشيوعيين المحليين لإدخال رؤية إصلاحية أكثر ليبرالية على الاشتراكية. لكنه لم يكن يشرب الدم. فضل بريجنيف نفي المنشقين أو جعلهم يعلنون جنونهم بدلاً من إطلاق النار عليهم في قبو أو إرسالهم إلى الغولاغ. عندما أدار البراغي، لم يكن ذلك تقديراً للنقاء الأيديولوجي والستاليني الميت، بل رغبة في حفظ استقرار النظام.

أهمه الاستقرار كثيراً. فبدونه، كيف يمكنه أن يعيش حياة سهلة؟ استمتع بريجينيف، الذي كان سميناً وراضياً بالكسل، بلعب الدومينو، وأحب أن يطلق النار على الدببة، لكن لم يزعج نفسه بمطاردتهم. بدلاً من ذلك، كان يجلس على كرسي ويستمتع بكأس من الفودكا، بينما يقود الأتباع فريسته أمام بندقيته. كان أيضاً منافقاً وقحاً: وكان يستمتع بالتجول في مجموعته من السيارات الأجنبية الفاخرة[1]، حتى عندما كان المواطنون السوفييت العاديون ينتظرون سنوات للحصول على سيارة محلية من نوع لادا، وهي صندوق معدني ذو عجلات صنع على غرار سيارة فيات القديمة. كان صعود بريجنيف إلى القمة دليلاً واضحاً على أن تاريخ القيادة السوفييتية يشبه المخطط التطوري المعكوس، والذي يصبح فيه الأمناء العامون أقل ذكاءً وأقل كاريزما وأقل صحة. حتى إن بريجينيف كان يكره القراءة: ولا بد أن إتقانه النصوص المقدسة للماركسية اللينينية من أجل صعود صفوف الحزب، كان عذاباً. وبمجرد وصوله إلى السلطة، صار بإمكانه الاسترخاء، حيث يستطيع أن يأمر أتباعه أن يقرأوا له الوثائق بصوت عالٍ.

في عام ١٩٧٤، تركت سلسلة من السكتات الدماغية بريجينيف واهناً تماماً. إلى جانب النقرس وأمراض القلب وتصلب الشرايين التي تعصف بالفعل بنظامه، لم يتمكن الأمين العام الذي أصبح الآن نصف حي من العمل إلا لبضع ساعات في اليوم، وكانت حالته الصحية محفوفة بالمخاطر، لدرجة أن سيارة الإسعاف كانت تتبع موكبه إلى أي مكان يذهب إليه. وعلى الرغم من أن محاكاة "لبريجينيف" كانت تنبض بالحياة النشطة في الصحف، وعلى شاشات التلفزيون وفي السير الذاتية الرسمية، مستندة إلى وهج عبادة الشخصية وتراكم المزيد من

١ - احتفظت المرائب في الكرملين بأكثر من ثلاثين منها وقت وفاته. المؤلف

الأوسمة مقارنة بجميع أسلافه مجتمعين، فإن بريجينيف الفعلي تحول إلى تمثال لدمية ضخمة من اللحوم يتم عرضها أمام الحشود والكاميرات في المسيرات والزيارات الحكومية كلما لزم الأمر، وليس أكثر من ذلك في كثير من الأحيان. خلف الستار، كان تكنوقراطيو الحزب يديرون الاتحاد السوفييتي بهدوء. بريجينيف يلعب الدومينو. بريجنيف يبكي. وبعد، حتى في هذه الحالة المتقدمة من التحلل، بقي يعيش وفق القانون الشيوعي الذي يقول انشر أو مُت. مع كل سياراته وامتيازه بالنسبة إلى المواطنين العاديين، حتى وهو على وشك الموت، لم يكن حراً: بقي جسده المميت مربوطاً بجهاز الكتابة، والمشط يكشط ظهره حتى النهاية.

الشيء الرحيم كان أن بريجينيف لم يلحظ ذلك حقاً. لقد تواجد فقط بينما عملت فرق من المحترفين على ضمان عدم انقطاع التدفق المستمر للمنشورات. ظهرت تسعة مجلدات من الخطب والمقالات تحت اسمه خلال السبعينيات من القرن الماضي، لكن المزيد من النبش في النخر الأيديولوجي يضيف ملايين الرسائل الميتة الأخرى التي أنتجها أقرانه وأسلافه. ولكنه في النهاية، ومثلما كان خوجة يتحول إلى المذكرات، كذلك فعل بريجينيف. في المحيط وفي الوسط على حد سواء، كان الإيمان قد أخلى نفسه، تاركاً فراغاً حشرت فيه شخصية الزعيم (تماماً مثلما كانت).

ومع ذلك، لم تكن كتابة المذكرات فكرة بريجنيف، ناهيك عن أربعة مجلدات من الذكريات الشخصية. فالأمين العام كان يحتفظ بيومياته، لكنها كان بالكاد مادة قابلة للاستخدام. وعلى الرغم من أنه كان من الناحية النظرية سيداً لقوة عظمى، إلا أن مقالاته تكشف عن القليل من الانشغال بشؤون الدولة، أو مكائد المكتب السياسي، أو السياسة الخارجية، أو حتى المسائل الشخصية مثل علاقة حب ابنته غالينا الفاضحة بمؤدٍ في السيرك. بدلاً من ذلك، كتب أشياء مثل هذه:

> ١٦ أيار/ مايو ١٩٧٦: لم أذهب إلى أي مكان، ولم يرن أحد، وكذلك أنا، حلقت شعري في الصباح وغسلته. مشيت قليلاً خلال اليوم، ثم شاهدت الجيش المركزي يخسر أمام سبارتاك (اللاعبون لعبوا جيداً).

باعتراف الجميع، وعند اقتباسها في شكل شذرات، فإنها تشبه إلى حد ما عمل عبثية منتصف القرن مثل صموئيل بيكيت: يمكن أن تكون هناك مهارة دقيقة، وتعليق منحرف عن

لا معنى الوجود. لكن عندما تُختبر كسلسلة من الإدخالات التي تتواصل وتستمر من دون الاقتراب من معنى أو وجهة نظر أو فكرة، فإن اليوميات تصبح أكثر شبهاً بالخربشات التي يخطها شخص مأفون.

ومع ذلك، لم يكن بريجينيف -أو على الأقل حتى الآن - شخصاً مأفوناً. لقد كان سليم العقل بشكل كافٍ ليعرف أن مذكراته موجودة، وأنه يراد من الشعب السوفييتي قرأتها، لكن كان ذلك عن محتواها. وفقاً للجنرال والمؤرخ السوفييتي دميتري فولكوغونوف، ساعد الزعيم ما بعد القادم للاتحاد السوفييتي، قسطنطين تشيرنينكو، بدفع المبادرة، خلال كتابة وتذكر الكتاب الأول، Malaya Zemlya ("الأرض الصغيرة")، الذي تمت الاستعانة في كتابته بأركادي سخنين، الصحفي والمحرر في صحيفة **كومسومولسكايا برافدا**. ظهر هذا المجلد الأولي النحيف في عام ١٩٧٨، بعد أربع سنوات من تعرض بريجينيف للسكتة الدماغية الأولى، ثم تبعه في تعاقب سريع مجلدان آخران كُتبا له سراً، **الأراضي البكر والتجديد**. تذكّر حياة الزعيم نيابة عنه صار يشبه الحرفة التقليدية: نشر مجلد من "السيرة الذاتية" في عام ١٩٨١، السنة التي سبقت موت كاتبه.

ومع ذلك، كانت المادة المصدر فقيرة جداً، لدرجة أنه حتى في المذكرات التي كتبت له سراً وكتبها محترف مُنح ترخيصاً وسماحية واسعة لتعزيز صورة بطله، ظهر بريجينيف كشخص متواضع العظمة. كانت الخدمة العسكرية للأمين العام جزءاً كبيراً من طقوس عبادته، وفي كتابه Malaya Zemlya، أعيد اعتبار المعركة غير المعروفة جيداً في زاوية ضائعة من أوكرانيا السوفييتية لتصبح جزءاً مهماً للغاية من المجهود الحربي. لكن بريجينيف كان مسؤولاً سياسياً، وليس مقاتلاً، لذلك حتى في السرد المثالي المحسّن لماضيه، لم ير الكثير من العمل. في بداية الكتاب، تنفجر قنبلة بالقرب من قاربه وتسقطه في الماء، ولا يصبح الأمر أكثر إثارة من ذلك. لم يكن يطلب من بريجينيف أن يقاتل النازيين، بل أن ينتج وينشر الدعاية السياسية، ويفرض الصواب السياسي ويراقب الفتنة (على الرغم من أن الجانب الأخير من عمله لم يرد ذكره في مالايا زمليا). كان مولد الكلمات وشاهداً على الشجاعة. والشهادة التي يقدمها، هي إحياء ذكرى الذين سقطوا خلال قوائم الموت والإشادة بـ"البطولة الجماعية" للشعب السوفييتي. يذكر بريجينيف بالاسم الأفراد الشجعان بشكل خاص، مثل ماريا بيدنكو ذات الشعر الأحمر

التي "لم تدخر شبابها ولا حياتها" في الكفاح ضد الفاشية. كان دورها في رفع معنويات الرجال من خلال كتابة المقالات الدعائية وتلاوة الشعر والخطب. ثم هناك الجندي الذي لم يكشف عن اسمه والذي رفض إجازته ليبقى مع وحدته في الجبهة، وتوفي نتيجة لذلك. كان بريجينيف سيعتبر شخصية قاصرة بالمقارنة، لولا التقليد السوفييتي في اعتبار إنتاج القائد للكلمات عملاً من الأعمال البطولية.

وهكذا، مثلما تم الاستشهاد بشعارات لينين كأحداث حقبوية تاريخية في **الدراسة القصيرة**، فإن "بريجينيف" يتذكر عمله المهم وهو يتحدث إلى الرجال ("لقد تحدثت دائماً عن الحقيقة مهما كانت مريرة"). كان يقدم الخطابات ويقتبس من لينين، ويستشهد بنشراته الخاصة، ويؤكد على مدى حرص الجنرالات على الاستماع إليه. في Malaya Zemlya، يعد إنتاج النص أمراً أساسياً لتحقيق النصر، لأنه من خلال هذه الكلمات يحدث فعل خيميائي أيديولوجي. وهكذا أصبح "العاملون السياسيون قلب وروح القوات المسلحة".

وغني عن القول، أنه تم حذف بعض التفاصيل المهمة. فلا وجود لعمليات الإعدام السياسية، وتم تقليص دور ستالين إلى ظهور له في صورة فوتوغرافية. لكن لم يكن الفوشد هو الوحيد الذي يغيب عن النص: جسد بريجينيف كان واضحاً بالمثل في لاماديته. في الواقع، بصرف النظر عن المشهد الافتتاحي الذي يطير فيه ليسقط في الماء، يتجسد بريجينيف بشكل مادي مرتين فقط: بينما يفر من قنبلة قذفت نحوه (وكان هو الشخص الذي اكتشف وجودها، بشكل طبيعي) وعندما يواجه حشداً متقدماً من الألمان. عند هذه النقطة، يحرك بريجينيف يديه ويستولي على مدفع رشاش، ويفتح النار. تأتي لحظة العمل هذه إلى خاتمة سريعة عندما تصل القوات السوفييتية إلى الخندق. يقول بريجنيف: "لقد لمس أحدهم ذراعي"، مؤكداً لنا أن له جسداً بالفعل، وأنه كان هناك، وأنها ليس مجرد محاكاة مماثلة لما يظهر على شاشة التلفزيون وفي الصحف. جسد بريجينيف غائب، لأن بريجينيف نفسه كان غائباً عن إنتاج النص. لقد كان الكاتب الخفي يعرف الكلام الرسمي وليس حياته الخاصة، وبالتالي كان بريجينيف أقل حضوراً في مذكراته مما كانه لينين في كتاباته النظرية، أو كانه ستالين في عمله المتأخر في علم اللغويات. حتى كيم إيل سونغ، السيد الأعلى لنثر الموت الشيوعي، يمكن العثور عليه في استياء وكراهية جوتشي.

بالطبع لم تكن ضحالة بريجنيف الملحمية عقبة أمام النجاح. ضمنت آلة الدولة أن Malaya Zemlya وكتبه الأخرى ستستمتع بالطباعة وبكميات ضخمة، وأنها ستتحول إلى نصوص توضع في المدارس ويتم تحويلها في أفلام لتعليم الجماهير[1]. وهكذا كانت.

* * *

تعفن بريجينيف في القمة لمدة ثمانية عشر عاماً، ثم توفي. وعندما نقلت رفاته إلى قاعة الأعمدة اللامعة في موسكو ليرقد مبجلاً، تبين أن الأمين العام المتوفى كان ثقيلاً للغاية لدرجة أن جثته حطمت التابوت وسقطت على الأرض. فتم شراء نعش جديد مدعم بقاعدة معدنية، وكان قوياً كفاية لاحتواء وفرة لحم بريجينيف الميت. اتضح أن مجموعته الأدبية كانت أقل صلابة: واختفت في غضون بضع سنوات من وفاته، عندما ندد ميخائيل غورباتشوف بعهد بريجينيف كفترة من "الركود"[2]. وهكذا بدأ محو بريجينيف واسمه من المدن، والمصانع والمناهج المدرسية، وغمر نسيان عظيم الأعمال الأدبية لبطل ملايا زميليا.

* * *

أولاً ستالين، والآن بريجنيف - وفي الصين، كان هناك شيء مماثل يحدث لأعمال الرئيس ماو. كان الأمر كما لو أن كلمات الطغاة تمحو نفسها، فقد تلاشت الكتب بمعدل أسرع من أي وقت مضى، ببذل جهد أقل من ذي قبل لجعل وزن الكلمات الميتة ينزلق إلى النسيان حيث تبدد بأمان. على الرغم من أن الأعمال المختارة للطغاة كانت ثقيلة الوزن مادياً، فقد عانت هذه

---

١ - بعد مرور عقود عليها، تُستعاد كتب بريجينيف في الاتحاد السوفييتي السابق بروح من الدعابة النسبية. فبالمقارنة مع بعض الأشياء الأخرى التي كان على المواطنين السوفييت قراءتها، كانت غير مؤلمة نسبياً. لا شك أن هذا كان لأنها كتبت بواسطة محترفين وكانت مجردة إلى حد كبير من الناحية النظرية. المؤلف

٢ - لكن غورباتشوف لم يكن دائماً ناقداً. في السادس من أيار/ مايو ١٩٧٨، بينما كان يتقدم القمة الشحمية للتسلسل الهرمي للحزب الشيوعي، نشر هذه المراجعة لكتاب بريجينيف مالايا زميليا:
منذ وقت ليس ببعيد فتحنا صفحات كتاب الرفيق بريجينيف الرائع Malaya Zemlya، الذي صور فيه الأبطال الأسطوريون في معارك شمال القوقاز بأحرف من ذهب. لقد مر وقت قصير منذ نشره، لكن المذكرات أثارت اهتماماً وطنياً واسعاً بحق... في عدد صفحاتها، لا تعد مالايا زميليا كبيرة جداً، ولكن في عمق محتواها الأيديولوجي، في نطاق تعميمات المؤلف وآرائه، أصبحت حدثاً كبيراً في الحياة العامة. المؤلف

الكتب الضخمة من خفة الوجود التي لا تُحتمل. ومن دون القوة القمعية للدولة التي تبقيها مطبوعة، لم تستطع الحفاظ على وجودها. ببساطة، لم يكن هناك أي طلب على "الحقائق العلمية" التي بها. باستثناء لينين، الذي مات الآن منذ ستين عاماً وظل أنيق المظهر كما كان دائماً، يقاوم قوى الانحلال: يواصل النوم من دون إزعاج في صندوقه الزجاجي قرب جدران الكرملين، محفوظاً جيداً كما حفظت كتاباته. لكن المومياء ليست رمزاً للصحة والحيوية.

في عام ١٩٧٩، كان ما يزال من المفترض أن تستمر الشيوعية إلى الأبد، حتى لو كانت في صورة شديدة التدهور. ثبت عدم صحة النبوءات، وكانت الكتب كاذبة بشكل واضح، شابه رؤساء كهنة الأيديولوجيا الموتى الأحياء، ولكن بريجينيف وخوجة كانا لا يزالان مربوطين إلى آلة الكتابة، وكانت المطابع ما تزال تدور، وبالطبع استمرت الرؤوس الحربية النووية في الازدياد. بدا الأمر حياً، وظل المختصون بالشأن السوفييتي يواصلون توقع استمرار الفجوة بين الشرق والغرب، كما لو كانت معلماً طبيعياً، مثل القناة الإنجليزية.

صعقت المفاجأة كهنة الشيوعية عندما سقط جدار برلين عام ١٩٨٩ وزال الاتحاد السوفييتي عن الوجود بعد عامين من ذلك. لم يدركوا إلى أي مدى جوّف الاتحاد السوفييتي نفسه. كان ينبغي عليهم إيلاء اهتمام أكبر بنصوص القادة. في الفراغ والفشل المتزايد، وفي الصعوبة المتزايدة التي واجهتها الكتب للحفاظ على وجودها، كانت نُذُر الانقراض، رسائل ضائعة تنبئ بطريق مسدود.

٦- عالم أخضر آخر

إذا كانت الشيوعية جثة تمشي، فما هي الفكرة الجديدة التي يمكنها أن توفر الخلاص للبشرية - وتزود الطغاة بالمواد اللازمة لكتبهم؟

في عالم مثالي، كان الجواب "لا شيء". بعد ثلاثة أرباع القرن من الغوغائية المستفحلة والتجارب الاجتماعية والاقتصادية الكارثية، كان الوقت قد حان بالتأكيد لأخذ استراحة من أوهام نهاية الزمان والحماقات العلمية. لم يكن هناك رجال خارقون. لم يكن هناك شكل ولا بنية للتاريخ؛ بل هناك بشر فقط، ، يفعلون أشياء مروعة، عن اقتناع بأن الأمر يستحق كل ذلك في النهاية. ففي نهاية الأمر، لقد قرؤوا في كتاب ما أنها سوف تجدي؛ وفي بعض الأحيان يكونون هم من كتب الكتاب.

كما رأينا، بحلول أواخر سبعينيات القرن العشرين، كانت حالة النشر الديكتاتوري محفوفة بالمخاطر. بقي الرجال الأقوياء، لكن أفكارهم كانت في أزمة. في الصين، كان الحزب يعيد صياغة الماوية بهدوء لإزالة مظاهرها الراديكالية، بينما في الشرق الأوسط، مات ناصر، وكان القذافي عابثاً (إذا لم يكن قاتلاً)، وكان الجيش التركي مضطراً لشن انقلابات دورية لحماية إرث أتاتورك العلماني. في أوروبا، مات فرانكو وسالازار. صارت النازية والفاشية شبحين. كانت الأنظمة القومية والعسكرية المتنوعة في أمريكا اللاتينية غير مهتمة إلى حد كبير ببناء المراجع النظرية الضخمة (على الرغم من أن الديكتاتور العسكري التشيلي أوغستو بينوشيه قد شارك مع فيدل كاسترو، وكان من الممكن أن يصنعاها بأفضل صورة). عملت مجموعات حرب العصابات الراديكالية في آسيا وأمريكا اللاتينية خارج قواعد اللعبة النظرية التي كتبت في وقت سابق من القرن. في هذه الأثناء، في العالم غير الطغياني، كانت الولايات المتحدة على وشك انتخاب رونالد ريغان، وقد انتخبت المملكة المتحدة بالفعل مارغريت تاتشر. أفضل محاربي الحرب الباردة، دعمهما للديمقراطية ألهم الملايين، لكن أيديولوجيتيهما عن السوق الحرة لم تقدم الخلاص على الأرض -رغم أنهما في أشكالها الأكثر تطرفاً كانا أيضاً على درجة من الزيف. بالتأكيد، الوعد بأن "الثروة" قد "تنساب" مثل ينبوع ما من الذهب السائل

المتجه جنوباً بحذاء ساق السكران، لم يكن نوع الشيء الذي قد يكون أي شخص على استعداد للموت من أجله.

ولكن كانت هناك فكرة أخرى تنتظر لحظتها لتقلب العالم رأساً على عقب، مجموعة أخرى من الكتب تقبع منتظرة، وهي تحتوي على مقاربات جديدة لحل معضلة البؤس الإنساني. كانت المشكلة أنه بعد مرور قرن من الزمان في السعي لتحقيق اليوتوبيا المدنية، لم يأخذ السياسيون والمحللون الذين كانت مهمتهم التفكير في مثل هذه الأشياء، هذه الفكرة على محمل الجد عندما تحققت. فقد كانوا مقيدين بالأحكام المسبقة الخاصة بهم، وطرقهم في التفكير، من خلال الأسطورة المدنية في التقدم، وحتى بكيفية تعلمهم طريقة التفكير في الزمن. خذ عام ١٩٧٩، على سبيل المثال: ماذا يعني ذلك؟ لا شيء حقاً. لقد كان رقماً دون الكثير من الأصداء -في الثقافات الغربية على الأقل. لكن بالنسبة إلى المسلمين، كانت ذكرى مرور ١٤٠٠ سنة على حج النبي محمد إلى مكة، وبداية قرن جديد، ووفقاً للتقاليد، حان وقت ظهور **المجدد** من أجل تجديد العقيدة.

كان أتاتورك وأولئك الذين استلهموه يعتبرون الدين قوة رجعية؛ كانت الطاقة المغيّرة موجودة في مكان آخر. بحلول عام ١٤٠٠ هـ كان من الواضح للكثيرين أن القوميين والاشتراكيين والمحدثين قد انقلبوا على التقاليد، لكنهم لم يأتوا بعالم جديد وعدوا به. في إيران، حيث كانت العلمانية قديمة قدم الثورة الروسية تقريباً، كان الملايين يعلنون محمد رضا شاه بهلوي كطاغية فاسد ويعتبرونه دمية أمريكية، على الرغم من أو بسبب محاولاته للإصلاح. عندما انهار نظامه، تبين أن الكتب التي ألهمت الهيجان في الكثير من مثقفي القرن العشرين، لم تحصل إلا على القليل من النفوذ. لقد حان الوقت لمجموعة مختلفة من النصوص: النصوص المقدسة.

كان الوجه الجديد للثورة يطل من تحت العمامة، وكانت لحيته بيضاء طويلة جداً.

***

لإيران تقاليد قيامونية قوية. في عصر ما قبل الإسلام، كان دين الدولة هو الزرادشتية، والتي بموجبها تعد الحياة هي معركة بين الظلام والنور، والتي ستنتهي في آخر المطاف بوصول المنقذ والحكم الأخير. في القرن السادس عشر، قام ملك صبي يدعى إسماعيل

بتحويل إيران إلى المذهب الشيعي، والذي، بشوقه الشديد لعودة الإمام المنتظر، كان له جانب قياموي أكثر بروزاً بكثير من المذهب السني. كشف إسماعيل عن خط مسيحاني قوي في شعر أهداه لنفسه ("أنا سر الله... بداخلي النبوة وسر القداسة")، بينما أبقى الحاكم اللاحق دائماً حصانين على أهبة الاستعداد حتى يكونا جاهزين عندما يظهر الإمام المنتظر وينزل المسيح (الذي يُتوقع عودته أيضاً) ليخوضا معارك نهاية الزمان، ويكون غير مضطر إلى إضاعة الوقت في البحث عن جياد. في بعض الأحيان، كان بعض المتنبئين يستغلون أحياناً هذا الشوق العميق، ويعلنون بأنهم المسيح المنتظر؛ وهكذا، على سبيل المثال، بدأت العقيدة البهائية في إيران في منتصف القرن التاسع عشر. وفي الوقت الذي أضيفت فيه القياموية الماركسية العلمانية إلى المزيج الأسكاتولوجي، كان الناس في إيران قد أمضوا حوالي ثلاثة آلاف عام في انتظار وصول العدالة الكونية.

لا عجب إذاً، أنه عندما أعلن البلاشفة عن أن المرحلة الأخيرة من التاريخ قد بدأت في عام ١٩١٧، أن حاول الماركسيون في إيران، التي تتقاسم حدوداً مشتركة مع الاتحاد السوفيتي، ركوب الزخم الثوري بسرعة، وإنشاء جمهورية اشتراكية سوفيتية فارسية في مقاطعة جيلان في حزيران/ يونيو ١٩٢٠. وكان ذلك خلال فترة من الإيمان المحموم بالثورة البلشفية، عندما كان الثوريين في ألمانيا والمجر وسلوفاكيا وغيرها يحاولون ركوب صاعقة فوضى ما بعد الحرب على طول الطريق نحو الثورة العالمية، كانت الجمهورية الاشتراكية السوفييتية الفارسية قصيرة الأجل (لم تعد موجودة بحلول أيلول/ سبتمبر ١٩٢١)، ومع ذلك، فقد استمرت لفترة أطول من أي محاولة معاصرة لإقامة دول سوفييتية إلى الغرب من موسكو، والتي لم تصل أي منها إلى عام كامل. أدرك الاتحاد السوفييتي الإمكانات الثورية للمثقفين والطلاب الإيرانيين، ودعم الحزب الماركسي المحلي توده، تحسباً للحظة التي سيثور فيها عمال تلك الأرض القديمة.

في هذا الوقت تقريباً، كان الرجل الذي سيقود الثورة الإيرانية بعد ستين عاماً، يدرس في مدرسة دينية. كان روح الله الخميني في الخامسة عشرة من عمره عندما استولى البلاشفة على السلطة في الشمال، وفي الثامنة عشرة عندما تم إعلان الجمهورية الاشتراكية السوفييتية الفارسية. كانت بريطانيا والاتحاد السوفييتي يلعبان ألعاب القوى العظمى، وقد فقدت الحكومة السيطرة إلى حد كبير خارج العاصمة. لقد كان وقتاً من الاضطرابات والنزاعات،

حيث وفرت الظروف المثالية لتربية مؤلف في المستقبل، وكان الخميني يضع الكثير من العلامات على المربعات الصحيحة. ولد في الريف؟ علامة. الوالد متوفٍ؟ علامة. قامت والدته بتربيته؟ علامة. حصل على التعليم الديني؟ علامة. جاء في زمن تتعرض فيه ما كانت يوماً قوة إمبريالية عظيمة إلى أوقات صعبة؟ علامة. القوى الإمبريالية تجول بحثاً عن مغانم؟ علامة. إمبراطوريات أخرى تنهار في المنطقة المجاورة؟ علامة. الحكام المستبدون الذين لا يتمتعون بشعبية يعيشون في ثراء فاحش، بينما تتحمل الجماهير الفقر المدقع؟ علامة.

لكن الخميني انحرف بشكل كبير عن السرد: فبدلاً من التخلي عن العقيدة الدينية مقابل بسيطيات الماركسية أو أي فكرة جديدة أخرى توجد في كتاب غربي، عمّق دراسته للإسلام. وبدلاً من الفوز بمنحة دراسية إلى روسيا أو فرنسا، حيث يمكنه الانغماس في الأفكار الراديكالية، انتقل إلى مدينة قم المقدسة.

خلال دراساته الدينية، غمر الخميني نفسه في عالم واسع ومتشابك من النصوص. مثل المنظرين الشيوعيين، تم تدريبه على عدم التفكير بشكل تجريبي، بل البحث عن الروابط العميقة والمتعددة بين الكلمات على الورق، ومعرفة ما قيل عن تلك الروابط في الماضي، وما هو التفسير الشرعي وما هو التفسير غير المشروع. فدرس اللغة العربية والفارسية والقواعد النحوية والمنطق والبلاغة والفقه والفلسفة الإسلامية والعلوم الإسلامية والتاريخ الإسلامي، وقد أثبت سلطته كمرجع ديني -من خلال إظهار التمكن من هذا التقليد المكتوب- كما كان الشيوعيون مجبرين على القيام بأفعال علنية مستوحاة من النظرية لبناء أدوارهم في الحزب. ومع ذلك، فبينما اعتاد الشيوعيون على عالم من هياكل السلطة البيروقراطية الصارمة، كان الإسلام الشيعي أقل وضوحاً. ويمكن للقادة "الظهور" فقط من خلال اعتراف المجتمع بهم؛ كان على الخميني أن يكون مقنعاً حقاً عندما يتحدث ومتى يكتب.

من قاعدته في قم، قام الخميني بالتعليم، والوعظ، وكتب، ونشر، باللغتين العربية والفارسية. كان يحظى بتقدير كبير خاصة لخبرته في الشريعة الإسلامية ومجال الغنوصية الأكثر خطورة من الناحية اللاهوتية. وبحلول الخمسينيات من القرن الماضي، تم الاعتراف به باعتباره آية الله ("علامة الله")، وهو اللقب الذي ميزه كباحث بارز وعضو في التسلسل الهرمي الديني. بحلول أوائل الستينيات من القرن الماضي، صار "آية الله العظمى"، أحد كبار

القادة الروحيين في إيران. لقد كان تقدماً بطيئاً وثابتاً، تحقق من دون ثورة أو انتهاك للقواعد. لم يكن زعيماً لحزب سياسي أو تاجر شعارات. لم يكن لديه "الحرس الأحمر" الإسلامي في إمرته. ولم يكن لديه جيش. فماذا عن تعاليمه وتلك الكتب التي كان لها مثل هذا التأثير؟

* * *

بما أن الخميني كان يكتب ضمن تقاليد أدبية ولاهوتية صاغها عدد كبير من المشاركين على مر القرون، فمن الصعب على الغرباء فهم معنى وسياق كتاباته - هذا إن كلفوا أنفسهم عناء قراءتها على الإطلاق. بالنسبة إلى معظمنا، لحسن الحظ، لم تعد هناك حاجة لإخضاع أنفسنا لدراسة سريعة في نصوص الخميني أكثر من قراءة أعمال كيم إيل سونغ، على سبيل المثال. لا تنشأ مشكلة إلا عندما يقدم الأفراد الذين يزعمون امتلاك خبرة معينة في شؤون إيران، آراء تظهر بوضوح عدم الإلمام التام بمنجز الخميني المنشور.

قد تتوقع بشكل معقول أن يكون وليام سوليفان، آخر سفير للولايات المتحدة في إيران، قد كلف على الأقل موظفاً صغيراً بإلقاء نظرة سريعة على كتابات الخميني، بينما كان تأثير رجل الدين يزداد في أواخر السبعينيات. لكنه بدلاً من ذلك، قام بإرسال مذكرة سريعة إلى واشنطن قام فيها بمقارنة الخميني بغاندي. في دفاع سوليفان، كان الخميني رجلاً مشغولاً يحاول مواكبة الانهيار الوشيك لنظام عميل أمريكي مهم. ومع ذلك، كتب ريتشارد فولك، الأستاذ في جامعة برينستون الذي قابل الخميني فعلاً وكان من المؤكد أنه كان يعرفه بصورة أفضل، مقالاً مشيناً لصحيفة **نيويورك تايمز** أكد فيه للقراء أن دائرة الخميني كانت "تتألف بشكل موحد من أفراد تقدميين معتدلين". جميعهم يتشاركون "اهتماماً بارزاً بحقوق الإنسان"[1].

وكما لم يأخذ أحد البلاشفة أو النازيين على محمل الجد إلى أن فات الأوان، تمكن الخميني من التقدم نحو السلطة من دون رفع العديد من الأعلام، على الرغم من أنه أنتج ببليوغرافيا واسعة النطاق أبلغت بصراحة، وبالتفصيل، وجهات نظره الأقل تقدمية حول الكثير من المواضيع. كان الاهتمام ما يزال يتركز على المعارك الأيديولوجية القديمة منذ أوائل القرن.

كانت فكرة أن الدين كان قوة يجب أخذها على محمل الجد في السياسة، غريبة على صانعي الرأي المثقفين، بقدر ما هي مكروهة لهم الآن.

بعد كل ذلك، يجب ألا نحكم على سذاجة السبعينيات بقسوة، لأن أعمال آية الله كانت مكتوبة باللغتين العربية والفارسية، بينما كانت وزارة الخارجية مليئة باللغويين الذين تدربوا على اللغات التي يُتحدث بها خلف الستار الحديدي. وإدراك مدى صعوبة الحصول على فكرة عما يمثله الخميني، يصبح واضحاً عندما نعرف أن مختاراته الأولى التي ظهرت في اللغة الإنجليزية لم تفعل ذلك حتى عام ١٩٨٠، وكانت بالكاد أنموذجاً للبحث العلمي. بدلاً من ذلك، كانت للسوق العام بغلاف عادي نشرته بانتام، الكتب التي تحمل عنواناً صعباً (وغير صحيح نحوياً بشكل رهيب) **الكتاب الأخضر الصغير، المعتقدات المدهشة للرجل الذي هزّ العالم الغربي، أقوال آية الله الخميني الفلسفية السياسية والاجتماعية والدينية** على الغلاف. (تم استقطاعها من **أقوال آية الله الخميني** على حد قول الغلاف).

كانت **أقوال آية الله الخميني** ترجمة باللغة الإنجليزية لترجمة فرنسية لبعض "أعظم أقوال" الخميني، كما كان من الواضح أنها كانت بمثابة نقود تجارية قوية عملت بجد للغاية على تضمين كل فئة ديكتاتورية معروفة للإنسان في العنوان. باستدعاء الاشتراكي والصحافي الأمريكي جاك ريد، للرئيس ماو والقذافي. وعند الانغماس في الداخل، نجد الخميني الذي يخرج من صفحات المجلد النحيف كشخصية مرتبكة إلى حد ما ومربكة. هناك الخميني الذي يكره الطغيان والظلم. ويشبه إلى حد كبير تشي جيفارا -أو ربما علي شريعتي، الكاتب الماركسي الإسلامي المعاصر والمناهض للنظام الملكي للخميني الذي كان أحد أيديولوجيي الثورة الإيرانية، ويمثل طريقاً لم يُتبع في النهاية مطلقاً:

> الإسلام هو دين أولئك الذين يناضلون من أجل الحقيقة والعدالة، والذين ينادون بالحرية والاستقلال. إنه مدرسة لأولئك الذين يحاربون الاستعمار.

ثم هناك الخميني الإسلامي العنصري ("الحرب المقدسة تعني غزو جميع الأراضي غير المسلمة. يمكن إعلان هذه الحرب بعد تشكيل حكومة جديرة بهذا الاسم، بتوجيه من الإمام أو تحت أوامره"). والخميني الخصم القوي لتزيّن الرجل ("حلق وجه المرء، سواء باستخدام شفرات حلاقة أو أجهزة كهربائية مخصصة للأغراض نفسها، أمر غير مقبول"). بالإضافة

إلى ذلك، هناك الخميني المزعج المعادي للسامية، والخميني المتآمر الحالم، والخميني الذي يدين بالعلاجات الغربية للتيفوس، وهكذا. كان هؤلاء الخمينيون جميعهم حقيقيون بما فيه الكفاية، لكن **أقوال آية الله الخميني** لم تسلط عليهم الكثير من الضوء،

وبدلاً من المساعدة في شرح الأحداث في إيران، وفرت **أقوال آية الله الخميني** لقرائها فرصة لشرحها بعيداً باعتبارها مجرد عبثية وبربرية. ليس في أن النص يحتوي على الأكاذيب، بل في أنه ضُغط لغرض الإثارة إلى ثلاثة أعمال منفصلة، أكثر طولاً، والتي هي في حد ذاتها ليست سوى مجموعة صغيرة من كتابات الخميني. بحلول وقت الثورة، كان قد نشر ثمانية عشر كتاباً، واتضح أن ضغط الأجزاء الأكثر شهوانية في كتاب بغلاف عادي من ١٢٥ صفحة ليس مفيداً جداً كدليل لمعتقداته - تماماً مثل تجريد كل السياق من فكرة ماو في **الاقتباسات** لم يؤدّ إلى التنوير في الصين. ولئن كان من المغري بالتأكيد نبذ شخصية كريهة، فإن من الواضح أنه كان زعيماً ثورياً فعالاً للغاية. ومن الأفضل أن نتعلم من كتبه بدل أن نسخر منها.

في الواقع، فإن استراتيجية تصوير آية الله كقائد ظلامي مخبول، قد فشلت بالفعل في إيران. وقد لاحظ وكلاء حاكم إيران، محمد رضا شاه بهلوي، أيضاً مواد المني/ الشرج/ ووطء الإبل في كتابات الخميني، واستخرجوا ونشروا نماذج مسلية بشكل مناسب في عامي ١٩٧٧ و١٩٧٨ لتشويه سمعته. لكنهم بدلاً من ذلك، كشفوا عن أنفسهم وانفصالهم عن ثقافتهم، حيث تم سحب الاقتباسات من **توضيح الأسئلة**. لم يكن هذا عملاً معبراً عن الروح الداخلية للخميني، ولكنه في الواقع "ناموس النقاء" مفصلاً من النوع الذي يمكن العثور عليه في كتاب سفر اللاويين القديم، الذي يحتوي أيضاً على تعليمات حول العلاقات الجنسية مع الحيوانات والأقارب وأعضاء من نفس الجنس، من بين أمور أخرى كثيرة. كان دخول الخميني في هذا النوع متطابقاً إلى حد ما مع دخول آيات الله البارزين الآخرين الذين اتبعوا منذ الخمسينيات ميلاً لنشر مجموعات مماثلة من الأسئلة والأجوبة. ومن خلال إظهار اتساع وعمق اطلاعهم الديني، زادوا من سلطتهم كقادة روحيين. ومع ذلك، ترك معظم آيات الله العمل الفعلي في إنشاء المجمعات لطلبتهم الصغار، ثم وضعوا أسماءهم على المنتج النهائي بالطريقة نفسها التي قام بها بريجينيف في مذكراته.

لقد ساعده مرانه في أرقى مستويات الفقه الإسلامي في الوصول إلى الصدارة كمعلم، لكنه لم يكن ما حولّه إلى الرجل الذي أسقط الشاه؛ ولم يكن قريضه الصوفي المصفى أو كتابين عن القانون التجاري. وبالأحرى كان رفضه العنيد الخضوع للسلطة العلمانية للشاه عندما تتعارض مع شريعة الله، ورغبته في تعريض نفسه للخطر من خلال الكتابة والوعظ ضده.

بالنسبة إلى الخميني، كانت الأفكار الغربية عن التقدم والتنوير هي من صنع الإنسان، ويمكن أن يؤدي تبنيها إلى إبعاد المسلمين عن الخالق. ولكن طوال حياته كرجل بالغ، كان حكام إيران يضغطون من أجل "التحديث". في أعقاب الانقلاب العسكري في عام ١٩٢٥، توج ضابط باسم رضا بهلوي نفسه شاهاً. كان رضا شاه، وهو أحد المعجبين بأتاتورك، يتبع سياسات التحديث والقومية، إلى أن احتلت القوات السوفييتية والبريطانية إيران في عام ١٩٤١، مما اضطره إلى التنازل عن العرش[1]. تم تثبيت نجل الشاه محمد رضا بهلوي بدلاً منه، لكنه كان أضعف من أبيه. كان أوروبي التعليم ومغرماً بالحفلات والممثلات الجميلات.

يبدو أن الخميني استغل لحظة التشوّش الداخلي لكتابة "**كشف الأسرار**"، وهو أول عمل سياسي له، تم نشره بشكل مجهول في عام ١٩٤٤. يحتوي الكتاب على هجمات على رجال الدين الإصلاحيين وأنصار التغريب. هنا نرى الخميني يعبر عن نفسه مباشرة، مستعدياً القانون العلماني الإيراني ("المنبثق من أدمغة حفنة معينة مصابة بالزهري")، والمدارس المختلطة والسينما، مع الإعلان عن كمال القانون الإلهي. ومع ذلك، فقد توقف عن الدعوة إلى مقاومة الشاه. كان آية الله البروجردي، القائد الديني الأبرز في قم، يعتقد أن على الدين أن يظل منفصلاً عن أمور الحكم، ومع عودة الاستقرار إلى إيران، احتوى الخميني كل الدوافع التي شعر بها تجاه توجيه انتقادات لمحمد رضا، الذي استمر في اتباع سياسات الإصلاح والتحديث.

لم يكن الشاه الجديد معادياً للإسلام، ولكنه في سيرته الذاتية "**مهمة من أجل بلدي** (١٩٦٠)"، أشار مرات قليلة جداً إلى "العقيدة الإسلامية". بعد اعترافه بـ"الإيمان الهائم" بالوحي الذي أنزل على محمد، أما ما يتعلق بما قد يستلزمه هذا الاعتقاد من استقامة داخلية

١ - كان رضا شاه (الذي كان يمتلك صورة موقعة لأدولف هتلر) قد تبنى سياسة الحياد تجاه ألمانيا خلال الحرب، لكن تشرشل وستالين لم يكن لديهما أي منها. المؤلف

مطمئنة، فقليل. على النقيض من ذلك، يتم تخصيص فصول كاملة لموضوعات مثل "التغريب" و"القومية" و"حقوق المرأة" و"التعليم" و"النفط" بالطبع - لأن النفط الإيراني هو الذي جلب الثروة الهائلة إلى البلاد، والتي كان الشاه ينوي استخدامها لتحويل إيران إلى "حضارة عظيمة" عن طريق "ثورة بيضاء". كان للإمبراطور نفسه كتابه الخاص، وكان يهدف إلى القيادة من الأعلى، على غرار ماو، والجمع بين استصلاح الأراضي ومشاريع التنمية الضخمة، وحملات محو الأمية وتحرير المرأة.

بالنسبة إلى الخميني، كانت هذه "الثورة البيضاء" انتهاكاً لقوانين الله الأبدية. في عام ١٩٦١، توفي آية الله البروجردي، وأصبح الخميني أكبر رجال الدين في قم. عند هذا المستوى كان مقامه عالياً، لدرجة أنه بلغ حالة **مرجع التقليد** ("الشخص الذي يحتذى به")، ولم يترك الخميني مجالاً لتخيل نوع السلوك الذي أراد من أتباعه تقليده. كان قد رفع بالفعل أعمدته الأدبية (وإن بهدوء) بتمرير فصل عن "مقاومة الظالم" داخل أطروحة إسلامية غير ثورية خلاف ذلك، هي: مصادر **الدخل المحرمة**، والتي أعلن فيها صراحةً أن "مساعدة الظالم في ظلمه حرام من دون أي سؤال". ولكن كما خرجت ثورة الشاه البيضاء من قيد الحبر على الورق، وبدأت في قلب قرون من الممارسات الإسلامية في إيران، فكذلك كانت دعوة الخميني لمقاومة الظالم قد تخلصت تماماً عن جميع القيود. وفي عام ١٩٦٢، قاد مظاهرة للزعماء الدينيين ضد تغيير مقترح في القانون، كان من شأنه أن يسمح لمسؤولي الدولة بأداء اليمين الدستورية على "الكتاب المقدس" بدلاً من ذكر "القرآن" على وجه التحديد - ويبدو أن هذا يضع نصوصاً للمسيحيين واليهود والزرادشت وحتى البهائيين على قدم المساواة مع المسلمين الشيعة. متذرعاً (كما كان يفعل عدة مرات على مر السنين) بوجود شبح يهودي شيطاني، أرعد الخميني بأن هذه كانت مؤامرة صهيونية للسيطرة على إيران. تراجعت الحكومة، ولكن الخميني كان قد شرع بالإحماء. اشتدت حرب الكلمات. عندما صعّد الخميني انتقاداته للشاه، رد الشاه بالمثل، ووصف المعارضة الدينية في قم بأنها "رد فعل أسود". رد الخميني بقوة أكبر، متهماً الشاه بالعداء للإسلام وحب إسرائيل، مع الإشارة إلى أن الشعب الإيراني سيكون سعيداً برؤيته يرحل.

تم اعتقال الخميني، وتبع ذلك أعمال شغب. أبقاه النظام في السجن لمدة عام تقريباً ثم أطلق سراحه. ولكن لم يلبث آية الله أن استأنف على الفور هجماته على الشاه وسياساته، وحشد المؤمنين ضد التغيير القاسي القادم من الغرب. لذلك اعتقل الخميني مرة أخرى، وتم ترحيله إلى تركيا قبل أن يستقر أخيراً في النجف، وهي مدينة مقدسة للمسلمين الشيعة تقع على بعد حوالي مائة ميل جنوب بغداد. ورغم أنه كان منتفعاً بالتعليم المكلف للغاية في المعهد فائق السمعة لو روزي في سويسرا، فإن الشاه قد تخطّى بوضوح جزءاً من المناهج الدراسية التي تغطي تاريخ الثورة الروسية: لقد انضم الخميني الآن إلى ماركس ولينين في صفوف الثوريين الذين ثبت من خلال كتاباتهم أنهم أكثر فتكاً في المنفى مما كانوا عليه وهم يخضعون للقيود في بلدانهم.

***

من خلال هذا الكتاب، رأينا أكثر من مرة مؤلفين طغاة يكتشفون أن الحقائق التي ظلت مخفية عنهم، كانت تتربص بصورة واضحة في نصوصهم المقدسة. كان الشيوعيون على وجه الخصوص بارعون في اكتشاف أن القوانين التاريخية "المثبتة علمياً" كانت أقل وضوحاً مما كان يُعتقد سابقاً. وليس هذا شيئاً جديداً: فخلال الحروب الصليبية، تمكن الرهبان المحاربين القساة من إيجاد مبررات لأعمال العنف الهائلة ضد الكفار رغماً عن تصريحات المسيح العلنية في الأناجيل بشأن اللاعنف.

الحاجة، إذاً، ليست أم الاختراع فقط، بل أيضاً أم إعادة التفسير. وبينما كان الخميني يجلس في النجف مع كتبه، يراقب في رعب الثورة البيضاء تتكشف عبر الحدود، بدأ يفكر في المفهوم القانوني "وصاية الفقيه". تقليدياً، كان المعروف أن هذا المفهوم يشير إلى القوانين المتعلقة بالفقيه الإسلامي ومسؤوليته عن حياة وممتلكات الأيتام والأرامل. لكن الخميني رأى الإمكانات في الفكرة، وسيأخذها إلى أبعد من ذلك بكثير.

قدم آية الله أولاً حججه في أطروحة قانونية من خمسة مجلدات بعنوان **كتاب البيع**. وكما يشير العنوان، إنه عمل مخصص لموضوع قوانين البيع الإسلامية. لكن في خضم صفحاته، ينزلق الخميني بهدوء في مناقشة علمية حول محنة الأيتام التي تمثل توسعاً هائلاً لسلطات الفقيه الإسلامي. يوضح الخميني أن واجب الفقيه في الرعاية لا ينطبق على حفنة من المواقف الأسرية المحددة فحسب، بل

يمتد ليشمل الدولة بأكملها. يمتد إلى ما وراء المسجد وإلى المجالين السياسي والاجتماعي؛ في الواقع، ليس سوى أولئك الذين هم خبراء في الشريعة الإسلامية من يعتبرون مؤهلين لقيادة دولة إسلامية - والتي يجب أن تكون لها حكومة إسلامية ونظام قانوني إسلامي.

تقدّم الخميني من معارضة الشاه إلى تقديم الخطوط العريضة لأنموذج مختلف للحكومة. والأفضل من ذلك، أنه يستطيع تقديم التفاصيل مع الاحتفاظ بجميع مزايا التناقش عن يوتوبيا لم يوجد مثلها على الأرض. على عكس البلاشفة في عام ١٩١٧، كان لدى الشيوعيين الإيرانيين مثال حقيقي لدولة شيوعية مباشرة إلى الشمال لتحديدها كأنموذج، وكان من الواضح لأي شخص لم يكن مؤمناً حقيقياً أن هناك الكثير من الخطأ في ذلك. أما الخميني فعلى النقيض، كانت لديه مدونة واسعة ومفصلة بدقة من الشريعة الإسلامية ويمكنه أن يشير إليها، والتي تم الاعتراف بها على نطاق واسع كمصدر موثوق فيها. في الوقت نفسه، وعلى الرغم من أنموذجه للحكومة الإسلامية قد أخذ من العصر الذهبي المثالي، عندما كان النبي محمد ما يزال حياً، فقد كان زمناً معروفاً فقط من خلال النصوص، وليس استناداً إلى التجربة التطبيقية. وكان باختصار مثالياً.

في المنفى، شرح الخميني فكرته، والتي حظيت بعرض كامل في كتابه **الحكومة الإسلامية**. ومثل ستالين في **أسس اللينينية**، نشأ هذا الكتاب كسلسلة من المحاضرات التي تم تصميمها للطلاب. أراد الخميني، مثل ستالين، الترويج لفكرته الثورية. وللقيام بذلك، كان عليه أن يجهزّ أتباعه بفهم شامل لـ"وصاية الفقيه الإسلامي". ألقى المحاضرات في النجف عام ١٩٧٠؛ وقام تلميذ بنسخها، وتم نشرها في شكل كتاب في عام ١٩٧١.

الآن، قد يبدو عنوان مثل **الحكومة الإسلامية** بالتأكيد صعباً ومحرِّماً، وخاصة عند قراءة مناقشاته التي باللغة الإنجليزية، التي تصر على أن تستخدم في النص المصطلح الفارسي "ولايت فقيه" بدلاً من "ولاية الفقيه". كان كتاب **الحكومة الإسلامية** آخر عمل قرأته خلال بحثي لهذا الكتاب؛ كنت أخشى شيئاً أكثر تعقيداً من أعمال ماو "النظرية"، وأكثر من ذلك، حيث أن **الحكومة الإسلامية** بُني على قراءة عميقة للشريعة الإسلامية بدلاً من **دراسة ستالين القصيرة**، وحفنة من أعظم نجاحات لينين. لكني بينما جلستُ لقراءته، سرعان ما أدركت أنني أسأت تقدير آية الله، ليس لأن **الحكومة الإسلامية** هو كتاب للاسترخاء عند الشاطئ - وهو أبعد ما يكون عن ذلك - بل لأنه كتب بشكل جيد وواضح

وجلي. ضمن صفحاته، كان الخميني منهجياً وعلمياً، ولكنه مهتم أيضاً بالتواصل بوضوح. فهو يعبر عن أفكاره بدقة هائلة، ويوضح بعناية التسلسل المنطقي الذي قاده إلى استنتاجاته. يبدو الأمر كما لو أن الخميني أراد في الواقع **إقناع** قرائه بدلاً من الضغط عليهم لإخضاعهم (كما فعل لينين)، والتشدق عليهم حتى يهزوا رؤوسهم موافقين (كما فعل هتلر)، أو إخفاء جهله الخاص من خلال تحريم استخدام المصطلحات (مثل ماو). ومثلما كلف ماركس الفيلسوف بمهمة تغيير العالم بدلاً من تفسيره، كذلك فعل الخميني وهو يكلف الآن الفقيه بنفس المسؤولية. ولكن إن أريد لذلك أن يحدث، فيجب فهم الفكرة. ونتيجة لذلك، كان من السهل جداً متابعة **الحكومة الإسلامية**.

يبدأ الخميني كتابه بصورة لأمةٍ ابتعدت عن الله. وينتقد الدستور الإيراني باعتباره انتهاكاً لقوانين ونظام حكم الإسلام، الذي يعلن أنه لا يعترف بالملكية ولا بمبدأ الخلافة. ثم ينظر الخميني حوله ويرى أمة فاسدة بموجب القوانين الأجنبية والآثام الجنسية (لا يوجد ما لا ينفع معه القليل من الجلد)؛ ولا يندهش من الهبوط على سطح القمر (غزو الفضاء لا يحل المشاكل الاجتماعية أو يخفف من البؤس الإنساني) ويعرب عن أسفه لأن الدعاية الإمبريالية قد خدعت الكثيرين حين جعلتهم يعتقدون بأن على الإسلام والسياسة أن يكونا منفصلين ("هذا يتناقض تماماً مع معتقداتنا الأساسية").

الحل، بحسب الخميني، واضح. مشيراً إلى مثال محمد، الذي كان قائداً روحياً وسياسياً. "من البديهي"، كما يكتب، "أن ضرورة سن القانون، التي استلزمت تشكيل حكومة من قبل النبي (صلى الله عليه وسلم)، لم تكن محصورة أو مقيدة بزمنه، لكنها استمرت بعد مغادرته هذا العالم". علاوة على ذلك، يضيف: "يحتوي القرآن الكريم والسنة[1] النبيلة على جميع القوانين والمراسيم التي يحتاجها الإنسان من أجل تحقيق سعادته وكمال حاله". يخبر الخميني طلابه أن عليهم الوعظ بهذه الحقائق، لأنه "من واجبكم إنشاء حكومة إسلامية".

يشدد الخميني على الحاجة الملحة لهذه المهمة، من خلال الإشارة إلى الأزمة ليس فقط في إيران، بل في جميع أنحاء العالم الإسلامي. إن أمة الإسلام "ضعيفة ومنقسمة"، كما يقول، وغياب

---

١ - العادات القانونية والاجتماعية وممارسة المجتمع الإسلامي. المؤلف

"القائد، الوصي، وافتقارنا إلى مؤسسات الحكم هو الذي جعل هذا الأمر ممكناً". اليهود والأجانب والأقليات الإمبريالية هم الملامون على ذلك. يطالب الخميني بالعودة إلى النظام والسلطة. لحسن الحظ، هناك حل: هو الوحي الإلهي الذي أنزل على محمد، والذي يشدد على أنه يجيب على كل سؤال أخلاقي واجتماعي وسياسي، مما يجعل إدارة شؤون الحكم أكثر بساطة. على سبيل المثال، بما أن كل قانون جاء من المشرع الإلهي، فإن "هيئة تخطيط بسيط تأخذ مكان الجمعية التشريعية التي هي واحدة من الفروع الثلاثة للحكومة". ولأن الحكومة الإسلامية هي حكومة القانون، فإنها تتطلب منطقياً أن يكون الحاكم خبيراً في القانون خالياً من أي خطايا كبيرة، والخبير الأعلى في القانون، شخصية "يجب أن تتفوق على الآخرين في المعرفة".

بعد وضع أطروحته، يقدم الخميني حجة أكثر تفصيلاً عن الحكومة الإسلامية من خلال ذكر سوابق من التاريخ الإسلامي، بينما يتناول بشكل منهجي الاعتراضات المحتملة. وفي النهاية، يأخذ طريقاً قصيراً إلى نظرية المؤامرة - من الواضح أن اليهود قد أدخلوا أخطاء في بعض إصدارات القرآن كجزء من خطتهم للهيمنة على العالم - قبل تشجيع طلابه على وضع الأساس لهذا النظام الجديد. فمن خلال تحسين جودة الوعظ، سوف يعيدون المزيد من الناس إلى المسار الصحيح. وهكذا، رغم تحليل آية الله القانوني للسوابق التاريخية، فإن الأفكار الأساسية بسيطة للغاية: فهو يعد بالهروب من فوضى الحداثة إلى حالة من الانسجام كما كان في الأيام التي عاش فيها محمد على الأرض. لقد ضل المسلمون طريقهم، لكن إذا استمعوا إلى الخبير الأعلى - هو نفسه، حقا؟ - فإن القانون سيقودهم إلى مكان أفضل. أوه، نعم، وبعون الله، سنتمكن من "لي أذرع الظالمين" و"اجتثاث كل خونة الإسلام والدول الإسلامية".

مهما كان تفسير الخميني الواضح للحكومة الإسلامية، فقد أثار بعض الأسئلة المقلقة. إن كانت "وصاية الفقيه" هي الشكل الشرعي الوحيد للقيادة، فلماذا اعتقد الجميع أن الأمر يتعلق برعاية الأيتام حتى الآن؟ وماذا عن المعلمين والقادة الدينيين الذين جاؤوا قبل الخميني، الذين دعموا الحكم الملكي؟ بعد كل تلك القرون من الخبراء الذين يملؤون النصوص وكتابة التعليقات، أيمكن الاعتقاد أن شخصاً ما قد لاحظ الخطأ. وكذلك لم يرحب كبار رجال الدين في إيران بالكشف المفاجئ عن أنهم وأسلافهم كانوا مخطئين طوال قرون.

لم يكن الرد على كتاب الخميني لطيفاً. لكن الأتباع الموالون استمروا في تهريب صور من كتاباته وتسجيلات صوتية لخطبه عبر الحدود إلى إيران. في عام ١٩٧١، كان كتاب **الحكومة الإسلامية** متقدماً على وقته. لحسن الحظ بالنسبة إلى الخميني (إن لم يكن للشاه أو لأي شخص يأخذ وجهة رافضة للثيوقراطية)، فقد كان متقدماً ثمانية أعوام فقط.

***

في عام ١٩٧١، احتفل شاه رضا بهلوي بـذكرى مرور ٢٥٠٠ عام من الملكية الفارسية بحدث كبير في أنقاض برسبوليس، العاصمة القديمة للإمبراطورية الأخمينية. كان قد توج نفسه مؤخراً الشاهانشاه ("ملك الملوك") وأراد الآن أن يشهد العالم مجد الواقع الجديد الذي أقامه في الشرق. لم يكن من الضروري توفير أي نفقات، حيث سعى من خلال مزيج من البهاء والأبهة الاحتفالية إظهار العلاقة بين الحضارة العظيمة لحاضر إيران والحضارة التليدة لماضيها.

نظراً لأن مدينة برسبوليس نفسها (عندما كانت عظيمة) شهدت أياماً أفضل، فقد أقيمت مدينة مؤقتة من الخيام الفاخرة المزودة بجميع وسائل الراحة الحديثة ونصبت بين الأنقاض، حتى يستمتع الملوك والملكات والسلاطين والرؤساء ونواب الرؤساء ورؤساء الوزراء الذين حضروا الاحتفال بكامل الراحة. تم طرد سكان برسبوليس الحاليين، وهم عدد كبير من العقارب والأفاعي، بينما جرى نقل طهاة من مطعم ماكسيم باريس الحصري للغاية لتقديم الطعام الجيد في الصحراء. بلغ الحدث ذروته بإطلاق الألعاب النارية الرائعة وعروض الأضواء، والتي تم التقاطها جميعاً في فيلم وثائقي بفخامة استثنائية تولى روايته أورسون ويلز (الذي استخدم أتعابه لتمويل نسخة عن **موبي ديك** لم تنجح). هل كانت هناك في أي وقت مضى حالة قياسية من الغطرسة تسبق الانتقام، أكثر من هذه؟ تبدو قائمة الضيوف نفسها غريبة عند استعادة الماضي، حيث أن العديد من الضيوف سيموتون قريباً، أو يتعرضون للخزي، أو ينظرون بعجز إلى بلدانهم وهي تتفكك. حضر نيكولاي وإيلينا تشاوشيسكو؛ وكلاهما سيموتان برصاص الجلاد. هايلي سيلاسي من إثيوبيا ظهر أيضاً. كان سيفقد السلطة في انقلاب ثم يعدم شنقاً. نائب الرئيس الأمريكي سبيرو أغنيو كان هناك؛ وسوف يستقيل قريباً لتجنب عقوبة السجن. وكان مختار ولد داداه من موريتانيا حاضراً؛ وسيتم خلعه في انقلاب عسكري. شاهد مابوتو سيسي سوكو القادم من زائير الألعاب النارية؛ وستتم الإطاحة به في انتفاضة

مسلحة. تناولت إيميلدا ماركوس من الفلبين المأكولات الفرنسية؛ وستضطر إلى الفرار من بلادها بعد الثورة، تاركة وراءها مجموعة أحذيتها الثمينة. وهذا ناهيك عن السياسيين البارزين من يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفييتي الذي شهدوا هذه العربدة من تمجيد الذات، سعداء بجهل أنه خلال عقدين ستختفي دولهم التي أقاموها من الوجود.

ثم، بالطبع، كان هناك الشاه، الذي كانت حضارته العظيمة مرشحة للتدمير الكامل. لم يكن ممكناً أن يتخيل بأن مثل هذا الشيء قابل للحدوث؛ بل على العكس تماماً، لقد اعتقد أنه كان يعيد تأسيس إيران كقوة عالمية. كما أن الأمر لم يكن كما لو أن الاحتفال الكبير في برسبوليس آخر تصرفاته المتغطرسة. في عام ١٩٧٦، استبدلت إيران التقويم الإسلامي بتقويم "إمبراطوري"، تبدأ سنته الصفر بتتويج الإمبراطور الفارسي سيروس الأكبر. في آن واحد، لم يعد العام ١٣٥٥ بل صار ٢٥٣٥، كما لو أن إيران قد قفزت قفزة كبيرة في الزمن. في الواقع، استمر معظم الناس في العيش في عهد النبي.

عند هذه النقطة، كان الشاه على بعد ثلاث سنوات من النهاية. كانت الحقيقة أنه على الرغم من إصلاحاته وتحديثه، إلا أنه تعرّض للتشويه على نطاق واسع باعتباره طاغية مسؤولاً عن دولة فاسدة وقمعية. ومع ازدياد عدم الرضا عن سياساته، اعتمد بشكل متزايد أكثر على السافاك، بوليسه السري، لقمع المعارضة التي جاءت من تحالف مختلط من الماركسيين والقوميين والليبراليين والمؤمنين الدينيين؛ من قراء كل من الطوباوي الماركسي الإسلامي علي شريعتي والثوري الإسلامي آية الله الخميني، اللذين استمرت خطبهما الحارقة في التسرب عبر الحدود.

في عام ١٩٧٥، توفي في المنفى علي شريعتي، "الطوباوي الإسلامي" الماركسي الذي كان قد ألهم العديد من المثقفين الإيرانيين في معارضة الشاه. لكن الخميني كان ما يزال على قيد الحياة، وكان يعتزم سد الفجوة التي خلّفها منافسه الميت وتوسيع نفوذه. وخوفاً من انتشار أفكاره، مارس نظام الشاه ضغوطاً على الحكومة في بغداد لإخراج آية الله من قاعدته في النجف. في ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٨، تم طرد الخميني من العراق، ولكن الشاه ارتكب مرة أخرى خطأً استراتيجياً. انتقل الخميني إلى إحدى ضواحي باريس، حيث لم يستمر في الاستمتاع بصحة جيدة فحسب، بل اكتشف أيضاً أنه يتمتع بجميع منافع المجتمع الحر. أصبح آية الله الآن أكثر نفوذاً. في هذا الوقت، بدأ الكتّاب والمثقفون الغربيون ذوو المصداقية الذين لم يقرؤوا كلمات الخميني أبداً بالتجمع حول الرجل المقدس الغريب ولحيته، معتقدين بذلك، لأنه كان من الشرق، ومتديناً،

ويعارض نظام الشاه، فيجب أن يكون لطيفاً ورقيقاً - مثل غاندي، كما قال وليام سوليفان. وكان من بين هؤلاء السياح ميشيل فوكو، الذي ظهر آخر مرة في هذه الصفحات باعتباره "أحمق مفيداً" للرئيس ماو. سافر فوكو إلى إيران في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٨، وزار الخميني في باريس في تشرين الأول/ أكتوبر، ثم عاد إلى إيران في تشرين الثاني/ نوفمبر. رغم معرفته القليلة بالإسلام أو إيران، أو عداء الخميني تجاه "اليهود" - وميله إلى قول أشياء مثل "سنصّدر ثورتنا في جميع أنحاء العالم... حتى يتردد صدى النداءات لا إله إلا الله ومحمد رسول الله في جميع أنحاء العالم "- كتب فوكو مادحاً ما يمثله الخميني، والذي كان على ما يبدو "ثورة الروح في عصر بلا روح". وطمأن قراءه بأن "الحكومة الإسلامية" لا تعني "نظاماً سياسياً" يكون فيه لرجال الدين دور الإشراف أو السيطرة، وأن "الأقليات ستكون محمية ولها حرية العيش كما يحلو لها بشرط ألا تؤذي الأغلبية"، بينما "بين الرجال والنساء لن تكون هناك فروق فيما يتعلق بالحقوق، سوى الاختلاف، نظراً لوجود اختلاف طبيعي". في الواقع، لقد كانت ثورة بالطبع ستؤدي إلى تعليق مثليي الجنس من الرجال أمثاله على الرافعات أو إجبارهم على الخضوع لتغيير الجنس. أسفرت المصداقية النهائية لفوكو عن فشل فكري كامل، لدرجة أنه كان مثيراً للإعجاب تقريباً.

تسارعت الأزمة داخل إيران، ولم يتمكن المركز من الصمود. في ١٦ كانون الثاني/ يناير١٩٧٩، ركض الشاه بحثاً عن التلال - أو بالأحرى المنفى في مصر. لقد تخلى عنه حلفاؤه الأمريكيون، وتراجعت حضارته العظيمة عن الوجود. كان مريضاً في مراحله الأخيرة بالفعل، ومات في غضون عام.

عاد الخميني إلى إيران بعد أسبوعين من هروب الشاه في خزي. قابله حشد مبتهج في مطار طهران، بينما اصطف الملايين في شوارع العاصمة للترحيب به في منزله. وعلى الرغم من أنه طمأن المثقفين والصحفيين الغربيين بأن ليس لديه مصلحة في ممارسة القوة بشكل مباشر، لكن تبين أن الأشياء التي كتبها في إيران والعراق كانت دليلاً أفضل لنواياه من الأشياء التي قالها في باريس. بعد الاستفتاء الذي جرى في الأول من نيسان/ أبريل، تم إعلان إيران جمهورية إسلامية، وسرعان ما اتضح أن الخبير الذي لا مثيل له في القانون الذي كان الخميني يتحدث عنه في خطب وكتب مثل **الحكومة الإسلامية**، الشخص الذي ينبغي أن يدير الدولة، كان - يا للمفاجأة! المفاجأة! - هو نفسه.

إن وصاية الفقيه، التي شُرحت لأول مرة فيها كان ظاهرياً كتاباً عن العقود التجارية قبل خمسة عشر عاماً أو نحو ذلك، والتي رفضها العديد من الأئمة عندما وسع الخميني شرحها في **الحكومة الإسلامية**، أصبحت الآن مكرسة في الدستور. ليس ذلك فحسب، بل تم إعلان الخميني المرشد الأعلى مدى الحياة؛ ليس سيئاً لرجل دين من المحافظات. والآن بعد أن صار في السلطة، ساد تفسيره للقانون، وأصبحت كتب آية الله العظمى مطلوبة القراءة.

كان كل شيء مذكوراً في النصوص، بالطبع. لكن حتى ذلك الحين، كما هو الحال مع الثورة البلشفية في عام ١٩١٧، سرعان ما تم العثور على الكتب المطلوبة. في **الحكومة الإسلامية**، ندد آية الله بدستور إيران كمفهوم غربي، لكن دولته الإسلامية الجديدة حصلت على دستور خاص بها. لقد استعار أفكاراً أخرى من الغرب، مثل الرئاسة المنتخبة والبرلمان وفصل السلطات (رغم أنه احتفظ بالسلطة النهائية بصفته المرشد الأعلى)، وكان قد مارس لفترة طويلة الخطاب المناهض للاستعمار والمناهض للإمبريالية الذي يدين لماركس أكثر من محمد. كما تجلت عدم كفاية حججه في فشل وصاية الفقيه في الترسخ في المجتمعات الشيعية الأخرى، رغماً عن نشر كتب آية الله في الخارج. ومن دون وجود آلية من دولة قمعية لفرض الفكرة، لم يكن لها أي أتباع.

ومع ذلك، كان تأثيره هائلاً. لم يهزم الخميني الشاه المدعوم من الولايات المتحدة فحسب، بل قام بتجديد الإسلام كقوة سياسية، وأظهر أنه يمكن أن يكون بديلاً عن اليوتوبيا الملحدة التي أغرت الكثيرين طوال القرن. كان هذا بمثابة تنبؤ بالأشياء القادمة. لن يمر وقت طويل قبل أن يبدأ القياموبون العلمانيين بالاستعارة من الكتب الدينية؛ قد يقترض القياموبون الدينيون من العلمانيين، ويجمعون بين القديم جداً والدساتير والجمهوريات الجديدة نسبياً، وينتقون ويختارون ما يحتاجونه لتكوين هجائن جديدة. كان آية الله نذيراً لعالم يكافح دائماً ليولد من الدم والنار - وكان الكفاح بعيداً عن الاكتمال.

بالطبع، كان للخميني تأثير مباشر آخر: كناقد أدبي. في عام ١٩٨٩، أدان سلمان رشدي وأفتى بقتله لارتكابه التجديف في رواية لم يقرأها آية الله ولن يقرأها. وبصفته مواطناً بريطانياً ومسلماً سنياً، لم يكن رشدي خاضعاً بأي حال من الأحوال لسلطة المرشد الأعلى الإيراني. لكن أعمال الشغب والقتل والإرهاب أعقبت الفتوى التي طالبت بقتل رشدي، ورافقتها

مراوغات بخط يد الأرثوذكسيين الغربيين الذي ينبغي أن يكونوا على علم بما هو أفضل. لقد أظهر الخميني أن قوانين التجديف الإسلامية يمكن أن تمتد إلى العالم بأسره، وإلى المجتمعات التي تعيش بعادات وأعراف مختلفة تماماً عن عاداته وتقاليده. لقد شكّل سابقة، نعرف العواقب المحزنة لها جميعاً اليوم. وكما كان الحال في إيران، سرعان ما أصبح هذا الأمر الذي لا يمكن تصوره حقيقة. وصرنا كلنا نعيش في ظل آية الله الآن.



المرحلة الثالثة:
التحلل والجنون

١- منتصف الليل
في حديقة الضجر الفائق

رغم وضوح التخلي الوشيك عنهم، ظل قادة إمبراطورية الضجر الفائق العابرة للحدود مربوطين إلى آلة الكتابة، واستمروا في توليد كميات هائلة من الروايات غير المرغوبة وغير المجدية. لم يدرك الرجال العظام أنهم كانوا موتى أحياء. وظنوا أنهم ما زالوا على قيد الحياة، وأن العالم الذي حكموه ما زال يملك مستقبلاً، وأن النصوص التي أنشؤوها لها مكان فيه، في المكتبات والمنازل وفي مكاتب الدولة.

وهكذا عندما خلف يوري أندروبوف بريجينيف في قمة الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٢، كان يمكن للأمين العام الجديد (والرئيس السابق لجهاز المخابرات السوفييتي) أن يشير إلى أثر الورق الذي تراكم على مدى سنوات أظهرت حكمته ولياقته بالحكم. تعال وانظر - **خطب وكتابات مختارة، ستون عاماً من الاتحاد السوفييتي، اللينينية تُظهر الطريق إلى الأمام**- هنا كل شيء: العمق، وعدد الصفحات. وعندما توفي أندروبوف بعد خمسة عشر شهراً فقط من حكمه، وأعقبه كونستانتين تشيرنينكو كأمين عام، فإن هذا المقلد السابق الذي كان العقل المدبر وراء كتابة مذكرات بريجينيف، أخذ يشير أيضاً إلى سجل منشوراته الكبير لتذكير شعب الاتحاد السوفيتي، بأنه أيضاً، ألمعي الشيوعية الذي يستحق التبجيل. سواء قرأ أو لم يقرأ أي شخص كتباً مثل "**الشعب والحزب المتحد**"، أو "**حقوق الإنسان في المجتمع السوفيتي**" أو "**القوة التحويلية للينينية** أو "**الدور الطليعي للحزب الشيوعي**"، **فإننا** لا نستطيع إنكار وجودها. كانت الخطط تعد على قدم وساق ليتم تحويل تشيرنينكو إلى شخصية أدبية، تم تصوير مشاهد من حياته في عمل للمسرح بعنوان **رجل يقدم نفسه هو رجل مشهور**. لكن المسرحية ظلت مركونة على الرف - واعتبرت ذات جودة غير كافية -ثم توفي تشيرنينكو، بعد ثلاثة عشر شهراً فقط من استلامه لمنصبه.

أصبح العالم الشيوعي محنطاً في الفورمالديهايد الأيديولوجي لتحايله. كان هذا ما خانوا الأصدقاء والعائلة لأجله، وكان هذا هو السبب وراء كل الدماء التي أريقت، وكان هذا

الاستنتاج "العلمي" عن التاريخ. في برلين الشرقية، كانوا ما يزالون يقتلون الناس لمحاولتهم عبور الحدود قبل تسعة أشهر من سقوط الجدار. بين العالم والكلمة، يوجد الآن تناقض كبير، لدرجة أنه لم يكن باستطاعة ماو تحليله. لقد فشلت النبوءات، وكانت النصوص المقدسة خاطئة بشكل واضح. ومع ذلك، استمر النظام - إلى أن صار فجأة، غير موجود.

أدت ثورات عام ١٩٨٩ إلى الانهيار المفاجئ، ليس للنظام الشيوعي فحسب، بل أيضاً لسلطة نصوصه. إن الصرح النظري الشاهق للماركسية اللينينية، "ملكة العلوم" التي أهدر عليها أجيال من العلماء طاقاتهم الفكرية، تحطمت على أسسها. وبعد حرمانها من هالة السلطة، اختفت الملايين من مجلدات **الأعمال الكاملة** والخطب **والكتابات الكاملة** عن مئات الآلاف من خزائن الكتب، الانزلاق في طي النسيان كان كبيراً ومن دون أي صوت. اتضح أن قوانين التاريخ العلمية الثابتة كانت وهمية تماماً طوال الوقت. التقطْ نسخة من كتاب لديكتاتور اليوم، وستجد أنه مجرد بقايا، مثل بعض الكتب الخيميائية التي يرجع تاريخها إلى قرون، والتي تتحدث عن تحويل المعادن الأساسية إلى ذهب، مكتوبة بلغة محكمة الغلق. تجمعوا يا أطفال: لم يمض وقت طويل منذ أخذ الناس هذه الأفكار على محمل الجد بما يكفي للقتل من أجلها. لكن الأمر المذهل حقاً هو كيف سمح قادة الاتحاد السوفييتي عن طيب خاطر لإمبراطوريتهم بالدخول إلى عالم الإمبراطوريات المتلاشية. في السابق، عندما تتعرض النصوص المقدسة لتفسير خاطئ على الهامش، كانت موسكو ترسل الدبابات خشية أن تنتشر البدعة. لماذا في هذه المرة، فشلوا في التحرك لدعم عقائد آبائهم؟

في الواقع، كانت العقائد قد أكلت نفسها في النهاية - ولعبت النصوص نفسها دوراً رئيسياً في هذا التراجع. بوفاة الحرس القديم وتفسخهم في قبورهم تحت جدران الكرملين، أصبح مصلح شاب اسمه ميخائيل غورباتشوف أميناً عاماً. ولحسن حظ الزعيم الجديد، فقد ظهر في فترة من التفاؤل، حيث بدأ حياته المهنية في الحزب وذوبان خروتشوف يبدأ طريقه. وهذا ما أعاق بشكل خطير فهمه ما الذي جعل الاتحاد السوفييتي يعمل. قَبِل غورباتشوف انقسام خروتشوف الساذج بين لينين الطيب وستالين السيء، وكان صديقاً مقرباً لمدة خمسين عاماً تقريباً للشيوعي التشيكي زدنيك مليناج، أحد المهندسين لربيع براغ الذي سحقه بريجينيف في عام ١٩٦٨. ولمدة نصف قرن تشارك غورباتشوف وملينياج العديد من المحادثات فيما يتعلق بكيفية تحرير الشيوعية وإصلاحها من الداخل. لم يكن قط في نية الأمين

العام تدمير النظام؛ لقد أراد العودة إلى "المعنى الحقيقي" للنصوص، معتقداً ومخدوعاً بشكل ميئوس منه أن هذا سيساعده على الاستمرار إلى الأبد. آمن إمام أيديولوجيته، ألكساندر ياكوفليف، أيضاً بتجديد الاتحاد السوفييتي من خلال العودة إلى النية الأصلية للمؤسس، والتي تم اكتشافها من خلال دراسة دقيقة لكتاباته. بالنسبة إلى ياكوفليف، لم يكن الجانب شبه الديني مشابهاً تماماً: فقد وصف صراحة سياسة غورباتشوف في البيريسترويكا ("إعادة الإعمار") بأنها "إصلاح"، كما لو كانت تطهيراً للعقيدة، وعودة إلى المبادئ الحقيقية.

لكن لينين أنتج الكثير من النسخ المتناقضة في حياته، بحيث كان من الممكن توظيفها كسلاح أيديولوجي في خدمة العديد من المقاربات المختلفة للحكومة. وكان ستالين قد استوعب الخطر في هذا الأمر منذ البداية، وهذا هو السبب في أنه سيطر على النصوص الجديدة للنظام على الفور تقريباً، ورسخ نفسه على أنه "تلميذ لينين الأكثر إخلاصاً"، والذي لم يتحدَّ أحد سلطته. كان غورباتشوف وحلفاؤه الأيديولوجيون أقرب إلى اللاهوتيين الليبراليين الذين يتجاهلون كل الإشارات الواضحة إلى الجحيم ويوم القيامة في الكتاب المقدس لصالح المادة اللطيفة والمقبولة اجتماعياً عن الحب ومساعدة الآخرين. ليس الأمر أن المواد اللطيفة غير موجودة، لكن من الخطأ إنكار أهمية الرسائل الأقسى والأكثر شراً. وهكذا روجوا لفكرة لينين المحرر، الذي أطاح بالقيصر وحرر مواطني الإمبراطورية، مطلقاً الإمكانيات الإبداعية الهائلة للأمة السوفيتية الجديدة، لكن هذه الأعمال توقفت بشكل مأساوي بسبب الوفاة المبكرة وصعود ستالين الشيطاني. متجاهلين أن لينين هو الذي أعدم القساوسة، وشن حرباً أهلية لا ترحم وترأس "إرهاباً أحمر" تعرض فيه أعداء النظام للتعذيب والقتل.

لكن غورباتشوف كان يعيش في غرفة صدى فكري، محاطاً بمصلحين يشاطرونه نفس التفكير، والذين كان ضعف إمساكهم بالواقع مماثلاً لسوء فهمهم القاتل للنصوص المقدسة. لقد قام بتبديل قيادة الحزب، وتعامل مع قوى السوق، وخفف من قبضة الدولة المميتة على الكلمة، وهو ينقل الاتحاد السوفييتي إلى النظام الديمقراطي. ولم يعد الحزب يعيد كتابة الواقع عبر مجموعة لانهائية من النصوص الكاذبة التي يدعمها التهديد بالعنف. إن الثوران المفاجئ للحقيقة في دولة شاسعة وغير فعالة قامت على الأكاذيب، والتي مزقتها أزمة اقتصادية عميقة وتوتر عرقي، أثبت أنه مميت فعلاً. بحلول الوقت الذي فهم فيه غورباتشوف وزملاؤه الإصلاحيون ما فعلوه -إذا فعلوا ذلك حقاً - كان الأوان قد فات. وعندما التقى بوريس

يلتسين وقادة أوكرانيا وبيلاروسيا في منزل ريفي في بيلاروسيا في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١ للتوقيع على الوثيقة التي تلغي الاتحاد السوفييتي رسمياً، كان غورباتشوف عاجزاً عن منع الإلغاء والانحلال. كان الأرباب القدامى قد ماتوا، وقد فقدت نصوصهم كل سلطتها؛ بعد أربعة وسبعين عاماً من الأكاذيب الشائنة، حان الوقت لبعض الكلمات الجديدة.

ثم مرة أخرى، وربما لن يكون هناك أكثر من ذلك. هكذا على الأقل كانت أطروحة مسؤول بوزارة الخارجية الأمريكية يدعى فرانسيس فوكو ياما، الذي جادل في كتابه "**نهاية التاريخ والرجل الأخير**" الصادر عام ١٩٩٢ بأن الإنسانية قد وصلت إلى قمة تطورها الأيديولوجي، وبتجاوز انتصار الرأسمالية والليبرالية الديمقراطية نحن ببساطة لا يمكن أن نمضي. ولكن في حين أن فلسفات التاريخ الغائية قد تكون منطقية في سياق أنظمة المعتقد الديني أو الميتافيزيقي الأوسع نطاقاً، إلا أنه من الصعب في غياب هذه الظروف رؤية أي أسباب على الإطلاق، للاعتقاد بأن مجموعة القرود المتكلمة والتي بلا شعر والتي هي على كوكب الأرض فقط بسبب من انفجار كبير وقع قبل نحو ثلاثة عشر مليار عام، يمكن أن تتوقع بشكل منهجي إنهاء وجودها على الأرض.

إنها ليست نهاية التاريخ. ولم تكن حتى نهاية الأدب الديكتاتوري. فلقد استمرت الأشكال القديمة، وظهرت ابتكارات غريبة، مثل الكائنات المستحيلة والفائقة الواقعية التي تم تجميعها على الشواطئ الضبابية في لوحات إيف تانغوي. هذه الأعمال الجديدة، التي كُتِبَت في نهاية قرن وبداية آخر، هي أقل تماسكاً وأحياناً أكثر شخصية - وحتى حميمة - من تلك التي تعود إلى عصر الديكتاتوريين العظام. الشريعة الأقل لمن خلفوهم، معظم الوقت، هي من عمل الديكتاتوريين - المؤلفين الذين بدأوا حياتهم المهنية في عصر الصراعات الأيديولوجية الكبرى، والذين وجدوا أنفسهم غارقين في عالم ما بعد الحرب الباردة، وهم مضطرون إما إلى المضي قدماً بإصرار مع الاختلافات الجديدة حول الموضوعات القديمة، أو محاولة اختراع أنظمة فكرية جديدة تماماً. ومما يجب أن يقال إنه لا يمكن الوصول إليهم في كثير من الأحيان إلا بشكل متقطع، وفي الترجمات الضعيفة حتى وفقاً لمعايير القانون الديكتاتوري. إن بناء صورة كاملة لهم، هو أمر صعب.

لكن هذه هي كتب هذه الحقبة الانتقالية، ربما تشير لنا إلى طريق للمضي قدماً، أو ربما تمثل طريقاً مسدوداً. بصرف النظر عن وجود هذه الأعمال، فإن المعاناة التي تمثلها لأولئك القراء المضطرون إلى التعامل معها، ليست أقل واقعية مما عانته الأجيال السابقة من القراء في القرن العشرين. دعونا نواصل ونأخذ عينات من نصوص عصر الانحلال والجنون.

٢- كوريا الشمالية:
قص كيم جونغ إيل الماورائي

كان كيم إيل سونغ في التاسعة والسبعين من عمره، وقد أمضى أربعة وأربعين عاماً في حكمه على النصف الأسوأ حظاً من شبه الجزيرة الكورية، عندما لم يعد الاتحاد السوفييتي موجوداً. الآن كل هذا العمل الذي أسس **جوتشي** كأيديولوجيا بديلة قبل عقود، قد آتى أُكُلَهُ بالفعل. في عام ١٩٩٢، تم حذف كل ذكر للماركسية اللينينية من الدستور



يتحقق القائد العزيز ليرى إن كان صحفيو كوريا الشمالية يتابعون التعاليم الموضحة في عمله التاريخي المعلّم العظيم للصحفيين (١٩٨٣)

الكوري الشمالي، كما لو أنها لم تكن موجودة على الإطلاق، وكيم -الذي كان عند هذه النقطة مصاباً بتضخم الغدة الدرقية بحجم البيسبول التي برزت من مؤخرة رقبته مثل رأس ثانٍ متحور لرئيس الدولة - واصل العمل غاضّاً النظر عنها.

ذلك أن كيم كان في خرفه، قد ترك الإدارة اليومية لشؤون كوريا الشمالية لابنه الأكبر كيم جونغ إيل، وزير الشؤون التنظيمية. وبعد أن شعر كيم بالراحة من أعباء القيادة، بقي لديه الوقت الكافي لتذكّر حياة طويلة مكرسة لقضية الثورة، ولمتابعة المسار الذي أشعله أنور خوجة، فأخذ يحدّق في داخله ليؤلف مذكراته، **مع القرن**.

أو على الأقل هذا ما بدا عليه الحال من الخارج. في الواقع، كان كيم الأول يسير على طريق بريجينيف. فقد أوكل إنشاء مذكراته لفريق من روائيي الدعاية من مجموعة ١٥ نيسان/ أبريل

للإنتاج الأدبي في كوريا الشمالية، والتي استندت على الروايات والأفلام الثورية لإنتاج صياغة مثالية (وهميّة للغاية) عن حياته. في سن الشيخوخة، تمكن كيم الأول من القراءة والاستمتاع بـ**"مع القرن"**، حيث أضاع نفسه في إعادة تخيل شاسع ومعقد لحياته بالطريقة التي كان ينبغي أن تكون عليها، والتي أصبحت بالطبع كما أرادها، بإعطاء أولوية للنص على الواقع الموجود في كوريا الشمالية. لكن حذف الإشارات إلى الماركسية اللينينية من الدستور لم يمحُ الدروس المستفادة من ستالين. وللأسف، لم يتمكن كيم الأول من معرفة كيف تنتهي قصة حياته: فلم تكتمل سوى ثمانية مجلدات من الثلاثين المتوقعة بحلول الوقت الذي توفي فيه عام ١٩٩٤. لقد بقي في السلطة لمدة ستة وأربعين عاماً: وكانت كافية. الآن حان الوقت ليحل القائد العزيز محل القائد العظيم، لأن نجله كيم جونغ إيل (يشار إليه فيما بعد باسم كيم الثاني، لما لا؟) أخذ مكانه على العرش.

لقد كان تعاقباً سلساً، ذلك الذي كان كيم الثاني يخطط له لسنوات، حتى لو كان **قاموس المصطلحات السياسية في كوريا الشمالية** قد ندد في أوقات سابقة بالتعاقبية الوراثية باعتبارها "عادة رجعية" تنتمي إلى "المجتمعات الاستغلالية". التواصل بدل الانقطاع كان المفتاح. حافظ كيم الثاني بإخلاص على عبادة والده بعد وفاته: فهو لن يتبع أسلوب خروتشوف في تمزيق سلفه، ولا تهميش لأفكار الزعيم السابق على الطريقة الصينية الهادئة. بل على العكس تماماً: تم تحنيط رفات كيم الأول، وتم تحويل مقر إقامته الرسمي إلى ضريح، قصر شمس كمسوسان، وفي عام ١٩٩٧ تم تعديل التقويم بحيث بدأ العصر الحديث مع ولادته. في عام ١٩٩٨ تلقّت جثته ترقية، كما صعد القائد الميت إلى أعالي "الرئيس الأبدي". وبالطبع ظلت مجموعة مؤلفاته قيد الطباعة. لم يحفظ كيم الثاني **جوتشي** فقط في مكانها، بل نبش عميقاً في الخواء والكراهية ثم عاد، وامضاً في ضوء الشمس، ليقوم باعتداءات كأنها مسلحة على الواقع، عبر سرد عنيف وكاذب.

في نيسان/ أبريل عام ١٩٩١، أثناء سكرات موت الاتحاد السوفييتي، صوتت جورجيا السوفييتية على الانفصال عن الاتحاد. وعرف كيم الثاني الطريقة التي تهب بها رياح التغيير: بعد أقل من شهر، ألقى خطاباً في مسؤولي الحزب نُشر لاحقاً تحت عنوان **"اشتراكيتنا التي تتمحور حول الجماهير لن تموت"**. لقد كان خطاباً متحدياً، ولكنه كان أيضاً

خطاباً غير أصلي تماماً. تفسير كيم الثاني لسبب عدم هزيمة النسخة الكورية الشمالية من الاشتراكية كان بسيطاً: إنها **جوتشي**. كانت أسباب إعلانه الانتصار النهائي **لجوتشي** مماثلة إلى حد ما للأسباب التي ذكرها والده في أواخر الستينيات. كانت قوة **جوتشي** تكمن في أنها "اشتراكية محورها الإنسان"، وأنها تمثل "نظرة الى العالم محورها الإنسان". وهو يتوسع أكثر في ضباب مرنّح من الذاتوية:

> لقد اتضحت الصفات الأساسية للإنسان ككائن اجتماعي يمتاز بالاستقلال والإبداع والوعي. لقد تطوّر، على هذا الأساس، مبدأ أن الإنسان هو سيد كل شيء، وأنه يقرر كل شيء. أنشأت فكرة **جوتشي** وجهة النظر وموقف التعامل مع كل شيء في مصلحة الإنسان والتعامل مع جميع التغييرات والتطورات على أساس أنشطة الإنسان. رفعت فكرة جوتشي كرامة الإنسان وقيمته إلى أعلى مستوى. ولأنها تجسيد لفكرة جوتشي، فإن اشتراكيتنا هي اشتراكية محورها الإنسان، وبموجبها الإنسان هو سيد كل شيء وكل شيء يخدمه.

لا يمكن إلا من خلال **جوتشي** أن تتمكن الجماهير الشعبية من تحقيق رغبتها في الاستقلال، وليس سوى عن طريق **جوتشي** أن يكون ممكناً حماية الجماهير من الإمبريالية، التي "تعمل بشراسة كي تدوس على سيادة البلاد والأمة". وهلم جرا، وهكذا. على الرغم من أنه لا يتجاوز ست وأربعين صفحة طولاً، إلا أن **اشتراكيتنا المتمركزة حول الجماهير لا تموت**، يُشعرك بأنه أطول، ربما لأنه في جوهره استمرار لخطاب فائق طويل للغاية، نص لامنتهٍ كان يتوالد منذ عقود. إن نص كيم الثاني المتطرف في عدم أصالته، يتحدى الزمن، وهو ناجم عن تأثيرِ تقويه اللغة اللاإنسانية وتجريدها من الإشارات إلى أي شيء خارج نظامه الخطابي المغلق (ما عدا الإساءات الخالدة التي ألقيت على الإمبرياليين الشريرين في أمريكا). ما هي الأزمة التي يستجيب لها هنا؟ هل هناك أزمة؟ هل ستنتهي الحرب يوماً؟ يعود الخطاب الذي طوّره ستالين وأتباعه، بعد إعادة تسخينه وإعادة تدويره وإعادة استخدامه وإعادة توجيهه، في سلسلة من مجموعات ذات مرجعية ذاتية من المصطلحات والتعميمات المضخمة، التي يمكن تفكيكها وإعادة تجميعها ووضعها في تسلسل مختلف، وتبقى حاملة نفس المقدار من المعنى. وهكذا استمر مشط كافكا في النحت على ظهر أمة منبطحة.

لم يكن الأمر يتعلق بكل ذلك التكرار وتلك الاستمرارية، ولكن كيم الثاني قام أيضا بتوسيع مجال الأدب. على عكس والده، الذي كان ضابطاً عسكرياً قبل أن يكون عميلاً ستالينياً، كان كيم الثاني رجل علاقات عامة قبل أن يكون الوريث الظاهر..

كان هذا بسبب العقيدة أكثر منه بسبب أي براعة أدبية من جانب كيم الثاني. في عام ١٩٧١، في بداية حياته المهنية، كان يقود مكتب حزب العمال للدعاية والإثارة، حيث كانت مهمته إدارة عبادة شخصية كيم الأول -التكليف بإنشاء النصب التذكارية والتماثيل واللوحات، والإشراف على الإنتاج الصناعي لنصوص والده. من خلال التلاعب بالكلمات والموسيقى والصورة المتحركة، ضمن كيم الثاني يومياً واقعاً مثالياً في تحدٍ للواقع المادي الذي عاشه شعب كوريا الشمالية فعلياً. لذلك عندما حان الوقت لوضع أسس للخلافة، كانت أعمال كيم الثاني في تصنيع الأوهام موضوعة هناك فقط في انتظار استخدامها لإثبات سلطته كعبقري ليس له مثيل.

وهكذا، في حين أن الأعمال المختارة المجلد ١، ١٩٦٤-١٩٦٩ قد احتوت على المادة المتكررة وغير الملهمة مثل "تحسين عمل رابطة الشباب لتلبية متطلبات الوضع الراهن"، فإنها تضمنت أيضاً نصوصاً متعددة حول الجماليات والسرد ومعالجة القصص الخيالية. في الواقع، من بين الفصول الستة والأربعين في الكتاب، هناك اثنان وعشرون منها مكرسة للأدب والموسيقى والأفلام. يقدم كيم الثاني نصائح جمالية عامة في مقاطع قصيرة مثل "بنية الأعمال متعددة الأطراف ومشكلة التدفق الدرامي"، كما يقدم دراسات لحالات من أعمال فنية محددة ساعد في إنتاجها، كما في مقال "حول إكمال الفيلم **عائلة تشو هاك سِن** وجعله تحفة فنية تساهم في التعليم المناهض للولايات المتحدة. "

كتب كيم الثاني أيضاً كتباً عن فن الصحافة (**كيم جونغ إيل، المعلم الكبير للصحافيين**) والأوبرا (**حول فن الأوبرا**). وفقاً لمعهد الدراسات الكورية الشمالية، بحلول عام ١٩٩٣، انتشرت كتاباته عن الفن والجمال في ثلاثين مجلداً مذهلاً من أصل أربعين مقررة. الأرقام الرسمية تقول بأن الأرقام أعلى بكثير. لا شك أنه حصل على بعض "المساعدة"، ولكن بغض النظر عن ذلك، كان اتجاه اهتماماته واضحاً. لم يكن ستالين ديكتاتوراً مهووساً بالجمال مثل "القائد العزيز".

للتأكيد على تصرفاته الدقيقة في فن سرد الأكاذيب الجسيمة، قام كيم الثاني بتغيير اسم قسم الدعاية والإثارة إلى القسم الأدبي والفني، الأكثر أناقة. لقد أحب الأوهام، والأوهام التي فتنته أكثر من أي شيء آخر، كانت تلك التي رقصت على الشاشة كمسرحية من الظل والضوء. كان كيم الثاني من المتعصبين للسينما، وكان قد اختطف كما اشتُهر، مخرجاً كورياً جنوبياً (وزوجته السابقة) على أمل أن يتمكنا من مساعدته في تحسين جودة السينما الكورية الشمالية. نتج عن ذلك فيلم **بولغاساري** الشهير، وهو فيلم كايجو[1] تجري أحداثه في القرون الوسطى، يظهر فيه وحش على طراز غودزيلا والكثير من الفلاحين المضطهدين. قبل ذلك، قام كيم الثاني بترقية استوديو بيونغ يانغ السينمائي من مكان غير مكتمل نسبياً لإنتاج الأفلام الدعائية البسيطة عن العمال النبلاء والفلاحين الفاضلين واليابانيين الأشرار، إلى مكان يمتد على مساحة عشرة ملايين قدم مربع، تُموّل فيه أطقم العمل يومياً وكل ليلة لإخراج أفلام دعائية عن العمال النبلاء والفلاحين الفاضلين واليابانيين الأشرار بمعدل أربعين عملاً في السنة. كان كيم الثاني منخرطاً بشكل كبير في بعض الإنتاجات، والتي تُعرف في كوريا الشمالية باسم "الكلاسيكيات الخالدة". وقد كتب (يُزعم أنه) كتاب الحرية عن أول عمل كلاسيكي خالد، وهو عبارة عن تعديل لأوبرا **بحر الدم**، وقدم مساهمات كبيرة في أوبرا **بائعة الأزهار**، التي فازت بجائزة "Prix Special" في مهرجان Karlovy Vary السينمائي لعام ١٩٧٢ في تشيكوسلوفاكيا. استناداً إلى مسرحية منسوبة إلى كيم إيل سونغ، التزمت **بائعة الأزهار** بقصة الفلاحة الكورية التي عذبها الإمبرياليون اليابانيون إلى حد كبير حتى وصل شقيقها، وهو عضو في جيش تحرير كيم إيل سونغ، لإنقاذها: لم يساهم كيم في مسودات النصوص فقط، بل عمل أيضاً على السكب والصهر والتحرير والعرض على المسرح. كانت الحرب الكورية موضوعاً شائعاً دائماً أيضاً، على الرغم من أنه لم يُذكر مطلقاً بأن كيم الأول هو من بدأها، أو أن كوريا الشمالية كانت ستخسرها لولا الاتحاد السوفييتي والصين.

لم يكن كيم الثاني منتجاً سينمائياً فحسب، بل كان أيضاً من منظري السينما. وفي كتابه **عن فن السينما** (١٩٧٣)، قدم رؤية شاملة لصناعة الأفلام تتراوح بين المشورة الفنية

---

١ - المصطلح الياباني للفيلم الذي يدّعي فيه الرجال الذين يرتدون بدلات مطاطية أنهم وحوش عملاقة. المؤلف

ونظرية الدراما والتشخيص، إلى كيفية دس كميات هائلة من الدعاية في حلق المشاهد من دون أن يتسبب له ذلك في مغادرة مسرح العرض على عجل. وكان معظم الوقت، مع ذلك، يتاجر بالتفاهات. على سبيل المثال، في القسم المعنون "**وضع المعايير الدقيقة في التصوير والتصميم الفني**"، يؤكد كيم الثاني على أن "صور الفيلم يجب أن تبدو جيدة على الشاشة". وعند القراءة، نتعلم أن "السينما هي فن بصري" وأنه "عندما تكون الصور جذابة عند النظر إليها، فإنه يمكنها جذب الشعب على الفور إلى عالم الأفلام". ذلك من الواضح طبعاً، لكن من هو المحرر الذي يجرؤ على انتقاد القائد العزيز؟ محاطاً بالرجال الموافقين له، ربما شعر كيم الثاني أنه من الضروري توضيح الأساسيات. ومع ذلك، فإنه يظهر في النهاية فارقاً بسيطاً. هنا، على سبيل المثال، يدعو إلى تطبيق أكثر دقة للموسيقى على الصورة:

> للموسيقى دورها الخاص في تصوير مشهد الموضوع. تلعب الموسيقى دورها في التمثيل العام من خلال لغتها الخاصة، وإذا تم استخدامها لشرح محتوى المشاهد بطريقة مباشرة أو جرى تكرارها بشكل ميكانيكي، فإنها تفشل بالكامل في تلبية المتطلبات المحددة للفيلم السينمائي كشكل تجميعي من أشكال الفن.

عندما يتعلق الأمر بالتمثيل، فإن كيم الثاني يؤيد شيئاً ما يقترب من الطريقة، مع إتاحة قدر ضئيل من المسافة بين المؤدي والدور:

> يجب أن يكون الممثل متمرساً في أساليب التمثيل التي تسمح له بفهم واستيعاب التغييرات المتنوعة والصعبة لأفكار وعواطف الشخصية فيما يتعلق بموقف أو حدث معين، بحيث يكون في اللحظة التي يعمل فيها مع الكاميرا منجذباً عميقاً وبشكل طبيعي إلى العالم الذي تعيشه الشخصية.
>
> الممثل الذي لا يتمكن من أن يدخل بصدق الى حالة شعور الشخصية، لا يعد ممثلاً بعد. ويجب عليه الدخول في تلك الحالة، من أجل الاقتناع بأن تلك الشخصية هي شخصيته وللتصرف بشكل طبيعي، كما لو كان المشهد حقيقة واقعية.

يلاحظ كيم جونغ إيل أيضاً أن بعض المخرجين الكوريين الشماليين (مثل نظرائهم الإمبرياليين) "يحاولون استغلال مزايا الشاشة العريضة، من خلال تقديم صور كبيرة من الأشياء وتكديس الكثير من العناصر في إطار واحد... ولا يفكرون في شيء سوى حجم الشاشة وشكلها، متجاهلين متطلبات المحتوى المراد عرضها عليه". هذا خطأ، يقول كيم الثاني لأنه:

> عندما يُعتبر شكل العمل جيداً، فهذا لأنه يتطابق مع المحتوى، الذي تم التعبير عنه بطريقة ممتازة ومميزة، وليس لأن الأنموذج نفسه يتمتع ببعض الجاذبية الخاصة به، بصرف النظر عن المحتوى... لا يعتبر العمل الأدبي تحفة بسبب حجمه، ولكن بسبب محتواه؛ في الأعمال التصويرية، أيضاً، ليس المقياس المادي بل التعبير عن المحتوى هو الذي يجب أن يكون واسعاً.

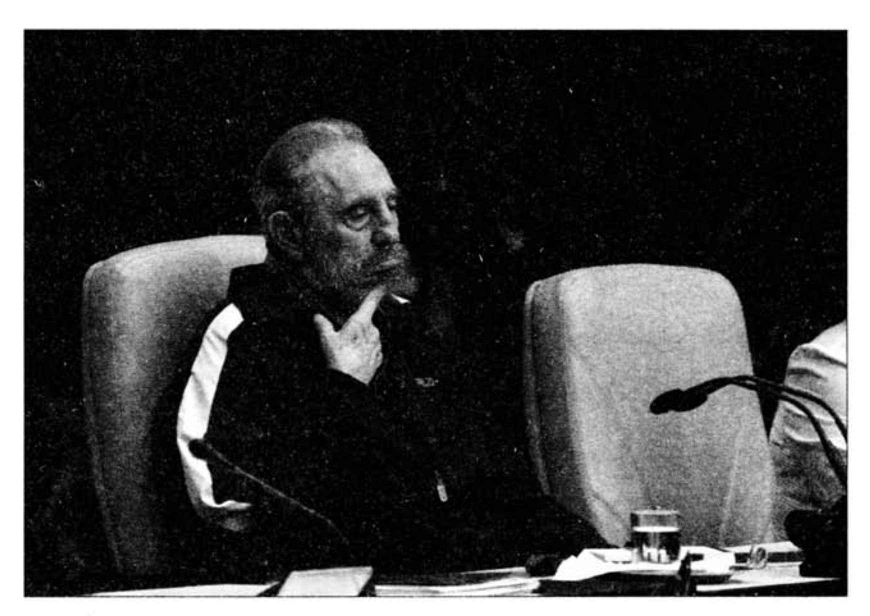
في الواقع، كان كيم شديد التركيز على أولوية القصة، حيث أن الصفحات الـ ١١١ الأولى من الكتاب مخصصة لـ"الحياة والأدب"، ولم يبدأ حتى أثبت أن "المحتوى هو الملك"، في مناقشة كيفية تحويل هذه المواد إلى تجربة سينمائية. إنه ليس بالضبط مثل **دفاتر السينما** ((Cahiers du Cinéma ولكن كتاب كيم جونغ إيل الإرشادي كان جيداً فعلاً.

توفي كيم جونغ إيل في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١ وخلفه ابنه كيم جونغ أون. تقلّد كيم الثالث لقب السكرتير العام الأول، حين كان والده الميت يترقىّ إلى رتبة الأمين العام الأبدي. هناك الآن اثنتان من المومياوات في صناديق كريستالية في قصر شمس كومسوسان، ولكن النظام توالى من دون انقطاع: استأنف كيم الجيل الثالث من **جوتشي** في الخطب والكتب، كما لو أن فماً واحداً واصل الكذب باستمرار ولم يتوقف أبداً عن الحديث. وكان كذلك في خطابه "**قضية حزب الرفاق العظام كيم إيل سونغ وكيم جونغ إيل قضية منتصرة على الدوام**"، أوضح كيم الثالث أن حزب العمال الكوري قد تطور إلى حزب ثوري توجّه نحو جوتشي، وأنه بعد سبعة عقود من تأسيس الدولة، كانت الثورة لا تزال تتكشف، وكانت هناك العديد من المهام التي يتعين القيام بها. في هذه الأثناء، في خطبته "**هيا بنا لنحقق النصر النهائي من خلال هجوم أيديولوجي ثوري**"، شدد كيم الثالث على الحاجة إلى شن "هجوم أيديولوجي قوي يهدف إلى تسريع

النضال للدفاع عن الاشتراكية" من خلال "تركيز كل جهود العمل الأيديولوجي للحزب على تأسيس النظام الموحد لقيادة الحزب".

و..و..و.. والآن تطفو على الإنترنت، بحيث يمكن لأي شخص في العالم لديه اتصال بالإنترنت قراءة كلمات الزعيم الجديد. في عهد كيم جونغ أون، ظلت كوريا الشمالية مكرسة **لجوتشي**، طريق الاكتفاء الذاتي، في حين أن إعادة قولبة الأشكال الستالينية عديمة الرحمة، قد نُبذت عملياً في أي مكان آخر من العالم.

٣- كوبا: إسهاب كاسترو الأعظم



فيدل كاسترو، يتأرجح على شفا النسيان وهو يبحث عن "الكلمة الأصدق تعبيراً"

وضع انهيار الاتحاد السوفييتي الزعيم الكوبي فيدل كاسترو في موقف صعب. كيف سينجو نظامه المستمر منذ ثلاثة عقود ليصل عقده الرابع من دون دعم يتراوح ما بين ٤ و٦ مليارات دولار كان يتلقاها سنوياً من السوفييت؟ تنبأ النقاد منطقياً بنهاية وشيكة لحكم كاسترو. لكنه، مثل كيم إيل سونغ في كوريا الشمالية، رفض كاسترو السماح لشيء صغير كالفشل التام للشيوعية في جميع أنحاء العالم، أن يقنعه بقبول تقادمه. وظل في السلطة، منتصباً كالنصب التذكاري بين أنقاض الثورة، وسيظل "القائد الأعظم" لمدة سبعة عشر عاماً أخرى. حتى بعد تقاعده رسمياً، يتجول في الخلفية، يلوح في الأفق لشقيقه الصغير، راؤول، غير قادراً تماماً على الرحيل، ومستعداً دائماً لإلقاء اللوم على الأميركيين في مقالات افتتاحية قديمة الطراز تظهر في الصحافة الكوبية. الموت وحده هو الذي يستطيع إسكاته - والموت كان بعيداً عن القدوم.

حتى نيله تلك الزيارة من قابض الأرواح في ٢٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٦، كان كاسترو ناجياً كبيراً، وحتى واحداً من أعظمهم، لا سيما عندما تفكر في ميله لاستفزاز القوة العظمى المدججة بالسلاح على بعد مائة أو نحو ذلك من الأميال شمالاً. لعقود من الزمان بعد الإطاحة بالديكتاتور فولجنسيو باتيستا المدعوم من الولايات المتحدة في عام ١٩٥٩، انتقدته الإدارات الأمريكية المتعاقبة، سواء أكانت ديمقراطية أو جمهورية. لكن كاسترو نجا من كارثة غزو خليج الخنازير عام ١٩٦١، حيث هبط ١٤ ألفاً من الكوماندوس الكوبيين المدربين من وكالة الاستخبارات المركزية على الشاطئ عازمين على تدمير القوات الجوية الهزيلة في كوبا وإسقاط الديكتاتور. كانت المشكلة، أنهم لم يتمكنوا من العثور على أي من طائرات كاسترو، واستسلموا بشكل جماعي بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من القتال. بعد مرور عام، نجح كاسترو في عملية بقاء أكثر إثارة للإعجاب. من خلال الموافقة على اقتراح خروتشوف بأن تستضيف بلده وجزيرته صواريخ نووية بعيدة المدى موجهة إلى الولايات المتحدة، بذل كاسترو قصارى جهده للإسراع في تحويل كوبا إلى ٤٢٤٢٦ ميل مربع من الغابات المحروقة والأنقاض المشعة والشواطئ الزجاجية، جالباً معه نهاية الحضارة في أثناء ذلك. لم يكن خروتشوف يقصد أبداً استخدام الصواريخ، وفي المواجهة التي تلت ذلك، تراجع بدلاً من التسبب بحريق نهاية العالم المروع بين القوى العظمى. أطلق كاسترو، من جانبه، رسالة إلى موسكو تقترح توجيه ضربة نووية وقائية إلى الولايات المتحدة لمنعها من غزو كوبا، الذي كان يظنه وشيكاً. ولكن خروتشوف غير المهووس، كان هو الذي خرج من السلطة في وقت قريب، في حين بقي الديكتاتور الكوبي المتحمس للقتل الجماعي في مكتبه في قصر الثورة في هافانا.

واستمر كاسترو في البقاء على قيد الحياة. وفقاً لفابيان إسكالانتي، الرئيس السابق لجهاز المخابرات الكوبي، نجا القائد الأقصى من أكثر من ٦٠٠ محاولة اغتيال قامت بها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية خلال عقود طويلة من حكمه. وحتى مع السماح بالمبالغة لأحد المتحمسين للنظام، فمن الصحيح أن الإدارات الأمريكية المتعاقبة حاولت التخلص من الرئيس الكوبي عبر مجموعة من الأساليب الكاريكاتورية المحيرة، والتي تراوحت من السيجارات المسلحة وأصداف البحر إلى مخفوق الحليب المحتوي على سم

البوتولينوم. كان نظام كاسترو مصدر قلق وجودي أكثر من كونه تهديداً خطيراً للقوة الأمريكية. رغم ذلك، كان الأمر مزعجاً للغاية، حيرت علاقة طالوت بجالوت هذه الكثير من الذين على اليسار، متسببة في فقدانهم كل إحساس بالتناسب. وفي حين أن الجنرال بينوشيه حليف الولايات المتحدة القاتل تعرض للشجب بسبب القمع الذي أعقب انقلابه في تشيلي، فقد حظي كاسترو عدو أمريكا الأكثر قتلاً منه، بالثناء من أقلام سواح اليوتوبيا الحائزين على الامتيازات العالية مثل جان بول سارتر[1]، وبابلو بيكاسو، ونورمان ميلر، وسوزان سونتاغ، ناهيك عن شخصيات أقل موهبة مثل آبي هوفمان، الذي اشتهر في أيامه بأنه "أمير مهرجي الاحتجاج الراديكالي". كان هوفمان مهذباً بشكل خاص في مديحه: بعد أن شاهد كاسترو يعتلي دبابة في هافانا وهو منفرج الساقين يوم الاحتفال بالسنة الجديدة، وكتب هذا:

> ... كانت الفتيات يلقين الزهور على الدبابة ويسارعن لاهيات لشد اللحية السوداء. وكان يضحك بسرور ويقرص بعض الأرداف... تتوقف الدبابة في ميدان المدينة. يدع فيدل المسدس يسقط على الأرض ويصفع فخذه ليقف منتصباً.

وهكذا، أثبت كاسترو في خطابه، أنه مفيد لكل من الأشخاص الجادين مثل الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز وكذلك للأشخاص التافهين للغاية مثل أوليفر ستون وشين بن. وعندما توفي، غمره التعظيم ليس فقط من أمثال فلاديمير بوتين، ولكن أيضاً من قادة الديمقراطيات الليبرالية مثل إسبانيا أو رئيس وزراء كندا التقدمي جاستن ترودو، الذي أشاد بإنجازات كاسترو في مجال الرعاية الصحية والتعليم، غافلين عن حقيقة أن العديد من البلدان الأخرى تعمل بشكل جيد في هذه المجالات، بينما تسمح أيضاً بإجراء انتخابات حرة.

طوال وجود نظام كاسترو، كان ثابتاً الاحترام العميق لذات القائد الأعظم والحب لنبرة صوته. كما قالها غابرييل غارسيا ماركيز، كان كاسترو "مدمناً على الكلمة" -على الرغم من أن غارسيا ماركيز، الذي أهداه كاسترو قصر هافانا والسيطرة على معهد

---

١ - الذي شوهد آخر مرة على صفحات هذا الكتاب وهو يمتدح ماو. المؤلف

سينمائي، قصد بكلماته أن تُفهم كمجاملة[1]. كان الكتاب الأول لكاسترو، **التاريخ سيغفر لي**، وضعه كاسترو في السجن، حيث كتب من الذاكرة الخطاب الذي دام أربع ساعات، والذي ألقاه في محاكمته بشأن انتفاضة مونكادا الفاشلة في عام ١٩٥٣. لكن أربع ساعات كانت طبيعية وفقاً لمعايير كاسترو. كانت قدرته على الارتجال مطولاً معجزة حقاً، وكذلك تجاهله لصبر مستمعيه. في ٢٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٠، تحدث إلى مجموعة من قادة العالم في الأمم المتحدة، في خطاب ألقاه استغرق أربع ساعات وتسع وعشرون دقيقة، وهو رقم قياسي عالمي في الضجر حتى بمعايير تلك الهيئة الموقرة. ولكن كان جمهوره المحلي الأسير هو الذي عانى أكثر من غيره: في عام ١٩٨٦، أخضع كاسترو جمهوراً من المندوبين في مؤتمر الحزب الشيوعي في هافانا لخطاب كانت مدته سبع ساعات وعشر دقائق، أي أقصر قليلاً من دوام يوم عمل.

وضعُ كاسترو بصفته حبر كوبا الأعظم، مكّنه من أن يخرج إلى الوجود ببليوغرافيا كبيرة من المنشورات والكتب التي تحتوي على خطابات في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكوبي وإلى "الشعب" وأفكاره حول "الأزمة الاقتصادية والاجتماعية العالمية"، وتأملاته حول "خيانة الصين لكوبا "، إلخ. كما نشر أشياء كان قد استغرق الوقت فعلاً للجلوس وكتابتها، مثل مجموعات رسائل السجن وأعمدة الصحف والقصيدة التصادفية. قبل وبعد انهيار اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، تم استغلال سلطة "الكتاب" مراراً وتكراراً لإضفاء وهم من الحكمة على مجموعات من المقابلات والخطب والتأملات، واستمرت حتى القرن الواحد والعشرين بمنشورات مثل: **الحرب والعنصرية والظلم الاقتصادي: الآثار العالمية المدمرة للرأسمالية** (٢٠٠٢)، **الحرب الباردة: تحذيرات لعالم أحادي القطب** (٢٠٠٣)، **وأوباما والإمبراطورية.** (٢٠١١).

كما أدت موهبة كاسترو في الارتجال إلى توليد "مذكرات" تشي جيفارا في عام ١٩٩٤ (تم تحديثها في عام ٢٠٠٦)، وهي مثيرة للاهتمام فقط بقدر ما حاولت عدم إثارة الاهتمام. لحسن

---

١ - كان غارسيا ماركيز، الكولومبي، كريماً للغاية عندما يتعلق الأمر بالثناء على راعيه. تأمل على سبيل المثال هذا الوصف لما شعر به بعد الاستماع إلى واحدة من تلك الخطب الطويلة جداً: "إنها إلهام، حالة مبهرة من النعمة، لا يمكن مقاومتها، ولا ينكرها سوى أولئك الذين لم يتمتعوا بالتجربة المجيدة لعيشها".

الحظ بالنسبة إلى كاسترو، جعلت وفاة تشي المبكرة منه شهيداً، والتي، إلى جانب قدرته على أن يبدو جيداً على الملصقات والقمصان، عززت فقط قيمته كرمز للثورة الكوبية -وهي حقيقة استغلها كاسترو مراراً وتكراراً في الخطب التي تمّ جمعها في الكتاب، الذي انحدر تدريجياً أكثر فأكثر ليتحول الى مادة دعائية.

بعد أن أمضى عشرات السنين في التحدث في الكتب المليئة بأفكاره العامة عن الوجود، نشر كاسترو في عام ٢٠٠٦ سيرته الذاتية الشفوية ذات الطابع الأكثر حميمية ظاهرياً. استناداً إلى أكثر من مائة ساعة من المقابلات التي أجراها الصحفي الإسباني إجناسيو رامونيه، من الواضح أن حياتي كانت تهدف إلى أن تكون نوعاً من الوصية الأخيرة، حيث كان ثالث أطول رئيس دولة في العالم بقاءً في الحكم في ذلك الوقت (بعد الملكة إليزابيث الثانية من المملكة المتحدة والملك بوميبول من تايلاند) يلخص كل ما كان على استعداد للاعتراف به عن تجربته في قيادة كوبا منذ ما يقرب من خمسة عقود. كان التوقيت صحيحاً: بعد فترة طويلة في التندرا السياسية، استفاد كاسترو من التحول السياسي في أمريكا اللاتينية الذي أتى بحكومات يسارية إلى السلطة في فنزويلا (١٩٩٩) والبرازيل (٢٠٠٣) والأرجنتين (٢٠٠٣) وبوليفيا (٢٠٠٥). وصار مصيباً فجأة مرة أخرى، رجل دولة كبير بدلاً من كونه أثراً خارج المعقول في زي عسكري.

للأسف، كانت السيرة الذاتية لكاسترو مخيبة للآمال. ورغم أنها لم تكن قريبة أبداً من تكلّف مذكرات بريجينيف أو خوجة أو كيم إيل سونغ، إلا أنها كانت شديدة الانضباط في تحريرها الذاتي وعرضها الذاتي. لم يؤدّ التكلم لمدة مائة ساعة إلى أي زلات تكشف عن أشياء عن غير قصد - أو إذا حدث ذلك، فإن كاسترو قام بحذفها. وهكذا، ورغم أن رامونيه يصف خطاب كاسترو بأنه "انهيار جليدي لفظي" وكان "يرافقه دائماً حركات كالراقص تعكسها إيماءات يديه التعبيرية"، إلا أن كاسترو كان مسيطراً بشكل كامل وشخصي طوال الوقت. في كوبا، يُحظر تمثيل الزعماء الأحياء، لكن بما أن كاسترو يتحدث كأنه لوحة اشتراكية وواقعية طويلة المدى عن نفسه وكان على شاشة التلفزيون طوال الوقت، فمن الواضح أن كل هذه التصريحات لم تكن ضرورية. كان قد اندمج بالكامل مع شخصيته، ليصبح نُصبه التذكاري الخاص حياً يتنفس.

وهكذا يُظهر لنا الكتاب كاسترو الذي يتحمل طوال حياته ودائماً أكبر المخاطر لتجنيب الآخرين الآثار المترتبة على حدوث الأخطاء، والذي يتبع دائماً المسار الأكثر أخلاقية، ولا يفعل شيئاً مخادعاً أبداً، ويصبح زعيماً فقط لأن لا أحد يستطيع فعل ذلك. لم يكن وضع صواريخ سوفييتية على الأراضي الكوبية عملاً من أعمال التهور الفادح، بل كان "قانونياً وشرعياً على الإطلاق ومبرراً". عندما يطرح رامونيه سؤالاً صعباً، يكون كاسترو مستعداً دائماً للتصويب المبرر؛ أصبحت معسكرات اعتقال المثليين جنسياً "وحدات عسكرية للمساعدة في الإنتاج"، في حين أن عمليات الإعدام بعد الثورة، كانت مجرد نتيجة لمطالب الناس بالعدالة، وهكذا.

كما يعرض كاسترو وعيه السياسي والتاريخي مرة أخرى في مرحلة الطفولة المبكرة. من الواضح أن تربيته كابن لمالك أرض ثري، قد زودته بفهم عميق للإنسان العادي، مع نيله منافع التعليم الجيد. في التاسعة من عمره، قام بتطوير فهم مفصل للوضع الجيوسياسي من خلال متابعة التقدم المحرز في حرب موسوليني الإيطالية الإثيوبية عبر البطاقات التجارية التي تأتي مجاناً مع بعض البسكويت. قبل أن يصل حتى إلى سن المراهقة، يعتني كاسترو بالفلاحين الأميين، حيث يقرأ تقارير عن الحرب الأهلية الإسبانية إلى طباخ العائلة، وهو جمهوري ينفث النار. كما كان أيضاً المتمرد البطولي، وهو يرفض "الأخلاق الفرنسية" على مائدة العشاء، أو يستخدم مقلاعاً لرمي الحصى على سطح منزل المعلم الذي يكرهه - هذه الأفعال التي أبلغنا بها رامونيه المعجب المشجع على أنها تصرفات ثائر مستقبلي.

ومع ذلك، فإن الكتاب ليس بالكامل من أعمال كتابة سير القديسين. يبدأ رامونيه **حياتي** بوصف مكتب كاسترو الشخصي. هناك "رف كتب هائل على أحد الجدران، وأمامه، مكتب طويل وثقيل مغطى بالكتب والوثائق". كان كاسترو قارئاً عملاقاً، ويشير طوال المذكرات إلى الكتب التي تركت انطباعاً عنه من أعمال ماركس ولينين والثوري الكوبي خوسيه مارتي (بدون كتاباته "لم يكن بإمكانه حتى تصور الثورة")؛ لأولئك المؤلفين الفرنسيين مثل فيكتور هوغو (الذي كان يستمتع بمناقشة **بؤسائه** مع هوغو شافيز) وبلزاك ورومان رولاند (قرأ كاسترو جميع مجلدات رواية **جان كريستوف** العشرة)؛ وأعمال دوستويفسكي، وتولستوي، وبينيتو بيريز غالدوس، وريجيس دوبريه، وميخائيل شولوخوف، وراشيل كارسون (والدة

الحركة البيئية المعاصرة) وأندريه فويسن[1]، مؤلف كتاب: **التربة والعشب والسرطان**[2] (١٩٥٢)، ويزعم أن ماو لم يكن له تأثير كبير عليه، رغم أنه متحمس جداً لسرفانتس، وكذلك كتاب آرثر شليزنجر المؤلف من تسعمائة صفحة حول اغتيال كينيدي. في الواقع، أعلن كاسترو أنه "يكاد يحنّ" إلى السنوات التي قضاها في السجن، حيث كان بإمكانه القراءة لمدة ١٥ ساعة في اليوم.

وعندما يتحدث عن هيمنغواي، يترك القناع أخيراً. قابل كاسترو هيمنغواي مرتين، وهناك صورة موقعة للمؤلف موضوعة على مكتبه. ولكن ما هو سر إعجاب الديكتاتور الكوبي بالمؤلف الرجولي الأمريكي الذي أطلق النار على نفسه؟ هل هي جمله القصيرة؟ شخصية رجل الأفعال وليس الأقوال التي كان عليها؟ مشاركته في الحرب الأهلية الإسبانية؟ كلا، لا شيء من هذه الأشياء.

يقول كاسترو: "لقد قرأت بعض رواياته أكثر من مرة". "وفي كثير منها - **لمن تقرع الأجراس، ووداعاً للسلاح** - كان دائماً ما يجعل شخصيته الرئيسية تتحدث إلى نفسها. وهذا ما أعجبني أكثر في هيمنغواي - المونولوجات، عندما تتحدث شخصياته مع نفسها".

---

١ - ومع ذلك، فإنه يتجاهل بشكل غامض ذكر إصدارات أعمال موسوليني التي جلست على رفوفه بينما كان طالباً. المؤلف.

٢ - كتاب عن صحة الحيوان، وتأثره بما يأكله من عشب تم تسميده بالأسمدة الصناعية. المترجم

٤- العراق: روايات صدام حسين التاريخية

على الرغم من أننا قد نتذكر صدام حسين اليوم لحروبه، واستبداده، في المقام الأول، وقصوره الفخمة واللحية الرائعة التي كان يضعها عندما سُحب من حفرة على يد بعض أفراد القوات الأمريكية في عام ٢٠٠٣، لم يكن اسمه دائماً مرادفاً للشر المرير. ففي الثمانينيات من القرن الماضي، زودت إدارة ريغان نظامه بالمخابرات والمعدات العسكرية لمساعدته في حربه مع إيران، بينما في السبعينيات، تحدث صدام حسين بحديث العلمانية والتحرير والثورة كعضو بارز في حزب البعث الحاكم في العراق. الحزب ("حزب البعث")، الذي تأسس في الأربعينيات على يد مدرسين سوريين، أحدهما مسيحي والآخر مسلم سني.

مثّل حزب البعث خطاً منفصلاً للقومية العربية عن عبد الناصر، رغم أن البعثيين تكلموا أيضاً عن الوحدة والتحرر والاشتراكية وحلموا بأمة عربية واحدة. كان صدام حسين نفسه قادماً آخر من المحافظات، اكتشف السياسة في سن المراهقة. كان من أقلية سنية في بلد ذي أغلبية شيعية، وقد انجذب إلى رسالة الحزب المتمثلة في الوحدة العربية السامية، ومن خلال الانقلابات والنفي والسجن، صنع صدام حسين مهنة من السياسة، ودخل أخيراً الحكومة العراقية عندما أصبح أحمد حسن البكر ديكتاتوراً عقب انقلاب عام ١٩٦٨. كان صدام حسين في الواحدة والثلاثين فقط، لكنه سرعان ما أثبت وجوده كقوة وراء العرش. بعد عقد من الزمان أو نحو ذلك، تقدم إلى الأمام ليثبت أنه السلطة الفعلية على العرش: تقاعد البكر بسبب "اعتلال الصحة" في عام ١٩٧٩.

على الرغم من أن صدام حسين كان بارعاً في تقليد لغة الثورة والتحرير، ولم يهدر بالكامل عائدات النفط العراقية (كانت مستويات المعيشة مرتفعة بالنسبة إلى المنطقة، وكذلك قد طور أيضاً الصناعة والتعليم والرعاية الصحية)، إلا أنه كان واضحاً منذ بداية ديكتاتوريته أنه لم يكن رجلاً لطيفاً جداً. واعتاد جورج بوش الأب وجورج دبليو بوش على المقارنة بينه وبين هتلر، لكن الزعيم البعثي كان لديه أنموذج ديكتاتوري آخر، وكان لا يخجل منه. لقد كان يحاكي

ستالين بشكل علني، وليس فقط بمعنى أنه كان يضع شارباً سميكاً ولديه شغف بالألقاب العسكرية رغم أنه لم يخدم في الجيش مطلقاً. بعد فترة وجيزة من توليه منصب الرئيس، أعلن صدام حسين أن البعثيين دخلوا "العصر الستاليني"، وأعلن عن عزمه على "أن يضرب بيد من حديد كل من يرتكب أدنى انحراف أو تراجع". وفعل ذلك، متهماً ثمانية وثمانين من كبار أعضاء الحزب بالخيانة في اجتماع للحزب بعد أسبوع واحد من وصوله إلى السلطة. أُعدم اثنان وعشرون شخصاً "لتشجيع الآخرين pour encourager les autres[1]"، وستصبح عمليات التطهير والتعذيب والقتل السياسي من السمات المميزة لنظامه.

ثم كان هناك عبادة الشخصية المكللة بالورود[2]، جنون العظمة، وقمع الأقليات، والتظاهر بالقرب من الناس - كان لدى صدام حسين خط هاتفي مباشر مع القصر الرئاسي تم تثبيته في الثمانينات - والكتب، العديد من الكتب، على الرغم من أن صدام حسين، مثل ستالين، لم يدّعِ أنه مبتكر أيديولوجي بل "أفضل تلميذ" لكبير أيديولوجي الحزب (في هذه الحالة، ميشيل عفلق). كانت أعماله الخاصة سطحية، مملة وخطيرة، وعززت الوهم بأنها ببليوغرافيا كبيرة عن طريق الخدعة الديكتاتورية المتمثلة في جمع الخطب، (وهي قياسية الآن بدقة)، وإعادة تجليد المقابلات الطويلة، وإلحاق حرف الجر عن لمجموعات من التفاهات من أجل خلق الانطباع بوجود النظرية[3]، لذلك كانت تلك الكلاسيكيات مثل: **عن التاريخ والتراث والدين** (١٩٨١)، **سياستنا هي تجسيد لحاضر ومستقبل الأمة** (١٩٨١)، **لهذا يجب علينا محاربة الفرس** (١٩٨٣)،

---

١ - تعبير فرنسي يعني "لتحذير الآخرين" ابتدعه الكاتب الفرنسي فولتير في كتابه كانديد أو التفاؤل عند إشارته إلى إعدام الأدميرال جون بيانع في ١٧٥٧ وهو في الثانية والخمسين. المترجم

٢ - كانت التماثيل التي تمثل حسين متنوعة بشكل ملحوظ في موضوعاتها: بدا يرتدي زي رجل أعمال، جندي، رياضي، حاج يركع في الصلاة، أب محب، الأب الحكيم مع ابنه على ركبته، وما إلى ذلك. قد يظهر إلى جانب الملك البابلي القديم نبوخذ نصر في مركبته؛ كان يجب أيضاً مقارنته بصلاح الدين الأيوبي، بينما غنى شعراء البلاط المديح "لمشكّل التاريخ" ونسبوا إليه خلق "إنسان عربي جديد". المؤلف.

٣ - كان الطموح الأدبي سائداً في الأسرة: في أوائل الثمانينيات، نشر أحد أعمام حسين كتاباً بعنوان "الثلاثة الذين ما كان على الله أن يخلقهم: الفرس واليهود والذباب". تم تعريف الفرس على أنهم "حيوانات خلقها الله على شكل البشر". كان اليهود "مزيجاً من الأوساخ وبقايا أناس متنوعين". الذباب، "الذي لا نفهم غرض الله من خلقه" كان أقل الثلاثة إزعاجاً. المؤلف

وأمريكا تحصد الأشواك التي زرعها حكامها في العالم (٢٠٠١) كائنات مادية موجودة في العالم. لقد كانت أعمالاً عامة: يمكن بسهولة إرفاق اثنين على الأقل من هذه العناوين بنصوص كتبها فيدل كاسترو أو أي قائد كوري شمالي خلال السبعين سنة الماضية. كان بعضها معقولاً: تحتوي **الثورة والمرأة في العراق** (١٩٧٧) على الكثير من الكلمات التقدمية حول أهمية تثقيف النساء وإدخالهن في القوى العاملة. يقول صدام حسين، لا يمكن أن يكون المجتمع حراً حتى تتحرر المرأة، و"الثورة ليست ثورة حقيقية إن لم تتضمن تحرير المرأة". أما بالنسبة إلى القوى التي تعيقها، فيستخدم صدام حسين لغة مشفرة، في إشارة فقط إلى "أغلال التخلف التي فرضها الماضي" بدلاً من ذكر قوانين أو أعراف إسلامية محددة. حتى جزار بغداد كان يعرف متى يراقب كلماته.

كان ذلك صدام حسين في عهده الحديث. في الثمانينيات من القرن الماضي، في ١٩٨٠ ظهر عنصر ديني في خطابه وعقيدته.

بدأ صدام حسين في التعريف بنفسه والبعثيين كمدافعين عن الإسلام السني ضد الفرس الشائنين، الذين اتهمهم باستخدام الدين كستار دخاني لما كان حقاً حرب انتقام من أجل الفتح العربي منذ أكثر من ألف عام. مع مرور السنين وتضاعف مشاكله، صار صدام حسين يعتمد بشدة على الإسلام والتاريخ العسكري المجيد للعرب في طقوس عبادة شخصيته. فعلى سبيل المثال، قدم "دليلاً" على انتسابه وتحدره من أصل النبي محمد، وأطلق على طائرته الخاصة **اسم البراق**، وهو الحصان المعجزة الذي ركبه النبي من مكة إلى القدس في ليلة واحدة، في حين أشاد شاعر بأنه "الولي" صدام. الذي "جلب نور الله/ إلى القبائل العربية/ وكسر أصنامهم/ منذ عصور طويلة مضت". حتى أنه بقرب نهاية نظامه، وفي أعقاب كارثة حرب الخليج الأولى والسنوات التالية من العقوبات الأمريكية، أمر صدام حسين بكتابة القرآن بدمه كدليل على تفانيه في خدمة الإسلام.

وفي الوقت نفسه، دخلت كتابات صدام حسين الخاصة مرحلة جديدة. ففي حين أن منشوراته السابقة كانت تمارين عنيفة إلى حد ما في الأدب الديكتاتوري وتقدم القليل في طريق الابتكار، بدأ الآن تجربة جذرية. وصار يستخدم السرد ليس كتعبير عن عبادة الشخصية، بل للشخصية نفسها، ومحاولة التواصل مباشرة مع "الشعب". وبعبارة أخرى، بدأ يكتب مثل

المؤلف "الحقيقي"، وفي أثناء قيامه بذلك، صار أول ديكتاتور يجلس على سدة الحكم ويؤلف عملاً خيالياً منذ أن طرح فرانكو **العرق** في غضون أسبوعين في العام ١٩٤١. ومع ذلك، فإن رواية صدام حسين، الرومانسية التاريخية الفلسفية التي كان عنوانها **زبيبة والملك**، كانت أكثر طموحاً وأكثر شخصية من ميلودراما فرانكو الجافة. إنها ليست جيدة بأي حال من الأحوال، لكنها على الأقل من عمل إنسان وليس نُصباً، وبالمقارنة مع معظم الأعمال الأخرى في الشريعة الديكتاتورية، فهي صادقة جداً.

وفقاً لسعدون الزبيدي، الذي كان مترجماً للغة الإنجليزية في خدمة صدام حسين لسنوات عديدة، لكنه أنهى سنوات خدمته بالعمل كمحرر فعلي له، فإن **زبيبة والملك** هي أكثر أعمال الديكتاتور قرباً من السيرة الذاتية. بدأ صدام حسين كتابة الكتاب في عام ٢٠٠٠، بعد أن وقع في حب ابنة أحد مستشاريه البالغة من العمر ٢٤ عاماً. وتصغره بتسعة وثلاثين عاماً فقط، أصبحت زوجته الرابعة، كما يقول الزبيدي، وأعطت الديكتاتور المحاصر والمخذول "الإلهام" و"الحيوية" - حتى إنها "شجعته على الإمساك بالورقة والقلم". لذا، وهو يستوحي من هذا الإحساس بتجدد العاطفة، نزل صدام حسين من عليائه وأصبح بشرياً ضعيفاً مرة أخرى، وهو يجلس ليروي القصة المأساوية لملك وثني معزول ومنعزل وامرأة شابة مسلمة جميلة تحبه وتموت من أجله. وعلى الرغم من كونه سيرة، فإن الكتاب ليس سيرة ذاتية؛ كما أنه ليس قصة رمزية مباشرة عن العلاقة بين العراق والولايات المتحدة الشريرة الإمبريالية، رغم أن هذا التفسير يمكن الدفاع عنه. كلا، كانت **زبيبة والملك** ككل جامحة تماماً وأكثر إثارة للاهتمام من ذلك بكثير.

على عكس العديد من طغاة القرن العشرين الذين استطاعوا الكتابة باحتراف كافٍ - على المستوى الصحفي على الأقل - فإن صدام حسين كان هاوياً. لكنه هاوٍ بالمعنى الأكثر إثارة للاهتمام، لأنه لا يستطيع التحكم تماماً في كلماته[1] أو موضوعه، ومن المؤكد أنه لا يستطيع التحكم في هيكل كتابه. هذا يعطي روايته شيئاً ما من نوعية العمل الفني الخام في شكله النثري.

---

١ - في مقابلة مع صحيفة "هآرتس"، اشتكى الزبيدي من أنه "عندما يعثر على كلمة جديدة، خاصةً كلمة معقدة، يصبح مفتوناً بها وباستخدامها مراراً وتكراراً، بشكل غير لائق دائماً". المؤلف

يبدأ القصة بديباجة طويلة تستحضر أمجاد العراق ببراعة، قبل أن ينتقل إلى تقنية تأطير القصة -داخل - القصة المألوفة في أعمال مثل ألف ليلة وليلة أو "**الليالي العربية** ". ومع ذلك، فإنه ينبه القارئ على الفور إلى حقيقة أن هذا لن يكون عملاً من قصص المغامرات أو الفكاهة أو الإثارة الفاضحة، بل شيء أثقل بكثير. الديكتاتوريون هم أعداء الضحك عادة، رغم أن الكثيرين منهم يستمتعون بحياة جنسية مثيرة على انفراد، إلا أنهم دائماً ما يفرضون قواعد أخلاقية متشددة على رعاياهم. وهكذا يؤكد صدام حسين أن الكتاب سيكون جاداً، لأنه "في العراق ليس من المعتاد أن تُروى الحكايات والنكات من دون هدف". ثم، لكي يشدد على موقفه، لا يجعل الراوي أميرة جميلة تسعى للهرب من الموت على يدي طاغية يستسلم لنزواته ومتعطش للجنس، بل رجل يروي قصة سمعها وهو صبي من جدة عجوز في تكريت (وليس من قبيل الصدفة أن تلك المدينة هي مسقط رأس صدام حسين)، لكن صدام حسين المؤلف يتردد في التخلي عن السيطرة تماماً مثل صدام حسين الديكتاتور؛ ولا تمضي الجدّة في السرد بضع فقرات حتى يقاطعها بسلسلة من التدخلات المتأملة عن الاضطرابات الداخلية للحاكم.

> ألا ترهق المتاهة المعقدة لقصوره وأثاثه وجدرانه السميكة روح الشخص الذي أحاط نفسه بالعديد من الأشياء عديمة الفائدة؟ ألا تكون روحه قد ماتت نتيجة لذلك، بعد أن فقد حسه الجمالي تماماً؟

وليس قبل الصفحة الثامنة قرر راوي صدام حسين التخفيف من الصرخات الديكتاتورية لطلب للمساعدة والسماح للجدة بمواصلة رواية قصة ملك فخور قوي أراد من "الملوك الذين حكموا في أقصى مناطق العالم أن يخضعوا له". ثم تبدأ القصة، حيث يعثر الملك على قصر بحجم قصره تقريباً أثناء تنزهه ذات يوم. في كوخ على مشارف أراضي القصر (التي يملكها تاجر يدعى حسقيل) تعيش زبيبة مع والدها المسن. وبعد أن أدهشه جمالها وحكمتها، قام الملك بدعوتها إلى قصره، حيث عرف قصتها المأساوية: الضرورة الاقتصادية أجبرت والدها على تزويجها من ابن عمها المتوحش، وهو عضو في عصابة حسقيل.

ثم يحدث شيء غريب. بدلاً من قتل ابن عمها وجعل زبيبة محظية له - كما قد تتوقع من ملك وثني من القرن السابع الميلادي - يقوم الملك بقضاء أمسياته ولياليه في مناقشات عفيفة

معها عن القيادة وفن الحكم. في هذه المحادثات، تقوم زبيبة بتعليم الملك، وتسعى إلى تقريبه من رعاياه، وتقدم له رؤى من هذا القبيل: "أنت بحاجة إلى أن تصبح جزءاً حياً من الناس وضميرهم وأفكارهم وأعمالهم".

يدرج صدام حسين أحياناً عناصر من قصة حياته في الرواية. عندما يشرح الملك لزبيبة كيف طُرد من منزل والدته ليعيش مع عمه، عندما كان طفلاً، ثم استُدعي ليعيش بين أقاربه الذين يحتقرونه، وهذا يناسب تجربة صدام حسين الخاصة. لكن، وفي معظم الأحيان، تكون أوجه التشابه أقل مباشرة، وإذا كان المقصود من الملك أن يكون صورة ذاتية، فإنه يكون غير مبالٍ للغاية (على الرغم من قراءة الكتاب كإشادة بزوجة صدام حسين الشابة الجديدة، إلا أن الكتاب ممتع للغاية). حتى اجتماعه مع زبيبة، كان الملك حاكماً منفصلاً بعيداً ولا يفهم شعبه. إنه ليس مسلماً، لكنه وثني متلعثم وجد بالصدفة، ويشتكي من فقدانه مفتاح الخزانة حيث يحتفظ بإلهه؛ وزبيبة هي التي تعلّمه عن الإسلام.

أيضاً، الملك غبي جداً. بعد أن تبعد زبيبة كوباً من شاي البابونج المسموم عن شفتيها الحبيبتين، تهمس:

> أخشى أن يكون هذا سهماً مسموماً جديداً، يهدف إلى قتلك وقتلي أنا أيضاً.
>
> يرد عليها الملك الشديد الغباء:
>
> لكن شراب البابونج ليس سهماً!
>
> بعدها تشرح له زبيبة بصبر:
>
> أنا أتحدث مجازياً، أستخدم السهم كمقارنة فقط...

في بعض الأحيان يعلو السرد على الخطاب السياسي البغيض وأساليب الحبكة المكتوبة بطريقة خرقاء. ملك صدام حسين محاصر في زواج بلا حب، وصار يتوق إلى أكثر من مجرد تأملات زبيبة في فن الحكم. في بعث شعري لآلام الانفصال، يعلن صدام حسين أن الملك يشعر بالغيرة "من الهواء والماء وحتى من كل لقمة طعام في فمه". في أوقات أخرى، يندب الملك عزلته الرهيبة بحدة تجعلك تكاد تسمع صدام حسين نفسه يثب في غرفة نومه ليلاً وهو يختبئ في مكان آخر لم يكشف عنه، بمفرده (بشكل طبيعي).

محاطاً ببطانته المتآمرة والأقارب والخدم، ناهيك عن زوجة معادية، يشرح الملك أن توقه للتواصل الإنساني هو الذي جعله يقع في حب زبيبة:

> أحببتك لكيلا أموت من داخلي، ولكي أبقى قريباً من الحياة... قريباً من الشعب، بل جزءاً منه وقائداً له. لا أريد أن أكون واحداً من الآلهة وأركن في معبد تقدم إلي النذور المقدسة فحسب. وإنما معكم أصنع الحياة، معكم وبكم، وأستقبل معكم الشمس.

في العالم المادي، حكم صدام حسين باثاً الخوف. في العالم الذي ابتكره على الورق، يُحِبّ الملك ويُحَبّ. في مشهد القتال الروتيني الذي يُنهي الرواية، ترمي زبيبة نفسها أمام سيفٍ كان يستهدف الملك "عرب" (كما تكشف أخيراً). الحب يلهم كلاً من زبيبة والشعب للنهوض دفاعاً عن زعيمهم وأرضهم ضد الغازي الأجنبي الغاشم، ويظهر الرمز. أمريكا تخسر والعرب يربحون، وعلى الرغم من مأساة موت زبيبة، إلا أن الأمور ستتحسن.

تتألق هواية صدام حسين في هذه النهاية المثالية. لم يكن بعد في سيطرة كاملة على السرد، ومن خلال عدم أهليته كراوي قصص، تظهر بعض المكاشفات غير المقصودة. من اللافت للنظر أن ينتهي مشهد المعركة الختامية في فقرتين على وجه التحديد، وأن يكون الملك غائباً تماماً عن المشاهد القتالية - حتى نتذكر أن صدام حسين لم يخدم أبداً في الجيش ولم تكن لديه خبرة في القتال. غير قادر على تخيل شيء لم يسبق أن عايشه، يصبح صدام حسين عندما يواجه الحرب مثل بريجينيف من دون وجود جسدي.

عندما يتعلق الأمر بالاغتصاب والاعتداء الجنسي، فإن صدام حسين يتسم بالسخاء في إظهار التفاصيل. تشتكي زبيبة في وقت مبكر وغالباً من الجنس الكريه الذي يفرضه عليها زوجها: "أنا ميتة في منزلي، وتتحلل جثتي عندما أكون في الفراش مع زوجي". كان وطء الجثث استعارة غير فعالة عند صدام حسين، لذا يجمعه مع البهيمية، حيث تشتكي زبيبة من أن زوجها يعاملها كما يعامل الكبش نعجة، مهتماً فقط بتكرار أدائه وليس بمتعته الجنسية. ثم، في واحدة من أغرب المقاطع في الأدب الديكتاتوري، تغزل زبيبة حكاية حب الرجل الدب، والتي يبدو أن صدام حسين يعتقد أنها شيء من شمال

العراق. تناقض زبيبة تقنيات إغواء زوجها بشكل غير مواتٍ مع أكلة العسل المنحرفين متعددي الشريك[1]:

حتى الحيوان قد يراعي رغبة الإنسان لو أراد مواقعته. ألا تداري أنثى الدب الإنسان عندما تخطف راعي غنم في جبل في شمال العراق؟ أو القرى القريبة من تلك الجبال، وتضعه في مغارة ليكون أمام أمر واقع يضطره لمواقعتها، نزولاً لما يظهر عليها من رغبة في ذلك؟ ألا تأتي له بالجوز من فوق الأشجار أو ما يقع تحتها، ألا تحاول السطو على بيوت الفلاحين ليلاً لتسرق له الجبن واللوز والجوز بل وحتى الزبيب لتطعمه فترضيه لتفوز برغبته فيها؟[2]

حسناً... كلا، في الواقع.

يتصاعد التدهور، بينما تكتشف زبيبة أن زوجها يشارك في حفلات العربدة والاغتصاب التي يدبرها راعيه، حسقيل، للأمراء والوزراء والنبلاء، ناهيك عن "القوادين الكبار والصغار ومتوسطي الحجم". وهناك لعبة شائعة هي "التمزيق في الغابة:

تلعب اللعبة على هذا النحو: يركض الجميع خارج القصر إلى الحديقة والساحة، وبعد ذلك يحاول الرجال الإمساك بالنساء. يمكن لأي امرأة أن "تمزق" من قبل أي رجل وليس هناك اتفاق مسبق. يمكن للمرأة أن تدافع عن نفسها باستخدام يديها فقط، بينما يحاول الرجل أخذها، حتى يتغلب عليها بالقوة. أو أن يتظاهرن بالدفاع عن أنفسهن.

إذا رفضت النساء المشاركة، فسيقوم رجالهن بتطليقهن. وحدها زبيبة، "ابنة الشعب وضميره"، هي التي تمكنت من إبعاد نفسها عن المشاركة، حتى عندما كان الأمراء الثملون يسقطون عند قدميها، ويظهر أجانب أشرار لهم بشرة ناعمة وعيون زرق. في هذه المرحلة، يكشف صدام حسين عن نفسه أكثر من اللازم، لأنه فقط بعد سماع هذه القصص عن ألعاب

---

١ - هو مفهوم في التحليل النفسي يقترح القدرة على اكتساب الإشباع الجنسي خارج السلوكيات الجنسية المعيارية اجتماعياً. استخدم سيغموند فرويد هذا المصطلح لوصف التصرف الجنسي من الطفولة إلى سن الخامسة. المترجم

٢ - في الحاشية السفلية، يشير مترجم الطبعة الإنجليزية إلى أن الدب هو كناية عن روسيا، لكن روسيا ليست جارة للعراق من الشمال. وهكذا يبقى الأمر غامضاً. المؤلف

الاغتصاب، يواصل الملك أخيراً علاقته مع زبيبة. نحن بعيدون الآن عن أصول الكتاب كحكاية لطفل تنسجها الجدة اللطيفة، على الرغم من أن المحادثات الفلسفية الطويلة في جميع أنحاء الكتاب قد حددت بالفعل المسافة الكبيرة. ومع ذلك، ومن المثير للاهتمام، أنه في هذه اللحظة من ذروة السرد، عندما يدخل الملك بزبيبة، يتذكر صدام حسين فجأة وعائه القصصي الأصلي. بعد ١٢٠ صفحة، تعود الجدة اللطيفة إلى الظهور فجأة، وتتحدث إلى جمهورها من الأولاد الصغار:

> واصلت المرأة العجوز: "البعض يشتهي الحصول على محظيات الملك وزوجاته وبناته. أليست هذا شهوة مفرطة، وبطريقة ما، بداية التوق إلى الحصول على شيء غير ممكن على الإطلاق؟ في هذه الحالة، كيف تختلف الشهوة عن التوق؟".

بعد هذه التأملات الفلسفية العميقة، تُنبّه أحد الأولاد الأكبر سناً لخطر الاحتلام الليلي: "إذا بدأت بالتفكير فيهن، فستحلم في الليل أنك أخذت واحدة منهن". وبعد صفحة أو اثنتين لاحقاً، تعود إلى الظهور. لتصف بتفاصيل تصويرية ما حصل، عندما كانت زبيبة تسير إلى منزلها عائدة من القصر، سقطت من على حصانها، مقيدة، مكمّمة، واغتصبت ثم اغتصبت مرةً أخرى - كل ذلك من قبل زوجها، الذي كان يضع قناعاً والتي مزقت حلقه بأسنانها. وعلى حد تعبير الراوي، "كنت أعرف أن الجدة غالباً ما تجد قصصاً ذات محتوى أخلاقي مفيد بالنسبة إلينا."

وهكذا، مثلها مثل كل الروايات العظيمة، على الرغم من أنها في الواقع رواية فظيعة، فإن **زبيبة والملك** كانت لها حياتها الخاصة. تكشف، وتخفي، وتلعب الألعاب مع قارئها. في الأيام الأخيرة من حكمه، أصبح صدام حسين كاتباً حسن النية. لم يكن مجرد شخصية سياسية يتعامل بوحشية مع رعاياه بدوافع فظة. كان رجلاً يسعى إلى قول الحقيقة عن تجربته الخاصة من خلال الروايات. إن لم تكن الحقيقة كاملة تماماً، وإن كان قد شوه الأشياء مبالغاً فيها حد الكذب في بعض الأحيان، فهل هذا لا يجعل منه روائياً؟

صار صدام حسين مكرساً لهذه المهنة الجديدة التي، كما يقول الزبيدي، جعلته يهمل واجباته كديكتاتور في السنوات الأخيرة من نظامه، و"يحبس نفسه في مكتبه وكتابته". في

روايات مثل **القلعة الحصينة. رجال ومدينة**، وعنوانه المثير **اخرج منها يا ملعون!** نسج صدام حسين المزيد من حكايات الملوك والأمراء، والحب والغزو والخيانة. وعلى الرغم من أنه نشر هذه الكتب دون الكشف عن هويته ("رواية كتبها مؤلفها")، لم يكن سراً في العراق أو في أي مكان آخر في العالم أنه المسؤول عن هذه المؤلفات المثيرة، فالضعف الواضح في الصنعة الروائية كان كافياً لتبديد الشكوك في تورط المحترفين[1] خفية في الكتابة له.

كانت الكتب شخصية جداً، ومهمة جداً لصدام حسين، حتى إنه عمل عليها حتى نهاية حكمه. انتهى من كتابه **اخرج منها يا ملعون!** مباشرة قبل معركة بغداد في عام ٢٠٠٣. استمرت عملية التحرير طوال القتال، وأنهى الناشر الرئاسي "الحرية" طباعة الكتاب قبل ساعات فقط من توقف القتال، وقد عززت الولايات المتحدة من سيطرتها على المدينة. كان عنوان هذه الرواية الأخيرة توبيخاً مباشراً للقوات الأمريكية الغازية، وهي نفس القوات التي أخرجته من الحفرة التي كان يختبئ فيها وسلمته إلى شعبه.

كان أولئك هم نفس الأشخاص الذين خاطبهم في **زبيبة والملك**، والذين كشف لهم روحه مراراً وتكراراً، في رواية تلو الأخرى، في جهد يائس للتواصل مع القراء الذين شنقوه.

---

١ - نشرت صحيفة اليوم السعودية على موقعها الإلكتروني بتاريخ ٦/ ١٠/ ٢٠٠٣ خبراً مفاده "اتهمت زوجة القاص والناقد سامي محمد المخابرات العراقية باغتيال زوجها بعد أن كتب رواية (زبيبة والملك) التي اشتهر أن كاتبها الرئيس السابق صدام حسين، للحفاظ على أسرار الرواية وكيفية كتابتها. وقالت زوجة الناقد السينمائي والقاص الراحل سامي محمد الذي توفي في ٢٨ من سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠٠ إن زوجها لم يمت ميتة طبيعية وإنما قتله النظام السابق حالما انتهى من كتابة الرواية وحتى قبل طبعها وتوزيعها". المترجم

٥- ما بعد الاتحاد السوفييتي: الرفيق زرادشت

في روسيا، كانت التسعينيات تمثل حقبة انتقالية، تتلمس طريقها في الظلام الفوضوي نحو دولة لم تولد بعد. بين عشية وضحاها تقريباً، انهارت الطقوس اللغوية اليابسة التي مورست لمدة سبعين عاماً وتحولت إلى غبار. أولئك الذين سعوا إلى ممارسة مهنة في عصر الرأسمالية اللصوصية لم يعودوا "رفاقاً" أو يتحدثون عن الخطط ذات الخمس سنوات وحصص الإنتاج، أو يبحثون عن اقتباسات مناسبة من لينين لتوضيح ما يقصدونه. بدلاً من ذلك، حاولوا استحضار واقع جديد يستند إلى مجموعة مختلفة من التعاويذ. الآن، حملت كلمات مثل **حكم الأقلية**، **الخصخصة**، **والقروض مقابل الأسهم والعلاج بالصدمة** كل سر مقدس.

في هذا السياق، بدت الممارسة السوفييتية المتمثلة في توليد "النظرية" شيئاً عجيباً وكخرافة غير قابلة للتفسير تقريباً في زمن أبسط وأكثر سذاجة. لقد فقد كتاب الديكتاتور، رمز الإمبراطورية الفاشلة والمختلة، مكانته، ولم يعد من الضروري حتى تقديم احترام شفهي لأعمال لينين وخلفائه. لقد ترك ذلك لأمثال غينادي زيوجانوف، المتوسط الذي تولى قيادة الحزب الشيوعي للاتحاد الروسي في عام ١٩٩٣، والذي قاده منذ ذلك الحين في شتائه الطويل غير المجدي. إن نشر كتابٍ عن ستالين في أواخر عام ٢٠٠٩، كما لو أن التقاليد الماركسية اللينينية لا تزال مهمة وأن تراكم الكلمات ما يزال خطوة حاسمة في الحياة السياسية، كان في الحقيقة، عملاً فارغاً لعبادة الأسلاف.

هذا لا يعني أن كلمات الزعيم فقدت كل الأهمية. فقد سبقت عبادة الكتب الروسية السوفييت، وما زال الرئيس الجديد المنتخب ديمقراطياً بوريس يلتسين ينشر مجلدات تحمل اسمه، لكنه فعل ذلك على غرار سياسي غربي ديمقراطي، أي أن كتبه لم تكن من أعماله الأيديولوجية أو حتى الأيديولوجية المزيفة، بل مجرد مذكرات تبرر نفسها بنفسها، قام بكتابتها كاتب خفي محترف، وهو يأمل من خلاله أن يسمّن رصيده المصرفي. ومع ذلك، وبالرغم من أن كتب يلتسين كانت غير لازمة وغير ضرورية، إلا أنه ظل لها تأثير كبير (إن لم

يكن غير مباشر) على مستقبل البلد. عندما لم يولّد المجلد الثاني من مذكراته، **"ملاحظات من رئيس"**، ملايين الدولارات من حقوق الطبع الأجنبية التي كان يلتسين يأمل بها، تدخل الأوليغارشي سيئ السمعة بوريس بيريزوفسكي بغرض "إصلاح" الموقف. رتب بيريزوفسكي لنشر الكتاب في روسيا، وادعى فيما بعد أنه دفع ملايين الدولارات "كحقوق" في حساب يلتسين المصرفي، وحشا جيوب الرئيس إلى درجة مقبولة. بعد أن أجرى بيريزوفسكي هذه الخدمة على الحروف الروسية، تمكن من الوصول إلى الدائرة الداخلية للرئيس، وكان دوره كلاعب خفي في الكرملين، هو الذي دفع في وقت لاحق من أجل تعيين عقيد سابق في الكي جي بي يدعى فلاديمير بوتين ليكون خليفة يلتسين.

في غضون عام من انتخاب بوتين، كان بيريزوفسكي يعيش في المنفى، حيث اتضح أن الدمية التي اختارها كانت أقل انخداعاً بكثير من يلتسين. ومع توطيد بوتين وتوسيع قوته بشكل مطرد، أصبح من الواضح أنه كان أقل اهتماماً بتغطية نفسه بالمجد الأدبي أكثر من أي زعيم روسي منذ القيصر نيكولاي الثاني. على الرغم من اهتمامه بتحديد "فكرة قومية" لروسيا ما بعد الاتحاد السوفييتي، إلا أنه لم يبدأ في إنتاج مقالات حول هذا الموضوع، وحتى إن كان يشير بشكل حر إلى الفلاسفة خلال خطبه، فإنه لم يجمع تلك الخطب في مجلدات ضخمة سميكة تجعل كل حاكم محلي مضطراً لعرضها في مكتبه. قام بإحياء الرموز السوفييتية والنشيد الوطني القديم (وإن كان بكلمات جديدة) واستبدل كلمة ستالينغراد بفولغوغراد والشعلة الخالدة بجوار جدران الكرملين، لكنه كان أقل اهتماماً بكثير بالنصوص المقدسة للنظام القديم. كان اهتمامه هو التحكم في التلفاز بدلاً من الطباعة، وبالتالي بدلاً من نشره خطباً طويلة بشكل لا يصدق بين الأغلفة، شارك مرة واحدة في العام في أحاديث هاتفية طويلة للغاية مع الأمة بدلاً من ذلك. وفي الوقت نفسه، قدم أناس العلاقات العامة العاملين معه شيئاً جديداً على الدعاية الروسية: التركيز بطريقة موسوليني على الجسم الحي الديناميكي للزعيم.

بينما وضع ستالين جثة في قلب الاتحاد السوفييتي، طار بوتين بالطائرات وعبث مع النمور، واستعرض بلا قميص على ظهور الخيل وخاض في المياه ببندقية صيد. أما النصوص التي أصدرها، فكانت قليلة العدد وبراغماتية. نُشر **الشخص الأول**، بناءً على أكثر من أربع وعشرين ساعة من المقابلات أجريت في عام ٢٠٠٠ لتقديمه إلى العالم: قد تكون أكثر مقاطعه إثارة

للاهتمام خطاباً قصيراً من بوتين حول الدروس التي تعلّمها أثناء ملاحظة الفئران المحاصرة[1].
كتابه الثاني: **الجودو: التاريخ، النظرية، الممارسة** (٢٠٠٤)، شدد على مؤهلاته كرجل فعل قوي لكنه منضبط للغاية - في تناقض صارخ مع سلفه المترهل، المدمن على الكحول. إنه دليل جودو حقيقي وصادق بشكل كامل مع الكثير من الرسومات لرجال في بيجامات يتصارعون مع بعضهم البعض، قد يكشف **الجودو: التاريخ، النظرية، الممارسة** عن بعض الأفكار وراء غرضه البسيط الظاهري. على وجه الخصوص، استكشاف كوزوشي kuzushi، فن عدم التوازن في الجودو، الذي يكشف الكثير عن استراتيجية بوتين في السياسة الدولية، حيث غالباً ما كان يحول نقطة ضعف واضحة إلى ميزة ضد خصم أقوى من الناحية النظرية.

لم يكن حتى عام ٢٠١٥، عندما كان بوتين قد أمضى عقداً ونصف العقد من حكمه، أن ظهر أي شيء يحمل اسمه ويتوافق مع أعراف الكتاب الديكتاتوري، وحتى مع ذلك، كانت هناك اختلافات كبيرة. كان **كلمات عالم متغير** عبارة عن مجموعة من تسعة عشر خطاباً ومقالة نسبت إلى بوتين. من خلال هذه النقطة، كان الديكتاتور السوفييتي يستطيع أن يملأ ما لا يقل عن عشرة مجلدات بهذا النوع من المواد، ولكن ضبط النفس لم يكن هو الفرق الوحيد. ككائن أدبي، تبدو **كلمات عالم متغير** مختلفة تماماً عن أي كتاب ديكتاتور سبقها. المطبوعة على ورق لامع ومليئة بالصور الملونة والاقتباسات التي لا تنسى، لا تشبه إلى حد كبير مجلد النظرية بسبب الغلاف الفني اللامع الذي أعده فريق التسويق ليتم توزيعه في المؤتمرات الدولية.

* * *

إذا كان أدب الديكتاتور قد تلاشى في القدس الجديدة السابقة، فإن هذا التقليد قد نال حياة جديدة في جمهوريات آسيا الوسطى في الاتحاد السوفييتي السابق. في الأنظمة الاستبدادية الصريحة في كازاخستان وأوزبكستان وطاجيكستان وتركمانستان (وحتى في نظام قرغيزستان الأقل استبدادية)، تواصل المثل الأعلى للزعيم العبقري، وكذلك العسف والإكراه، لإثبات

---

١ - "هناك، عند راحة الدرج، تلقيت درساً سريعاً ودائماً في كلمة محاصرة. كانت هناك جحافل من الفئران في المدخل الأمامي. كنت أنا وأصدقائي نطاردهم بالعصي. ما إن رصدت جرذاً كبيراً وطاردته في القاعة، حتى أخرجته إلى الزاوية. لم يكن لديه مكان للركض. فجأة هاجمني وقذف نفسه في وجهي. لقد فوجئت وخفت. صار الجرذ الآن يطاردني. قفزت الى أسفل الدرج. لحسن الحظ، كنت أسرع قليلاً وتمكنت من إغلاق الباب في وجهه". المؤلف

ذلك العبقري من خلال كتابة الأشياء. لقد أدى اختفاء الأيديولوجيا الماركسية اللينينية الموحدة إلى خلق فراغ أكبر في آسيا الوسطى أكثر منه في روسيا، التي كان لها على الأقل ماضيها الإمبراطوري الطويل لتعود إليه كبديل لهويتها السوفييتية. على النقيض من ذلك، كانت دول آسيا الوسطى عبارة عن مزيج خليط من الأعراق، ودول المدن القديمة، والقبائل المتحاربة التي تم جمعها معاً في العشرينيات من القرن الماضي من قبل "خبراء سوفييت"، صانعين لها تاريخاً معقداً امتد لآلاف السنين.

لم يضع هؤلاء "الخبراء" الحدود فحسب، بل كانوا يقسمون في بعض الأحيان المجتمعات القديمة (على سبيل المثال، إسناد مراكز قديمة للثقافة الطاجيكية إلى أوزبكستان)، بل قدموا أيضاً مفهومي "المواطنة" و"الاشتراكية" كبديلين للعشيرة والولاءات القبلية. لقد مزق بناة الأمة السوفييتية النقاب وقمعوا الإسلام وشنوا حرباً استمرت عقوداً ضد المتمردين الذين استسلموا أو اختفوا في النهاية عبر الحدود إلى أفغانستان. وفي الوقت نفسه، استوردوا ثقافة اشتراكية مكتوبة صُكّت حديثاً لتحل محل الثقافات المحلية القديمة الشفهية في المقام الأول. أنتجت حملات محو الأمية ملايين من القراء الجدد، وفي ظل ستالين، تم إرسال "مهندسي الروح" الروس إلى المنطقة لتدريب الكتاب والفنانين المحليين على كيفية كتابة الروايات والمسرحيات والشعر بأسلوب الواقعية الاشتراكية.

إن الإلغاء الفوري لكل ذلك في عام ١٩٩١ ترك الرؤساء الشيوعيين السابقين لهذه الدول المستقلة حديثاً يبحثون عن مبررات جديدة لسلطتهم. وإن لم يعد الهدف هزيمة الإمبريالية وانتصار البروليتاريا وحلم "الشيوعية الكاملة"، فما هو إذاً؟ والأهم من ذلك، كيف يمكن توحيد القوميات والعشائر المتباينة التي كانوا يسيطرون عليها الآن؟ وكيف يمكن تبرير تلك السيادة؟

بالنسبة إلى الرجل العادي، كان الرؤساء الجدد في آسيا الوسطى من المنتجات الفكرية للاتحاد السوفييتي، وأظهروا على غرار ستالين تجاهلاً حراً للدقة في تفسير ما حدث بالفعل في المناطق التي يسيطرون عليها الآن. بدلاً من ذلك، قاموا بإسقاط الهويات الوطنية التي كانت من اختراعات العصر الشيوعي في الماضي القديم. ورغم تجريدها من المحتوى الماركسي اللينيني، فإن الأشكال صمدت. في أوزبكستان، وُلد تيمور العظيم من جديد كبطل قومي بدلاً من كونه زعيماً لإمبراطورية عموم الإسلام، وأخذ مكان لينين على القاعدة. نسب نور

سلطان نزارباييف الكازاخستاني مزاعم إلى الفيلسوف والشاعر العظيم الفارابي من العصور الوسطى، وحل محل لينين على العملة. لكن إمام علي رحمن من طاجيكستان كان الأفضل، وقام بإعادة صياغة النبي زرادشت، مؤسس الديانة القديمة للإمبراطورية الفارسية، كسوبرمان أخلاقي على الطراز السوفييتي يحاكيه جميع الطاجيكيين.

لقد رحل لينين وستالين، لكنهما ألقيا ظلالاً ثقيلة -كما فعلت منشوراتهم. لم يكن كافياً مجرد العثور على أبطال في الماضي؛ وكان لا بد من إنشاء أبطال جدد أيضاً، واستخدم الديكتاتوريون في آسيا الوسطى الكتب لإثبات سلطتهم ودعم طقوس عبادتهم الشخصية. لكنهم حاولوا تكييف أعمالهم المنشورة مع العصر الجديد، والكتابة بأسلوب يتناسب بشكل أفضل مع أنماط وعادات العصر. وليوحوا إلى العالم بأنهم شركاء أعمال موثوقون وجاهزون للاستثمار، تبنى بعضهم استعارات الرأسمالية المستنيرة المسؤولة والديمقراطية والليبرالية. بعد قول ذلك، لم تكن السلطوية الاستبدادية أبداً بعيدة عن السطح، فقد كان هناك جمهور محلي ليكون في الحسبان رغم كل شيء.

ومن الأمثلة الجيدة على ذلك نور سلطان نزاربابيف، رئيس كازاخستان. وهي دولة شاسعة غنية بالموارد ذات أغلبية كازاخستانية مسلمة اسمياً، ولكنها تضم أيضاً عدداً كبيراً من السكان من كل الجنسيات الأخرى في الاتحاد السوفييتي السابق، حيث كان الروس أكبر مجموعة وممثلة بشكل كبير في عاصمة ألماتي التي ترجع إلى الحقبة السوفييتية. غازل نزاربابيف القومية الكازاخستانية والإسلام، لكنه صوّر نفسه أيضاً على أنه مُجدِّد وموحد، وزعيم حكيم يتسامح مع جميع الأديان، ويعتزم التنمية الاقتصادية والحفاظ على علاقات جيدة مع البلدان الأخرى في العالم (وطوال الوقت الذي قد يستغرقه ذلك يجعل من الواضح بجلاء أنه لن يخاطر أبداً بتخفيف قبضته على السلطة).

يميل نزاربابيف في منشوراته التي صدرت بعد الاستقلال إلى التوجه السوفييتي المتأخر. لم يكن مرتعباً بل مطمئناً وغير ثوري أساساً، رغم أنه كان حريصاً أيضاً على إظهار تحرره النفسي من المحرمات الماركسية اللينينية، وأشار إلى استعداده لعقد الصفقات والقيام بالأعمال. عند قراءة كتبه، يجعلك تعتقد أن العقود التي قضاها في التصفيق للاشتراكية لم تحدث قط. كانت العناوين ذاتها دمثة ومهدئة وتقريباً على غرار طريق كلينتون أو بلير "الثالث"[١].

١ - على عكس الطريق الثالث للفاشية الإيطالية، أو نظرية القذافي العالمية الثالثة، بالطبع. المؤلف

من الذي، بعد كل شيء، يمكن أن يعارض شيئاً يسمى "**العقد الحرج: استراتيجية لتطوير كازاخستان كدولة ذات سيادة، أو كازاخستان على عتبة القرن الحادي والعشرين**؟ وإذا غاص القارئ في الداخل، فلن يجد أفكاراً راديكالية أو اعتداءات لفظية على الإمبريالية أو صيحات التضامن مع المضطهدين العالميين، بل بالأحرى تعاليم نزارباييف في السياسة والتنمية والاقتصاد، فضلاً عن الكثير من الكلمات اللطيفة حول الحفاظ على علاقات متناغمة بين الجنسيات والجماعات الدينية. كان نزارباييف حريصاً بشكل خاص على التأكيد على مؤهلاته كرجل قادر على رؤية ما وراء نزاعات الحرب الباردة، الذي فعل ما بوسعه لتقليل مخاطر معركة يوم البطش (هرمجدون) النووية. وهكذا، في "**مركز السلام**"، الذي نُشر في الذكرى السنوية العاشرة لاستقلال كازاخستان، يذكّر نزارباييف شعبه (والعالم) باستعداده للتخلي عن ترسانة الأسلحة النووية الهائلة التي ورثتها الأمة عن الاتحاد السوفييتي. وكان قد أغلق أيضاً موقع الاختبارات سيميبالاتينسك، حيث فجر الاتحاد السوفييتي أكثر من ٤٥٠ قنبلة على مدى أربعين عاماً. من خلال منشوراته دائمة التوسع، واصل نزارباييف (الذي أطلق على نفسه اسم الرئيس الأول) التأكيد على مصداقيته من النوع المتحضر واللطيف، وكونه مزيجاً من الأب الحكيم والمدير التنفيذي الدؤوب لشركة كازاخستان كورب. أسلوب أدبه الديكتاتوري كان جديداً ولطيفاً على غرار رجال دافوس[1].

ومع ذلك، مع مرور السنين، أصبح نزارباييف أكثر إسرافاً وأكثر طموحاً. مكنته عائدات النفط والغاز الهائلة من متابعة مشاريع الغرور الضخمة، وأهمها بناء عاصمة جديدة بالكامل، أستانا ("العاصمة")، في وسط البلاد. من بين الهياكل المستقبلية التي أقيمت في السهوب التي تجتاحها الرياح، كان هناك هرم زجاجي يبلغ ارتفاعه مائتي قدم صممه نورمان فوستر يحمل الاسم الفخم "قصر السلام والمصالحة". وهنا راهن نزارباييف على مطالبه بمُثُل عليا عابرة للحدود الوطنية: كان المقصود من القصر تمثيل جميع أديان الكوكب وأيضاً كل مجموعة عرقية

---

١ - مصطلح جديد يشير إلى النخبة العالمية من الرجال الأثرياء (في الغالب)، الذين يعتبر أعضاؤها أنفسهم "دوليين" تماماً. مشتق من مدينة دافوس الصغيرة على نهر لاندويسر في مقاطعة براتيقو في كانتون غروباندن بسويسرا، حيث تعقد اجتماعات المنتدى الاقتصادي العالمي المنظمة الدولية غير الربحية المستقلة والمنوطة بتطوير العالم عن طريق تشجيع الأعمال والسياسات والنواحي العلمية وكل القادة المجتمعين من أجل تشكيل العولمة. المترجم

في كازاخستان، وجاء مع دار أوبرا تضم ١٥٠٠ مقعداً. بالطبع، فيما يتعلق بالرسائل الموجهة إلى الكوكب، يمكنك أن تفعل ما هو أسوأ بكثير، كما عبّر نزارباييف، الديكتاتور الموحد عن أفكاره المستنيرة في الطباعة. في عام ٢٠٠٩، أصدر **استراتيجية لتشكيل مجتمع ما بعد الصناعة وشراكة الحضارات**، أعقبها تكملة، **التجديد الراديكالي للمجتمع العالمي** (٢٠١٠). في هذين الكتابين، كشف شافي الكوكب الذي حصل على ٩١.٥ بالمائة من الأصوات عن أفكاره حول التنمية في عصر ما بعد الصناعة والعلاقات بين "الحضارات العالمية" - في الوقت الذي ألقى فيه أيضاً ببعض التعاويذ الإضافية عن البيئة وأمن الطاقة والتكنولوجيا من أجل مساعدة الإنسانية بشكل أكبر خلال الرحلة إلى المستقبل:

> إن القرن الواحد والعشرين الذي ندخله الآن، هو فترة ستشهد تعميق التكامل بين المجتمعات المختلفة على هذا الكوكب وتكثيف الحوار والشراكة من أجل حل مجموعة جديدة من المشاكل التي تواجه البشرية ككل. أعتقد أننا يمكن أن نكون واثقين من القول إن العالم المعاصر في بداية القرن الواحد والعشرين هو أحد المجتمعات المحلية التي تعرض تنوع تجربتنا التاريخية والحياة المعاصرة للمجتمعات التي تشكلها. لا يمكن للمجتمعات أن تأمل في الازدهار في المستقبل، إلا عن طريق الحفاظ على هذا التنوع وتنميته في إطار الشراكات، وتمكين تجنب الصراع بينها والتهديد الذي تمثله المخزونات المتراكمة من الأسلحة.

وهناك الكثير من حيث جاء ذلك. ربما استبعد نزارباييف الماركسية اللينينية، لكنه ما زال يحتفظ بالقدرة على توليد بيانات شاعرية عن السلام العالمي بالطريقة السوفييتية الكلاسيكية.

يبدو أن هناك شيئاً شخصياً حول هذا الدفق النصي، كما لو أن نزارباييف يعتقد حقاً أن تجربته في قيادة التعددية العرقية والدينية في كازاخستان خلال فترة ما بعد الاتحاد السوفييتي دون عنف، تؤهله حقاً كحكيم ذي تعاليم جادة من أجل كوكب مضطرب. في عام ٢٠١٤، قارب نزارباييف التقليد الأمريكي المتمثل في افتتاح مكتبة رئاسية مخصصة له وهو ما يزال على قيد الحياة. لم تكن تضم أرشيفه الرسمي فحسب، بل أيضاً، وفي إشارة إلى أسلافه السوفييت، مكتبته الشخصية -حوالي عشرين ألف كتاب تم جمعها منذ الستينيات. وهكذا قدم نزارباييف نفسه ليس كزعيم استثنائي فحسب، بل قدم أيضاً قارئاً ورجل معرفة عظمى. وإلى

جانب الكنوز التي في مجموعته الشخصية -مثل القرآن الذي أمضى بعض الوقت في الفضاء الخارجي وكتاباً نادراً من اسكتشات ليوناردو دافنشي - تحتل أعمال مجموعة نزاربايف التي تم جمعها الكثير من المساحات المخصصة للرفوف. بالإضافة إلى ذلك، فإن المجموعة الرئاسية بأكملها متاحة مجاناً عبر الإنترنت لجميع الأنواع (أو على الأقل الجزء الذي له اتصال بالإنترنت) لقراءتها، حتى يتسنى لنا جميعاً أن نتعلم من حكمة نزاربايف وأن نبدأ بالشفاء.

* * *

قام اثنان من رؤساء آسيا الوسطى بإنشاء كتب ذات نغمة لطيفة، مؤيدة للاستقرار، مؤيدة للسوق، مؤيدة للتنمية. قام الرئيس عسكر أكاييف رئيس قرغيزستان، الذي كان قبل صعوده إلى السلطة يؤلف أعمالاً علمية بعناوين مثل **أساليب معالجة المعلومات البصرية** (١٩٨٨)، بإنتاج كتاب "**التفكير في المستقبل بتفاؤل** " (٢٠٠٤)، على الرغم من أنه كان على وشك أن يتعرض للمطاردة والتعقب عبر البلد بعد حدوث انقلاب. -كان كريموف أقل نجاحاً من نزاربايف في تقديم نفسه كرئيس تنفيذي حديث. في أوائل القرن الواحد والعشرين، حصل على تأييد الولايات المتحدة من خلال تقديم خدماته في الحرب على الإرهاب، ولكن العلاقة توترت بعد مذبحة تم الإبلاغ عنها على نطاق واسع في مدينة أنديجان جعلت العلاقة واهية. استمر كريموف بغض النظر عن ذلك في تعذيب أعدائه وإلقاء "المتطرفين" في المستعمرات الجزائية، ووضع ابنته رهن الإقامة الجبرية في منزله، مع الاستمرار في نشر الكتب التي تحمل عناوين متفائلة. في عام ٢٠٠٩، أصدر **الأزمة المالية والاقتصادية العالمية، السبل والتدابير اللازمة للتغلب عليها في ظروف أوزبكستان**، بينما في عام ٢٠١٥، أي قبل عام من وفاته، أنتج "**الخدمة في طريق السعادة والمستقبل الكبير لوطننا الأم هي أعلى قيمة**". على الرغم من سعيه للتخلص من الماضي السوفييتي وتزويد الأوزبك بهوية بديلة، إلا أن كريموف أكد مع ذلك على أن جانباً آخر من أساليب ستالين الأدبية قد استمر حتى القرن الواحد والعشرين: استخدام نثر سطحي بشكل لا يصدق، ولكنه نثر متفائل نحو استبعاد إمكانية عقد أي مناقشة لما كان يحدث فعلاً في العالم.

* * *

كان واضحاً أن نصوص نزارباييف، وأكاييف، وكريموف كانت إدراكاً لحقيقة أخرى: الطريقة الغربية في العيش، بأموالها وراحتها وسلعها الاستهلاكية. من أجل الوصول إلى هذا الواقع، عرفوا أن عليهم تبني لغته ومحاكاة أفكاره - إلى حد ما. ولكن ماذا لو لم تتمكن من جذب الاستثمارات الغربية، أو لم تكن هي مهتمة بذلك بسبب التنازلات التي سيكون عليك تقديمها؟ ماذا لو كنت تحكم أرضاً مزقتها الحرب مجاورة لأفغانستان، وما زلت تعتمد على الدعم العسكري من روسيا؟

كان هذا هو السيناريو الذي واجهه الديكتاتور الطاجيكي إمام علي رحمنوف (أو كما سُمي فيما بعد "رحمن" بعد إنهاء الاستعمار الذي شهد إزالة اللواحق الروسية من جميع الأسماء الطاجيكية). كان رحمن، رئيساً لإحدى المزارع الجماعية السابقة، قد رأى أمته ممزقة في حرب أهلية شرسة بين النظام الذي خلف النظام السوفييتي والقوات الإسلامية الراديكالية التي استمرت من عام ١٩٩٢ حتى عام ١٩٩٧. ولقي ما بين ٦٠.٠٠٠ و١٠٠٠٠٠ شخص حتفهم في النزاع، بينما نزح ٧٣٠،٠٠٠ شخص آخر. لقد كانت طاجيكستان أفقر دول آسيا الوسطى، وقد تكبدت خسائر إضافية بقيمة ٧ مليارات دولار بسبب الحرب.

مع بلاده التي خربها الصراع والمحرومة من الموارد الطبيعية التي مكنت بعض دول آسيا الوسطى الأخرى من تمويل مشاريع البناء العملاقة، لم يكن لدى رحمن رسالة متفائلة عن العمل الجماعي من أجل الكوكب. وعلى غرار نزارباييف، كانت أولويته هي إيجاد هوية موحدة جديدة لفرضها على الطاجيك من فوق. تتضح أهمية هذه المهمة من توقيت صدور كتابه **"الطاجيك في مرآة التاريخ"** (١٩٩٧)، الذي صدر تماماً والأمة تخرج من الحرب. في هذا العمل، يصور رحمن تاريخ الطاجيك على أنه تاريخ صراع دائم وإرهاب وجودي، حيث "واجهت الأمة الطاجيكية جميع أنواع الأعداء الشرسين الذين شككوا في وجودها ذاته"، كيف يمكن لرحمن أن يكتب عن تفاهات مثل "التنمية العالمية"؟

من الواضح أنه لم يستطع. فبدلاً من الحديث عن المستقبل ومكان طاجيكستان المشرق فيه، التفت إلى الماضي. وبصفته قيادياً شيوعياً، تربى على أسطورة الماركسية عن جنّة العمال القادمة؛ الآن يقلب كل شيء رأساً على عقب، ويستبدله بأسلافه القدامى، والعصر الذهبي المفقود. ينتقل رحمن إلى العصور القديمة بحثاً عن هوية الطاجيك وكرامتهم، حيث يجد

الأسلاف في دولتي باكتريا وسوغديانا القديمة في آسيا الوسطى، بينما تبرز الدولة السامانية في الفترة ما بين ٨١٩ إلى ٩٩٩ م كأفضل فترة في تاريخ الطاجيك. في هذه الرواية، بالكاد يسجل وجود الاشتراكية، في حين تبين أن الإسلام هو نظام عقائد غريب فرض على الطاجيك من قبل الغزاة العرب، مما يقطع صلاتهم بتراثهم الزرادشتي القديم.

وفقاً لرحمن، وُلد النبي زرادشت في إقليم طاجيكستان. ومع ذلك، فهو ليس مهتماً جداً بزرادشت النبي الذي تحدث مع أهورا مازدا، إله النور، بدلاً من ذلك يتخيله باعتباره مرسلاً ومثالاً للقيم الأخلاقية الطاجيكية، الفاضلة والنبيلة، مثل بطل رواية مصانع سوفييتية ارتسمت آلاف من السنوات في الماضي. ومن المثير للاهتمام، أن زرادشت رحمن كان مقاتلاً ضد "الإلحاد"، والذي لم يكن يعتبر عموماً مشكلة كبيرة منذ ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ عام؛ ويعلن أيضاً أن الطاجيك القدماء كانوا دائماً "وطنيين فكرياً... مستعدين للدفاع عن مبادئ التقدم والتنوير". ويلاحظ رحمن موافقاً كذلك على أن كتاب الزرادشتية المقدس، الأفيستا، يتفوق على أعمال هوميروس، لأنه أقدم وفيه المزيد من الكلمات (مليونين مقابل ٣٤٥٠٠٠)، ويقول إنه بمثابة "كلونديك[1] إثنوغرافي"، ومرشد إلى عظمة الطاجيك التليدة.

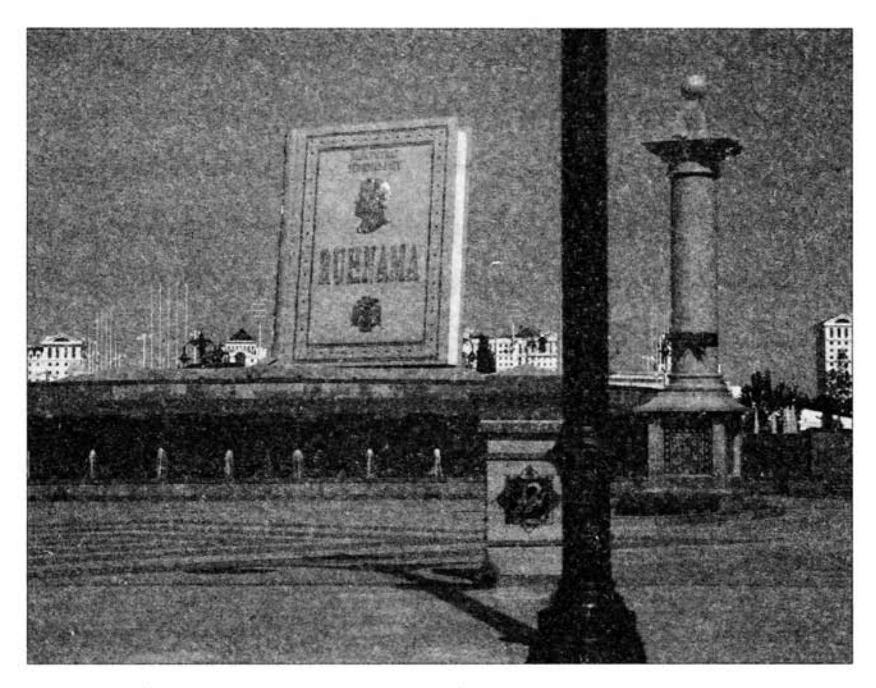
وهكذا، نبش رحمن في زرادشت بطريقة مجازية، وأزال الأجزاء التي لا يحتاجها، وحنّط البقايا، ووضع المومياء في صندوق زجاجي لتثقيف الأمة. لكنه، وعلى الرغم من أن رحمن كان يهتم بمسائل الروح والهوية أكثر من نزاربابييف أو نظرائه الآخرين في فترة ما بعد الاتحاد السوفييتي، فإن كتابه **الطاجيك في مرآة التاريخ** (١٩٩٧) يظل مشروعاً عقلانياً بشكل أساسي. رحمن لا يؤمن بالأهورا مازدا ولا يتوقع أن يقوم رعاياه بذلك. إنه يغازل الدين، لكنه مهتم حقاً فقط بإيجاد فكرة تجلب الاستقرار والوحدة إلى بلده. ولم يعتبر نفسه في أي وقت من الأوقات كإله إنسان، أو أعلن عن كتابه المقدس. إنه، بشكل مطمئن تقريباً، هادئ، وممل جداً.

إلى الغرب، في تركمانستان، كانت القصة مختلفة تماماً. هناك كانت الدولة قد تضررت بالفعل من جراء الكتب السوفييتية، وكانت على وشك أن تتعرض إلى معاناة جديدة من مثال عنيف بشكل استثنائي عن الأدب الديكتاتوري، **روح نامة**، أو **رسالة الروح**.

---

١ - مصدر غزير لشيء ما. (كالموسوعة) المترجم.

٦- تركمانستان: ما بعد كل شيء



النصب التذكاري لروح نامة في عشق أباد، تركمانستان. تم إطلاق نسخة أصغر في الفضاء حتى يتسنى للكائنات الفضائية أن تستمتع بها أيضاً.

وهكذا ننهي هذه الرحلة عبر تاريخ الأدب الديكتاتوري من حيث بدأت -بالنسبة إلي، على الأقل. في صباح أحد أيام الأحد في بدايات القرن الواحد والعشرين، في شقتي في موسكو، كنت أتصفح قناة عندما تعثرت فجأة ببث من عالم موازٍ. هناك، على الشاشة الصغيرة للتلفزيون، شاهدت نصباً غريباً، بديعاً في تفاهته. لقد كان كتاباً كبيراً باللون الوردي والأخضر، وكان واضحاً أيضاً أن رأس ديكتاتور ذهبي في صورة جانبية يسيطر على الغلاف. لكن من كان هذا الديكتاتور؟ لا يوجد لدي فكرة. ما هو عنوان الكتاب؟ لم أفهم ذلك. ثم انتقلت الكاميرا إلى مجموعة من النساء التركمانيات اللائي يرتدين الزي التقليدي (على الرغم من عدم وجود تقليد أعرفه)، واللاتي كن يدرسن الكتاب في مدرسة منارة بإضاءة زاهية؛ ثم

انتقلت إلى بعض الأبراج الرخامية البيضاء الضخمة والقباب اللامعة التي دمجت الكلاسيكية الستالينية الجديدة مع الاستشراق الفخم في أسلوب معماري جديد فضفاض ومهلوس؛ ثم عادت إلى الرأس الذي قدم أنموذجاً للصورة الذهبية على غلاف الكتاب العملاق.

في شكله الحي المتحرك ثلاثي الأبعاد، كان الرأس في الواقع عبارة عن كتلة صلبة تتوّج بزغب أسود ضعيف أخفق في إبراز صورة للشباب، وتحته، قام زوج من العيون الخرزية بفحص غرفة مليئة بالمتملقات. أسفل هذه القطعة من لحم الوجه، تم وضع قميص أبيض كبير جداً فوق الدليل على أسلوب الحياة الأبيقوري جداً. كانت هناك خواتم ذهبية في أصابعه -أو ربما أعرضُ تلك الأشياء عائداً بالوقت إلى صورة مؤطرة رأيتها لاحقاً. لا أتذكر هذا، ومع ذلك: استمر الراوي في تكرار كلمة غريبة واحدة، **روح نامة**.

في الواقع، لم يكن هذا بثاً من عالم موازٍ، بل كان بثاً إذاعياً من تركمانستان، البلد الذي كان حتى وقت قريب جزءاً من الاتحاد السوفييتي. هنا، قام زعيم سابق للحزب الشيوعي باسم صابر مراد نيازوف بالحصول على مهنة فريدة في حقبة ما بعد الاتحاد السوفييتي. بافتراضه اسم تركمانباشي ("والد جميع التركمان")، استخدم احتياطيات الغاز الهائلة في البلاد لتمويل بناء عاصمة خيالية من المباني والنافورات الضخمة والطرق السريعة الشاسعة الفارغة. كما أنه رعى عبادة شخصية متطرفة بما يكفي لمنافسة تلك التي لكيم جونغ إيل، على الرغم من أنها تلقت القليل من الاهتمام. أعلن تركمانباشي أن تركمانستان "محايدة إلى الأبد"، ولأنه ظل بعيداً عن النزاعات الجيوسياسية، لم يهتم به سوى القليل من الناس خارج البلاد أو حتى علموا بما كان يفعله.

كان محور النص في عبادة تركمنباشي، هو الكتاب الذي رأيته على شاشتي التلفزيونية، **روح نامة**، **أو رسالة الروح**. كان هذا النص هو الذي استولى على مخيلتي فجأة. كنت أعلم كتاب كفاحي **والكتاب الأحمر الصغير** لماو منذ أن كنت طفلاً، وكنت قد زرت العديد من الشقق الروسية حيث تجمعت مجلدات لينين المتربة. لكن هذه، مع ذلك، كانت المرة الأولى التي رأيت فيها ظاهرة كتاب الديكتاتور **الحي**. حتى تلك اللحظة، كنت أتعامل معها جميعها بنفس عدم الاهتمام الرافض كما يفعل الجميع. وعلى الرغم من سنوات العيش في موسكو، لم أشعر أبداً بأي إغراء لأتناول لينين من الرف وأقوم بقراءته فعلياً. ومع ذلك، خلال أيام من

مشاهدة ذلك البث، كنت أقضي ساعات في تحميل الترجمة الإنجليزية لروح نامة عن طريق الاتصال الهاتفي من موقع حكومي تركماني. كان النص الكامل طويلاً جداً، وبكل شغف بدأت القراءة. ثم توقفت. كان الكتاب مروعاً.

في غضون عام أو عامين، بدأت كلمات وأفعال تركمنباشي تجتذب اهتمام وسائل الإعلام الغربية. لم يكن الأكثر قسوة، ولا الأكثر عدوانية، ولا حتى أكثر الديكتاتوريين أهمية من الناحية الجيوسياسية، لكنه كان الأكثر تلوناً منذ القذافي، وربما تجاوز العقيد في تلك النتيجة. من الذي حظر الأسنان الذهبية وتزامن الشفاه والباليه والأوبرا والسيرك والتدخين؟ من غيره قام بتغيير اسم شهر كانون الثاني/ يناير ليسمى على اسمه، وسمى خبزاً على اسم أمه؟ من سواه كان له تمثال ذهبي يقف على قمة حامل ثلاثي الأذرع ممسكاً بالأعلى، ويدور طوال اليوم حتى تكون الشمس في قبضته دائماً؟

ومن غيره قام بتأليف كتاب لم يكن مطلوباً للقراءة فقط عند إجراء اختبار لقيادة السيارة، ولكنه يوضع أيضاً بجوار القرآن والكتاب المقدس في مداخل المساجد والكنائس؟ من غيره قام بتأليف كتاب، إذا قرأته من البداية إلى النهاية ثلاث مرات، فإنه يضمن لك الدخول إلى الجنة؟ من قام بتأليف كتاب مقدس لدرجة أن مقتطفات مسجلة منه كانت تُتلى على مآذن أكبر مسجد في كل آسيا الوسطى؟ من قام بتأليف كتاب له مثل هذه الأهمية في زلزلة الزمن، وتمت إعادة تسمية شهر أيلول/ سبتمبر على شرفه؟ ومن الذي قام بتأليف كتاب ترجمته إلى العديد من اللغات عدة شركات متهكمة أملاً في الوصول إلى عقود الأعمال المثيرة؟

لا أحد، ذلك هو. لم يذهب حتى كيم جونغ إيل إلى هذا الحد.

تم طرح فكرة احتياج التركمان إلى **"كتاب الروح"** لأول مرة في تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٩١، حين كان الاتحاد السوفيتي على شفا الانقراض. اقترح مؤرخ بارز تجميع مختارات من الفولكلور والتقاليد التي من شأنها إعادة ربط التركمان بماضيهم بعد سبعة عقود من الحكم السوفيتي. قبل الثورة، كان التركمان شعباً بدوياً له ثقافة شفهية وليست مكتوبة في المقام الأول، ووفقاً لمصادر سوفييتية، كان ما بين ٩٧ و٩٩ في المائة من السكان أميين عندما تأسست جمهورية تركمانستان السوفييتية الاشتراكية في عام ١٩٢٥. وهكذا، كان تاريخ الأمة حكاية ماركسية لينينية لعب فيها التركمان دور شعب متخلف تم دفعه إلى المستقبل المجيد عبر

ثورة نشأت في المركز الإمبراطوري القديم. من السهل أن نرى سبب اعتبار العمل التصحيحي ضرورياً، وتمت التوصية بالكتاب، لكن نيازوف أوكل مهمة الاستعانة بمصادر خارجية لإنتاج هذا التكرار الأول **لكتاب الروح** إلى لجنة. ولم يكن من ضمن قائمة أولوياته في هذا الوقت، إلى أن ظهر الكتاب تحت اسم السكرتير الصحفي الذي أشرف على المشروع.

ولكن تم سحب **كتاب الروح** ١ بسرعة من التوزيع لأنه غير مناسب للغرض، وبدأ العمل بدلاً من ذلك على **كتاب الروح** ٢. في هذه المرة، كان هناك شاعر ومؤرخ وعدد قليل من المؤلفين السوفييت السكيرين. لكن هذا الإصدار لم يبتعد أبعد من المسودة. حل الآن منتصف التسعينيات وتحول نيازوف إلى تركمانباشي، الملك الإله وأب الأمة. لم يعد يرد على الأسياد في الكرملين. لقد فهم جيداً الفعالية المالية التي تأتي من الجلوس على رابع أكبر احتياطيات الغاز الطبيعي في العالم. في هذه الأيام، تحدث مع بيل كلينتون كرئيس لآخر. كانت تركمانستان مستقرة داخلياً وليس لديها أعداء. وكان نظامه غارقاً في المال. ولقد فعل أشياء عظيمة. وسيفعل ما هو أكثر. كان سيكتب للتركمان "**كتاب الروح**" بنفسه.

من الواضح على الفور عندما تفتح **روح نامة**، أن هذا شيء جديد في عالم خطابات الديكتاتور ما بعد الاتحاد السوفييتي، وربما الأدب الديكتاتوري بشكل عام. العنوان الفرعي، **تأملات في القيم الروحية للتركمان**، لا يترك مجالاً للشك في نوع التضاريس الموضوعية التي يعتزم تركمانباشي تغطيتها. لقد أبدى اهتمامه بالمسائل الروحية في بداية حياته المهنية كرئيس لتركمانستان المستقلة؛ في عام ١٩٩٢ أصبح أول زعيم في آسيا الوسطى يزور مكة. على الرغم من ذلك، يبدو الأمر مفاجئاً عندما يبدأ رئيس الحزب الشيوعي السابق ملحمته بالإعلان "بسم الله تعالى".

بينما تحول نزاربابيف إلى مدير تنفيذي وطني، وأخذ بوتين يكتب مثل مدرب الجودو، يخاطب تركمانباشي "شعبه المحبوب" كما لو كان نبياً من نوع ما:

> هذا الكتاب، الذي كُتب بمساعدة الإلهام الذي أرسل إلى قلبي من الله الذي خلق هذا الكون الرائع، والذي يستطيع أن يفعل ما يشاء، هو روح نامة التركمان.

كان الفاشيون والقوميون الكاثوليك في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي عُرضةً للوعظ عن الروح، لكنهم لم يدّعوا أبداً تلقي الإلهام المباشر من السماء. ولم يكن كذلك

الخميني، الذي بُنيت كتاباته على التفاعلات مع النصوص الأخرى بدلاً من التواصل الشخصي مع الله. لكن تركمانباشي كان على النقيض من ذلك، يكتب مثل الصوفي الشاعر في تواصل مباشر مع الله سبحانه وتعالى. ومع ذلك، ما يلي هو سوفييتي بشكل عميق في موقفه الحر تجاه العلاقة بين الكلمات والحقائق. فعندما لا تتناسب الحقائق مع السرد، يتم قمعها، ويتم اختراع الحقائق الأكثر ملاءمة. تركمانباشي غير مقيد تماماً في تخيله الأسطوري، حيث ابتكر في صفحتين تاريخاً للتركمان يعود إلى خمسة آلاف عام، من خلال إنشاء سبعين دولة لـ"النبي نوح" نفسه.

قراءة تركمانباشي في سياق ما يقرب من قرن من النثر السوفييتي وما بعد السوفييتي، هي تجربة محيرة للغاية. فعلى الرغم من أنه لا بد أن يكون قد أتقن الخطاب المعقد للعلوم الزائفة الماركسية اللينينية كي يتقدم في مسيرته المهنية، إلا أنه يقدم للقارئ هنا قصة سردية دينية مختلقة ببساطة استثنائية. كما أنها ليست مجرد تبسيط. إنها أيضاً عمل كسول جداً جداً. لم يعط تركمانباشي أي إشارة إلى أنه على دراية بتفاصيل قصة نوح: لا يوجد ذكر لرسالة الطوفان أو الفُلك، رغم أنها جزء من الرواية الإسلامية وكذلك الرواية المسيحية. بدلاً من ذلك، نوح هنا هو المشرّع والمثال الأخلاقي، يشبه قليلاً زرادشت أمام علي رحمن، سوى أنه من دون البحوث التاريخية التي أجراها أشخاص آخرون نيابة عن الديكتاتور. بالنسبة إلى تركمانباشي، يعتبر نوح دمية قفاز مناسبة للأدب، التي ستُوجه التركمان إلى حب وطنهم واحترام آبائهم وأمهاتهم، بينما ينصح النساء أيضاً بتغطية أفواههن، ولكن ليس وجوههن. من المفيد أن نوح يقدم أيضاً نصائح حول الزينة ("ارتداء ملابس نظيفة ولائقة") والتصميم الداخلي ("يجب أن يكون ديكور المنزل وترتيبه ونظافته ومظهره جيداً"). في **روح نامة**، نوح هو بالضبط ما يريده تركمانباشي. وتركمانباشي يريده أن يكون أداةً لإضفاء كرامة تاريخية وروحية هائلة على شعبه، حتى لو كانت هذه الكرامة تستند إلى ادعاءات قد يفكر طفل في الثامنة من عمره مرتين قبل أن يصنعها. تركمانباشي لم يهتم. فبعد تحرره من الهيمنة السوفييتية، سيخلق واقعاً جديداً وروحانية جديدة تناسبه.

لم تكن هناك سوى أربعة مساجد في تركمانستان خلال الفترة السوفييتية، وكطفل ترعرع في دار للأيتام لم يكن تركمانباشي، على الأرجح، قد قضى الكثير أو أي وقت فيها، أو تعلم

الكتب الإسلامية، بكل تأكيد. وهكذا، في **روح نامة**، كان يشير مراراً وتكراراً إلى الأنبياء والنصوص المقدسة، ولكن ليس كثيراً حول ما قاله أي منهم، ربما لأنه لم يكن يعلم. بعد أن أمضى شبابه يدرس لينين وأعمال الأدب الروسي والسوفييتي، كان أيضاً منفصلاً عن التقاليد الدينية الشعبية لتركمانستان. لكن الأمة بأكملها كانت محرومة بالمثل، والفراغ في المعرفة التاريخية والدينية والثقافية التي كان من المفترض أن يتغلب عليه **روح نامة** الأصلي، قد تم استغلاله الآن بلا رحمة من قبل تركمانباشي وهو ينقل رواياته البسيطة.

إنه يؤكد أن التركمان يؤمنون بالقرآن، و"العهد القديم"، والمزامير، لكنه لا يذكر الحديث، وهي نصوص أساسية في نظام العقيدة الإسلامية. وهكذا، وفقاً لتركمانباشي، قد تكون أجزاء الكتاب المقدس العبري أكثر أهمية من الكتاب الإسلامي الفعلي، وهو موقف مهرطق إلى حد ما بالنسبة إلى شخص يعترف بأنه مسلم، على أقل تقدير.

ولكن حتى لو كان تركمانباشي يفتقر إلى التفاصيل الملموسة، فإنه يدعي أنه يؤمن بقدسية الكلمة:



الكلمة هي أقدس هبة أعطاها الله للبشر

الكلمة هي ثمرة الناس، ولكنها تعطى للبشر من عند الله.

إنه على وجه الخصوص، مؤمن بكلمته الخاصة. رغم أنه لا يدعي أن **روح نامة** كتاب مقدس، إلا أنه يشير بقوة إلى أنه قريب من ذلك بقدر المستطاع. يؤكد تركمانباشي على أهمية **نصه** أكثر بكثير مما يفعل مع ذلك المكتوب من أي نبي. وليجيب على سؤاله الخاص "ما هو **روح نامة**؟" يدخل قاعة لسانية من المرايا والأنوية[1].

روح نامة هو...

* "مصدر قوة من شأنه أن يبقي القلوب يقظة"

* "كتاب الوحدة والعمل الجماعي"

---

١ - وحدة الأنا، هي فكرة فلسفية تقول بأنه لا وجود لشيء غير الذات أو لا وجود حقيقي إلا لعقل الفرد، وهي موقف معرفي يقول بأن المعرفة المتعلقة بأي شيء خارج عقل الإنسان غير مؤكدة، وأنه وفق هذه الرؤية المعرفية لا يمكن معرفة العالم الخارجي والعقول الأخرى، بل إنها قد لا توجد البتة خارج عقل الإنسان. المترجم

* "حجاب وجه الشعب التركماني وروحه"
* "الكتاب المرجعي الأول والأساسي للشعب التركماني"
* "مجموع العقل التركماني والعادات والتقاليد، والنوايا [وكذا] الأفعال والمثل العليا"
* "الزيارة التي جرت لقلب التركمان"
* "ثمرة روحية حلوة تزرع في هذه المنطقة"
* "كتاب يفتح ربيع العقل ويروي عطش العقل الجاف"
* [الوسائل التي يمكن بها لتركمانباشي] "ربط الماضي والحاضر والمستقبل بحبل واحد"
* "[الساعي "الذي"] ينقل أسرار الماضي والأخبار الضرورية إلى المستقبل"
* "رؤية عالمية جديدة، بمعنى أنه روح تحفز الطبيعة والمجتمع والناس على العمل"
* "ضوء ودليل حول رحلة [الأمة التركمانية] نحو هدفها"
* "مركز الكون [وهي روح التركمان] في هذا الكون، يجب أن تستمر كل الأمور الكونية الحالية والمستقبلية في الدوران، في جاذبية روح نامة، قوته الجاذبة نحو المركز ومداراته"

وهلم جرا. ما أهمل ذكره هو أن روح نامة أيضاً سيء التنظيم ويكرر بدرجة كبيرة التأكيدات التاريخية التي لا يمكن التحقق منها والنصوص الموجودة والاختلاقات والشعر السيئ. ومع ذلك، مع استمرار النص، يحاول تركمانباشي بطريقة حرة حقاً أن يكتب هوية تركمانية جديدة إلى حيز الوجود. فهو يحتوي على استطرادات عن أصل الكلام، والأخلاق، والدين (التركمان يحبون الله ولكنهم علمانيون في الأساس)، والموسيقى (تختلف الموسيقى التركمانية عن الأنواع الأخرى من حيث أنها جُبلت بفلسفة عميقة)، والبطيخ (البطيخ التركماني جيد جداً)، وحقوق المرأة (يجب أن تكون حرة في العمل)، والسجاد (السجاد التركماني هو الأفضل)، والسياسات، والمعاهدات مع الدول الأخرى (التركمان محايدون إلى الأبد ولديهم الكثير من الأصدقاء)، ناهيك عن الاختراعات التركمانية العظيمة (على ما يبدو علينا أن نشكر التركمان على اختراع العجلة، التي "عجلت التقدم العلمي في العالم").

تظهر سلسلة ابتهالات تركمانباشي الهرائية عن الإنجازات الوطنية، إلى جانب مقتطفات مقصوصة وملصقة من أنساب تمتد حتى زمن الكتاب المقدس وأسطورية بطبيعتها، لكن يتم تقديمها للقارئ كحقيقة. كما أنه يطوّح بعض الابتكارات اللاهوتية الراديكالية، بما في ذلك الادعاء بأن سلف التركمان أوغوز خان كان نبياً، وأن التركمان أنفسهم كانوا موحدين منذ خمسة آلاف عام ("يا أخي. منذ خمسين قرناً، كان التركمان يعيشون... مؤمنين بالله"). هذا أطول بكثير من اليهود والمسيحيين والمسلمين أو أي شخص آخر له علاقة بهذه المسألة.

لكن بقدر ما تعتبر **روح نامة** خيالاً تاريخياً دينياً سخيفاً، فهي أيضاً عمل شخصي عميق، موجودة تماماً حيث روايات صدام حسين الرومانسية ورواية هتلر كفاحي. وعازماً على إثبات صحة رسالته، يتخلل تركمانباشي جميع أجزاء النص المكتوبة بخط يده شخصياً. بصرف النظر عن طفولته، فقد عاش جميع قرائه حياتهم في الاتحاد السوفييتي، حيث كان معروفاً أن الزعماء لا علاقة لهم بالكتب التي يتم ربط أسمائهم بها. بدأ تركمانباشي في التغلب على أي شك محتمل فيما يتعلق بتأليفه لـ"**روح نامة** " عن طريق "إثبات" أن يده كتبت الكلمات. أكثر من ذلك، يوضح أيضاً الأصالة من خلال الجانب الاعترافي في سرده، حيث يتحدث بشكل صريح عن تجربته الحياتية مع شعبه بطريقة لم يقم بها زعيم سوفييتي على الإطلاق. تركمانباشي ينقل الصدمة الشخصية الخاصة به ثم يدرجها في تاريخ الأمة، واضعاً سيرته الذاتية في قلب التاريخ.

هنا، على الأقل، لا يبالغ تركمانباشي. لقد عانى صابر مراد نيازوف فعلاً من صدمة هائلة أثناء طفولته. ولد في عام ١٩٤٠ في قرية غيبياك التركمانية، التي غادرها والده أتاموراد، بعد فترة وجيزة للقتال من أجل ستالين في الجيش الأحمر؛ وسيختفي في الجبهة. في عام ١٩٤٨، توفيت والدة نيازوف وإخوته في زلزال دمّر عشق أباد. ومات الأب ستالين، الذي حرست صورته نيازوف في دار الأيتام حيث أمضى سنوات تكوينه، عندما صار في الثالثة عشرة. في النهاية، حط نيازوف رحاله في لينينغراد، حيث علمته الدولة الهندسة. ثم عاد إلى بلده للعمل من أجل الحزب، الذي خدمه بأمانة حتى انهيار الاتحاد السوفييتي. الكثير من هذه التفاصيل تظهر في **روح نامة**، ولكن بشكل مدهش. في الصفحة ٨، يتحدث تركمانباشي عن حزنه لفقدان والدته ووالده:

لا يوجد إنسان لم يختبر ما عشت فيه ويستطيع أن يفهمني.

والدك الذي من المفترض أن يدعمك في الأوقات الصعبة، قد مات في مكان غريب مجهول!

أمك العزيزة ترقد مع اثنتين من أخواتك تحت كاراكوم. أنت وحدك في لينينغراد. لا يوجد أحد خلفك يسأل عنك ويكتب لك رسالة.

كنت مريضاً وطلبت من أقاربي المفترض أن يعتنوا بي. لكنهم كتبوا ليخبروني أنهم نسوني، ناهيك عن أن يساعدوني.

لم يكن هناك أحد غير الله عز وجل ألجأ إليه، ولا أحد أطلب منه المساعدة سوى الله. البلد كله كان يصيح أنه لا وجود لله. يا الله!

في هذه المرحلة، يُعتبر ألم تركمانباشي عظيماً للغاية، وعذابه شديد، لدرجة أنه يقوده إلى حافة "الجنون". [كذا] غير قادر على قمع مشاعره لفترة أطول، يثور في قصيدة موجهة إلى "جيجاليبج"، الزعيم المحارب الأسطوري الذي استنسخه باستفاضة لأنه مغرق في الترفيه:

لدي حصان تركماني أصيل، هل تعتني به يا جيجاليبج؟
لديّ أيضاً قلب كسير ومضطرب، هل تعالجه يا جيجاليبج؟
أنا مقيد، شانديبيل بلد محزن الآن،
سوء حظنا لا يستيقظ أبداً، ما لم تكن، ما لم تكن أنت... يا جيجاليبج!
أين هم الصناديد الشبيهون بالجبال الذي حاربوا الزمرة السيئة؟
للأسف، حزينين كان المغاوير العظام الذين قاتلوا الزمرة السيئة!
استشهد الكثير من الأبطال والحكماء، حتى بقيت وحيداً، مهجوراً،
حتى الحلوى مثنية من الألم، تئن. هل تستطيع أن تسمعها يا جيجاليبج؟
جُمع الرجال الأثرياء الناجحون، وعذبوا وأرسلوا إلى المنفى في سيبيريا،
سقط الشجعان أوفياء القلوب كالأسود شهداء في القتال وصاروا قبوراً،
بكى اليتيم بمرارة، وترك لوحده، بلا قوة، أو صبر، أو تحمّل،
أرضي تنتحب وشعبي يندب، البلد في فوضى، يا جيجاليبج!

لدي حصان تركماني أصيل قوي، هل تعتني به يا جيجاليبج؟
لديّ أيضاً قلب كسير ومضطرب، هل تعالجه يا جيجاليبج؟
اعرني سيف غوروغلي المنحني ورمحك يا جيجاليبج!
دون خوف! سأقاتل حتى الموت. أعطني تاجك الخاص، يا جيجاليبج...!

يروي تركمانباشي قصة عن "روسي عجوز" التقى به في لينينغراد كان يعرف والده، وكان حاضراً عندما قتل بنيران أسلحة آلية في شمال أوسيتيا. يقدم تركمانباشي تفاصيل عن والده أكثر بكثير مما يقدمه عن السنوات التي قضاها في دار الأيتام أو في لينينغراد، التي بدت كما لو أن ذلك الألم كان ما يزال حياً. لكن، يأتي كل ذلك معاً في النهاية، حيث يكشف تركمانباشي أن التعليمات نفسها لإنشاء **روح نامة** جاءت من شخصية لا تقل عن "النبي" أوغوز خان:

قالت روح أوغوز خان: اكتب! المكان الذي ظهرت فيه أمتك هو الطريق؛ المكان الذي تفضله أمتك هو البلد؛ وستتحقق رغبات أمتك.

يندمج الشخصي مع التاريخي والأسطوري والديني والسياسي، ليولد نص **روح نامة** الفائق.

لقد كان مشروعاً طموحاً بشكل كبير، وربما كان الأكثر طموحاً من بين جميع الكتب الديكتاتورية. فبدلاً من الأخذ بنظرية موجودة مسبقاً وشرحها، استحضر تركمانباشي شيئاً جديداً من كل ما رآه ملقى حوله، وشعر أنه قادر على استخدامه، وليس هذا فحسب، بل فعله أيضاً أثناء إدارته دولة شمولية. بالإضافة إلى ذلك، قام بإلحاق تكملة إلى **روح نامة** بينما كان يستنبط كتب الشعر والتاريخ. في كل هذا، كان تركمانباشي يسعى إلى خلق ليس فقط الأيديولوجيا بل تاريخ جديد، وأسطورة جديدة لأمته: عن طريق الخطابات الطويلة حول العشائر التركمانية، والتناول الطفولي للدين والتاريخ، والسعي إلى النرجسية المحضة، لقد سعى ليعيد الكرامة إلى شعب الصحراء الذي استعمره الروس وجرده السوفييت من ثقافته. كانت مهمة مهولة لمؤلف عظيم، لكن تركمانباشي لم يكن حتى مؤلفاً متواضعاً. لقد كان سيئاً للغاية. في **روح نامة**، استهدف النجوم لينتهي به المطاف في المزبلة.

* * *

كان روح نامة فظيعاً جداً ليستغرقني ثلاث سنوات كي أنهيه، وهو ما فعلته أثناء السفر عبر صحراء كاراكوم في تركمانستان. كان من الضروري إزالة جميع المشتتات الممكنة للنجاح في الوصول إلى نهاية الكتاب الأخضر والوردي مع وجود الرأس الذهبي على الغلاف. كان هذا في آذار/ مارس ٢٠٠٦: عند هذه النقطة وصل نيازوف إلى قمة سمعته السيئة، وتم منع الصحفيين من دخول البلاد، التي دخلتها لأن كتابي الأول لم ينشر بعد، ولم يُظهر بحث غوغل أي نتائج عن اسمي. كانت الخطة هي قضاء شهر من السفر في طول البلاد وعرضها ثم العودة إلى موسكو، حيث أجري مقابلات مع منشقين ومنفيين. بعد قراءة كل كتاب عن تركمانستان متاح باللغة الإنجليزية (ليست قائمة قراءة طويلة جداً) وأياً كانت التحف المثيرة للاهتمام التي يمكنني تتبعها باللغة الروسية، كنت سأكتب النص النهائي عن نظام تركمانباشي. ولكن بعد فترة وجيزة من استكمال المقابلات التي أجريتها، كان نيازوف مندفعاً للموت. ولمدة شهرين، خدعت نفسي في التفكير في أن الخطة ربما لا تزال تعمل -ألم ينشر ريزارد كابوتشينسكي العظيم كتابه عن نظام الشاه بعد سنوات من الثورة الإيرانية؟ ومع ذلك، فقد كنت أعلم أن كتابي قد مات. وفي ذلك الوقت تقريباً، قرأت مقالاً يعرض كابوتشينسكي على أنه أحد صانعي الخرافات نفسه، مثل تركمانباشي، لم يعترف أبداً إلى أي حد بالضبط كان قد اختلق في كتبه. ربما لم يكن له مثال يحتذى به.

كانت الحقيقة أنني كنت أناضل مع الكتاب حتى قبل أن يقوم تركمانباشي بالقفزة الكبيرة في غياهب النسيان. لسبب ما، كان من الصعب التعبير بدقة عما رأيته هناك. ولم يكن ذلك عائداً إلي فقط. بعد بضعة أشهر من الرحلة، التقيت بأحد شركاء السفر، واعترف لي بنفس المشكلة. لم يكن يعرف كيف يفكر في تركمانستان، أو كيف يصفها. أذكر أن صلابة منزله الحجري الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثامن عشر، والذي كانت جدرانه شاهدة على حياة أجيال متعددة من الإنجليز الميتين، كان يتناقض بشدة مع الطبيعة سريعة الزوال، شبه المهلوسة لرحلتنا. كان الأمر كما لو كنا قد أمضينا شهراً محاصرين في حلمٍ لشخص آخر، والآن بعد أن استيقظنا منه، نتحدث عنه بطريقة كانت منطقية كلياً بالنسبة إلى أولئك الذين لم يخضعوا لذهان تركمانباشي الواعي، كان التحدي مثل تفسير أكثر أحلامنا حميمية وخصوصية. لقد رأينا النصب التذكاري لروح نامة والتمثال الذهبي للزعيم الذي كان يدور

ليلتقي بالشمس. ولقد اشتريت بنفسي علبة من أغذية الأطفال عليها وجه أم تركمانباشي. لقد زرت ملهى ليلياً خاوياً، حيث غنى المالك لي "الهمسة اللامبالية" لجورج مايكل بحدة جنونية. ماذا يعني كل هذا؟ أين كنت في كل هذا التدفق؟

أدركت ذلك الآن في ذلك الوقت الذي صار فيه لا يعني شيئاً، أو لا شيء لم يكن واضحاً بالفعل. لكن بعد مرور عشر سنوات، وبعد أن وصلت إلى نهاية كتاب مختلف، اكتسب الأمر معنى، وفهمت أخيراً ما رأيته: في اللحظة التي سبقت النسيان العظيم الذي يكتنف ويمحو كل أثر للنص المقدس تقريباً بمجرد وفاة الزعيم. لقد رأيت الخاتمة الحكمية، السطح الفوار للعبادة وطقوسها، في اللحظة التي يكون فيها الكتاب حياً ويستحيل الهرب منه. شعرت بتأثير الإجماع الإجباري الذي يمنح الكتاب عمراً طويلاً طالما كانت القوة موجودة للحفاظ عليه.

هذه اللحظة الذاتية هي الجانب الأكثر مراوغة في دراسة الأدب الديكتاتوري. في تركمانستان في عام ٢٠٠٦، كان النص موجوداً وجوداً قوياً وفتاكاً يفرض نفسه على وعيك بدعم كامل من دولة بوليسية. خلال الأسبوعين الأولين على وجه الخصوص -إلى أن تكيف ذهني مع الحمل الحسي الزائد - كان حاضراً بشكل مكثف: هلوسةً استطعت أن أتلمسها، وحلماً واضحاً باللون الوردي والأخضر والذهبي لن ينتهي. أغمض عيني وما يزال بإمكاني رؤية كل هذا اليوم: اللحظة الساطعة والفظيعة والتي لا تنتهي، في كل مكان ذهبت إليه.

كانت هناك في النصب التذكاري العملاق **لروح نامة** التي قفزت فجأة من شاشة التلفزيون الخاصة بي والعالم الفعلي وأنا أصل من المطار إلى الفندق. مشؤومة وهائلة ورديئة إلى أبعد حد في ليل الصحراء، استطعت رؤيتها من نافذة غرفتي، تحوم في الظلام مثل سراب من الفلورسنت. كان من المفترض أن ينفتح الكتاب العملاق من تلقاء نفسه، ليكشف على مدى صفحتيه عن حكمة تركمانباشي كل ليلة - لكنه لم يفعل. لقد كُسرت الآلية، ولم يقم أحد بإصلاحها.

كانت هناك في أول يوم كامل لي في عشق أباد، عندما زرت مكتبة في وسط المدينة (لم أجد واحدة أخرى) ورأيت العشرات من نسخ **الروح نامة** تواجه الخارج على الرفوف بعدة لغات -التركمانية والإنجليزية والروسية، الألمانية والإيطالية - جميعها وردية وخضراء وذهبية، مثل كتاب الأطفال المصمم بشكل سيئ حقاً والذي نشرته أكثر مطابع الخيلاء الساخر في العالم.

كان **روح نامة ٢** أيضاً حاضراً في المطابع، إلى جانب النصوص الرئيسية الأخرى لتركمانباشي، مثل كتابه عن الأبطال الوطنيين وكتاب من شعره، **تركمانستان، سعادتي**. ولكن لم يتم تقديم أي من هؤلاء باللغة الإنجليزية. وبخلاف الأعمال الكاملة للزعيم، لم يكن هناك شيء آخر يمكن شراؤه: كتاب لطاولة القهوة عن الخيول والآخر حول المباني الرخامية اللامعة وشيء عن الجيش التركماني، وكان ذلك. استثناء...

كانت هناك حفنة مختارة ممن كانوا مرة من المؤلفين السوفييت العظام نجت بصورة عجيبة كمادة غير قانونية. هكذا عرضت علي النسخة الروسية المكونة من مجلدين من كتاب "**الخطوة الحاسمة**" البالغ من العمر ثلاثين عاماً من تأليف بيردي كربابايف، "شولوخوف التركماني". أكد لي مساعد المبيعات أنها كانت كتاباً رائعاً، في حين أنه لم يحاول على وجه التحديد أن يبيع لي أياً من أعمال تركمانباشي.

كانت هناك في غياب أعمال الكتاب التركمان المعاصرين في نفس المحل؛ فتركمانباشي لا يحتمل أي منافسين.

كانت هناك في سعيي للعثور على أنقاض السيرك القديم، المغلق منذ أن أصدر تركمانباشي مرسومه الذي يحظر هذا الفن التركماني القاصر، والذي قادني إلى عمق شبكة من الشوارع السكنية. وهناك وجدت مكتبة، وحيدة من القلة التي ما زالت مفتوحة في البلاد، ودخلت لأجد غرفة لقراءة **روح نامة** على يساري مباشرة. في الداخل كانت هناك صفوف مرتبة من المقاعد وصورة للرئيس على الحائط. كانت فتاة صغيرة منكبة على نسخة من **روح نامة**، تدرسها بغضب. ابتسم أمين المكتبة ودعانا للدخول.

كانت هناك في الفندق حيث شاهدت حفلاً متلفزاً يتألف بالكامل من شباب وشابات يقفون على خشبة المسرح في قاعة عملاقة، يتناوبون القراءة بصوت عالٍ من **روح نامة** باللغة التركمانية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية. جلس الجمهور باهتمام نظراً لأن النص، الذي تم وصفه مراراً وتكراراً "بالمقدس"، كان يُرتّل نحوهم.

كانت هناك في مكتبة بيع الكتب الأخرى الوحيدة التي وجدتها في تركمانستان، المكتبة الموجودة في مدينة ماري، والتي قمت باستكشافها بمفردي بينما كان أصدقائي يزورون

أطلال مدينة ميرف القديمة. لقد كانت خاوية أكثر من مثيلتها في عشق أباد، لأنه لم يكن لديها نفس مجموعة كتب الصور لطاولة القهوة أو الكثير من الإصدارات باللغات الأجنبية من **الروح نامة**.

وكانت هناك في الحلقة القديمة من **بيني هيل** التي شاهدتها في مقهى موقف الشاحنات عندما توقفت هناك.

كانت هناك في ساحة انتظار السيارات المهجورة تحت الأرض "لمسجد روح تركمانباشي" الضخم وفي الكتابات المنقوشة المأخوذة من **روح نامة** على المآذن، وبالتأكيد هذا عمل تجديف هائل - لكن يبدو أن أحداً لم يهتم، حتى في أفغانستان المجاورة كانوا يقتلون الناس بسبب بعض الرسوم التي نشرت مؤخراً في الدانمارك. كان المسجد فارغاً مثل موقف السيارات، سوى بعض النساء اللواتي تقدمن إلى الأمام للصلاة، ولم يهتم أحد بذلك.

كانت هناك في الطريق إلى كونيا-أورجينتش، في لوحات إعلانية لكتب تركمانباشي بجانب الطرق الهادئة، وفي الأحجار البيضاء في التلال البعيدة التي قالت كل ما في "**روح نامة**".

كانت هناك عند سفح الجبل حيث عثروا على آثار أقدام "التركمانوصورات" المحفوظة تماماً. وهناك، في منزل زعيم القرية، جلست حيث جلس تركمانباشي ذات يوم، في فترة سابقة من حكمه، عندما كان رجلاً من الشعب، يقوم بجولات في البلاد ويتحدث مع الزعماء المحليين. ذكر دليلنا أنه كان عيد ميلاد تركمانباشي، وكانت هناك في الصمت الذي أعقب ذلك.

كانت هناك في المتحف الوطني حيث وضع المرشد الشاب دبوس تركمانباشي على صدر سترته. عندما سألته عن "**روح نامة**"، أجاب بحماس شديد أنها "رائعة للغاية"، ومع ذلك لم يستطع التعبير عن السبب، إلا أنه كان "عميقاً" بطريقة غير محددة. وكانت هناك أيضاً عندما سألته عن روح نامة ٢، والتي كانت أيضاً "رائعة جداً"؛ كما كانت هناك في التعبير الأبله الذي كسا وجهه عندما سألته ماذا كان فيه. وأجاب: "المزيد من نفس الشيء".

وكانت هناك أكثر من أي مكان آخر في الشقة التي استأجرناها في البلدة النفطية البائسة والمنعزلة، في رائحة النفط الخام في الهواء وفي الديسكو المحلي مع مجموعة متنوعة من القحاب

الروسيات والأوكرانيات والكازاخستانيات (ولكن ليس التركمانيات)، وفي الود المبتهج لمستأجرتنا المؤقتة ذات الأحد عشر عاماً، وفي غياب والد الفتاة، وفي الحياة الصعبة القاسية التي امتدت أمام كل من الفتاة ووالدتها، وفي كتب تركمانباشي المعروضة خلف زجاج المقصورة العائدة للحقبة السوفييتية، على الرغم من أن المرأة لم تكن مسؤولاً حكومياً، ولم يكن هذا مكتباً بل منزلاً خاصاً، ولم يكن لديها ما تكسبه بوضعها هناك - ومع ذلك، فقد كانت هناك بكل تفاهتها الحقيرة.

كانت هناك، وكنتُ هناك. ثم لم أعد هناك، ولم تعد هناك هي أيضاً. بوفاة تركمانباشي، بدأت عملية إلغاء التذكر.

* * *

كان خلف الديكتاتور طبيب الأسنان الذي تحول إلى منصب نائب رئيس الوزراء والذي تمتع باسم جوربانجولي بيرديمحمدوف، كما يوصف في البرقيات الدبلوماسية الأمريكية التي سربتها ويكيليكس في عام ٢٠١٠، "ليس رجلاً بشوشاً للغاية"، ومع ذلك فقد كان ماهراً بما يكفي ليعرف أنه سيتعين عليه التقدم بحذر إن كان يرغب في النجاة من انتقال السلطة. كانت عبادة شخصية سلفه مماثلةً لمستوى ستالين، ولا يمكن تفكيكها بين عشية وضحاها من دون التسبب في اضطراب كبير. وهكذا تم تطهير المشهد الطبيعي من التماثيل الذهبية لتركمانباشي -ولكن تدريجياً. تم نقل قوس الحياد السيئ السمعة، مع عملاقه التركمانباشي الدائر الذي كان دائماً يسيطر على الشمس بين راحتيه، من المركز إلى ضواحي عشق أباد - ولكن ليس حتى عام ٢٠١٠. (بقي التركمانباشي العملاق، لكنه لم يعد أبداً يواكب الشمس مرة أخرى.) وبالمثل، فقدت روح نامة بصورة مستمرة مكانها في وسط الكون التركماني، ولكنها لم تختفِ حتى عام ٢٠١٢ من المناهج الدراسية والدورات الجامعية. هذا لا يعني أن خمسة ملايين من سكان تركمانستان قد تم تحريرهم فجأة. وعلى الرغم من كونه في البداية خجولاً إلى حد ما، سرعان ما كبر بيرديمحمدوف ليستمتع بالقوة التي جمعها سلفه في مكتب الرئيس. وهكذا، سرعان ما أفسح العصر الذهبي لتركمانباشي، "أب كل التركمان"، المجال لانبعاث الأركاداج، "حاميهم".

كانت حقبة جديدة وبحاجة إلى كتب جديدة بالطبع، وهكذا بدأت عملية توليد الأعمال العظيمة من جديد، حيث اكتشف التركمان أنهم ملعونون حقاً، وأنهم ما زالوا مربوطين بجهاز كتابة كافكا، وأنه لم يكن هناك هروب من سجن لغة (الديكتاتور)، وأن ليس في أي مكان آخر على الأرض سوى بلدهم، كان التقليد الذي بدأه لينين أكثر رسوخاً. كان كارل ماركس مخطئاً بشأن الكثير من الأشياء، وعلى صواب بشأن هذا:

> يصنع البشر تاريخهم، لكنهم لا يصنعونه كما يحلو لهم؛ إنهم لا يصنعونه في ظل ظروف يختارونها، بل في ظل الظروف القائمة بالفعل، المعطاة والمنتقلة من الماضي. تقاليد جميع الأجيال الميتة تضغط مثل كابوس على أدمغة الأحياء.

رؤية ماركس مأساوية وتمنح الكرامة لمعاناة الجنس البشري، الملعون بالكدح تحت هذا العبء الرهيب الذي لا مفر منه. لكن في حين كان تاريخ الأدب الديكتاتوري مأساوي بالتأكيد، إلا أن مساره كان أكثر في اتجاه الكوميديا السوداء. ليس الأمر كما لو أن ستالين كان بمثابة تحسين جرى على لينين، أو أن ماو كان يمثل تطوراً محنكاً للفكر الشمولي، أو أن هتلر كان تشذيباً لموسوليني - لكن نصوصهم طلبت أن تؤخذ على محمل الجد. الآن، ومع ذلك، كان الكتاب الديكتاتوري مزحة من الذوق السيئ، مكررة حد الغثيان. لقد أثبت أورويل أنه قاتم بلا هوادة في ١٩٨٤، لكنه، مثل ماركس، لم يستوعب الأمر تماماً. نعم، بين الحين والآخر يبدو أن شيطاناً في شكل إنسان يرتكب أفعالاً شريرة فظيعة، وفي القرن العشرين كان هناك العديد منهم، وقد نشروا تلوثهم الأيديولوجي من خلال النصوص الشيطانية. لكن الفخامات الشيطانية كانت نادرة. وفي معظم الأوقات، كان علينا أن نتحمل الشياطين الصغيرة، والأغبياء البائسين، والبلهاء القساة. بوقع أورويل، الحقيقة المؤسفة لنوعنا البشري هي: "إذا كنت تريد صورة للمستقبل، تخيل حذاء مهرج يختم وجهاً إنسانياً -إلى الأبد."

لم يظهر هذا بوضوح أكبر من تركمانستان في عصر أركاداج. على كل حال، لم تكن تلك هي زيارة الشعب التركماني الأولى لمكتبة الأدب الديكتاتوري الجهنمية: إنها التاسعة، ولا يبدو أن هناك أي مخرج. أثبت بيرديمحمدوف أنه أقل موهبة من كل ديكتاتور مؤلف كان قد سبقه، بما في ذلك سلفه المباشر. حافظت النصوص التي ألقاها على شعبه على جميع الأساطير

وسوء قراءة التاريخ التي ارتكبها تركمانباشي، لكنها كانت تفتقر إلى الشعر السيئ بشكل مطلق والطموح الضخم. فبدلاً من دمج كل التاريخ في مجلد واحد ملون، أنشأ بيرديمحمدوف سلسلة من الكتب الجافة حول الجوانب المختلفة للثقافة الشعبية التركمانية، كما لو أنه عاد إلى المفهوم الأصلي **لروح نامة** فقط ليضاعفها في حشد من الكتب (كتبت خفية له بشكل واضح جداً).

مثال على ذلك كان **أخالتك: فخرنا ومجدنا** (٢٠٠٨)، حيث يروي بيرديمحمدوف تاريخ سلالة الخيول المميزة لتركمانستان، "الفخر والمجد الوطني" التي أصبحت "تجسيداً أرضياً لوحدة المساحة الثقافية للعالم والذكريات العظيمة التي بقيت عبر العصور التاريخية". إن بلادة السرد المستمرة تكفي لترك القارئ يتوق إلى أيام البحث عن الذات عند تركمانباشي. يتقدم بيرديمحمدوف عبر تاريخ الخيول وتقنيات التربية الحديثة، قبل أن يقدم للقارئ كتالوجاً طويلاً بشكل لا يصدق يضم ١٣٢ حصاناً من إسطبله الخاص (بعنوان متواضع "**السلالة الفائقة لخيول أخالتك**") مدعوماً بالصور والأسماء والإحصاءات الحيوية. ثم يختتم الكتاب ببعض النصائح حول ركوب الخيل وتقديم المشورة بشأن اللوازم لمحبّي رياضة الفروسية.

كان بيرديمحمدوف سعيداً بهذا المشروع الأول في الكتابة عن الخيول، وقد تابعه بكتاب طاولة قهوة كان أكثر تفاهة بعنوان "**رحلة سباق الخيل السماوية**". لكن الديكتاتور كان يبدأ فقط، وسرعان ما نُسب إلى الرئيس الجديد طوفان حقيقي من النشر. في عام ٢٠٠٩، كشف الوفد التركماني في معرض موسكو للكتاب عن أول سلسلة من عشرة مجلدات معدة بعنوان **النباتات الطبية في تركمانستان**، في حين أن كتباً أخرى عن مواضيع متنوعة مثل نسج السجاد والموسيقى والتاريخ والإثنوغرافيا تبعتها في تتابع سريع. كما جرب بيرديمحمدوف يده في الخيال، وأطلق روايته الأولى، "**طائر السعادة**"، في حدث في مدينة داشوغوز في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٣.

مدد الاركداج بعد ذلك مخالبه إلى الشعر والموسيقى الشعبية، ظهر أحياناً على شاشة التلفزيون مع غيتار أو آلة موسيقية لمرافقة المطربين المشهورين في حفلات رأس السنة. في

أغسطس/ آب ٢٠١٥، تضافرت اهتماماته في كلا الشكلين الفنيين عندما تم تلحين قصيدة "إلى الأمام فقط" موسيقياً، وقامت بغنائها جوقة من التركمان الوطنيين البالغ عددهم ١٦٦,٤، وفاز بيرديمحمدوف بمكان في **موسوعة غينيس للأرقام القياسية** باعتباره مؤلف الأغنية التي غناها أكبر عدد من الناس في جولة واحدة.

بعد ما يقرب من عشر سنوات في عهده، بقيت هناك جوانب قليلة في الثقافة التركمانية التي لم يخصص لها كتاباً واحداً على الأقل. في أوائل عام ٢٠١٦، ذكرت إذاعة أوروبا الحرة أن بيرديمحمدوف قد أنتج ما لا يقل عن خمسة وثلاثين رائعة فنية بمعدل حوالي ثلاثة روائع ونصف في السنة. ولم يكن هناك أي علامة على تباطئه. في كانون الثاني/ يناير الماضي، أصدر مختارات من الأمثال والأقوال التركمانية التي تحمل عنوان "**مصدر الحكمة**"، بينما نشر "**الشاي: الشفاء والإلهام**" بعدها بشهرين فقط. يُظهر الغلاف وعاء من الشاي ورغيفاً من الخبز وسجادة. وعرض التلفزيون الحكومي بيرديمحمدوف وهو يقدم الكتاب إلى مسؤولي الدولة، الذين قبلوه ورفعوه على جباههم كما لو كان قدس الأقداس.

ولما لا؟ لأنه، كما قال بيرديمحمدوف "يعرف كل تركماني أنه لا يوجد شيء أجود مذاقاً من الشاي المحضر من مياه نبع جبلي وهو يغلي على نار تخييم في إبريق الشاي التقليدي."

إذاً، في عام ٢٠١٦، كان الديكتاتور المؤلف الأكثر غزارة في القرن الواحد والعشرين، قد أجاب أخيراً على سؤال لينين، المشكلة الأساسية التي تكمن في قلب شريعة الطاغية: ما العمل؟

لماذا - لا نعد كوباً من الشاي، بالطبع.

المرحلة الرابعة:
الموت ليس نهاية المطاف

خاتمة



المجنون لا يشيخ أبداً: كفاحي باللغة العربية. عام ١٩٩٥.

إذا نظرنا إلى الوراء، لأكثر من مائة عام من الأدب الديكتاتوري، من الصعب مقاومة الاستنتاج بأنه، كما هو الحال مع التوحيد أو الفلسفة أو الموسيقى الكلاسيكية، قد تشكلت بالفعل القمم العظيمة، وكل ما يتبعها الآن سيتواجد في ظلها. هل نتوقع حقاً ظهور المسيح أو محمد أو أفلاطون أو باخ؟ كلا: وهذا هو الحال مع الطغاة العظماء ونصوصهم السامة. الديكتاتوريون اليوم يقدمون لنا أعمالاً مشتقة بصورة أقل.

هذا لا يعني أن الأعمال الأساسية للقرن السابق صحية أو خبيثة بشكل خاص. فمثلها مثل كل الشرائع، تعد النسخة الديكتاتورية أقل قراءة مما هي مبجلة، أو في هذه الحالة، مما هي

مخوفة. وإذا تمت قراءة هذه الكتب في أي وقت، فسيكون ذلك في سياق جديد ومن خلال المنشورات التفسيرية التي تختلف تماماً عن الكتب الأصلية. بوضع ذلك في الاعتبار، دعونا نلقي نظرة على الوضع الحرج لـ"كلاسيكيات" الأدب الديكتاتوري الخمس في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين.

لينين

يظل لينين اليوم مطبوعاً في كل من روسيا والعديد من البلدان الأخرى حول العالم، لكنه لم تعد لديه أي روابط مباشرة مع حركات جماهيرية كبيرة تدعي أنها تتصرف باسمه.

في روسيا، لا تزال جثته ترقد في صندوقها الزجاجي في الميدان الأحمر، وهي تذكير كئيب وغاضب بواقع سابق أبسط ما يزال كثير من الناس يظهرون مشاعر متضاربة نحوه. منذ عقدين من الزمن، قاوم زعماء الكرملين دعوات لدفن والد البروليتاريا العالمية، كما لو أن هذا التنصل النهائي من الثورة الروسية سيكون بمثابة اعتراف بأنه، نعم، لقد كان القرن العشرون كارثة وأن أجيالاً من الروس عانت وماتت عبثاً. ومع ذلك، فإن المعجبين غير الناقدين بلينين كانوا نادرين، والمفهوم القائل بأن بوتين يريد استعادة الاتحاد السوفييتي، هو محض خيال ساذج (أو ساخر) لصحفيين متطفلين ومحاربين في معهد بيلتواي يتشممون الأرض أملاً في أموال المنح. إن الأفعال البطولية للشعب السوفييتي بدلاً من نصوص مؤسسيه، هي ما يهتم به بوتين، وفي المناسبات الرسمية يقف بجانب زعماء الكنيسة والجنرالات بدلاً من "علماء النظرية العظام".

وهكذا يبقى جسد لينين عالقاً في طي النسيان، بينما يتضاءل الاهتمام بمجمل كتاباته ليصبح حكراً على المؤرخين لروسيا والثورات، وأحياناً في الحرم الجامعي المزيف وبعض جيوب الماركسيين- اللينينيين عبر الإنترنت. وعلى الرغم من ذلك، ومن بين جميع النصوص التي قرأتها لإعداد هذا الكتاب، بدا لي لينين الأكثر حيوية من حيث قابلية التطبيق. إن استطعت أن تقرأ ما قبل العلمية الاختزالية والحجج المملة للاشتراكيين القدامى، فإن بعض حقائق الزمان -"الحقائق الأبدية"، إذا صح التعبير -ستظهر لك، طالما كنت باحثاً عن الأخلاق فيما وراء السلطة، وهذا هو.

هذه ليست حقائق لطيفة أو مطمئنة: نصوص لينين لا تشفي ولا تكرّم. وهي بدل ذلك، تظهر لك كيفية القيام بأشياء سيئة. لا تزال مفيدة جميع الاستراتيجيات والتكتيكات التي دافع عنها لإدارة منظمة سرية، وتنبهه لتراجع وتدفق اللحظة التاريخية، وفهمه لكيفية الاستيلاء على السلطة والحفاظ عليها في لحظة الأزمة، ورغبته في تحطيم الدولة الفاسدة. كل هذه مفيدة اليوم، لأولئك الذين يسعون إلى التعلم من السيد.

لماذا إذاً لا يقرأ المزيد من الناس كتبه؟ ربما يكون ذلك لارتباطه بأيديولوجيا بائدة. وربما هو غياب السياق. قد يكون أيضاً بسبب أن لينين كان ناجحاً جداً. لا يمكن تفسير النظرية اللينينية إلا في الإطار الأوسع للعلم الماركسي الزائف، ولكن يمكن استخدام التكتيكات اللينينية من قبل أيديولوجيين من جميع الأنواع، سواء كانوا يقيمون في مصر أو إيران أو الصين أو مجالس إدارة الشركات عبر الولايات المتحدة. لماذا تحرث طريقك خلال المادية والمذهب النقدي التجريبي، إذا لم يكن عليك ذلك؟ قد يكون ورثة لينين الفكريون من اللينينيين من دون أن يفتحوا أحد كتبه. تلك الكتب التي ظهرت فيها أفكاره لأول مرة، ومن صفحاتها خرجت لتتسلل إلى الأرواح في جميع أنحاء العالم.

ستالين

على الرغم من أن منتقدي ستالين في الحزب البلشفي، كانوا على درجة من الحماقة كي يقوموا بشطبه باعتباره متواضعاً فكرياً، إلا أنهم كانوا محقين في تقييمهم بأنه لم يكن كاتباً جيداً أو أصلياً (ربما باستثناء شعره أيام شبابه).

أعظم مهارات ستالين الأدبية كانت كمحرر للآخرين، وليس كمبدع لنصوصه الخاصة. كان نثره متماسكاً ولكنه رديء، وبنيته منهجية ولكنها مكررة، وجدالاته المتنوعة على المواطنة، "الاشتراكية في بلد واحد"، اللينينية واللغويات قد انقضت منذ وقت طويل على تاريخ انتهاء صلاحيتها. **الدراسة القصيرة** التي كانت ذات يوم واسعة الانتشار، تعد اليوم تحفة نفيسة. والأدب الاشتراكي الواقعي الذي تم إنشاؤه استجابةً لقوله القائل بأن الكاتب هو مهندس الروح البشرية، قد اختفى في الغالب، على الرغم من أن بعض الممارسين الأكثر

شهرة، مثل الفائز بجائزة نوبل ميخائيل شولوخوف، قد ظل قيد الطباعة وربما ما يزال لديه بعض القراء.

هذا الاختفاء يعد متنبأ به. وبينما يمكن أن تعلم الدراسة عن كثب لأفعال ستالين من قد يكونون العقول المدبرة للجرائم إلى حد كبير، فإن النصوص نفسها -التي كانت تنقيحات لأعمال لينين -تتلاءم مع الاحتياجات الأيديولوجية للحظة أو تسلسل الأكاذيب التي تخفي ما كان عليه ستالين حقاً - وتخدم بالفعل الهدف الكئيب.

هذا لا يعني أن الكتب لا تعيش في صورة مضللة؛ إنها تفعل ذلك. هكذا هي سمعة ستالين المعروف بأن نصوصه لا تزال تتمتع بآخرة أدبية مخففة. يمكنك قراءة الأعمال الكاملة للفوشد مجاناً عبر الإنترنت أو، إذا اخترت ذلك، يمكنك أن تدفع مقابلها. اكتشف الناشر الروسي Eksmo سوقاً من الحنين إلى عصر ستالين في منتصف العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، وبدأ في ضخ الكتب لتلبية الطلب، وبالتالي تحقيق الأرباح: هذه من المفارقات الرئيسية في التاريخ.

موسوليني

أما بالنسبة إلى موسوليني، فإن الحياة الأخرى لنصوصه، لم تبدأ بعد فترة وجيزة من إنزال جسده المدمر عن عمود الإنارة وتعرضه لمزيد من التدنيس. تقول إحدى الروايات إن الممرضات عند تشريح جثته، لعبن البينغ بونغ بأعضائه، تقاذفن كبد الدوتشي ورئتيه وقلبه جيئة وذهاباً في عمل هزلي وجريء من رعب الجسد، الذي يتفوق حتى على المشاهد التي في روايته **عشيقة الكاردينال**.

على الرغم من الانهيار التام والمطلق للنظام الفاشي، إلا أن الاهتمام بـالدوتشي ظل قوياً بما يكفي للحفاظ على نشر أعماله الكاملة المؤلفة من ستة وثلاثين مجلداً، وبدأت تخرج من المطابع في عام ١٩٥١؛ المجموعة الأكثر اكتمالاً هي في أربعة وأربعين مجلداً. ولم يكن الاهتمام بنصوص موسوليني تاريخياً وأرشيفياً بالكامل. كان هناك طلب على المواد الطازجة، والتي كان الديكتاتور نفسه لطيفاً بما يكفي لتزويدنا بها من وراء القبر، أو على الأقل هذا كان ادعاء

"بيرو كاليناندرو"، والذي نشر كتابه **بينيتو موسوليني بدون الفاشية؛ ١٢ محادثة من الجانب الآخر** في ميلانو في عام ١٩٥٢. في هذا الكتاب، يبلغ شبح موسوليني محققه أن "هذه ليست تصورات شخص ميت. أنا هنا أحوز الحقيقة؛ أما أنت، فبدلاً من ذلك، تفحص الشيء المتحلل الذي تصلب بفعل الفورمالديهايد أو الكحول". ثم يناشد شبح موسوليني جميع الوطنيين الإيطاليين لتشكيل حزب جديد وإحياء الأمة الإيطالية.

تم إحياء الأمة الإيطالية، ولكن ليس من قبل أتباع الديكتاتور الميت. على الرغم من أن حفيدة موسوليني قد جلست في مجلس الشيوخ الإيطالي وهي اليوم عضو في البرلمان الأوروبي، إلا أن إحياء الفاشية الشامل لم يلفت الأنظار إلا في غيابه. ما يزال مسقط رأس موسوليني في بريدابيو موقعاً للحج بالنسبة إلى المعجبين بالديكتاتور الفاشي، وقد استمرت النصوص المزيفة والأعمال المفقودة المنسوبة إليه في الظهور في القرن الواحد والعشرين، لكنها لم تعد تمثل مجموعة متماسكة من الأفكار الآن أكثر من كونها في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، وبدون الوجود الجذاب لـلدوتشي كي ينفخ الحياة فيها، بقيت مجرد أشياء برسم البيع.

هتلر

في ألمانيا، اختفت جثة هتلر وخرج كفاحي عن الطباعة، على الرغم من أن النسخ الصفراء من الكتاب ظلت تطارد مكتبات الكتب المستعملة لسنوات بعد انتهاء الحرب. في أعقاب مداهمة قامت بها الشرطة لمحلات بيع الكتب في برلين في عام ١٩٦٠، تعرضت تجارة السم الأيديولوجي لقيود. يمكن بيع العمل الكبير لهتلر في "عدد محدود من المكتبات المتخصصة"، لكن كان على المشترين أن يكونوا قادرين على إظهار "الاهتمام المهني المشروع"، على الرغم من فرض قيود أقل على هواة كفاحي الأصليين، الذين استمروا مع بعض الاستثناءات القليلة في تولي مناصب سياسية وإدارة شركات كبيرة وشغل مقاعد في الخدمة المدنية حتى الثمانينيات.

ومع ذلك، لم يتم حظر كفاحي أبداً في ألمانيا كما كان في بعض الدول الأوروبية الأخرى. بدلاً من ذلك، كانت ولاية بافاريا تسيطر على حقوق النشر ومنع نسخ جديدة من الظهور. ولكن الوضع تغير عندما دخل الكتاب إلى المجال العام في ٣١ كانون الأول/ ديسمبر

٢٠١٥. ثم تبين أن مجموعة من الباحثين في معهد التاريخ المعاصر في ميونيخ كانت لديهم خطة، وسينشرون إصداراً علمياً جديداً يتكون من ألفي صفحة مليئة بالتعليقات. هذا من شأنه أن يثبت مرة واحدة وإلى الأبد أن ما كتبه هتلر هو العمل المكتوب بصورة سيئة حقاً والمعادي للسامية كما كان يبدو دائماً. ونشر الإصدار في عام ٢٠١٦، جاء **كفاحي: الطبعة المنقحة** محملاً بثلاثة آلاف وخمسمائة حاشية علمية وشروحاً تشير إلى جميع انحرافات هتلر وأكاذيبه وشذوذه. وعلى الرغم من أن المعهد كان في الأصل يخطط لطباعة مجرد أربعة آلاف نسخة، إلا أن الحجوزات المسبقة رفعت العدد الإجمالي إلى خمسة عشر ألف نسخة. وبحلول نهاية العام، كان قد تم بيع خمسة وثمانين ألف نسخة، وقضى هتلر خمسة وثلاثين أسبوعاً في قائمة أفضل الكتب مبيعاً حسب صحيفة در شبيغل الألمانية.

ولكن في حين أن الدافع لمواجهة الأفكار السيئة بدلاً من تمني ذهابها بعيداً عن الحظر، أمرٌ مثير للإعجاب، فمن الصعب مقاومة الاستنتاج القائل بأن وجود هذا النص التوضيحي لكتاب "كفاحي" يدل على عدم معرفة الحقيقة البسيطة من جانب محرريه المتعلمين تعليماً عالياً -وبأن الجدل مع متعصب هو دائماً مضيعة للوقت. وفقاً لموزعي الكتاب، كان معظم القراء الجدد أكاديميين أو أشخاصاً لهم اهتمامات عامة بالتاريخ: بمعنى آخر، إنهم الأشخاص المتعلمون والدارسون الذين من غير المحتمل أن يتحولوا إلى النازية. كان من الواضح لمعظم المراجعين الأوائل في عامي ١٩٢٤ و١٩٢٥ أن كفاحي كان مهزلة، وحتى هتلر سيأسف على عمله الخطير في التأليف. لقد حصل الكتاب منذ فترة طويلة على قوة رمزية تتجاوز أصوله ككائن مطبوع. كفاحي لا يحتاج إلى القراءة؛ فمن الصعب قراءته. ولإثارة القلق والخوف والكراهية والإرهاب، هو يحتاج فقط إلى الوجود.

خارج ألمانيا، حققت نفاية هتلر العظمى ذلك تماماً، حيث تمتعت بآخرة نشطة منذ عام ١٩٤٥. وبعد الحرب، بدأت الطبعات الإسبانية والبرتغالية والإنجليزية والبرازيلية والعربية في الخروج من المطابع في أماكن بعيدة مثل المكسيك وبيروت والبرتغال والبرازيل والولايات المتحدة من دون الكثير من الانقطاع. في بعض البلدان، أبقى الناشرون كفاحي مطبوعاً لمجرد كسب المال -في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، قامت دار النشر هوتون ميفلين المحترمة

بشكل كبير بجمع العائدات منه بهدوء لعقود[1]. في بعض المناطق الأخرى، كان الناشرون أكثر اهتماماً بالأيديولوجيا، ما دفعهم للترويج لنص هتلر.

في مكان آخر ومن ضمن مفارقات التاريخ الغامضة، ربما يكون كفاحي هو الأكثر شعبية اليوم في البلدان التي يسكنها أناس يعتبرهم هتلر Untermenschen[2]. نشر النازيون لأول مرة نسخاً في الشرق الأوسط أثناء الحرب -فمن الممكن ترجمة كفاحي إلى اللغة العربية باسم **جهادي** -ومنذ ذلك الحين انتشر في جميع أنحاء العالم الإسلامي، حيث بيع في المكتبات إلى جانب كتب أمثال **بروتوكولات حكماء صهيون**. ووجد الصحفيون طبعات معروضة للبيع في الأراضي الفلسطينية ومصر والعراق والهند[3] وبنغلاديش، بينما في عام ٢٠٠٥ ذكرت صحيفة **الغارديان** أن كفاحي كان يحقق مبيعات هائلة في متاجر بيع الكتب داخل الدولة العضو في حلف الناتو والحليفة للولايات المتحدة تركيا، حيث تم بيع مائة ألف نسخة منه في غضون شهرين.

هذه هي قوة الكتاب التي يتجاهل قراؤه آثارها الواضحة على أعراقهم ويستخلصون منه ما يريدون: التعبير عن استيائهم الذي وجد في التعبير الحديث عن الكراهية القديمة لليهودي، سيد المؤامرات الشيطاني، ومصدر كل البؤس، وكبش الفداء الأبدي.

ماو

في عام ١٩٧٩، واجه الحزب الشيوعي الصيني معضلة. لقد مات الرئيس ماو بأمان منذ ثلاث سنوات، وبدأ الحزب، بقيادة دنغ شياو بينغ، في تنفيذ إصلاحات السوق التي من شأنها

---

١ - منذ عام ٢٠٠٠، تبرعت هوتون ميفلين بجميع العائدات من بيع كفاحي إلى المنظمات التي تكافح معاداة السامية. المؤلف

٢ - أونترمينش (كلمة ألمانية وتعني الإنسان الأدنى أو الأجناس الدنيا وجمعها أونترمينشن) وهو مصطلح شهير في الأيديولوجيا النازية العنصرية استُخدم لوصف الشعوب الدنيا وخاصة الجموع في الشرق (ويُقصد بها الشعوب الواقعة في الشرق الجغرافي لألمانيا النازية) وخاصةً اليهود والغجر والشعوب السلافية كالبولنديين والروس والبيلاروس والأوكرانيين. المترجم

٣ - وفقاً لتقرير لهيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، يعتبر القراء الهنود **كفاحي** كتاباً ملهماً للمساعدة الذاتية لرجال الأعمال، وهو تفسير يثير الفضول لمذكرات مجنون بالعظمة مليئة بالكراهية، والذي قتل نفسه بعد ارتكابه جرائم تاريخية عالمية، وقاد بلده بالتبني إلى الدمار. المؤلف

أن تفتح الصين أمام التجارة الخارجية وتحول البلاد إلى قوة اقتصادية. كان كل هذا بعيداً جداً عن تلك الأفكار التي كانت وراء القفزة العظيمة نحو الأمام والثورة الثقافية. وهكذا، ما الذي يجب فعله بشأن لحم الزعيم المحنط الذي يشغل خزانة عرض كريستالية في ضريح في ميدان تيانانمن؟ وماذا عن مئات الملايين من النسخ غير المباعة من أعماله التي كانت تشغل مساحة كبيرة على الرفوف في المكتبات والمستودعات في جميع أنحاء الصين؟

نظرت قيادة الحزب في دفن الرئيس، لكنها قررت في نهاية المطاف تركه في صندوقه للحفاظ على الاستمرارية الرمزية مع الماضي، حتى وهم يتبعون سياسات كان يمقتها. أما بالنسبة إلى كتاباته، فقد تم الحفاظ عليها أيضاً، وإن كانت خاضعة لقيود. في شباط/ فبراير ١٩٧٩، أمرت إدارة الدعاية بالانسحاب من بيع كل من الطبعات الصينية والأجنبية من اقتباسات الرئيس ماو والملصقات والصور والنشرات التي يعود تاريخها إلى الثورة الثقافية. أصبح الكتاب الذي عالج السرطان وجعل المكفوفين يبصرون، يعاد عجنه بشكل جماعي، حيث انتقل من تواجده في كل مكان إلى الندرة (إلى جانب مئات الملايين من النسخ غير المباعة من أعمال ماركس وإنجلز ولينين وستالين). ثم أجرى الحزب مراجعة شاملة لمؤلفات ماو، وفي عام ١٩٨١، تم وضع قائمة رسمية تضم ثلاثة وأربعين "عملاً قانونياً" ليتم إبقاؤها قيد الطباعة. الأجزاء الأربعة الأولى من **أعمال ماو المختارة**، والتي تغطي السنوات التي سبقت تأسيس الدولة الشيوعية في عام ١٩٤٩، هي التي قطعت، ولكن المجلد ٥، الذي يكشف عما فعله ماو بعد ذلك، اعتبر راديكاليا للغاية وسُحب في عام ١٩٨٢.

على الرغم من هذه الثغرات، يقف ماو اليوم باعتباره الوحيد بين الخمسة الكبار الذي بقيت شريعته الرسمية معتمدة من قبل الدولة التي حكمها ذات يوم. ولكن مع مرور السنين، تعمقت الشكوك حول مقدار ما كتبه بالفعل.

في عام ١٩٩٣، ظهرت تقارير في هونغ كونغ تدعي أنه بعد خمس سنوات من الأبحاث التي ترعاها الأحزاب في مؤلفات ماو، وجد العلماء أنه من بين ٤٧٠ خطاباً وتقريراً ونصوصاً أخرى قاموا بتحليلها، كان أقل من نصفها في الواقع من عمل الرئيس فعلاً. حتى عندما كان

المحرر ماو بعيداً عن ستالين: كان توقيعه "أوافق" أو "جيد" الموجود في الهوامش في الغالب دليلاً على مشاركته. اتضح أن تشن بودا، الذي كان يتمتع بسمعة طيبة كأهم مرجع في فكر ماو تسي تونغ، كان في الواقع المؤلف الرئيسي للكثير منها، في حين أن بعض أعضاء الحزب البارزين الآخرين، مثل الجنرال تشو دي ورئيس الوزراء الصيني تشو إنلاي، كانا قد ساهما في تعزيز ببليوغرافيا الرئيس. وفي الوقت نفسه، ومن بين ١٢٠ نصاً يتعلق بالمسائل العسكرية، تبيّن أن ماو كتب ١٢ كتاباً فقط. هذا الاستخدام للكُتّاب الأشباح ظل مستمراً منذ عام ١٩٤٩، بينما في عام ١٩٦٢ كلف الرئيس رسمياً مجموعة من خمسة كتاب بمهمة إنشاء فكر ماو تسي تونغ.

على الرغم من ذلك، بقيت نصوص ماو، وأعيدت تهيئتها للعصر الجديد. عادت **اقتباسات من الرئيس ماو** إلى الطباعة، وتمتعت بحياة ثانية كالأشياء السياحية التافهة، وفي عام ٢٠١٣، عشية الذكرى ١٢٠ لميلاد الرئيس، تم إصدار طبعة علمية جديدة، أشرف عليها عقيد بارز في أكاديمية العلوم العسكرية. نتاج عمل لمدة عامين، تم تجريد هذه النسخة المنقّحة من الاقتباسات المنسوبة بشكل خاطئ إلى ماو، مع الاعتماد أيضاً على النصوص غير المدرجة في النسخة الأصلية. ولكن إلى جانب المحاولات الأكاديمية الجادة لتجديد إرث ماو السياسي، تمتع كرئيس موازٍ بمدى أكبر من الحياة التجارية. يدرس رواد الأعمال الصينيون الشباب اليوم كتاباته العسكرية "الإرشادية" للحصول على تعليمات عن كيفية التغلب على منافسيهم، بنفس الطريقة التي وفّر بها صن تزو في كتابه **فن الحرب** ولعقود من الزمن كتباً ومقالات عن استراتيجية العمل.

بغض النظر عن مكانة ماو الثاني كرجل أعمال، فإن قدرته على صياغة الشعار الصارخ ليست موضع شك. لقد نجح ماو أكثر من أي زعيم في اختراق لغته في خطاب ليس لقومه فقط، بل لملايين آخرين حول العالم. وكانت عبارات مثل "الثورة ليست حفل عشاء" و"القوة السياسية تنبثق من فوهة البندقية" أكثر صدى وصدقاً من الغالبية العظمى من شعارات الإعلانات. ولغوياً، استمر الرئيس في الانتصار.

* * *

لذا فقد نُزعت أنياب ومخالب الكتب الديكتاتورية في الوقت الحاضر، ووضعت في الحَجر بأمان في أراضٍ بعيدة لا نعرف عنها سوى القليل، أو ماتت وتلاشت، وذهبت في تلك البلاد الأخرى، في الماضي. وفي هذه الحالة المخففة، يمكننا بالتأكيد أن نشعر بالثقة من أن المكتبة الجهنمية لا يمكنها أبداً فتح مكتب فرعي في الولايات المتحدة.

حسناً، ربما الأمر ليس أني لا أتوقع حدوث ذلك هنا، بل لا أحد يتوقع حدوث ذلك في روسيا أو إيطاليا أو ألمانيا أو الصين أيضاً. بعد قرن من الزمان، برز عالم جديد فظيع من فوضى الحرب وأنقاض الإمبراطورية، حيث ادعى المثقفون أن هذه الفكرة السخيفة أو تلك تمثل الوحي الأخير الذي يوفر الإجابة على أهم مشاكل الوجود التي تواجه البشرية. كانت الديمقراطية في الخارج. وكانت الأوهام الطوباوية في الداخل؛ وأعقب ذلك الطغيان والقتل الجماعي. كان ذلك الزمن من أسوأ الأوقات، وكان أسوأ الأوقات. نحن نعيش اليوم أيضاً في عصر التفكك، وإن كان من نوع أقل دراماتيكية. لا يوجد احتدام كبير يعصف بالقارة. لكن نظام ما بعد الحرب الباردة ينهار مسبباً تداعيات عالمية: فالمعتقدات والعجائب التي ظلت في معظمها بلا منازع منذ عقود، تتعرض الآن للهجوم من اليمين ومن اليسار.

الأشياء تتداعى. وعندما تفعل ذلك، فإنها تميل إلى الانهيار بسرعة - والقليلون هم الحكماء الذين رأوا ذلك قادماً. ذهب لينين من كتابة **ما العمل؟** في المنفى في ميونيخ إلى تغيير مسار التاريخ من مكتب في الكرملين في غضون ست عشرة سنة فقط. انتقل ماو من الكتابة حول أهمية التمارين الرياضية لمجلة **نيو يوث** إلى توحيد أكثر دول العالم سكاناً تحت قيادته في اثنين وثلاثين عاماً. ارتفع هتلر وموسوليني من الغموض إلى الهيمنة بشكل أسرع. لم تظهر الشرائع الديكتاتورية في البلدان الصغيرة أو المحيطية، بل في الإمبراطوريات القوية والأراضي القديمة والدول المتقدمة التي كانت موطناً لكثير من أعظم كتاب التاريخ والفلاسفة والعلماء والفنانين والموسيقيين. لم يكن هناك نقص في الكتب الجيدة في روسيا أو إيطاليا أو ألمانيا أو الصين. ولكن في فترة زمنية قصيرة، وجد مئات الملايين من الناس أنفسهم مضطرين لقراءة كتب سيئة للغاية.

لا يمكن أن يحدث هذا هنا؟ لما لا؟ فلقد حدث هناك.

من المؤكد أن للولايات المتحدة خبرة طويلة وعميقة مع الآمال القيامونية والأهوال المروعة التي لعبت، في شكلها المتحور، دوراً مهماً في صعود الطغاة العظام في القرن العشرين. عندما أبحر المتشددون من إنجلترا، أحضروا معهم اعتقاداً راسخاً بأنهم كانوا يعيشون في نهاية الزمان. لقد كان وصولهم إلى العالم الجديد بحد ذاته بمثابة تحقيق للنبوءة الواردة في إنجيل متى ٢٤: ١٤: "وسيُكرز بإنجيل المملكة هذا في جميع العالم لشهادة لجميع الأمم؛ ثم تأتي النهاية". إن صورة أمريكا على أنها "مدينة على تلة" تقدم مثالاً للعالم يعود إلى خطبة (تستند أيضاً إلى مقطع من إنجيل ماثيو) الذي بشر به البروتستانتي جون وينثروب في عام ١٦٣٠ قبل أن تطأ أقدامه الأرض الأمريكية. وهكذا فإن حلم القدس الجديدة في العالم الجديد، وتصوير أمريكا كأرض فريدة من نوعها، وتوفير وطن لمجتمع جديد من شأنه أن يكون بمثابة منارة توجيهية لبقية البشرية، يسبق منذ فترة طويلة التصورات القيامونية المتشابهة لمصير القدر الواضح و"الاستثنائية الأمريكية"، بينما تمتعت كصورة ومثال بحياة أخروية معلمنة قوية على حسابها الخاص.

الولايات المتحدة هي أيضاً أمة شديدة اللامركزية، فهي لا تعرّف نفسها على أنها مجتمع مبني على العلاقات اللغوية أو العرقية، بل بالكلمات المكتوبة على الورق من قبل مجموعة من المثقفين الذين قرأوا الكثير من الكتب التي كانت في طليعة الفلسفة منذ حوالي ٢٥٠ عاماً. ولكن في حين أن إعلان الاستقلال ودستور الولايات المتحدة يعدان من الوثائق الطارئة التي يتصورها الأفراد على أنها تخضع لقيود فكرية في زمنها مثلنا جميعاً، إلا أننا في أوائل القرن الواحد والعشرين ما زلنا نعتبرها كنصوص أبدية ومتجاوزة للزمن. في بلدان أخرى، تأتي مثل هذه الوثائق وتذهب، وأحياناً بانتظام كبير - كان لدى فرنسا ستة عشر دستوراً أو مسودة دستور منذ القرن الثامن عشر، على سبيل المثال. في الولايات المتحدة، لا يمكن تصور مثل هذا الشيء: إذا كان هناك شيء واحد فقط تم الاتفاق عليه من قبل الجميع، فهو أن المجتمع الذي نعيش فيه يجب أن يُحكم في إطار تلك النصوص. قد نختلف حول مسائل التأويل، ولكن بدون الكلمة، من أو ماذا سنكون؟

يمكن بسهولة العثور على الشعور المتزايد بالرعب من قوة الكلمة المكتوبة في سياقات أخرى، على أعلى مستويات المجتمع. في كلية أمهيرست في عام ١٩٦٣، قدم جون ف.

كينيدي تأبينه الشهير لروبرت فروست، الذي كان قبل عامين أول شاعر يقرأ على الإطلاق في حفل تنصيب رئاسي (أي تنصيب كينيدي) ما زالت كلمات الرئيس الملهمة مقتبسة على نطاق واسع اليوم:

> عندما تقود السلطةُ الرجالَ نحو الغطرسة، فإن الشعر يذكرهم بقيوده. عندما تضيّق القوة مجالات اهتمام الإنسان، فإن الشعر يذكره بثراء وتنوع الوجود. عندما تُخرّب السلطة، يُطهّر الشعر.

... على الرغم من أن هذه الكلمات خاطئة بشكل واضح، فقد كان ستالين يقرأ الشعر، وموسوليني يقرأ الشعر، وماو يقرأ الشعر. ولم يتم تذكيرهم بقيودهم، ولم يتم تطهيرهم. حتى الشعراء الذين لا يستطيعون الوصول إلى أدوات السلطة السياسية، لا يتم تطهيرهم من خلال تعرضهم المستمر للشعر. كان عزرا باوند شاعراً ومحرراً عظيماً، لكنه ظل من كبار مشجعي الفاشية، وكتب إدغار آلان بو شعراً بنبرة محبة لمضاجعة الأموات، وأنهى أيامه متجولاً في شوارع بالتيمور في حالة من الهذيان. والقائمة تطول. كلا: ما يثير الاهتمام حقاً في خطاب جون كينيدي عن الشعر هو مدى قربه من مفهوم ستالين عن المؤلف بأنه "مهندس الروح"، الذي مُنح قوة خارقة لتشكيل الحياة الداخلية للأخلاق عبر التنظيم الممتع للكلمات على الصفحة المطبوعة.[١]

لنقفز إلى الأمام بضعة عقود، وستكون الأمور أفضل قليلاً -أو ربما أسوأ قليلاً. في عام ٢٠٠٨، تم انتخاب باراك أوباما. وكان خطيباً وكاتباً موهوباً، وقد ألهم الكثير من الناس خلال حملته الانتخابية الأولى. إلا أن مصدر إلهام البعض كان كثيراً - كما نرى في المقطع التالي، حيث كان هناك معلق تلقى تعليماً جيداً وكان ينبغي أن يعرف جيداً جهود التوريات التوراتية في إيصال أنشودة عبادة للقوة المتعالية في خطاب الزعيم الذي ما كان ليبدو خارج مكانه في مجتمع شمولي:

---

١ - توافق وكالة المخابرات المركزية على ذلك. وطوال عقود، مولت المجلات وترجمات الروايات الأدبية التي تم تهريبها إلى الشرق على أمل أن يؤدي التعرض الجماعي **للدكتور زيفاغو**، على سبيل المثال، إلى إضعاف النظام السوفييتي. لكن الكلمة المكتوبة كانت أكثر انزلاقاً من ذلك، ولم يحدث شيء من هذا القبيل. المؤلف

أروع خطب أوباما لا تثير، وهي لا تعلّم، حتى إنها لا تُلهم حقاً، بل إنها ترفع. إنها توقع بك في لحظة أعظم، كما لو أن التاريخ قد توقف عن التدفق السلبي، وللحظة فقط، تلتف حولك، وتجعلك على علم بوجودها، ودورك في ذلك. إنه ليس الكلمة وقد كساها اللحم، ولكن انتصار الكلمة على اللحم، واللون، واليأس. القادة الكبار الآخرون الذين سمعتهم يرشدوننا نحو سياسة أفضل، لكن أوباما، في أفضل حالاته، قادر على جعلنا نعيد الاتصال بذواتنا العليا، إلى المكان الذي توجد فيه أمريكا كمثل مضيء، وحيث نحن السكان المكرمون، ويبدو أنه قادر على تحقيق ذلك، وبالتالي تقاسم معناه وتجاوزه.

انخرط أوباما بنفسه في لغة مسيحية غامضة عن شفاء الكواكب خلال هذه الفترة، لكنه لم يفقد رباطة جأشه أو إحساسه بالتناسب: لقد كان بلاغياً. الفورة السابقة، التي نشرت في مجلة فكرية جادة، هي مسألة أخرى. نعم، إن النثر المفرط في الاكتظاظ يبعث على القراءة، لكنه على مستوى أعمق يمثل ثوراناً مفاجئاً وتلقائياً للرؤية القيامية للتاريخ الأمريكي، التي لا تستند جذورها إلى التحليل العقلاني بل في التيارات الثقافية العميقة الخارجة عن سيطرتنا، والتي تكمن في انتظار اللحظة التي يمكنها فيها اختراق السطح.

لذا أيمكن أن يحدث هنا؟ بالتأكيد، لدينا كل المكونات الصحيحة. ما نفتقر إليه هو المحفز. ففي نهاية الأمر، البلدان التي عانت من الثورات والتي تسلطت الببليوغرافيا الديكتاتورية على شعوبها، تميل أيضاً إلى أن تكون بلداناً في أزمة عميقة. لقد خربتها الحرب وأفقرتها، وهي أماكن لا يستطيع الناس العيش فيها كما يرغبون، وحيث لا تستطيع الحكومة الاستمرار في الحكم. في حالات الانهيار الاجتماعي واليأس العميق، يجد الديماغوجيون والأنبياء الكذبة أنفسهم في وضع أفضل للاستيلاء على السلطة وفرض نصوصهم على بقيتنا. والآن، لا تقترب الولايات المتحدة، رغم كل مشاكلها، من تكرار تلك الشروط. فهي لا تزال أغنى وأقوى دولة على وجه الأرض، حيث يتمتع معظم السكان بمستوى معيشة أعلى بكثير من ذلك الموجود في معظم الأماكن الأخرى على الكوكب. هناك غضب وقلق، والأمة منقسمة على نحو متزايد، ولكن هناك أيضاً خدمات بث فيديو وهواتف ذكية والكثير من الوظائف، حتى لو لم يدفعوا ما نرغب فيه، وحتى لو كان الأشخاص في الأعلى يكسبون المزيد

من المال أكثر من بقيتنا مجتمعين. والأكثر من ذلك، هناك أيضاً عدم وجود ارتباط جاد مع أي بديل للوضع السياسي الراهن. قد تُلقى كلمات مثل الاشتراكية والفاشية بكل بحرية، ولكن هناك القليل من الأدلة على أن أولئك الذين يستخدمونها معتادون جداً على المحتوى الفعلي لهذه الأيديولوجيات، أو أن لديهم الانضباط الفكري للتعامل معها. الديماغوجيون في عصرنا أقل قراءة بكثير من الماضي.

عدت إلى الولايات المتحدة من روسيا بوتين في عام ٢٠٠٦، لكن إذا أخذت الخطاب السياسي الأمريكي في ظاهره، فستعتقدون أنني ارتكبت خطأً فظيعاً. فبوتين بالمقارنة مع الأشخاص الذين أداروا روسيا طوال معظم القرن العشرين، شخص معتدل. لن يفتح معسكرات الغولاغ؛ والإرهاب الأحمر لن يعود. ومع ذلك، في الولايات المتحدة، يبدو أننا نقف إلى الأبد على حافة الهاوية السياسية، وأن هتلراً أو ستاليناً جديداً ينتظر مستعداً إلى الأبد لفرض الطغيان بمجرد أن يكون قادراًعلى ذلك. قد يكون الإهمال الذي يتم به استخدام التشبيهات التاريخية المتطرفة والتكرار الذي يتم به نطق نبوءات نهاية العالم، مسلياً إن لم يكن مرهقاً جداً، ألم يكن لهذا النواح تأثير ضار جداً على التفكير فيما يحدث بالفعل في العالم؟

هذه ظاهرة تفاقمت بسبب الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي. ولبعض الوقت، تساءلت عن كيفية دمج التقنيات الحديثة للكلمة في هذا الكتاب، أو ما إذا كان بإمكاني أن أضعها في الاعتبار. ما هو تأثير التحول الجذري في وسائل الاتصال على الكتاب الديكتاتوري؟ هل يمكن لمثل هذه الشريعة، التي تستند إلى سيطرة مركزية على وسائل الإعلام، أن توجد في عصر تجعل فيه منصات وسائل التواصل الاجتماعي من الجميع ناشرين ذوي انتشار عالمي؟

حدثت ثورات الربيع العربي بعد حوالي عامين من بحثي في الأدب الديكتاتوري. في ذلك الوقت، قيل على نطاق واسع إن وسائل التواصل الاجتماعي لعبت دوراً حاسماً في سقوط بعض الطغاة، على الأقل الذين سقطوا خلال تلك الأيام العصيبة في أوائل عام ٢٠١١. ولم تكن هذه الانتفاضات مجرد تعبيرات عن الغضب الشعبي من الأنظمة القمعية؛ كانت "ثورات تويتر"، تمثل شيئاً جديداً في الشؤون الإنسانية. ومع ذلك، إن كان هذا صحيحاً، فمن الغريب حقاً أن وسائل التواصل الاجتماعي كانت عاجزة عن منع الثورة المضادة في

مصر، وميئوس منها كأدوات للمقاومة في البحرين. في الواقع، تعرف الأنظمة الديكتاتورية أيضاً كيفية استخدام وسائل التواصل الاجتماعي. يتمتع كل من آية الله علي خامنئي في إيران وإمام علي رحمن في طاجيكستان بحسابات على تويتر، كما يفعل فلاديمير بوتين: الأوتوقراطيون المتسلطون قادرون تماماً على تغريد أفكارهم العميقة في ١٤٠ حرفاً أو أقل.

في الواقع كان تأثير وسائل التواصل الاجتماعي محسوساً في الغالب ليس في الديكتاتوريات فقط، حيث أصبح قناة أخرى لنشر النثر التافه المنسوب إلى الزعيم، بل في الديمقراطيات الليبرالية. إن ظاهرة الخزي العام المألوفة الآن، والتي يقوم فيها شخص عام أو خاص بقول شيء يُعتبر غير مقبول ومن ثم يتم طرده من وظيفته و/ أو إجباره على تقديم نقد للذات إلى مجموعة من الغوغاء المجهولين عبر الإنترنت، له أوجه تشابه واضحة مع المجتمعات الشمولية، حيث يخضع أولئك الذين لم يلتزموا بشكل وثيق بأيديولوجيا الدولة لنفس المعاملة. كان ستالين وماو بارعين في تنظيم الحملات ضد الكتاب والعلماء والسياسيين الذين تجاوزوا الخط. في أوقاتنا المستنيرة، تحدث مثل هذه الحملات تلقائياً، وليس نتيجة لتوجيهٍ من طاغية ما.

يعتبر الرجم العلني وحرق الساحرات أشكالاً أثيرة من وسائل الترفيه الجماهيري، وكما لاحظ ألدوس هكسلي، "أن تكون قادراً على التدمير بضمير مرتاح، وأن تكون قادراً على التصرف بشكل سيئ وتسمي سلوكك السيئ "السخط الوجيه"- تلك هي ذروة الرفاهية النفسية، والمتعة المعنوية الأكثر لذة". لذلك ليس هناك شيء جديد هنا. كان ستالين وماو وأمثالهما يستغلون تيارات عميقة وغير سارة من علم النفس البشري لمصلحتهم الخاصة. المثير للاهتمام هو الطريقة التي كان تنفجر بها الأصوات، وهي حقاً شيء لم يسبق له مثيل في التاريخ، قضية لا تتعلق كثيراً بـ"دع مائة زهرة تتفتح" مثلما تتعلق بوجهات النظر الداعية للتجانس العنيف والاختزالية المتصلبة، ما يؤدي إلى ربيع جديد لحقبة أخرى من التبسيط الرهيب. من كان يتخيل أن الإطاحة بحراس البوابة الذين كانوا يحتفظون ذات يوم بهذه السيطرة الصارمة على الكلمة ومنح الجميع الوسائل ليصبحوا ناشرين، من شأنه أن يؤدي إلى تضييق العقول إلى هذا القدر من اليقين غير المبرر، وإلى الكثير من الغضب والنزاهة غير المتسامحة؟ بالنسبة إلى المتطرفين والديكتاتوريين المحتملين في الماضي، لم تكن المطبعة السرية

مجرد وسيلة لنشر الكلمة من خلالها الى أتباعهم، بل كانت أيضاً وسيلة لتضخيم الذات أثناء كتابتهم أنفسهم في المعارك الأيديولوجية الكبرى في زمنهم. في القرن الواحد والعشرين، تجعل التقنيات الحديثة هذا أسرع بكثير وأرخص وأسهل.

وبالطبع، فإن مثل هذه المعارك تكون مثيرة حقاً، فقط عندما يتم تأطيرها كجزء من المواجهة المروعة بين قوى الخير والشر. مع وجود مخاطر كبيرة، يكون من السهل شيطنة أعدائك، وتقسيم العالم إلى أبرار وملعونين، والخضوع إلى جنون العظمة والخوف من المؤامرات، وشن حرب على مثل هذه الرعب عبر الوسيط النصي. ولكن قيامنا بذلك، يجعلنا نكرر في أنفسنا عقلية وأسلوب كلمة لينين وعالمه، الواثق جداً في معتقداته، وهو يثور على أعداء شياطين من راحة كرسيه وهو يدلق النصوص على مجموعة صغيرة من الرفاق الذين يشاطرونه نفس الأفكار، وقد اعتقدوا جميعاً أنهم يشاركون في معركة ذات أهمية تاريخية عالمية.

يجب علينا جميعاً أن نعرف الآن إلى أين يمكن أن يقود هذا النوع من التفكير. ولكن كما لاحظ ألكسندر سولجينتسين - الذي كان يعرف شيئاً قليلاً عن طبيعة الاستبداد والشر:

> يا ليت الأمر بهذه البساطة! عندما يكون هناك أشرار في مكان ما يرتكبون أفعالاً شريرة، ويكون من الضروري فصلهم عن بقيتنا والقضاء عليهم. لكن الخط الفاصل بين الخير والشر يخترق قلب كل إنسان. ومن منا مستعد لتدمير قطعة من قلبه؟



مراجع مختارة

Abrams, Bradley, *The Struggle for the Soul of the Nation: Czech Culture and the Rise of Communism*, Rowman and Littlefield, Lanham, MD, 2004.

Alexander, Anne, *Nasser*, Haus, London, 2005.

Alexandrov et al. (eds.), *Iosif Vissarionovich Stalin: Kratkaya Biografiya*, State Publishing House of Political Literature, Moscow, 1948.

Anderson, Kevin, *Marx at the Margins: On Nationalism, Ethnicity, and Non-Western Societies*, University of Chicago Press, Chicago, IL, 2010.

de Andrade, Jaime, *Raza,* Planeta, Barcelona, 1997.

Andrew, Mitrokhin, *The Mitrokhin Archive*, Basic Books, New York, 2000.

Anonymous (ed.), *Documents and Deliberations of the Seminar/Preparatory Committee of the Pan-African Seminar on the Juche Idea of Comrade Kim Il Sung*, Dar al-Talia, Beirut, 1973.

Anonymous (ed.), *The True Story of Kim Jong-Il*, The Institute for South-North Korea Studies, Seoul, 1993.

Ansary, Tamim, *Destiny Disrupted*, Public Affairs, New York, 2009.

Apor, Balazs (ed.), *The Leader Cult in Communist Dictatorships: Stalin and the Eastern Bloc*, Palgrave Macmillan, New York, 2004.

Appelbaum, Anne, *Iron Curtain*, Doubleday, New York, 2012.

Ayoub, Mahmoud, *Islam and the Third Universal Theory: The Religious Thought of Mu'ammar al-Qadhdhafi*, KPI, London, 1987.

Bacon, Edwin, and Mark Sandle (eds.), *Brezhnev Reconsidered*, Palgrave Macmillan, New York, 2002.

Banerji, Arup, *Writing History in the Soviet Union: Making the Past Work*, Social Science Press, New Delhi, 2008.

Barmé, Geremie, *Shades of Mao: The Posthumous Cult of the Great Leader*, ME Sharpe, Armonk, NY, 1996.

Bawden, Charles R., *The Modern History of Mongolia*, Praeger, New York, 1968.

Berdymukhammedov, Gurbanguly, *Akhalteke Our Pride and Glory*, Türkmendöwlethabarlary, Ashgabat, Turkmenistan, 2008.

Berdymukhammedov, Gurbanguly, *The Flight of Celestial Racehorses*, Turkmen State Publishing Service, Ashgabat, Turkmenistan, 2011.

Billington, James H., *The Icon and the Axe*, Alfred A. Knopf, New York, 1966.

Blok, Alexander, *Selected Poems*, Eyre & Spottiswoode, London, 1970.

Bogdanov, Alexander, *Red Star*, Indiana University Press, Bloomington, IN, 1984.

Bohachevsky-Chomiak, Martha, and Bernice Glatzer Rosenthal (eds.), *A Revolution of the Spirit: Crisis of Value in Russia, 1890–1924*, Fordham University Press, New York, 1990.

Boor, Jakim, *Masoneria*, Fundacion Nacional Francisco Franco, Madrid, 1981.

Borghi, Armando, *Mussolini, Red and Black*, Freie Arbeiter Stimme, New York, 1938.

Bosworth, R. J. B., *Mussolini* (new ed.), Bloomsbury, London, 2010.

Bosworth, R. J. B., *Mussolini's Italy*, Allen Lane, London, 2005.

Breen, Michael, *Kim Jong-il: North Korea's Dear Leader* (rev. and updated ed.), Wiley, Singapore, 2012.

Brezhnev, Leonid, *Trilogy*, Progress Publishers, Moscow, 1980.

Burleigh, Michael, *Sacred Causes*, HarperPress, London, 2006.

Burleigh, Michael, *The Third Reich*, Macmillan, London, 2000.

Caesar, Julius, *The Civil War*, Penguin Books, London, 1967.

Cardoza, Anthony L., *Benito Mussolini: The First Fascist*, Pearson Longman, New York, 2006.

Castro, Fidel, *Che: A Memoir by Fidel Castro*, Ocean Press, Victoria, 2006.

Castro, Fidel, and Ignacio Ramonet, *My Life: A Spoken Autobiography*, Scribner, New York, 2008.

Cazorla Sánchez, Antonio, *Franco: The Biography of the Myth*, Routledge, London, 2014.

Cecil, Robert, *The Myth of the Master Race: Alfred Rosenberg and Nazi Ideology*, Dodd Mead, New York, 1972.

Chatterjee, Kingshuk, *Ali Shariati and the Shaping of Political Islam in Iran*, Palgrave Macmillan, New York, 2011.

Childs, David, *The GDR: Moscow's German Ally*, George Allen & Unwin, London, 1983.

Choibalsan, Khorloogiin, *Izbrannie Stati i Rechi*, Foreign Literature Publishing House, Moscow, 1961.

Clark, Katerina, *The Soviet Novel: History as Ritual* (3rd ed.), Indiana University Press, Bloomington, IN, 2000.

Clark Katerina, and Evgeny Dobrenko (eds.), *Soviet Culture and Power*, Yale, New Haven, CT, 2007.

Commission of the Central Committee of the CPSU (ed.), *History of the Communist Party of the Soviet Union (Bolsheviks)*, International Publishers, New York, 1939.

Cook, Alexander (ed.), *Mao's Little Red Book: A Global History*, Cambridge University Press, Cambridge, 2014.

Cook, Michael, *The Koran: A Very Short Introduction*, Oxford University Press, Oxford, 2000.

Courtois, Stéphane (ed.), *The Black Book of Communism*, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1999.

Daniels, Anthony, *Utopias Elsewhere*, Crown Publishers, New York, 1991.

Davies, R. W., *Soviet History in the Gorbachev Revolution*, Macmillan, London, 1989.

Davin, Delia, *Mao: A Very Short Introduction*, Oxford University Press, Oxford, 2013.

De Meneses, Filipe Ribeiro, *Salazar: A Political Biography*, Enigma Books, New York, 2009.

Demick, Barbara, *Nothing to Envy: Ordinary Lives in North Korea*, Spiegel & Grau, New York, 2009.

Dikotter, Frank, *Mao's Great Famine*, Walker & Co., New York, 2010.

Dimitrov, Georgi, *The Diary of Georgi Dimitrov, 1933–1949*, Yale University Press, New Haven, CT, 2003.

Dimitrov, Georgi, *Dimitroff's Letters from Prison*, Gollancz, London, 1935.

Dimitrov, Georgi, *The Guarantee of Victory*, Workers Library Publishers Inc., New York, 1938.

Dimitrov, Georgi, *Selected Works*, Foreign Languages Press, Sofia, 1967.

Dobbs, Michael, *Down with Big Brother: The Fall of the Soviet Empire*, Bloomsbury, London, 1996.

Dobrenko, Evgeny, *The Making of the State Writer: Social and Aesthetic Origins of Soviet Literary Culture*, Stanford University Press, Stanford, CA, 2001.

Dobrenko, Evgeny, *Stalinist Cinema and the Production of History*, Edinburgh University Press, Edinburgh, 2008.

Edgar, Adrienne Lynne, *Tribal Nation*, Princeton University Press, Princeton, NJ, 2004.

Elsie, Robert, *Historical Dictionary of Albania* (2nd ed.), Scarecrow Press, Lanham, MD, 2010.

Engelstein, Laura, *Castration and the Heavenly Kingdom*, Cornell University Press, Ithaca, NY, 1999.

Farrell, Nicholas, *Mussolini: A New Life*, Weidenfeld & Nicolson, London, 2003.

Felshtinsky, Yuri, *Lenin and His Comrades: The Bolsheviks Take Over Russia 1917–1924*, Enigma Books, New York, 2010.

Fevziu, Blendi, *Enver Hoxha: The Iron Fist of Albania*, IB Tauris, New York, 2016.

Figes, Orlando, *A People's Tragedy*, Jonathan Cape, London, 1996.

Figes, Orlando, *The Whisperers*, Metropolitan Books, New York, 2007.

Fischer, Paul, *A Kim Jong-Il Production*, Flatiron Books, New York, 2015.

Fitzpatrick, Sheila, *Education and Social Mobility in the Soviet Union 1921–1934*, Cambridge University Press, Cambridge, 1979.

Fitzpatrick, Sheila, *Everyday Stalinism*, Oxford University Press, Oxford, 1999.

Franco, Francisco, *Pensamiento politico de Franco*, Ediciones del Movimiento, Madrid, 1975.

Franco, Francisco, *Textos de Doctrina Política; Palabras y Escritos de 1945 a 1950*, Publicaciones Españoles, Madrid, 1951.

Gaddafi, Muammar, *Escape to Hell and Other Stories*, Blake Publishing, London, 1999.

Gaddafi, Muammar, *The Green Book*, Tripoli, 1979.

Geifman, Anna, *Death Orders*, Praeger, Santa Barbara, CA, 2010.

Gill, Graham, *Symbols and Legitimacy in Soviet Politics*, Cambridge University Press, Cambridge, 2011.

Gomulka, Wladyslaw, *On the German Problem*, Kisiazka i Wiedza, Warsaw, 1969.

Goodwin, James, *Confronting Dostoevsky's Demons*, Peter Lang Publishing, New York, 2010.

Gottwald, Klement, *Selected Writings*, Orbis Press, Prague, 1981.

Gottwald, Klement, *Statement of Policy of Mr. Gottwald's Government*, Czechoslovak Ministry of Information, Prague, 1946.

Gottwald, Klement, *Vojenská politika KSČ. Sborník,* Naše vojsko, Praha, 1972.

Gray, John, *Black Mass*, Allen Lane, London, 2007.

Griffith, William E., *Albania and the Sino-Soviet Rift*, MIT Press, Cambridge, MA, 1963.

Hamann, Brigitte, *Hitler's Vienna: A Dictator's Apprenticeship*, Oxford University Press, New York, 1999.

Hann, Chris, *The Postsocialist Religious Question: Faith and Power in Central Asia and East-Central Europe* (Halle Studies in the Anthropology of Eurasia), LIT Verlag, Berlin, 2006.

Harrold, Michael, *Comrades and Strangers: Behind the Closed Doors of North Korea*, John Wiley and Sons, Hoboken, NJ, 2004.

Hellbeck, Jochen, *Revolution on My Mind*, Harvard University Press, Cambridge, MA, 2006.

Herwig, Holger H., *The Demon of Geopolitics: How Karl Haushofer "Educated" Hitler and Hess*, Rowman & Littlefield, Lanham, MD, 2016.

Hiro, Dilip, *Inside Central Asia: A Political and Cultural History of Uzbekistan, Turkmenistan, Kazakhstan, Kyrgyzstan, Tajikistan, Turkey and Iran*, Overlook, NY, 2009.

Hitler, Adolf, *Hitler's Secret Book*, Grove Press, New York, 1961.

Hitler, Adolf, *Mein Kampf*, Houghton Mifflin, Boston, 1943.

Hoberman, John M., *Sport and Political Ideology*, University of Texas Press, Austin, TX, 1984.

Hollander, Paul, *Political Pilgrims* (4th ed.), Transaction Publishers, New Brunswick, NJ, 2009.

Hoxha, Enver, *The Anglo-American Threat to Albania*, The 8 Nentori Publishing House, Tirana, 1982.

Hoxha, Enver, *The Artful Albanian: Memoirs of Enver Hozha*, Chatto & Windus, London, 1986.

Hoxha, Enver, *With Stalin*, The 8 Nentori Publishing House, Tirana, 1979.

Hughes-Hallett, Lucy, *Gabriel d'Annunzio: Poet, Seducer and Preacher of War*, Alfred A. Knopf, New York, 2013.

Hussein, Saddam, *La Revolucion y la Mujer*, Lausana, Sartec, Baghdad, 1977.

Hussein, Saddam, *Zabiba and the King*, VBW Publishing, College Station, TX, 2004.

Huxley, Aldous, *Crome Yellow*, Chatto & Windus, London, 1921.

Jang Jin-sung, *Dear Leader*, Atria Books, New York, 2014.

Johnson, Paul, *Intellectuals*, Weidenfeld & Nicolson, London, 1988.

Jones, Derek (ed.), *Censorship: A World Encyclopedia*, Fitzroy Dearborn Publishers, Chicago, 2001.

Jones, J. Sydney, *Hitler in Vienna, 1907–1913*, Stein and Day, New York, 1983.

Karsh, Efraim, *Islamic Imperialism*, Yale University Press, New Haven, CT, 2007.

Karsh, Efraim, and Inari Rautsi, *Saddam Hussein: A Political Biography*, Grove Press, New York, 2002.

Kemp, Geoff, *Censorship Moments: Reading Texts in the History of Censorship and Freedom of Expression*, Bloomsbury Academic, London, 2015.

Kershaw, Ian, *Hitler, 1889–1936 Hubris*, W. W. Norton, New York, 1999.

Khomeini, Ruhollah, *A Clarification of Questions*, Westview Press, Boulder, CO, 1984.

Khomeini, Ruhollah, *Islam and Revolution*, Mizan Press, Berkeley, CA, 1981.

Khomeini, Ruhollah, *Sayings of the Ayatollah Khomeini: Political, Philosophical, Social and Religious*, Bantam Books, New York, 1979.

Khrushchev, Nikita, *Khrushchev Remembers*, Little, Brown, New York, 1970.

Khrushchev, Nikita, *Speech to 20th Congress of the C.P.S.U.*, Marxists.org, 1956.

Kihl Young Whan and Kim Hong Nack (eds.), *North Korea: The Politics of Regime Survival*, M. E. Sharpe, Armonk, NY, 2006.

Kim Il-sung, *Juche! The Speeches and Writings of Kim Il-sung*, Grossman, New York, 1972.

Kim Il-sung, *On Juche in Our Revolution*, Foreign Languages Publishing House, Pyongyang, 1975.

Kim Il-sung, *With the Century*, vol. 1, Foreign Languages Publishing House, Pyongyang, 1992.

Kim Il-sung, *Works*, Foreign Languages Publishing House, Pyongyang, 1971.
Kim Jong-il, *On the Art of Cinema*, Foreign Languages Publishing House, Pyongyang, 1989.
Kim Jong-il, *Our Socialism Centered on the Masses Shall Not Perish*, University Press of the Pacific, Honolulu, 2003.
Kim Jong-il, *Selected Works*, Foreign Languages Publishing House, Pyongyang, 1992.
Kim Jong-un, *The Cause of the Great Party of Comrades Kim Il-sung and Kim Jong-il Is Ever Victorious*, Foreign Languages Publishing House, Pyongyang, 2015.
Kim Jong-un, *Let Us Hasten Final Victory Through a Revolutionary Ideological Offensive*, Foreign Languages Publishing House, Pyongyang, 2014.
Kotkin, Stephen, *Stalin Volume I: Paradoxes of Power 1878–1928*, Penguin Press, New York, 2014.
Kovrig, Bennet, *Communism in Hungary from Kun to Kadar*, Hoover Institution Press, Stanford, CA, 1979.
Kraus, Richard C., *The Cultural Revolution: A Very Short Introduction*, Oxford University Press, Oxford, 2012.
Kukushkin, Vadim, *From Peasants to Labourers*, McGill-Queen's University Press, Montreal, 2007.
Kunetskaya, Mashtakova, *Lenin, Great and Human*, Progress Publishers, Moscow, 1979.
Landau, Jacob (ed.), *Ataturk and the Modernization of Turkey*, Westview Press, Boulder, CO, 1984.
Landes, Richard (ed.), *Encyclopedia of Millennialism and Millennial Movements*, Routledge, New York, 2000.
Landes, Richard, *Heaven on Earth: The Varieties of the Millennial Experience*, Oxford University Press, New York, 2011.
Lane, David, *Leninism: A Sociological Interpretation*, Cambridge University Press, Cambridge, 1981.
Lankov, A. N., *The Real North Korea*, Oxford University Press, Oxford, 2013.
Lattimore, Owen, *Nationalism and Revolution in Mongolia*, Oxford University Press, New York, 1955.
Leese, Daniel, *Mao Cult: Rhetoric and Ritual in the Cultural Revolution*, Cambridge University Press, Cambridge, 2011.
Leites, Nathan, *The Operational Code of the Politburo*, McGraw-Hill, New York, 1951.
Lenin, V. I., *Collected Works*, Progress Publishers, Moscow, 1962.
Lenin, V. I., *Essential Works of Lenin: "What Is to Be Done?" and Other Writings*, Bantam Books, New York, 1966.
Lenin, V. I. (ed. Robert C. Tucker), *The Lenin Anthology*, W. W. Norton, New York, 1975.
Lenin, V. I. (ed. S. Zizek), *Revolution at the Gates: Selected Writings of Lenin from 1917*, Verso, London, 2002.
Levitsky, Alexander (ed.), *Worlds Apart*, Overlook, New York, 2007.
Lew, Christopher R., and Edwin Pak-wah Leung, *Historical Dictionary of the Chinese Civil War* (2nd ed.), Scarecrow Press, Lanham, MD, 2013.
Lewis, Paul H., *Authoritarian Regimes in Latin America: Dictators, Despots and Tyrants*, Rowman & Littlefield, Lanham, MD, 2006.
Leys, Simon, *Chinese Shadows*, Viking Press, New York, 1977.

Li Zhisui, *The Private Life of Chairman Mao*, Random House, New York, 1994.
Ludwig, Emil, *Talks with Mussolini*, Little, Brown, Boston, 1933.
Luzzatto, Sergio, *The Body of Il Duce*, Metropolitan Books, New York, 2005.
MacFarquhar, Roderick, and Michael Schoenhals, *Mao's Last Revolution*, Belknap Press of Harvard University Press, Cambridge, MA, 2006.
Margolius, Ivan, *Reflections of Prague: Journeys Through the 20th Century*, Wiley, Hoboken, NJ, 2006.
Marks, Steven G., *How Russia Shaped the Modern World*, Princeton University Press, Princeton, NJ, 2003.
Maser, Werner, *Hitler's Mein Kampf: An Analysis*, Faber & Faber, London, 1970.
Mayakovsky, Vladimir, *Selected Poems*, Northwestern University Press, Evanston, IL, 2015.
Mayakovsky, Vladimir, *Selected Works 2: Longer Poems*, Raduga, Moscow, 1986.
McDermott, Kevin, *The Comintern: A History of International Communism from Lenin to Stalin*, St. Martin's Press, New York, 1996.
McLoughlin, Barry, and Kevin McDermott (eds.), *Stalin's Terror: High Politics and Mass Repression in the Soviet Union*, Palgrave Macmillan, New York, 2011.
Megaro, Gaudens, *Mussolini in the Making*, George Allen & Unwin, London, 1938.
Miłosz, Czesław, *The Captive Mind*, Alfred A. Knopf, New York, 1953.
Minh, Ho Chi (Walden Bello, ed.), *Down with Colonialism!* Verso, London, 2007.
Minh, Ho Chi, *The Prison Diary of Ho Chi Minh*, Bantam, New York, 1971.
Molavi, Afshin, *Persian Pilgrimages*, W. W. Norton & Company, New York, 2003.
Montefiore, Simon Sebag, *Young Stalin*, Weidenfeld & Nicolson, London, 2007.
Mottahedeh, Roy, *The Mantle of the Prophet: Religion and Politics in Iran* (2nd ed.), Oneworld, Oxford, 2000.
Mount, Ferdinand (ed.), *Communism: A TLS Companion*, University of Chicago Press, Chicago, 1993.
Mugabe, Robert Gabriel, *War, Peace, and Development in Contemporary Africa*, Indian Council for Cultural Relations, New Delhi, 1987.
Mussolini, Benito, *The Cardinal's Mistress*, Albert & Charles Boni, New York, 1928.
Mussolini, Benito, *The Fall of Mussolini: His Own Story*, Farrar, Straus, New York, 1948.
Mussolini, Benito, *John Huss*, Albert & Charles Boni, New York, 1929.
Mussolini, Benito, *My Autobiography*, Scribner, New York, 1928.
Mussolini, Benito, *My Autobiography* (rev. ed.), Hutchinson & Co., London, 1939.
Mussolini, Benito, *My Diary 1915–1917*, Small, Maynard and Company, Boston, 1925.
Mussolini, Benito, *Opera Omnia*, La Fenice, Firenze, 1951.
Mussolini, Benito, and Giovanni Forzano, *Napoleon: The Hundred Days*, London, Sidgwick & Jackson, 1932.
Naimark, Norman, and Gibianskii, Leonid (eds.), *The Establishment of Communist Regimes in Eastern Europe, 1944–1949*, Westview Press, Boulder, CO, 1997.
Naipaul, V. S. *Among the Believers*, Andre Deutsch, London, 1981.
Nasser, Gamal A., *The Philosophy of the Revolution*, Dar al-Maaref, Cairo, 1955.
Nasser, Gamal A., *Speeches and Press Interviews*, Information Department, Cairo, 1963.
Nazarbayev, Nursultan, *The Critical Decade*, First, London, 2003.
Nazarbayev, Nursultan, *Epicenter of Peace*, Hollis Publishing Co., Hollis, NH, 2001.

Nazarbayev, Nursultan, *Radical Renewal of Global Society*, Stacey International, London, 2010.
Nolan, Adrianne, "'Shitting Medals': L. I. Brezhnev, the Great Patriotic War, and the Failure of the Personality Cult, 1965–1982," M.A. thesis, University of North Carolina at Chapel Hill, 2008.
Nova, Fritz, *Alfred Rosenberg, Nazi Theorist of the Holocaust*, Hippocrene, New York, 1986.
Onon, Urgunge (ed.), *Mongolian Heroes of the Twentieth Century*, AMS Press, New York, 1976.
Orizio, Riccardo, *Talk of the Devil*, Walker and Company, New York, 2003.
Orwell, George, *The Collected Essays, Journalism and Letters of George Orwell*, vol. 2, Secker & Warburg, London, 1968.
Ostrovsky, Arkady, *The Invention of Russia*, Viking, New York, 2016.
Overy, R. J., *The Dictators: Hitler's Germany and Stalin's Russia*, W. W. Norton, New York, 2004.
Pahlavi, Reza Shah, *Mission for My Country*, McGraw-Hill, New York, 1961.
Pantsov, Alexander, and Steven I. Levine, *Mao: The Real Story*, Simon & Schuster, New York, 2012.
Pargeter, Alison, *Libya: The Rise and Fall of Qaddafi*, Yale University Press, New Haven, CT, 2012.
Passmore, Kevin, *Fascism: A Very Short Introduction*, Oxford University Press, Oxford, 2002.
Payne, Robert, *Marx*, Simon & Schuster, New York, 1968.
Pipes, Richard, *Communism: A History*, Modern Library, New York, 2001.
Pipes, Richard, *Three "Whys" of the Russian Revolution*, Vintage Books, New York, 1996.
Pipes, Richard, *The Unknown Lenin*, Yale University Press, New Haven, CT, 1996.
Plokhy, Serhii, *The Last Empire*, Oneworld, London, 2014.
Pomper, Philip, *Lenin's Brother*, W. W. Norton, New York, 2010.
Pound, Ezra, *Ezra Pound and "Globe" Magazine: The Complete Correspondence*, Bloomsbury, London, 2015.
Preston, Paul, *Franco: A Biography*, Basic Books, New York, 1994.
Priestland, David, *The Red Flag*, Grove Press, New York, 2009.
Prifti, Peter R., *Socialist Albania Since 1944*, MIT Press, Cambridge, MA, 1978.
Putin, Vladimir, *Slova Menyaiushie Mir*, Set, Moscow, 2015.
Putin, Vladimir, Nataliya Gevorkyan, Natalya Timakova, and Andrei Kolesnikov, *First Person: An Astonishingly Frank Self-Portrait by Russia's President*, PublicAffairs, New York, 2000.
Putin, Vladimir, Vasily Shestakov, and Alexy Levitsky, *Judo: History, Theory, Practice*, Blue Snake Books, Berkeley, CA, 2004.
Quirk, Robert E., *Fidel Castro*, W. W. Norton, New York, 1993.
Radzinsky, Edvard, *Alexander II*, Free Press, New York, 2005.
Radzinsky, Edvard, *Stalin*, Doubleday, New York, 1996.
Rappaport, Helen, *Stalin: A Biographical Companion*, ABC-Clio, Santa Barbara, CA, 1999.
Ridley, Jasper, *Mussolini*, Constable, London, 1997.

Robert, Cecil, *The Myth of the Master Race: Alfred Rosenberg and Nazi Ideology*, Dodd, Mead, New York, 1972.

Rosenberg, Alfred, *Memoirs of Alfred Rosenberg*, Ziff-Davis, Chicago, 1949.

Rupen, Robert Arthur, *How Mongolia Is Really Ruled: A Political History of the Mongolian People's Republic, 1900–1978*, Hoover Institution Press, Stanford University, Stanford, CA, 1979.

Ryback, Timothy W., *Hitler's Private Library: The Books That Shaped His Life*, Alfred A. Knopf, New York, 2008.

Salazar, Antonio de Oliviera, *Doctrine and Action*, Faber and Faber, London, 1939.

Salazar, Antonio de Oliviera, *Salazar Prime Minister of Portugal Says*, SPN Books, Lisbon, 1939.

Sandag, Shagdariin, and Harry Kendall, *Poisoned Arrows: The Stalin-Choibalsan Mongolian Massacres, 1921–1941*, Westview Press, Boulder, CO, 2000.

Schoenhals, Michael, *Doing Things with Words in Chinese Politics*, University of California at Berkeley, Center for Chinese Studies, Research Monograph no. 41, Berkeley, CA, 1992.

Seldes, George, *Sawdust Caesar: The Untold History of Mussolini and Fascism*, Harper & Brothers, New York and London, 1935.

Service, Robert, *Comrades: A World History of Communism*, Macmillan, London, 2007.

Service, Robert, *Lenin: A Biography*, Macmillan, London, 2000.

Service, Robert, *Stalin: A Biography*, Macmillan, London, 2004.

Shubin, Daniel H., *A History of Russian Christianity*, vol. 4, Algora Publishing, New York, 2006.

Siegelbaum, Lewis, and Andrei Sokolov, (eds.), *Stalinism as a Way of Life*, Yale University Press, New Haven, CT, 2000.

Simons, Geoff, *Libya: The Struggle for Survival* (2nd ed.), Macmillan, London, 1996.

Spence, Jonathan, *God's Chinese Son: The Taiping Heavenly Kingdom of Hong Xiuquan*, W. W. Norton, New York, 1996.

Sperber, Jonathan, *Karl Marx*, Liveright, New York, 2013.

Stalin, J. V., *Collected Works*, Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1954.

Stalin, J. V., *Foundations of Leninism*, International Publishers, New York, 1939.

Stalin, J. V., *Marxism and Linguistics*, International Publishers, New York, 1951.

Stalin, J. V., *Problems of Leninism*, International Publishers, New York, 1934.

Stalin, J. V. (M. R. Werner, ed.), *Stalin's Kampf*, Howell, Soskin & Company, New York, 1940.

Stalin, J. V., *Two Speeches*, Co-operative Publishing Society of Foreign Workers in the USSR, Moscow, 1935.

Stern, Carola, *Ulbricht: A Political Biography*, Frederick A. Praeger, New York, 1965.

Stone, Norman, *The Atlantic and Its Enemies*, Basic Books, New York, 2010.

Su, Yang, *Collective Killings in Rural China During the Cultural Revolution*, Cambridge University Press, New York, 2011.

Sworakowski, Witold S., *World Communism: A Handbook 1918–1965*, Hoover Institution Press, Stanford, CA, 1973.

Szczygel, Mariusz, *Gottland*, Melville House, Brooklyn/London, 2014.

Taubman, William, *Khrushchev: The Man and His Era*, W. W. Norton, New York, 2003.

Terrill, Ross, *Mao: A Biography*, Stanford University Press, Stanford, CA, 1999.
Thompson, Damian, *The End of Time*, Sinclair-Stevenson, London, 1996.
Thrower, James, *Marxist-Leninist "Scientific Atheism" and the Study of Religion and Atheism in the USSR*, Mouton Publishers, Berlin, 1983.
Tismaneau, Vladimir, ed., *Stalinism Revisited: The Establishment of Communist Regimes in East-Central Europe*, Central European University Press, Budapest, 2009.
Tito, Iosip Broz, *The Essential Tito*, St. Martin's Press, New York, 1970.
Tito, Iosip Broz, *The Yugoslav People's Fight to Live*, The United Committee of South-Slavic Americans, New York, 1944.
Toland, John, *Adolf Hitler: The Definitive Biography*, Doubleday, New York, 1976.
Trotsky, Leon, *My Life*, Pathfinder Press, New York, 1971.
Tsapkin, N., *Mongolskaia Narodnaya Respublika*, State Publishing House of Political Literature, Moscow, 1948.
Tucker, Robert, *Stalinism: Essays in Historical Interpretation*, W. W. Norton, New York, 1977.
Tumarkin, Nina, *Lenin Lives! The Lenin Cult in Soviet Russia*, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1997.
Turkmenbashi, Saparmurat, *Rukhnama*, State Publishing Service, Ashgabat, Turkmenistan, 2005.
Ulbricht, Walter, *On Questions of Socialist Construction in the GDR*, Verlag Zeit Im Bild, Dresden, 1968.
Ullrich, Volker, *Hitler: Ascent*, Bodley Head, London, 2016.
Urban, George, *The Miracles of Chairman Mao*, Tom Stacey Ltd., London, 1971.
Vandewalle, Dirk, *A History of Modern Libya*, Cambridge University Press, Cambridge, 2006.
Verdery, Katherine, *National Ideology Under Socialism: Identity and Cultural Politics in Ceauşescu's Romania*, University of California Press, Berkeley, 1991.
Volkogonov, Dmitri, *Lenin: A New Biography*, Free Press, New York, 1994.
Volkogonov, Dmitri, *The Rise and Fall of the Soviet Empire*, HarperCollins, London, 1998.
Von Geldern, James, and Richard Stites (eds.), *Mass Culture in Soviet Russia*, Indiana University Press, Bloomington, 1995.
Vorontsov, V. V., *Words of the Wise: A Book of Russian Quotations*, Progress, Moscow, 1979.
Weber, Eugen, *Apocalypses*, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1999.
Weber, Thomas, *Hitler's First War: Adolf Hitler, the Men of the List Regiment, and the First World War*, Oxford University Press, Oxford, 2010.
Wesson, Robert G., *Lenin's Legacy*, Hoover Institution Press, Stanford, CA, 1978.
Westerman, Frank, *Engineers of the Soul*, Overlook, New York, 2011.
Wheen, Francis, *Karl Marx: A Life*, Fourth Estate, London, 1999.
Yedlin, Tovah, *Maxim Gorky: A Political Biography*, Praeger, Westport, CT, 1989.
Zbarsky, Ilya, and Samuel Hutchinson, *Lenin's Embalmers*, Harvill, London, 1998.
Zedong, Mao, *Mao Tse-tung on Literature and Art* (3rd ed.), Foreign Languages Press, Beijing, 1967.
Zedong, Mao (ed. S. Zizek), *On Practice and Contradiction (Revolutions)*, Verso, New York, 2007.

Zedong, Mao (ed. M. Rejai), *On Revolution and War*, Anchor Books, Garden City, NY, 1970.

Zedong, Mao, *The Poems of Mao Zedong*, Harper & Row, New York, 1972.

Zedong, Mao (ed. S. Schram), *The Political Thought of Mao Tse-tung*, Praeger, New York, 1969.

Zedong, Mao, *Quotations from Chairman Mao Tse-tung*, Foreign Languages Press, Beijing, 1966.

Zedong, Mao, *Selected Military Writings*, Foreign Languages Press, Beijing, 1963.

Zedong, Mao, *Selected Works*, Foreign Languages Press, Beijing, 1961.

Zedong, Mao, *Selected Works of Mao Tse-tung*, Harper & Row, New York, 1970.

Zyuganov, Gennady, *Stalin i Sovremenost*, Molodaya Gvardia, Moscow, 2009.

كما استفدت من الوصول إلى الوثائق التي رفعت عنها السرية من أرشيف ستالين في أرشيف التاريخ الاجتماعي والسياسي للدولة الروسية (RGASPI) المستضاف في أرشيف ستالين الرقمي لجامعة ييل.



دانيال كالدر

المكتبة الجهنمية

هذا كتاب عن أدبيات الديكتاتورية - بمعنى أنه كتاب عن شريعة الأعمال المكتوبة أو المنسوبة إلى الديكتاتوريين. وعلى هذا النحو، فهو كتاب عن بعض أسوأ الكتب التي تمت كتابتها على الإطلاق، وكذلك البحث فيها كان مؤلماً بشكل لا يطاق.

هذا هو السبب وراء قيامي بكتابته.

منذ أيام الإمبراطورية الرومانية، كتب الدكتاتوريون كتباً، ولكن في القرن العشرين حصل اندلاع من اللغة الاستبدادية يشبه ثوران كراكاتوا، استمرَّ في التدفق حتى يومنا هذا. كتب العديد من الطغاة أعمالاً تنظيرية، وأنتج البعض بيانات روحية بينما ظل آخرون يكتبون الشعر والمذكَّرات أو حتى الرواية الرومانسية التصادفية. وفي الواقع، إن الكتاب الأكثر مبيعاً على الإطلاق والذي يُنسب إلى رجل وليس إله، هو من عمل ديكتاتور: اقتباسات من الرئيس ماو تسي تونغ. ومع ذلك، فإن معظم هذه الكتب غير مقروءة تماماً اليوم، أو يتم التعامل معها على أنها نكات، على الرغم من حقيقة أن مؤلَّفيها تمتَّعوا في وقت ما بعدد طبعات قياسي، وجماهير أسيرة (حرفياً) وإشادة المثقفين الذين لا بد أنهم كانوا يعرفون ما هو أفضل. نظراً لأن العديد من المؤلّفين كانوا قتلة جماعيين معروفين، فإن الاختفاء شبه الكامل لنصوصهم وما تلاه من عدم اهتمام بها قد أثار دهشتي. كان الأمر يستحق بالتأكيد إلقاء نظرة فاحصة على هذه الأعمال؛ فلربما كانت تقدّم نظرة بصيرة بالروح الدكتاتورية. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فربما لا تزال تخدم المؤرخ كبوابات لولوج عوالم من المعاناة، وتقدّم لمحة عن الملل الفائق والشديد للشمولية، وهي حالة عانى منها مئات الملايين من الناس لأجيال.


ISBN 978-9933-38-227-8
9 789933 382278

